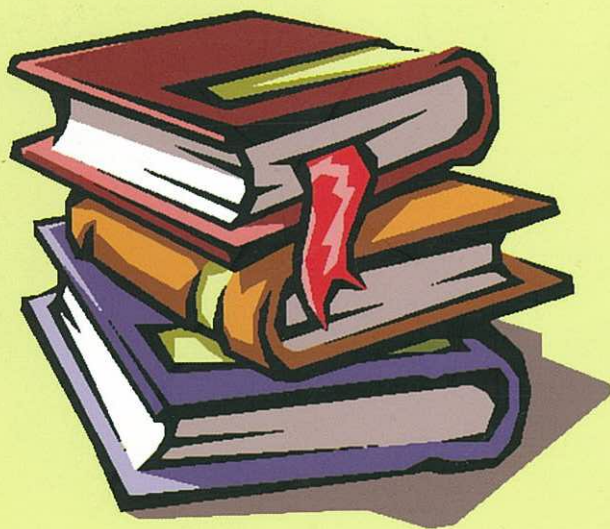


تقي محمد البجارتنة
أحاديث وسيرة



أَحَادِيثُ وَسِيرٍ

أحاديث وسير / مقالات
تقيّ محمد البحارنة / مؤلّف من البحرين
الطبعة الأولى ، 2010
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، الصنایع ، بناية عيد بن سالم ،

ص. ب : 11-5460 ، العنوان البرقي : موكياني ،

هاتفكس : 751438 / 752308

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفكس : 5685501

E-mail : info@airpbooks.com

موقع الدار الإلكتروني : www.airpbooks.com

التففيذ والإشراف الفتي :

سليم

خطوط الغلاف : زهر أبو شایب / عمان

الصفّ الضوئيّ : المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان

التففيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت ، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمّح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطّي مسبق من الناشر. رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة : 2010 / 8017 د.ع

ISBN 978-99901-548-2-5

تَفِيَّ مُحَمَّدَ الْبِجَارَنَةَ

أَحَادِيثُ وَسِيرٌ



الإهداء

إلى صحافة البحرين
المستمسكة بحرية الكلمة
بين مد البحر وجزره

لمحات من السيرة لتقي البحارنة

- ولد في البحرين في مدينة المنامة عام ١٩٣٠ م .
- تلقى تعليمه في مدارس البحرين وبغداد .
- درس الأدب والاقتصاد والشؤون العربية والإسلامية .
- شارك في أنشطة الأندية الوطنية والثقافية والاجتماعية .
- زاول الأعمال الحرّة وأصبح عضواً في مجالس إدارة عدد من المصارف وشركات التأمين وغرف التجارة والمؤسسات المالية .
- شغل منصب سفير البحرين في مصر ومندوبها الدائم لجامعة الدول العربية خلال السنوات ١٩٧١-١٩٧٤ .
- شارك في مؤتمرات وندوات ثقافية واجتماعية وأدبية واقتصادية محلية وعربية .
- كتب مقالات ودراسات في الشعر والأدب والاقتصاد والشؤون العربية والإسلامية في صحف البحرين والمجلات العربية .
- أرّخ سيرة «نادي العروبة» خلال خمسين عاماً ونشرها في كتاب صدر عام ١٩٩٢ م .
- عضو مجلس الشورى ورئيس لجنة الشؤون الخارجية بالمجلس منذ عام ١٩٩٣ ولغاية ٢٠٠٢ م .
- له ديوان شعر مطبوع باسم «بنات الشعر» صدر سنة ١٩٩٦ م .
- كتب سيرته الذاتية في كتاب «أوراق ملونة» . صدر سنة ١٩٩٨ .
- له ديوان شعر باسم (في خاطري يبكي الحنين) صدر سنة ٢٠٠٣ م .
- نائب رئيس أمناء جائزة عيسى لخدمة الإنسانية .
- له ديوان شعر ثالث مطبوع باسم «من يضيء السراج» صدر سنة ٢٠٠٩ .

تقديم

... وبعد : فإنّ كتاباتي على مدى سنوات ..
ومقالاتي المبعثرة بين الصّحف والمجلاّت
قد وجدت لها في هذا الكتاب .. مستقراً وسكناً .
من بين تلك المقالات ما هو بمثابة استراحة
وظلّ من تعب الفكر والفؤاد ...
ومنها ما هو أفكار سانحة شتّى مرهونة بأزمانها ..
وفي هذا الكتاب أيضاً .. مطالعات في سيرة من
عرفتهم من رواد الثقافة في البحرين .
أقدمها للقارئ الكريم ممزوجة بعطر الذكريات .



الفصل الأول

واحة للاستراحة

صحافتنا... بين مد البحر وجزره

يدور الحديث هذه الأيام عن الصحافة وأوضاعها ، في البحرين وحول العالم
عموما .

وتحضرني بهذه المناسبة المبادرة ذات الأثر والمعنى التي قام بها سعادة وزير
الإعلام السابق ، جهاد حسن إبراهيم بو كمال خلال العام ٢٠٠٧ . . . لتكريم
رواد الصحافة في البحرين - الأحياء منهم والأموات - حيث تضمن برنامج
التكريم من قبل الوزارة ، حفل استقبال في وزارة الإعلام ، وأخذ صور تذكارية ،
وإصدار تقويم للسنة الجديدة توزعت فيه صور المحتفى بهم على شهور السنة
بريشة الفنان التشكيلي أحمد غلوم ، وكتبت تحتها سيرة كل منهم بقلم الأستاذ
الكاتب خالد البسام ، الذي عهدت إليه وزارة الإعلام أيضاً إصدار كتاب عن
سيرة كل من أولئك الرواد وأعمالهم .

وقد نالني من ذلك التكريم نصيب وافر تشكر عليه الوزارة والوزير وكل من
ساهموا في إعداد برنامج التكريم ، ومنهم الأستاذ الأديب د . عبدالله يتيم .
ومنذ ذلك الحين كان يدور في ذهني هذا السؤال : كيف تنظر وزارات
الإعلام وهيئاتها في بلداننا العربية إلى رسالة الصحافة ودورها في المجتمع . . ؟
وتعددت الأجوبة في فكري فاقترعت منها على جوابين : الأول من
مجريات الواقع الراهن وهو الجواب التقليدي لدى الجمهور- ولا يخلو من مبالغة-
ومؤداه أن الصحافة في بلداننا العربية مطية للإعلام الرسمي تسير معه حيثما
سار . . . كما قال أبو الطيب المتنبي . . . (بوقات لها وطبول) . والجواب

الثاني هو ما تنشده الصحافة الحرة ويطلب به الجمهور ، من أن تصبح الصحافة متحررة من الأطواق والقيود ، ومعبرة عن الرأي العام ، بحيث يستفيد منها الإعلام الرسمي في مجال معرفة أحوال الناس والمجتمع ؛ وهي معرفة لازمة للمسئولين في كل دولة لكي يضعوا أصابعهم على مواضع الشكوى ، ومواطن الخلل في أداء الأجهزة المسئولة ونقاط القوة والضعف فيها ، ويتعرفوا على ما يشغل بال المواطنين ، باعتبار الصحافة من أهم وسائل التعبير .

ثم تتفرّع الأسئلة في الشأن الصحفي إلى الصحافة ذاتها ؛ أي بأي منظار ينظر أصحاب الصحف ذاتهم إلى الصحافة ودورها وأهدافها القريبة والبعيدة ؟ إن اتجاهات الصحف وميول محرريها كثيرة الاحتمالات .. فعلى أي مبدأ تسير ، وإلى أي جانب تميل ؟ ولا شك في أن المسئولين عن التحرير في الصحف عندنا هم في هم كبير يلزمهم أينما ذهبوا شرقا أو غربا ، يمينا أو شمالا .. فالمطبات كثيرة والإشارات الحمر تواجههم في جميع الطرقات ومختلف الاتجاهات .. كما أن أوقات الراحة عندهم بمقدار .. إنهم ولا ريب في موقف لا يحسدون عليه . وربما لهذا السبب وصفت الصحافة بأنها (مهنة المتاعب) .

ويأتي بعد ذلك وضع الكتاب الملتزمين بإعداد أعمدة الصحف ومدى معاناتهم اليومية في اختيار الموضوع الذي يصلح للقراء .. وهو حمل يجهد ثقله كثير من القراء ..

ثم المراسلون الذين يسعون وراء الخبر فتوصد دونهم الأبواب أو تفتح لكن على استحياء لا يشفي الغليل .. وحدثت ولا حرج عن معاناة المخرجين والمصورين والفنيين وغيرهم ، ممن تلتهم طاقاتهم عجالات المطابع التي تدور بلا توقف وبلا رحمة .

ثم إن هذا الطبقة المحشو بعرق العاملين وجهدهم يقدم للقارئ كل يوم في شكل (جريدة الصباح أو المساء) فكيف يستقبل الجمهور هذا الطبقة المتعوب عليه ... ؟

إذا استثنينا أعداد المدمنين على قراءة الصحف اليومية لمجرد ابتلائهم بعادة

الإدمان لا غير (والصحف اليومية بالمناسبة - تخلق عند البعض عادة الإدمان) فإن معظم القراء لا وقت لديهم للقراءة المتأنية ، لا سيما مع كثرة الصحف والمجلات ، فبعضهم يكاد يلتهمها التهاما وهو في عجلة من أمره . . . وبعضهم يختار منها خبيرا أو موضوعا يهيمه ثم يلقيها جانبا وبعضهم يكتفي بقراءة العناوين دون اكتراث بالتفاصيل ، اللهم إلا إذا عثر فيها على موضوع شخصي يثير الفضول عنده . ولا تسأل عندئذ عن حسرة الكتاب الذين سهرروا على تدبيح تلك المقالات وخيبة أملهم . . . لولا أنهم تعودوا على هذه الظاهرة فاستساغوها على مفضض . . . وكان أغلب الناس في الماضي ، وربما في الحاضر ، (لولا انتشار الوعي الصحي اليوم) ، يستعمل الصحف فراشا لمائدة الطعام . ومن الحقائق المسلم بها أن إيرادات الصحف من المبيعات اليوم أصبحت لا تساوي ثمن الخبر الذي كتبت به . . . لولا إيراد الإعلانات وكل الناس تعلم ذلك . . ثم تصفها بأنها صحف تجارية . . . وتلك مأساة صحفية أخرى .

ومستقبل الصحافة على مستوى العالم أصبح لا يبشر بخير . . .
فوسائل الإعلام المرئي والمسموع والمقروء ، ولا سيما على شاشات الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) قد اختطفت من الصحافة مواضيعها وأبوابها لعرضها على الناس ، بشكل أسرع وأكثر مرونة في التعامل مع المعلومة بالتخزين والعرض والإدهاش ، والتغلغل في المكاتب والمنازل ، وأثناء التنقل حتى أصبحت في متناول الجميع ممن يستخدمون تلك الوسائل بثمن بخس ، وأعدادهم اليوم تعد بمئات الملايين من الناس وما زالوا في ازدياد . . . فأين الصحافة الورقية المطبوعة من كل ذلك .

**

في هذه الأيام تعقد الندوات وتكتب المقالات وتنشر التصريحات متنبئة بموت الصحف واختفاء أعداد كبيرة منها ، وسوف نقتصر فيما يلي على نماذج قليلة من تلك التنبؤات فيما يلي :

١- من ذلك ما كتبه مدير لوموند ديبلوماتيك الإسبانية (السيد أغناثيو رامونت) ونشر في (الوسط) منذ أيام . . حيث ذكر عن إفلاس المئات من الصحف اليومية في الولايات المتحدة الأمريكية ، والذي بدأ يزحف على أوروبا مهددا بجرف كبريات الصحف في إسبانيا وبريطانيا وإيطاليا وفرنسا ، بسبب الخسائر المادية الهائلة وانخفاض الاشتراكات وانهيار الإعلانات ، حتى لجأت كثير من الصحف إلى تقليص التكاليف وخفض عدد الصفحات ، وتخفيض أجور العاملين فيها . كما توقع عدد من الخبراء والمحللين أن عهد بيع الصحف قد انتهى إلى الأبد . . وذلك بمن فيهم السيد (روبرت مردوخ) وهو صاحب أكبر الإمبراطوريات الصحفية والإعلامية - والذي نسب إليه قوله المشائم عن مستقبل الصحافة بأن الصحف المطبوعة كافة سوف تتوقف تماما عن الصدور خلال العقد المقبل !!

ثم يضيف مدير لوموند إلى كل ذلك ، عامل تعاضم مشكلات هيكلية قطاع الصحف ، جراء ميول «الارتخاء الإعلامي» وواقع فقدان الصدقية ، والاعتماد على الإعلانات ، وانخفاض الاشتراكات والمنافسة ، وتقدم السن . .

٢- أثناء قراءتي لمجلة (نيوز ويك) الأمريكية المعروفة ، وعددها الصادر بتاريخ ١٧ أغسطس ٢٠٠٩ - لفتت نظري صفحة عليها اسم مدينة صغيرة في أمريكا اسمها (ان اربن) في ولاية ميتشيغان بالقرب من عاصمتها (ديترويت) . . وكنت أعرف هذا المكان وسبق أن نزلت في الفندق التابع لمستشفى شهير فيها ، وأعجبني جمال المكان بالقدر الذي لم تعجبني فيه معرفة ناسها بالعالم الخارجي . . فمعظمهم لم يكن يعرف اسم البحرين وأين تقع ، حيث ظنوا أنها في أمريكا . والطبيب لم يسمع بدواء اسمه (بانادول) ، وعاملة التلفون لا تعرف مدينة اسمها لندن . . غير تلك الموجودة في أمريكا . . لذلك أخذني الفضول لقراءة الموضوع عن هذه البلدة ، وإذا به ينعى بنبرات من الأسف توقف الجريدة الوحيدة في (ان

اربر) عن الصدور .

وتضيف الكاتبة (بيلندا لوسكومب) أن جريدة (سياتل بوست) توقفت عن الصدور أيضا بعد أكثر من ١٤٦ عاما من عمرها . . وأن جريدة (روكي مونتاین نيوز) في أمريكا توقفت بدورها عن الصدور بعد مضي ١٤٩ عاما عليها . . . ومع ذلك فهي مندهشة أن تتوقف صحيفة في (ان اربر) تلك البلدة الجميلة المسترخية في أحضان الطبيعة ، والتي ألف الناس تسميتها بـ(ملكة جمال ميشيجان) ، وهي التي تضم على صغرها أكثر من مستشفين وجامعتين ، ونصف سكانها تقريبا يحملون درجات علمية راقية . . ويفترض في محيط مثقف كهذا أن يكون لتلك الصحيفة الوحيدة فيه رواج كبير ، إن لم يكن بسبب انتشار الوعي والثقافة فبسبب إدمان السكان على قراءة أخبار مجتمعهم . . ثم إن كاتبة المقال لما حاولت أن تعرف أسباب التوقف عن الصدور ، اكتشفت أن أصحاب الصحيفة أنفسهم (وهم عائلة نيوهاوس) هم الذين قرروا (قتلها) إنقاذها من الإفلاس ، واستباقا لكارثة تهدد مستقبلها (على مقولة بيدي لا بيد عمرو) . . ولكنهم استبدلوها باتخاذ (ان اربر) موقعا لأكثر من ٢٠ صحيفة الكترونية على موقع (ان اربر دوت . كم) حيث يصبح المجال متاحا للكثير من الأفكار والتقنيات الجديدة ، والمزيد من الريح .

٣- في المنتدى السنوي لصحيفة (الاتحاد) الذي عقد في أبو ظبي أواخر شهر أكتوبر ٢٠٠٩ ، تكلم وليد النصف رئيس تحرير (القبس) الكويتية فتحدث عن «وجه إيجابي للأزمة المالية العالمية ، يتمثل في إعادة هيكلة المؤسسات الصحفية وسياساتها ، وعن وجه آخر فرض نفسه كمنافس شرس وقوي للصحافة الورقية وهو (الأنترنت) . .

وتكلم في المنتدى أيضاً أحمد المنصوري رئيس قسم المحليات في صحيفة (الاتحاد) حول عامل آخر مثبط للصحافة المحلية ، وهو القيود الاجتماعية والمحاذير القانونية في الممارسات الصحفية .

ثم يضيف محمد عارف ، وهو مستشار في العلوم والتكنولوجيا ، في بحثه أنف الذكر ، حول (الإعلام العربي في أحضان الإنترنت) معلقا على ما دار في المنتدى - بقوله : «عقد المنتدى تحت العنوان التقليدي - الصحافة العربية . . . الواقع والطموح» ، وتوزعت عواطفه بشكل غير تقليدي ما بين نعي الواقع والاستبشار بالمستقبل . . . إبراهيم بشمي - رئيس تحرير (الوقت) البحرينية ، اعتبر طلب ثلاثية السبق والمصداقية والمهنية من الصحافة الجديدة مستحيلا ، مثل ثلاثية الغول والعنقاء والخلّ الوفي . . .»

٤- في ورشة (الصحافة الألكترونية واندماج وسائل الإعلام) التي نظمتها جامعة البحرين ، والتي ضمت عددا من طلبة قسم الإعلام ، والتي اختتمت في أواخر أكتوبر ٢٠٠٩ ، وذلك بالتعاون مع (يو . أس . اي . توداي) الإللكترونية . . . أجمع المشاركون على أهمية التواصل مع التجارب الصحافية المتقدمة ، سواء كانت المطبوعة أو الإللكترونية . وكان كبير المدربين والاستشاريين في الصحيفة الأمريكية (جوشن هاتش) قد لفت الأنظار إلى أن «الصحافة الإللكترونية قللت من الإنفاق الإعلاني في الصحافة المطبوعة . . .» .

تلك النماذج مما ينشر ويكتب ويقال من قبل أصحاب الصحف والمختصين والمحللين حول مستقبل الصحف المطبوعة المحفوف بالمخاطر . . . حرية في رأيي بأن تقف عندها صحافتنا المحلية ، وأن تدق عندها الأجراس . . . وأن تبادر لمعالجتها بشكل جماعي أو على انفراد ، حسبما تراه الأصلح لرؤيتها المستقبلية ، حتى ولو كان حاضرها يبدو جميلا ومستقرا . إن (كعكة) الإعلانات التي هي في الواقع قوام استمرارية الصحف عندنا سوف يكثر من حولها الأكلون حتما كلما ازدادت أعداد الصحف المنافسة . . . وازدادت الكلفة والأسعار . . .

. . . ولكنني - وأنا اكتب هذا المقال لأدفع به إلى النشر - ما زلت أسائل

نفسى ما الذى يدفع كاتباً من خارج زمرة الصحافة والصحفيين ، أن يبدي قلقه بشأنها ، وأن يتخوّف على مستقبلها مع أن أهلها هم أحرى بذلك . . وصاحب البيت أدرى بالذى فيه .

ثم تبادرت إلى ذهني أجوبة كثيرة من مثل : أن الصحافة هي من سلطة الشعب رابعة كانت أم خامسة أم سادسة ، وأن الصحافة هي متنفس الجماهير ومعبرة عن الرأي العام ، وأنها منبر للفكر ومن أهم وسائل نشر الوعي والمعرفة في السياسة والثقافة والأدب والدين والفنون والأخلاق وغيرها . . وأنها أداة فاعلة لتداول الخبر كبيراً كان أو صغيراً . . وأنها وأنها . . إلى آخر ما يجره التفكير في رسالة الصحافة وأثرها في المجتمع . . ولكنني قلت : لست وحدي في ذلك ؛ إذ يشاركني الآخرون في هذا المضمار .

ثم إنني انتبهت إلى إحساس داخلي في نفسي وشعور غامض يشدني إلى الصحافة منذ صغر سني ، ويرافقني بعد ذلك على مرّ السنين . وتذكرت أنني في يوم من الأيام هممت بقبول عرض سخي لإنشاء مؤسسة كبرى للصحافة والنشر والإعلام . . ثم تذكرت ما وراء ذلك من متاعب . . فأمسكت عن القبول . ولكن مشاعر الود نحو الصحافة بقيت على حالها لم تتغير .

**

وخاتمة هذا الاستعراض لصحافتنا العتيقة لا بد اذن من أن تكون نضرة مستبشرة مخضرة أمالها في النفوس . . لأدلي في سياقها بأفكار متواضعة أضعها بين يدي القارئ على المؤسسات الصحفية عندنا ، لعلمهم يجدون فيها خيراً - ، أو يطرحونها جانبا إن شاءوا فإنها لا تعدو أن تكون رأياً صادراً من غير خبير :

أولاً - لا بد لصحافتنا من أن تطور وسائلها وأدواتها وأساليبها في شتى المجالات ، وأن تتواصل مع التجارب الصحافية المتقدمة الورقية منها والألكترونية ، وأن تعيد (هيكله) مؤسساتها وسياساتها طبقاً للرؤية المستقبلية لسوق الصحافة .

ثانيا - الخبر المحلي وأخبار المجتمع والأحداث الصغيرة والكبيرة فيه ، هي مجالات للصحف المحلية لا يستطيع الإعلام الخارجي التواصل معها وتغطيتها كاملا من دون الاستعانة بالصحف المحلية ذات الانتشار الواسع بين الجمهور . ومن المفيد للصحافة المحلية أن تستثمر هذا السبق وتتوسع في تغطية هذا الجانب ؛ أو كما جاء في ورقة جابر الحرمي في ندوة الاتحاد المشار إليها سابقا . . (البعد المحلي كأداة للتميز) .

ثالثا- من المفيد لمؤسساتنا الصحفية زيادة رأسمالها لاستثماره في مشروعات تخدم الثقافة والفكر ، وتعود بمردود مادي يكون مصدرا آخر للدخل بجانب الإعلانات . ومن بين تلك الاستثمارات مثلا تملك أدوات الطباعة والنشر ، وبناء مقرات خاصة لمكاتبها ومراكز للبيع ولتسويق المنتجات الثقافية . . والمدرسية إلى غير ذلك .

رابعا - وأخيرا . . . فإن تمتع الصحف بقدر كاف من الحرية هو وبلا شك العامل المؤثر على قدرتها في الحركة والانتشار ، وإرضاء طموح المجتمع والقراء . إن حرية الصحافة وحرية التعبير في مجتمعنا اليوم هما أمانة تتقاسم حملها سلطة التشريع ، وسلطة التنفيذ ، وسلطة الصحافة ، وذلك تجاه ما ينشده الجمهور في مجال ضمان الحريات العامة . وستظل تلك الحريات رهينة في محبسها بين القيود الاجتماعية والمخاضير القانونية . . وبين أخذ ورد وجزر ومد حتى يؤذن فجرها بانفراج قريب يرضي جميع الأطراف . . إن شاء الله .

ولكن على الصحافة أن تستفيد من المناخ المتاح لحرية الصحافة مهما صغر أو كبر ، وأن تستعملها فيما يفيد المجتمع ، وأن تطلب منها المزيد دونما يأس ؛ إذ لا وجود (للعنقاء) المستحيلة في مجتمع الحرية والديموقراطية ، وتقدم الشعوب والاكتشافات العلمية الباهرة . . . والله مع الصابرين .

البحرين... وعشرة أعوام في مسيرة الإصلاح

أبدؤ القول بإزجاء التهاني لجلالة ملك البحرين ، ولشعب البحرين بمناسبة العيد الوطني المجيد .

وتذكرني هذه المناسبة السعيدة بسنوات مضت ، حينما كنت سفيرا في مصر ، وتشرفت باستقبال جلالة الملك ومرافقته في زيارته الرسمية لجمهورية مصر العربية الشقيقة ، وكان جلالتة وليا للعهد ، وذلك في أوائل عام ١٩٧٣ ، حيث توسمت في جلالتة سمو الروح والتطلع للمعرفة ، وكانت أحاديث جلالتة مع القادة تدل على تكوين مقومات الشخصية القيادية والذات المتطلعة للنهوض بالمهمات الجسام .

و حين رزئت البلاد بوفاة المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة ، أمير دولة البحرين المعظم ، وفي حفل التأبين للفقيد الراحل . . عبرت عن الأمل المضيء في القيادة الجديدة لجلالة الملك ، وذلك من قبل إعلان المشروع الإصلاحى الكبير ، حيث قلت في ذلك :

« حمد » وهمته الوصول
لكل ما عزَّ الوصول
راعي الشَّبَاب يمده
في عزمه نشْ وجـيل
« حمد » إذا ولج الصعاب
يذلّ منها المستحيل

أمل البلاد به يضيء ويستقيم به السبيل

وقد تحققت تلك الآمال والتطلعات في شخص القائد الملك ، حين أعلن جلالته عن المشروع الإصلاحي الجديد والجريء ، بما تضمنه من إطلاق الحريات العامة ، وإلغاء قانون الطوارئ ، وتحرير السجناء السياسيين ، واستقبال المبعدين والمغتربين من أبناء الوطن ، ووضع الميثاق الوطني ، وإعلان الدستور الجديد ، وتأسيس مجلسي النواب والشورى ، وممارسة الشعب للانتخابات العامة ، وصولاً إلى ما نحن عيه اليوم . . . بعد عشر سنوات من تلك المسيرة المباركة .

أما السؤال عن تقييمي لما تم إنجازه حتى الآن من خطوات نحو ترسيخ الشكل الديمقراطي للحكم ، فأقول مختصراً . . . إن ما تحقق خلال تلك المسيرة هو كثير لا ينبغي أن ينكر ، لاسيما في مجال الحرية العامة والفردية ، وحقوق الإنسان مدنيا (بما في ذلك حقوق المرأة والأقليات) ، وسياسيا بما في ذلك التشريع والمساءلة والرقابة المالية والإدارية . . . واجتماعيا بما في ذلك الرعاية الاجتماعية واليد العاملة والتدريب ؛ لاكتساب المهارات الجديدة ومشاريع الإسكان والحفاظ على البيئة . . . واقتصاديا وتجاريا بما في ذلك مشاريع التنمية الاقتصادية والاستثمار وتمكين المشاريع الخاصة . . . وكذلك المشاريع التربوية والثقافية والتراثية وتطوير الخدمات العامة . . .

وفي كل ما ذكرت مساحة للأمل والحريات ، وتمهيدا للولوج إلى حالة الديمقراطية الواسعة . . . وأقول أيضاً إنه لا ينكر ذلك التغيير والجهود المبذولة في سبيله ، وما يشير إليه من مظاهر التقدم ، ذو رأي سليم .

ولكن مستوى التقدم له مفهوم نسبي يختلف بحسب الإمكانيات المتاحة ، وبحسب التطور السريع الحاصل في العالم الحر ، ولدى الشعوب المتقدمة ، وبحسب مستوى الوعي والإدراك لمفهوم الحرية والديمقراطية والمسئولية لدى جماهير الشعب .

كما يختلف مفهوم التقدم لدى الأفراد والجماعات المتتمة بالقيود الاجتماعية والتقاليد والعادات الموروثة . . . وكثير منها قد يتعارض مع تحديث التشريعات والقوانين .

ولكنني بشكل عام أنفق مع الذين يرون أن ذلك التقدم الحاصل في جميع تلك الميادين هو تقدم بطيء نسبيا . . . وأن سياسة المؤسسات الرسمية والتنفيذية لا تتماشى في الاستجابة والأداء مع روح المشروع الإصلاحي الكبير لجلالة الملك .

كما أنني قد أنفق مع القائلين بوجود أزمة حقيقية في المجلس النيابي (وهو الوجه الأكبر في المشروع الديمقراطي) ، وذلك فيما يتعلق بممارسة مسؤولياته كاملة ، حسب ما تنص عليه دساتير الدول الديمقراطية في العالم المتقدم . . . وقلة إنجازاته تجاه الناخبين ، وذلك من منطلق ما نص عليه الدستور من أن الشعب هو مصدر السلطات .

**

أما عن تصوراتي في مجال تطوير العملية الديمقراطية ؛ فأختصر الإجابة في نقاط ثلاث :

الأولى : ضرورة توفير المناخ الصالح لحوار وطني هادف بين جميع الأطراف المعنية ، كضرورة وطنية ملحة لحل المشاكل العالقة بأدوات المصادقية والنوايا الحسنة والثقة المتبادلة ، بعيدا عن المناورات والتكتلات والتدخلات والمصالح الخاصة . . . وبعيدا عن الهتافات والتصريحات المهيجة للشارع السياسي .

الثانية : أن تكون المسألة الدستورية من ضمن ذلك الحوار ؛ للوصول إلى نتائج مرضية للحل جذريا أو مرحليا . . . سواء تم ذلك خارج المجلس النيابي أو في داخله ، على أن يحظى بمباركة من القيادة العليا الرشيدة .

الثالثة : إعادة النظر والتقييم لمستوى أداء أجهزة الدولة التنفيذية ، فيما يتعلق بمهام ومستوجبات تحقيق المشروع الإصلاحي لجلالة الملك والحريات

العامّة ، واتخاذ الخطوات والإجراءات اللازمة لسرعة إنجازه على
المستوى الحكومي والشعبي .

**

وختاماً أقول لقد وهب الله البحرين موقعا طيبا وجميلا .. وهياً لها شعبا
متطلعا واعيا مستنيرا .. وقبض لها ملكا قائدا محبوبا ساعيا للخير
والإصلاح .. ونحن أبناءؤها واجبنا أن لا نفرط فيما أنعم الله علينا ، وأن
لا نتوانى عن بذل الجهد في العمل والإخلاص ، وتوحيد الصف ، وأن لا
نتقاعس عن حب الخير للبحرين ، والمساهمة في مسيرة التقدم والإصلاح ...
وأن نشكر لله (بلدة طيبة وربّ غفور) .. صدق الله العظيم .

... ولكم تغنى فيك شاعر

البحرين بين غدوة طرفة
ودنانير ابن المقرب وسبب طية الخطي

بالبشر أهتف والبشائر
مرح الزمان عليك ظاهر
ثغر جميل يستضيف البحر
مرتخييا... وهادر
وانساب نبع كالحياة
مخلدا بالحب طاهر
وتعانقت هذب النخيل
بحبه ماض وحاضر
أقسمت يا بحرین إنك
جنة ، وهواك أسرار
أهديت للدنيا الحضارة
والنضارة... والجواهر
كم في هواك تكلم
العشاق ، واشتأقت منابر
ولكم تببتل عابد
ولكم تغنى فيك شاعر..

**

وبعد.. فأنا لست الوحيد من تغنى بحب البحرين . فقد سبقني في ذلك

كثير من الشعراء وعاصرني منهم الكثير ، وسيأتي من بعدنا الأكثر فالأكثر من الشعراء .

وعلى مرّ العصور هام أدباء البحرين وخطباؤها وعلماؤها وشعراؤها في حبّ البحرين ، وتأكيد انتمائهم لها وشوقهم لمرايح الصبا فيها ، كما تغنوا بجمال الطبيعة وبوفرة المياه وبساتين النخل والثمار . . بل تعدوا ذلك للتغني بتراب أرضها وظل سمائها ، وسحر شواطئها ومرافئ السفن فيها ، ومكنون بحارها حاضنة اللؤلؤ والمحار .

وسوف أقتصر في هذه المقالة على إيراد نماذج مما خلفوه من أشعار تعبر عن ذلك الشوق والحنين .

من أولئك الشعراء طرفة بن العبد ، أحد شعراء المعلقات المشهورة في العصر الجاهلي .

وكان ناقما على أحوال معيشتة وعلى أقاربه وذوي أرحامه . . . ولكنه ترك لنا في أبيات شعره مع ذلك وصفا توثيقيا في شئون البحر وصناعة السفن ، وبعض عادات أهل البحرين ، مثل قوله في معلقته المشهورة :

(كأنّ حدوج المالكية غدوة

خلايا سفين بالنواصف من «دد»

عدولية . . أو من سفين ابن يامن

يجور بها الملاح طورا ويهتدي

فنعرف من شعره ميناء سفن اسمه (دد) وموضعا لصناعة السفن اسمه (عدولي) ، ومالك سفن أو ربانها (نوخذه) اسمه ابن يامن . . وأساليب توجيه دفة الإبحار المتعرج للسفن الشراعية ذات الشمال وذات اليمين .

ثم يذكر بعض عادات أهل البحرين وألعابهم ، التي استبدلت اليوم بما يسمى (لعبة الخاتم) وذلك في قوله :

(يشقّ حباب الماء حيزومها بها

كما قسم الترب المفايل باليد)

ولا يخفى أن إيراد طرفة تلك الأبيات في وصف المطايا التي حملت حبيته فيها مضمون الحب والإعجاب لموطن نشأته . كما أنه رسم لنا صورا فنية جميلة ذات حركة وانسجام .

أما الشاعر الآخر فهو الأمير علي بن مقرب العيوني الإحسائي ، من شعراء القرن الهجري السادس والسابع (٥٧٢-٦٢٩) . وكان شأنه شأن طرفة بن العبد في كونه ناقما على عصره ، حيث كتب جلّ أشعاره في مقارعة حكام زمانه . . فكان يهجوهم أشد الهجاء ؛ لأنهم سلبوا منه بساتينه المثمرة وأملاكه ، وعقدوا لسانه وقيدوا حريته حتى قرر أن يهاجر من وطنه وهو يتهددهم بقوله :

(فإن عقلت قومي لساني بأرضها
فليس بمعقول . . إذا كنت نائيا
سأرسل فيها بالدواهي شواردا
تنبّه ذا عقل ، وتفهم واعيا)

ومع كلّ ذلك فقد خلفت لنا أشعار ابن المقرب توثيقا تاريخيا لما اشتهرت به البحرين من بساتين يانعة ، ونخل نضيد ، ولؤلؤ مكنون ، وأسماك وفيرة لا يزال اسمها معروفا اليوم .

هذا بالإضافة إلى تخصص شعره في الفخر والحماسة ، وإيراد الحوادث وأخبار الحروب .

فلنستمع إليه وهو يعدد خيرات البحرين ، مقارنة إياها بضدها في موضع لوم وعتاب ، فيأتي على ذكر البساتين ونهر الجوهريّة ، وقماش المرزوي ولالس الناعم (ربما هو ما نسميه اليوم بـ«اللاس») ، ولحم سمك الصافي والكنعد ، والنخل الضارب في السماء ، ثم الدر والمحار وعذوق النخل المكتنزة ، وبساتين ذات زروع اسمها (دنائير) . . الخ :

(فخير لعمرى من بساتين مرغم
على ذي المجاري . . طلح نجد وشوعها

ومن ماء نهر الجوهريّة لو صفا
 ذبابة حسي لا يرجى نبوعها
 ومن مروزي بالقطيف ولالس
 عباء بوادي طيء ونطوعها
 ومن لحم صاف في أوال وكنعبد
 ضباب وجرذان كثير خدوعها
 أما سمنها في أبحر الملح ماؤه
 وفي نخلها العمّ الطوادي .. جذوعها
 وليس لنا في الدرّ إلا محاره
 ولا في عذوق النّخل ، إلا قموعها
 ... عفاء على البحرين لو قيل أينعت
 (دنانير) واديها وجادت زروعها
 فهل ذاك إلا للعدوّ وغيصة
 سيأتي بها متبوعها وتبوعها)

كما يقول في موضع آخر يستحثّ قومه على حماية أرضهم وصد الأعداء
 الغزاة عنها :

(أرجال عبد القيس كم أدعوكم
 في كلّ حين للعلا وأوان
 أصبحتم عرضاً تناضله العدى
 بمذريّات البغي والعدوان
 القوم تأكلكم ويأكل بعضكم
 بعضاً ... كأنكم من الحيتان
 تتظلمون من الملوك وأنتم
 أصل البلا والشؤم .. منذ زمان

والله ما نحس البلاد سواكم
لا بالعدى انتحست ولا السلطان
شيدتم عزّ العدى وتركتم
بنيان عزكم .. بلا أركان
... أخذوا الحساء من الكثيف إلى
محاديث العيون إلى نقا حلوان
والخطّ من صفوان حازوها فما
أبقوا بها شبيرا ... إلى الظهران
والبحر فاستولوا على ما فيه من
صيد ، إلى درّ إلى مرجان
ومنازل العظماء منكم أصبحت
دورا لهم ، تكري بلا أثمان
وأرض شيء للقلوب فظائع
بالمروزان لهم وكـرزگان .

**

وفي القرن العاشر الهجري أصبحت جزر البحرين مستقلة باسمها
(البحرين) عن باقي جيرانها ، وذلك بجانب اسميها التاريخيين (هجر)
و(أوال) ، ونشأ فيها أدباء وشعراء وعلماء وخطباء ... طبقت شهرتهم الآفاق .
وجميعهم تغنوا بحب البحرين نثرا وشعرا . وسنكتفي بإيراد بعض القصائد
والأشعار لعدد من العلماء والأدباء والشعراء في تلك الفترة :

١- الشيخ الحسين ابن عبد الصمد الحارثي الهمذاني العاملي الجبعي ، انتقل
إلى البحرين للسكن فيها وأثر الجوار فيها والموت بأرضها ، وذلك إثر حكاية
تروى عنه مفادها أنه رأى مناما وهو في مكة المكرمة ، حيث شاهد جزيرة
البحرين ترفع بمن فيها إلى الجنة ... فاستقبله أهل البحرين وعلمائها بما
يليق بمقامه العلمي ، وعاش بينهم ثم توفي فيها ودفن في قرية (المصلّى)

سنة ٩١٨ هجرية ، وقبره معروف فيها إلى اليوم .
وكان ابنه محمد ابن الحسين المعروف بالشيخ (البهائي) قد ذهب إلى
شيراز وأصبح شيخ الإسلام فيها . . فلما سمع بموت أبيه ودفنه في البحرين
رثاه بقصيدة منها هذه الأبيات :

(يا جيرة هجروا واستوطنوا هجرا
واها لقلبي المعنى بعدكم واها
يا ثاويًا بالمصلّى من قرى هجر
كسيت من حلل الرضوان أضفاها
أقمت يا بحر بالبحرين فاجتمعت
ثلاثة . . كُنْ أمثالا وأشباها
حويت من درر العلياء ما حويا
لكنْ درك أعلاها وأغلاها
ربوع فضل تباهي التبر تربتها
ودار أنس تخال الدرّ حصباها)

٢- ومن شعر الحنين إلى البحرين هذه الأبيات للعالم الجليل السيد أبي علي
السيد ماجد السيد هاشم البحراني ، المتوفى سنة ١٠٢٨ للهجرة ومنها قوله :

(يا ساكني جدّ حفص لا تخطفكم
ريب المنون ولا وافتكم المحن
ولا عدت زاهرات الخصب واديكم
ولا أغبّ ثراه العارض الهتن
ما الدار عندي ولو ألفتها سكننا
يرضاه قلبي . . لولا الإلف والسكن
مالي بكلّ بلاد جئتها سكن
ولي بكلّ بلاد جئتها وطن)

٣- ويضيق بنا المجال عن الوقوف عند جميع ما ورد إلينا من شعر الحنين والتشوق إلى البحرين في ذلك العصر أو ما بعده . وسأقتصر في ذلك على شعر الأديب الشيخ العالم أبو البحر جعفر بن محمد الخطي - أحد بني عبد القيس . . وهو من شعراء القرن العاشر والحادي عشر للهجرة . وقد اشتهر بقصيدته المسماة بالسببية ؛ وقد وصفه بعض النقاد كالدكتور محمد جابر الأنصاري ، بأنه لجزالة ألفاظه يذكر في عمود سامي البارودي في مصر ، في محاولته إحياء أسلوب البلاغة الشعرية العربية . ولن نقف عند قصة الخطي مع سمكة السببية ، التي شجرت وجنته وأسالت دماء اللهم ، إلا عند استغاثاته الغريبة بقومه من بني عبد القيس لأخذ الثأر له من السمكة حيث يقول :

(برغم العوالي والمهنة البتر
دماء أراقتها سببية البحر
ألا قد جنى بحر (البلاد) و(توبلي)
علي بما ضاقت به ساحة البر
ألا أبلغ الحيين «بكرا وتغلبا»
فما الغوث إلا عند تغلب أو بكر
أيرضيكما أن امرءا من بنيكما
وأى امرئ للخير يدعى وللشر
يراق على غير الطبا دم وجهه
ويجري على غير المثقفة السمر .)

ذلك أن ديوان شعر الخطي حافل بالأشعار التي تتغنى بالبحرين وتتشوق إلى ربوعها . وسأكتفي بأبيات من إحدى قصائده لتكون مسك الختام في هذه المقالة .

يبدأ الخطي قصيدته بالتشوق للبحرين فيقول :

عج بالمطّي على مرابع «بوري»
بمحلّ لذاتي وربع سروري
وأطل بها عني الوقوف ، فما أرى
شوقا يحركني لها بقصير
واستنش رباها ، ففي عرصاتها
عند العبور بهنّ .. نشر عبير
لم تجعل العبرات خديّ معبرا
إلاّ على مرّي بها وعبوري

ثم يأخذه الحنين لأهله فيقول :

إن يصبني ذكر الديار فإنّه
لإناث أصبية بها .. وذكور
وكريمة الطرفين جرّ على التقى
والذين ، فاضل ذيلها المجرور
أنا أسعد الثقلين أن أدناهم
منّي رواحي نحوهم وبكوري
لأجشمن الناجيات إليهم
والسفن .. قطع مفاوز وبحور
يامن أسير كلّ يوم نحوهم
كتبي .. إذا أعبا عليّ مسيري

ويتأوّه على البحرين فيقول :

أه .. وقلّ على (أوال) تأوّهي
فإذا جننت بها ... فغير كثير

ما كنت مبتاعا أزقة (فارس)
بالفحيح من عرصاتها والدور
هيات ما (شيراز) وافية بما
في تلك لي من نعمة وحبور

ثم يذكر سهولة المعيشة وتوفر أسبابها في البحرين .. قائلا :
بلد تعادل صيفها وشتاؤها
في الطيب ، للمقروور والمحرور
يتكأد الرزق العباد وأنه
فيها على باغيه ، غير عسير
سيان عيشة كادح وترفه
فيها .. ونعمة موسر وفقير
إن طبق المحل البلاد فإننا
في روضة من خصبها وغدير

وينتقل الخطي بعد ذلك إلى وصف الطبيعة في البحرين فيقول :
أن أنس لا أنس الربيع بها وما
يجلوه من نسواره والنور
لا شيء أبهج منظرا من صحوه
والشمس فيه كدارة البلور
ومتى أراك خيمة سندس
غشى سماوتها دخان بخور
هي جنة لوميزت نعماتها
ما بين عبدا مؤمن وكفور .

ثم ينتهي بذكر أصحابه في البحرين وأحبائه حيث يقول :
هذي مزاياها .. وكم علقت يدي
فيها بدمّة صاحب وعشير
هذا على سـرّي الأمين وذاك أن
خذل التّصير على الخطوب نصيري
ياجادها الهتن الملتّ وأصبحت
عرضا لمحلول النّطاق غزير
وأقرّ إخواني بها وأباتني
معهم بطرف في الدنو قرير

**

وفي حبّ الوطن والتشوق إليه ، يتداول الناس القول المشهور «حب الوطن من الإيمان» ، ولكن فضيلة الشيخ عبد الحسين الحلبي (وكان قاضيا للتمييز الشرعي في محاكم البحرين) ، يذهب في شعره إلى أكثر من ذلك حين يقول :
قالوا هواه من الإيمان قلت لهم
نحو حديث «من الإيمان» عن أذني
إنّي امرؤ لا أرى الإيمان يحفزني
له ، ومن فوق إيماني أرى وطني
... ما للنفوس سوى أوطانها ثمن
وليس للوطن المحبوب من ثمن ..)

**

ومع كل ذلك .. فإن حب الوطن على طريقة الشيخ الحلبي أو طريقة من سبقه من شعراء البحرين .. سوف يظل المبدأ الراسخ في القلوب ... يورثه الآباء للأبناء ... يشدو به تلاميذ المدارس ويتغنى به الشعراء والمبدعون في كل جيل .

(*) الوقت : أكتوبر ٢٠٠٩ .

الهمّ الطائفي

كتبت «ليس ضيف» في زاويتها (على الوتر) العدد ٨٦٢ - من جريدة «الوقت» الغراء ، حول موضوع تشكيل لجنة لمحاربة الطائفية .. وبشجاعتها المعهودة علقت «الجرس» ، محذرة بعدم جدوى معالجة الهمّ الطائفي بوسائل القمع أو تقليص مساحة حرية الكلمة وحرية الصحافة ، متسائلة عن تعريف مفهوم الطرح الطائفي المجرم ، وعن المقصود بالحث على ازدياد النظام ، وكذلك عن تلك القيم والثوابت الوطنية التي سيحاسب من يتجاوزها .

وتذكرني هذه التساؤلات بما كان يجري في مجلس الشورى الأسبق ، عند عرض مشاريع القوانين للمناقشة . فبعد أن تكتمل المواد المنظمة لكيفية تعامل الوزراء والمسؤولين مع المصالح العامة المشمولة بالقانون وتنظيم صلاحية كل منهم ، تأتي في الأخير مادة لتنسف كل تلك القيود ، تنص على ما معناه أنه (يحق للوزير حرية التصرف بالنسبة لتطبيق تلك المواد حسبما يراه متماشيا مع المصلحة العامة ..) . والمصلحة العامة أصبحت فضفاضة مثل قميص عثمان ، نبسطه ونقبضه حسب المزاج . وكيفما نشاء .

وأنا مع الكاتبة المحترمة في أن النزعة الطائفية والتعصب الأعمى هاجس يطغى على الضمائر في الفرد أو الجماعات ، ولا توجد سيطرة على الضمائر إلا بوسائل الإقناع أو الإقناع الذاتي .. وتلك فيما أرى - مهمة تثقيفية لنشر الوعي تسأل عنها وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ، كما تسأل عنها منابر الخطاب والإرشاد في المجتمع .

إن هذه الضجة حول الهمّ الطائفي أو المذهبي أو القبلي يجب أن ينظر إليها

في رأبي المتواضع ، من منظور أعم وأشمل يتصل بطبيعة النفس البشرية واختلال الموازين الأخلاقية فيها ، لتتسنى معالجتها بالشكل الصحيح .
هنالك فرق كبير بين التعصب والولاء الأعمى ، وبين العصبية والولاء المستنير .

ولتوضيح ذلك نستعرض أبياتا من الشعر الجاهلي لقرىض بن أنيف :
هذا الشاعر عتب على قبيلته لأنهم لم يهبوا لنصرته . وتمنى لو أنه كان ينتمي إلى قبيلة أخرى هي (مازن) التي مدحها بقوله :
(قوم إذا الشر أبدى ناجديه لهم
طاروا إليه زرافات ووحدا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا)

فهو يفترض أن تهب القبيلة لنصرته حتى ولو كان على غير حق وبرهان .. وهذا هو الولاء الأعمى .. ثم يعيب على قبيلته سلوكها في الإحسان والغفران وخشية الله .. وهذا هو اختلال الموازين الأخلاقية ، وذلك في قوله لاحقا :

(.. لكن قسومي وإن كانوا ذوي عدد
ليسوا من الشر في شيء وإن هانا)
(يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة
ومن إساءة أهل السوء .. إحسانا)
(كأن ربك لم يخلق لخشيته
سواهم .. من جميع الخلق إنسانا)

فالسلك المعيب في نظر هذا الشاعر ، هو السلوك الحق الذي قال فيه المولى عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي

أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴿ (فصلت-٤١-الآية ٢٤-٢٥)

إن التعصب والولاء الأعمى مصيبة مزدوجة : فهو رديف للجهل والتسرع وسوء الظن ، وقيد على حرية التفكير ، وشلل للإرادة الحرة عند الفرد ، وانحراف مع العواطف الهوجاء دون تدبر للعواقب . . وهي لمن تقع عليه آثارها مصيبة أخرى . . والخاسر الأكبر في ذلك : مصلحة الوطن وأمن المواطنين . ونحن نتكلم هنا عن طبيعة النفس البشرية ووساوسها ونزعاتها . . . وقد عاشت تلك النزعات الفردية في مجتمعاتنا دهورا . . ولم تكن عائقا أمام وحدة الصف والعيش المشترك ، ومراعاة مشاعر الآخرين ، والولاء للوطن الواحد ، وطن الجميع .

ولكن مكنم الخطر الحقيقي على مجتمعاتنا كما نشهده الآن إنما يتمثل بالنزعات الطائفية التفريقية المصطنعة . حيث يتم استغلال مختلف نزعات التفريق لتحقيق مآرب سياسية أو اجتماعية أو مصالح شخصية (لا علاقة لها بالدين أو التدين) حيث تعمل السياسة الموجهة والنفوذ ، والأموال ، على تحقيق تلك المآرب والأطماع . ولو نجحت تلك المساعي الشريرة - لاسمح الله - فإن الخاسر الأكبر هو الوطن وقيادته ، ومستقبل أبنائه وأمن مواطنيه . . فهل من مذكر ؟

وبهذه المناسبة أقول : إن التلميحات والعبارات الغامضة التي تتطير بها الكلمات في كل مكان حول الغمز والتشكيك في موضوع الولاء للوطن وقيادته . . لا يستفيد منها الوطن ولا المواطنون . وسوء الظن ليس هو المعبر الصالح لاكتساب اليقين في ترسيخ الولاء . يجب أن يشعر المواطن أن له أهمية واعتباراً كإنسان وكمواطن ، وأنه ليس كمأ مهملاً ضائعاً أو مجرد رقم عابر في سجلات الدولة أو بطاقته الشخصية .

إن الحكومات في كل دول العالم مسئولة عن تدمير المواطنين ومطالبهم المشروعة . . وهذا ما يجب أن تنتبه إليه الدولة والأجهزة التنفيذية والأمنية

والتشريعية والقضائية . فالمصلحة العامة للوطن والمواطنين هي فوق كل اعتبار .
وعلاجها بالشكل الصحيح كمشكلات اجتماعية وإنسانية إنما يتحقق
بالإصلاح المستنير ، في ظل نظم الديمقراطية والعدل والمساواة ، وعدم التمييز ،
وفي كنف المشروع الإصلاحي الكبير لقائد المسيرة الهمام جلالة ملكنا المحبوب .
وأختتم هذه المداخلة بأبيات تعبر عما يخالجنني من هم الابتلاء بالفرقة
والتعصب الأعمى :

أمّنت بالحـب الكـبـيـر
ومن يفرّق فهو كافر
أمّنت بالحـب الّذي
يذكى العزائم والمشاعر
ويلقّن الأجيال وحدتها
لكي تقوى الأواصر
فالفرد للمجموع
والمجموع للأفراد ناصر
والكلّ تحت لوائك
الخفّاق يا بحرين سائر .

الجاهلية.. والنزعة القبلية

الكاتبة المتميزة (لميس ضيف) كتبت في زاويتها (على الوتر) ، في العدد رقم ٦٩٠٠ من الأيام ، تحت عنوان «روح القبيلة» ، مقالة حق ونقد للشعراء الشعبيين ، الذين اندفعوا في ميدان المبارزة بالشعر هذه الأيام ، محذرة إياهم من الانزلاق نحو تمجيد الإلتواء القبلي ، والتفاخر بالأنساب ، وإحياء الحمية الجاهلية التي سحقها الإسلام . . . وأرسى بدلا منها قيم الدين والتدين والتقوى والإحسان . . . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . وأنا مع الكاتبة المحترمة فيما كتبه عن القيم القبلية الفاسدة ، التي أبطلها الإسلام ووصفها «بحكم الجاهلية» . وتلك هي نزعات سيئة في النفس الإنسانية عامة ، وأولى أن تسمى بالنزعة القبلية بدلا من (روح القبيلة) إذ إن الروح قد تكون طيبة وقد لا تكون .

ويبدو لي أن مصطلح (الجاهلية) الذي ورد في القرآن الكريم ، يكاد يقتصر على العادات المستهجنة ، والتعصب الأعمى والمساوية الاجتماعية ، والعزة بالإثم مما اتصف به العصر الجاهلي قبل بزوغ نور الإسلام . وقد لا يكون المقصود به عرب الجاهلية وحدهم ، بل كل أم الأرض التي تسودها مثل هذه الجاهلية قبل الإسلام وبعده . بل ربما كل إنسان يستسلم بقدره إلى تلك النزعات ، سواء أكان مسلما أم غير مسلم . ويقيني أن هذه الصفات ليست لصيقة بالعرب وحدهم دون غيرهم من أم الأرض .

وقد استعمل العرب كلمة الجهل والجاهلية كتعبير مضاد للحلم والتعقل :

يقول الشاعر عمرو بن كلثوم في معلقته المشهورة :

(ألا لا يجـهـلـن أحـسـد عليـنا

فنجـهـل فـوق جـهـل الجـاهـليـنا)

- أي نخرج من طور الحلم والتعقل إلى طور المبالغة والإسراف وعدم تدبير عواقب الأمور- وقال دريد بن الصمة :

(بكت عيني اليمنى فلما زجرتها
عن (الجهل) بعد الحلم .. أسبلتا معا)

**

ولكن .. هل كانت كل صفات المجتمع العربي وقبائله عند عرب الجاهلية سيئة مرفوضة من قبل الإسلام ؟ .. بل هل يجوز اتخاذ مصطلح الجاهلية ذريعة للخط من قدر العرب قبل الإسلام .. أو أن يصبح التهجم على عرب الجاهلية وقبائلها من قبل بعض الدعاة وسيلة لكسب رضى الله أو جواز مرور إلى الجنة ؟ .. متجاهلين وصية الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأحد عماله .. (وأوصيك بأهل البادية خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام) .

إنني أرى أن من الواجب علينا تجاه أجيالنا من أبناء الأمة العربية المسلمة أن نرسي في أذهانهم القيم الإنسانية الراقية التي تمسك بها العرب في جاهليتهم وإسلامهم .. والتي أقرها الإسلام بعد أن حولها من طريق (الجهل) بمعنى الإسراف إلى طريق الاعتدال والمحبة والتألف . وقد وصف القرآن الكريم قيمة هذا التألف وأهميته بقول الله عز وجل مخاطبا نبيه الكريم : ﴿ .. لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم .. ﴾ (-الأنفال- ٦٣) .

وكأن تأليف قلوب العرب يعادل في أهميته إنفاق ما في الأرض جميعا .. لماذا .. لأن المولى عز وجل اختار للأمة العربية الموحدة أن تحمل رسالة الإسلام إلى العالم كافة . (والله أعلم حيث يجعل رسالته) ولم يكن عبثا هذا الاختيار .. فقد كان العرب أقرب الأمم إلى عقيدة التوحيد ، ودين الفطرة بفعل حياة الصحراء المفتوحة على ملكوت الله وآياته في السماوات والأرض . وبفعل توارث آبائهم وأبنائهم ، وعلى الأخص ممن هم من نسل عدنان من ذرية نبي الله إبراهيم عليه السلام- لدين الخنيفية وهو دين الفطرة .. ودعاء إبراهيم لربه

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك .. ومن ذريتنا أمة مسلمة لك - ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ..﴾ (- البقرة ١٢٨-١٢٩) .

وقد جاء اصطفاء الله العرب المسلمين للإسلام صريحا في الآية الكريمة ﴿... هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ...﴾ .

وتدل الدراسات على أن العرب لم ينكروا وجود الله خالق الكون ، ولكنهم استسلموا للأوثان التي نقلوها عن الأمم المجاورة ، ثم قالوا كما ورد في القرآن الكريم .. ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ..﴾ .

فلم يكن العرب وثنيين بالفطرة أو الفكر شأن كثير من الأمم الأخرى ، وإنما طرأت عليهم الأوثان فطمست على قلوبهم حتى حين . وقد ورد في الأخبار بما كان يقوله العرب عند الطواف بالكعبة قولهم .. (لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ..) وكان بعض من قبائل العرب يصنعون أوثانا من التمر ثم يأكلونها عند الحاجة .. ومن قول بعض شعرائهم في الاستهزاء بتلك الأوثان :

(أرب يبُول الثعلبان برأسه

لقد ذلّ من بالث عليه الثعالب !)

ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : (بعثت لأتممّ مكارم الأخلاق ..) وكانت مكارم الأخلاق موجودة عند العرب قبل الإسلام ، وأقرها الرسول الكريم في كثير من المواضع كحلف الفضول ، والتألف في معركة (ذي قار) كما أقر مكارم الأخلاق العربية ، التي من بينها الصدق والكرم (حاتم الطائي) وإغاثة الملهوف ، ونصرة الضعيف والأمانة والوفاء (السّمّوع بن عاديا) وصفات الشجاعة والمروءة وسائر مكارم الأخلاق .. بل إنه تمنى لمن اشتهر صيتهم في ذلك من العرب لو تمت عليهم نعمة الإسلام لنصرته بشهامتهم وشجاعتهم ومكارم أخلاقهم . وقد

أثنى القرآن الكريم على تلك الصفات من مكارم الأخلاق ، ووجهها الوجهة الصحيحة لتمكين الدعوة الإسلامية وبناء مجتمع إسلامي متحد ومتآلف .
وعالج تلك الصفات الحسنة في مكارم الأخلاق العربية بالصقل والتهذيب لإبعادها عن مغبة (الجهل والإسراف) ، وتوظيفها لصالح المجتمع الإسلامي :
فالتفاخر بالشجاعة تحول إلى التفاني في الجهاد في سبيل الله . وعادة الكرم تحولت وجهتها إلى زكاة الأموال والصدقات ، وأعمال البر والإحسان للفقراء والمساكين واليتامى والمعوذين . والعصبية للقبيلة تحولت إلى الحمية لنصرة الإسلام والدفاع عنه بالقول والعمل وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
وطغيان العاطفة والتعصب الأعمى حل مكانه التريث والتفكير ، والتماس البيئة واليقين . . ﴿ أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . . ﴾ . .
وهذا الأسلوب المميز من التوظيف الإسلامي لخصائص فطرة النفس البشرية لاستخراج ما بداخلها من صلاح ونقاء ، وطمس ما حاق بها من فساد ، بحاجة إلى بحث مستقل .

على أنه من الغريب حقا ، ونحن نعيش في عصرنا هذا الذي تفصلة عن الجاهلية قرون وقرون . . وقد ارتمت أم الأرض في حضن الإسلام قرونا وقرونا بعد ذلك ، . . . أن نرى الفتنة تذر بقرونها من جديد تحت رداء التعصب المذهبي والطائفي بين المذاهب الإسلامية . وليس وجه الغرابة في وجود فتنة التعصب ذاتها ، إذ إنها كانت موجودة منذ تحول الحكم عند المسلمين إلى ملك عضوض سخرها لغايته ، وهي في الأصل مذاهب فقهية إسلامية اجتهادية تغني الفقه الإسلامي وتثريه ، ولا علاقة لها بالسياسة ولا بالمكائد والأحقاد ، وليس فيها من قاتل ولا مقتول . .

ولكن ما يجعل شأن الفتنة الطائفية المذهبية مستغربا اليوم هو أننا نعيش في عصر العلم وتوسع آفاقه المذهلة ، وتفتح العقل الإنساني ، وتطور الفكر في المجتمعات سياسيا ، وثقافيا ، واقتصاديا وفي مجال التعليم المتطور وحقوق الإنسان والاتصالات التي قربت البعيد حتى كأنك تراه أو تجالسه وتخاطبه .

ونحن معشر المسلمين من الدعاة أو من غير الدعاة ، كل يدعي أنه يحمل على عاتقه لا هم نفسه وتقواها فحسب وإنما هم دعوة العالم إلى الإسلام تحت شعار عالمية الدعوة الإسلامية ...

والسؤال الوارد هنا : أبعث دعوى الجاهلية والتعصب والمقت والديسيسة فيما بيننا ، نطمع في نشر دعوة الإسلام إلى العالم كافة ... وهو يرى في أفعالنا بئس المثال وفي تفرقنا شر الأسوة ... ؟

ولا أسوق هذا القول في مجال الوعظ بل في مجال تقويم النفس ومحاسبتها .. فلنتق الله في أنفسنا وأجيالنا ، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل ...

حديث عن التراث

(بلاد بها حطّ الشباب تمائمي
وأول أرض مسّ جلدي ترابهـا)

خطر لي هذا البيت من الشعر وأنا أستمع إلى الحديث الشائق لسمو رئيس الوزراء في مجلس الأخ الوجيه راشد عبد الرحمن الزياتي . وكان سموه يحث المواطنين على المحافظة على التراث البحريني والاعتزاز به ، وتوجيه الأبناء لصيانة حتى تنمو في أعماقهم جذور الانتماء والحب لوطنهم ومرايح صباهم .
وإذا كان أجدادنا من العرب الأوائل الرّحل قد اكتفوا بالوقوف على الاطلاع والتحسر على أيامها لكثرة ارتحالهم في الصحراء ... كقول بعضهم :
(بنفسي هذي الأرض ما أطيب الرّبا
وما أحسن المصطاف والمتربعا)

أو كقول أبي الطيب المتنبي :
(بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها
وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه)

فإنه جدير بنا في هذا العصر أن نستذكر جذورنا التاريخية كما تفعل الأمم المتقدمة الناهضة .
في معظم بلدان العالم يشاهد الزوار البيوت القديمة والقلاع التي مضت

عليها مئات السنين ، ومساكن المشاهير فيها كالفنانين والشعراء والفلاسفة والساسة وأصحاب الفكر والأدب - وأمثالهم في جو من الروعة والنظافة والإضاءة الحسنة ، ومعظم تلك المعالم تقع في القسم القديم من المدن والأحياء الشعبية ، التي هيئت طرقاتها للمشاة بأمن من مركبات المرور ، تحيط بها المطاعم والمقاهي والخوانيت التي تبيع التحف والمصنوعات اليدوية .

وتستملك إدارة التراث تلك المساكن وتقوم على رعايتها وإدارتها . وفي الحالات التي لا تستطيع إدارة التراث استملاك الشقق التي سكن فيها بعض المشهورين ، فإنها تضع على بوابة العمارة ملصقا تذكر فيه اسم تلك الشخصية وتاريخ ولادته ووفاته ونوع شهرته ، وتضع تلك المعلومات في دليل السياحة .

ففي مدينة لندن صادف أن يكون بالقرب من سكني في «جلسي» مسكن المؤرخ والفيلسوف توماس كارليل (وهو من أوائل المفكرين الذين أنصفوا الإسلام ، وقد ترجم سيرة الرسول الكريم محمد في كتابه «الأبطال») حيث أصبح منزله متحفاً للزوار ، وسمي الشارع باسمه وأقيم له تمثال في الحديقة التي كان يجلس فيها على مقربة من نهر التايمس - ولم أكن أعرف أن غيره من الكتاب والأدباء عاشوا في المنطقة نفسها حتى لفت نظري إلى ذلك جمع من السائحين اليابانيين بالاستدلال على تلك المواقع من الدليل المكتوب باليابانية ، فوقفت معهم على تلك المواقع التي وضعت عليها تلك اللافتات .

وفي بريطانيا تشمل العناية بالتراث أيضاً المخطوطات القديمة ، وكذلك سجلات الأنساب وأماكن سكنهم . وحينما زرت مركز الوثائق والمخطوطات القريب من حديقة (كيوكاردن) ، وجدت الصفوف من المراجعين يبحثون عن شجرة أنسابهم ومساكنهم ، حيث أصبحت هذه المعلومات كما ذكر لي الموظف المختص متاحة لكل بريطاني الأصل ، ابتداء من القرن الخامس عشر وحتى الوقت الحاضر .

ونحن في البحرين ما نزال نفتقر إلى الوعي العام بأهمية التراث والإحساس بالمسئولية الذاتية والجماعية تجاه المحافظة عليه . . . ومنذ الثلاثينات

من القرن الماضي حتى وقتنا الحاضر تم هدم المئات من البيوت والمساكن والأسواق الأثرية في البحرين ، دون أن تتدخل الدولة في إنقاذها ، أو تقوم على الأقل بالتوثيق لها في شكل صور فوتوغرافية وخرائط مسح تبين تخطيطها الأصلي والمواد المستعملة فيها ، وأشهر العائلات التي سكنتها ، وذلك أضعف الإيمان .

وقد شذت عن تلك القاعدة لحسن الحظ بعض البيوت التراثية ، التي تولت إدارة الآثار ترميمها منذ السبعينات وما بعدها ، مثل قلعة البحرين ، وبيت الشيخ عيسى بن سلمان في الجسرة ، ثم بيت الشيخ عيسى الكبير في المحرق ، وبيت السيادي وسوق المحرق القديم ، ومشروع سوق المنامة ، وقلعة عراد ، وقلعة الرفاع ، وكان عملاً جيداً ومفيداً دون شك . . ولكنه عمل محدود .

إذ إن المحافظة على التراث يجب أن توضع له خطة وأولويات زمنية ، وأن تخصص له ميزانية مستقلة باعتباره مصدراً من مصادر التنمية الثقافية والسياحية في البلاد ، والتي توفر دخلاً مادياً من السياحة ومن زوار البحرين ، وفي الوقت ذاته لها مردود ثقافي واجتماعي وحضاري لا يقدر بثمن ، لا سيما حينما تقوم مدارس الطلاب والمواطنون بزيارتها .

وإذا ذكرت البيوت التراثية في البحرين واستخدامها كمراكز ثقافية ، فإن مبادرات الشيخة مي بنت محمد الخليفة تأتي في المقدمة إن لم تكن الوحيدة في هذا المضمار ، منذ إنشاء مركز الشيخ إبراهيم للثقافة والبحوث ، فها نحن نشهد اليوم ، بعد مرور ما يقرب من خمس سنوات على إنشاء المركز ، قيام مراكز متفرعة لا تقل جمالاً وروعة ؛ مثل بيت عبدالله الزائد لتراث البحرين الصحفي ، وبيت محمد بن فارس لفن الصوت الخليجي ، وبيت إبراهيم العريض للشعر ، ومكتبة الأطفال (اقرأ) ، وبيت الكورار التراثي ، وكلها قامت بجهود كريمة من رئيسة المركز الشيخة مي وإسناد مالي من قبل شركات القطاع الخاص ، وصناديق التنمية في البحرين والخليج العربي .

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى الجهود التي تبذلها الشيخة مي بصفقتها المسئولة

عن إدارة التراث والمتاحف ، ولا سيما في تطوير وسائل وأدوات المتحف الوطني ، وصيانة وإضاءة قلعة البحرين (البرتغالية) ، ومشروع إنشاء متحف دلمون - والمساعي المصنوية لإدراج آثار البحرين ضمن التراث العالمي ، والاستجابة للشروط والمواصفات المطلوبة لذلك .

وختاماً فقد أشرت في مقدمة الحديث إلى الاهتمام الذي أعرب عنه سمو رئيس مجلس الوزراء بشأن إحياء التراث ، وأمل أن تتولى السلطات التنفيذية ، ولا سيما الوزارات المختصة ، الإعلام وإدارة السياحة وإدارة التراث ، ووزارة التربية والإسكان وغيرها ، بالتنسيق مع البلديات والمحافظات ، بترجمة هذا التوجه السديد إلى مشاريع فعلية على أرض الواقع ، في مجال السياحة الثقافية والتنمية للتراث والآثار ، لكي تحتل البحرين مكانتها باعتبارها الحاضنة لأقدم حضارات التاريخ الإنساني والمستوطنات البشرية ، منذ نشوء مملكة دلمون التاريخية العريقة .

وإلى أن يتحقق هذا الأمل سنظل نتساءل كما تساءل الشاعر القديم :

(هل بالطلول لسائل رد

أم هل لها بتكلم عهد)

إن مفخرة البحرين أن تبرز حضارتها حية ناطقة ، وأن يتكلم تراثها للناس بلغة العصر ، فلقد تكلم أبو الهول في هذا الزمان ونطق ما فيه حتى الحجر .

زمان لعيننا به

في الزمن الماضي ، وفي الثلاثينات ، كان هطول الأمطار مبعث فرح وسرور للأطفال ولربات البيوت ، فقد كانت الأمطار في مدن البحرين ، ولا سيما المنامة ، تخلف وراءها بركا من الماء الشحيح آنذاك في مناطق متعددة من الأحياء . وكنت مع أطفال الحارة ألهو وأمرح في تلك المياه الغامرة ، وبعضها يصل عمقه أحيانا إلى الكتف ، مثل البركة التي تتكون في براحة بيت الصيرفي في فريق المشبر من المخارقة . ولم يكن الناس يسمونها بالمستنقع . . . رغم غضب آبائنا وتأديبهم لنا حين نعود إلى المنزل بثيابنا المبتلة . .

وكنا نقيس اضمحلال تلك البركة كل يوم بالولوج فيها . . وبعض الأشقياء كانوا (يغطون) رؤوسهم فيها ويسبحون . ولم يكن فرح ربات البيوت بهذه البرك بأقل من الصبية ، فقد كن من ذلك في شأن عظيم . فالحصران المنزلية كانت تنشر وتغسل وكذلك الثياب وأواني المنزل . . ولا تسأل أنثى عن الصراخ والعياط وعن عراك الصغار ، وأحاديث الكبار ، وعن الهرج والمرج والكلمات اللاذعة حتى يرتفع صوت المؤذن في الظهر أو المساء ، ليعود الجميع إلى المنزل فرحين بما آتاهم الله من فضله .

فإذا جف ماء الأمطار تخلف الطين والوحل في البرك وعلى جوانب الطرق ، حيث لم يكن بمقدور (البلدية) في الثلاثينات عمل شيء لإزالتها غير جرف ذلك الوحل إلى جوانب الطرق ؛ ليتراكم على شكل كتل كروية كسيرة أو صغيرة ، وتكون الأولية عادة لطرقات السوق التجارية ، ومن بعدها للطرقات الموصلة إلى السوق ، حيث يجرفها عمال البلدية على الصورة المذكورة .

أما الطرقات البعيدة عن السوق فتستمر معاناه المارة فيها من الوحل والمياه

حتى تجف من ذاتها وتتحول إلى غبار تذروه الرياح . وقد عانى الأستاذ إبراهيم العريض الأمرين على ما يبدو من تلك الحالة ، فنظم قصيدة عن البحرين والشتاء ختمها بقوله : (لا تصلح البحرين للسكنى إذا حل الشتاء)

وكانت لي في صغري هواية العبث بتلك الكتل الجانبية من الوحل لاختبار جفافها ، وذلك بالوقوف عليها وأنا ذاهب إلى السوق ، وكم من مرة غصت فيها إلى الركب وعدت إلى البيت لتغيير الملابس غير عابئ بالعقاب . ولم يكن بمقدور البلدية أيضاً جمع النفايات كلها من المنازل ، فكان يفيض منها الشيء الكثير ، حيث يلقي في مجمع للنفايات سرعان ما يتحول إلى تل صغير عند كل حارة ، يطلق عليه اسم (السمادة) فهناك سمادة فريق المخرق ، وسمادة أخرى على شارع الكنيسة ، وسمادات أخرى في مجمع كل (فريق) سرعان ما تتحول إلى ملاعب للأطفال ، الذين يمارسون التزحلق من فوق (السمادات) . . . قبل أن تزال وتنقل فيما بعد إلى فريق (المقصب) لردم البحر . وفي ذلك الزمن (زمن السمادات) كانت بيوت الحجر متشابكة مع بيوت السعف لذوي الدخل المحدود . وفيما كانت بيوت السعف الفقيرة عادية المظهر تتكون من «حضار» مربع أو مستطيل وبداخله حجرة أو حجرتان (برستج) ، ومطبخ بسيط مفتوح ومرفق بدائي ، فإن بعض بيوت السعف كان محترماً ذا طابقين وعريش على السطح تخفق فيه الرياح . . .

وكانت تلك العيش السعفية أكثر تعرضاً للحريق وتلف الأمطار وتناوب الليل والنهار . . . فبعضهم يستأجر المختصين لصيانتها ، وبعضهم من غير القادرين يستعين برهط من فاعلي الخير والأصدقاء مقابل وليمة فاخرة . . . ومن هنا جاء قول القائل : «ذاهبون لتعديل حضار فلان» ؛ أي لتناول الغداء عنده .

وكان من بعض شئوني في الصغر الوقوف عند المتطوعين العاملين على إصلاح تلك المنازل وتشجيعهم والإنصات إلى أحاديثهم ، وتبادلهم النكات على صاحب الدار «نعدل حضارة ونكسر ظهره» (أي بالإكثار من الأكل) ، ولكن أخطار الحريق لم تزل متربصة بتلك البيوت السعفية على مدار السنة . . .

وفي كل فريق يوجد (رينغويل) أي جرس كبير مرفوع على بناء حجري مرتفع ذي درجات قليلة . يصعد إليه أول المارة حين يشب الحريق ليقرع الجرس ، فيتهافت الناس إلى الموقع لإطفاء الحريق بهوس جنوني .

كنت أطل وأنا صغير على بيت (الماحوزي) في حي المخارقة بالمنامة- المجاور لنا أثناء الحريق ، بعد أن جاء والدنا بمن يساعده في تجميع الأثاث وإزالة المواد القابلة للحريق ، خوفاً من امتداد النار إلى منزلنا وهو من الحجارة . وجدت شخصاً أعرفه ويعرفه أهل الحارة بجراته وشجاعته ، راكباً على عريش يحترق ، ويده منشار وهو يحاول أن يقطع (الدنجلة) أي العارضة الخشبية التي كان واقفاً عليها . . وصرخ به الناس من المحتشدين محذرين ، لكنه استمر في عمله حتى سقط من فوق العريش ليتلقفه الناس . . . وهكذا أصبحت مناسبة إطفاء الحريق مجالاً لإظهار الشجاعة والتطوع لنجدة الآخرين . .

ثم تأتي مناسبة التبرع للمنكوبين ، فيجود عليهم كل جار وفاعل خير بما يستطيع . .

ويتمد وعي الناس وسعيهم للخير ومساعدتهم للآخرين في الضراء والسراء إلى مختلف جوانب المعاشة والحوار ، رجالاً ونساء على السواء . . . وكم من مرة شاهدت وأنا صغير رجلاً ماراً يذهب إلى والد أحد الصبية أو امرأة تذهب إلى أمه للإخبار عن سلوك يعد غير لائق كالسب أو الشتم أو معاشرة أصدقاء السوء أو التعرض لفقير أو مشاكسة رجل ضرير أو إلقاء الحجارة على منزل . . . إلى غير ذلك وأخيراً . . . كانت تلك إحدى الذكريات الماضية بمناسبة هطول الأمطار الغزيرة في البحرين هذا العام ، وما يدور من شكوى الناس بشأن البرك والبحيرات التي تشل حركة المرور للمركبات وللناس ، وتوقف كل مستعجل عند حده ، ومطالبتهم بتوفير الوسائل لمعالجتها . . مردداً قول الشاعر :

(فذاك زمان لعبنا به

وهذا زمان بنا يلعب)

(*) الوسط - ٢٠١٧ .

رمضان.. أيام الحرب

عانت البحرين ، كسائر بلدان العالم من نقص الأغذية والمواد خلال الحرب العالمية الماضية في الأربعينيات ، شأنها شأن دول العالم الأخرى .
وقد حل رمضان في البحرين خلال أيام الحرب وارتفاع الأسعار ؛ فعانى أهل البحرين وصبروا ... ولكن قريحة الشيخ عبد الحسين الحلبي الشعريه أبت عليه الصمت واستعصى عليها الصبر ، فجادت بأشعار لعلها لم تجد طريقها إلى النشر حتى اليوم ، حيث إنني وجدتها ضمن المجموعة الشعرية المخطوطة ..
فلنستمع إلى الشيخ الحلبي وهو يسجل بريشته الشعرية أحوال المعيشة في البحرين في رمضان أيام الحرب وفي شهر الصيف الحار :
أشكال وألوان (نظمت بالبحرين ١٩٤٢)

١- سوق الخضرة

خبـرونا بكم يباع الخـيار
وبكم عندكم تسام الثـمـار
وبكم في بلادكم ورق الفـجل
يساوي إن عزت الأـسـعار
قد ترقى «الرقى» عنا فأضحى
كرة حولها الشموس تدار
ونسينا «البطيخ» حتى شككنا
أهو عطر أم أمـــــرؤ عطار

ورق «الفسجل» للعروس حليّ
عندنا والرؤوس منها نثار
لو حصلنا على الشعير لما استاء
شريف من أن يقال حمار
قد سئمنا «الكراث» ليلاً نهاراً
ساء والله ليلنا والنهار
وطلبنا «النعناع» يوماً فقالوا
حاز هذا لنفسه «المستشار»
وأكلنا النخيل بسرّاً ويخشي
مالكوه أن يؤكل الجمّار
وكفانا أن أعوز الماء عذباً
أن تروي غليلنا الأبار
كثير البق بين كسرٍ وفقر
وسط أبياتنا وقل الفار
وإذا ماتت السنابير جوعاً
كيف تلقى أقواتها الأطيّار
قد علتنا الأوساخ فهي دثار
مستدام من فوقنا وشعار
أين أين الصابون عنها تولي
ثم من أين جاءت الأوضار
وحسبنا الإشنان تنقى وأن
السدر فيه تزايل الأقدار
وإذا ما الإشنان والسدر عزا
سوف نبقي لو أغنت الأحجار

٢- في رمضان

جاء شهر الصيام يسعى ولكن
خفّ مستقبلاً له الإفطار
جدّ في رده وإن قال عنا
كذباً - إننا به كّفار
لا كّفرنا به فليس علينا
فيه كفارة ولا استغفار
نحن في الصوم لم نزل وعلينا
فيه هيئات تحمل الأصار
حرج ما أتى به الدين لكن
قد تراه من دينها الأغمار
أيها الزائر المؤمل أهلاً
بك لو زال قبلك الإعسار
زر وودّع وارحل فمالك أوطان
لدينا تحمى ولا أوطار

٣- نظام البطاقات

زعم المفترون أنا حصرنا
والينا تدانست الأخطارُ
ما حصرنا - والحصر سهل - ولكن
محن القوت دونهن الحصار
نتقاضى أشياءنا بالبطاقات
سواء كبارنا والصغار
وإذا أعوز أستعير ولكن
ما يسد الأرماق ليس يعار

قد كفانا النظام كل احتكار
فيه كانت تسابق التجار
نُظِّمُ .. ما الكبار فيها كبار
لا ولكن فيها الصغار كبار

- ٤ - الأسعار

شر ما في ذوي اليسار احتقار
لذوي العسر بينهم واحتكار
لعبوا دورهم علينا ولما
يأت دور لنا عليهم يدار
سلبوا درهم القوي أبقى
لفقير مستضعف دينار
وإذا الجهر ساء في الناس ماذا
هو بالناس يفعل الأسرار
حاربونا بالسعر والحرب في الأرض
سعيير والكل منها فجار

- ٥ - الحرب الكبرى

أضرمتها الأطماع في الأرض ناراً
ملاً الخافقين منها الشرار
عمت المشرقين براً وبحراً
واعتلى للسحاب منها أوار
غطت الأرض بالدماء ومدت
بصفاح من الحديد البحار
لوتقيء البحار ما التهمته
لغدت وهي من حديد قفار

قد جناه حب التوسع ضيقاً
 فقدت وكرها به الأطيّار
 فكأن السماء سقّف دخان
 حوله دار من قتمام إطار
 وكان الأرض الفضضاء وجار
 حشر الناس فيه وهي جشار
 وكان الأجسام في الترب أحجار
 ومن فوقها النفوس غبار
 أفعلم هذا الذي دمر البلدان
 والببيت لا عدها الدمار
 أو خير ما ينبت الشرفي الأرض
 إذا طاب ما جنى الأشرار
 أين من دبّر الممالك هلا
 لنداء الضمير ثابوا وثاروا
 قل لمن عمروا لقد خرب العمران
 بغيا وابتزت الأعمار
 فني الناس والذي ملكوه
 فعلى أيهم يشن المغار
 وإذا ما الفناء عم تساوى
 بعده الانتصار والاندحار

وعلى هذا المنوال قام الشيخ الحلبي بتوثيق معاناة البشر في فترة عصيبة مرت
 بالبحرين وبلدان العالم ، أثناء الحرب العالمية ، لا بمادة التاريخ ولكن بأسلوب شعري
 بسيط حافل بالطرائف المستملحة ، والسخرية المره . . . والعواطف الإنسانية النبيلة .

(*) الوسط .

حديث النخلة

في عالم الإنسان ، تتطور النظرة إلى العوالم والأشياء ، متجاوزة قيمها المادية إلى قيم معنوية حيث تصبح ذاتها رمزا لتلك القيم . فالجبال الشاهقة المنيعة تصبح رمزا للكبرياء والشموخ ، بينما تصبح البلابل الصغيرة المغردة والحمام البيضاء ، رمزا للحب والسلام .

ولانتكلم اليوم عن الرموز العظيمة في عالم البشر ، من أجيال العظماء . وإنما نتكلم عن رمز جميل في الطبيعة العربية خاصة ألا وهو «النخلة» . . فهي إلى كونها مصدر الغذاء الرئيس لعرب الصحراء - وعرب المدن حتى وقت ليس ببعيد- قد أصبحت رمزا للخير ، والحضارة والعطاء .

بل أن من الشعراء المشهورين من اعتبر النخلة رمزاً للحضارة والبدأوة العربية معاً ، كقول الشاعر أحمد شوقي في ثنائه على اهداء البحرين له هدية هي عبارة عن نخلة من الذهب وثمارها من اللؤلؤ - وذلك بمناسبة تكريمه في حفل تقليده أمانة الشعر في عام ١٩٢٧ حيث قال :

قلدتني الملوك من لؤلؤ البـحـر

رين الاءها ومن مرجـانـه

نخلة .. لا تزال في الشرق معنى

من بدأواته ومن عمـرانه

فأما كونها رمزا للخير فيكفي في ذلك ما يروى فيها عن الرسول الكريم قوله (أكرموا أممكم النخل) . . . وما ورد عنها كذلك في أي الذكر الحكيم ، لاسيما

في (سورة مريم) ، ﴿وهزي إليك بجدع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . . . ﴾ ولا شك أن خيرات النخلة بجانب ثمرها شيء كثير .

والنخلة رمز لابتداء الحضارة في عالم الإنسان . حيث يكون تواجد النخيل باعثا على استقرار البشر وبدء العمران . وهل يمكن تصور واحة في قلب الصحراء بلا نخيل ! . .

أما عطاء النخلة بالإضافة إلى ثمرها وما يستخرج منه . فكثير أيضا . . فمنها كانت تصنع في البحرين الحصر ، والكراسي والمقاعد ، وأسرة النوم (السجم) ، ومنزات الأطفال والسلال بأنواعها ، وبيوت السعف والعرائش وصناديق حفظ الألبسة ، والحبال وليف تنظيف الصحون ، والمكانس والمراوح (المهفات) والعلاقات لحفظ الأكل ، والمقاعد (القاعدية) للجلوس على الأرض ، وموائد الطعام (السفرة) وإطعام المواشي ، والسلال الفاخرة ، إلخ . . أما الأغصان والجذوع والكرب فكانت تستعمل للوقود كما تستعمل لبناء المساكن . وما ذكرته إن هو إلا شيء يسير من عطاء النخلة . واليوم تغيرت الحال ونفقت تلك الصناعات المحلية المفيدة .

وكذلك أصبحت النخلة وما قالته للبحر والنسيم ، وللكادحين المحرومين . . . مصدر إلهام لكثير من الشعراء والقصاصين .

وجدت في إسبانيا خلال زيارتي المتكررة لها ، اهتماما بالغا باستيراد النخل من دول المغرب وزرعها على جوانب الشوارع والطرق ، واستعمالها على شواطئ البلاجات بدلا من المظلات . . وذلك رغم تكلفتها العالية . .

وفي زيارتي الأخيرة لجنوب إسبانيا ، توقفت في بلدة (الميريا) على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، عند معلم سياحي شامخ أقيم في السنوات الأخيرة على الساحل البحري . وقد انتصب فيه تمثال مهيب لشخصية عربية . ولما دنوت من التمثال قرأت ما كتب تحته ، غمرني فيض من المشاعر الجميلة ، وقلت في

نفسى : لا شك أن الإسبان أدركوا أخيراً ما يمثله تاريخ العرب في الأندلس من حضارة ورقية . . . وجاذبية للسائحين .

كان التمثال للخليفة الأموي عبد الرحمن الداخل ، (وهو آخر خلفاء بني أمية ، الذي نجح في الهروب من العباسيين وتأسيس الدولة الأموية الثانية في الأندلس) وقد كتب تحت التمثال ما معناه «من هذا المكان نزل عبد الرحمن الداخل من البحر في طريقه إلى غرناطة» . . . وذكروا تاريخ النزول ومعه هذا البيت من الشعر ، مترجماً إلى الأسبانية منسوباً إليه :

(تراءت لنا عند الرصافة نخلة

تناءت بوادي النخل عن بلد النخل)

وهكذا كانت النخلة تمثل رمزا للحنين عرب الأندلس إلى أوطانهم العربية .
أما في البحرين ، فإننا ما نزال نسميها بلد المليون نخلة . . . وربما كانت كذلك في الماضي وليس الآن !!

حين أتذكر المنامة في الثلاثينيات والأربعينات ، أتذكر معها واحات النخيل في جوف المنامة ، والتي تسمى (دالية) وكذلك (دواليب النخيل) على الحواشي منها ، حيث كانت تمثل للسكان ملجأ من حر الصيف ، واستراحة لتجديد الحيوية والنشاط ، كما كانت مجالاً للتواصل والتعارف بينهم . ومنذ بضعة أيام مررت على مساكن أقيمت في موقع كانت تحتله «دالية بن رجب» ، وحين سألت أحد الساكنين عنها أشار إلى نخلة عملاقة يتجاوز طولها الخمسين قدماً ، وقال : هذا ما بقي من تلك الدالية ، فرق لها قلبي . . . إذ يقال إن الشجر عنده تواصل ونوع من الإحساس . . . فلعلها اليوم تتحسر على شقيقاتها الماضيات .

ليست لدينا إحصاءات دقيقة عن عدد النخيل في البحرين في الماضي . . . ولكنني عثرت على إحصاء طريف ورد في موسوعة (دليل الخليج) لمؤلفه ج . ج . لوريمر المطبوع سنة ١٩٠٨ ، حيث يذكر بالتفصيل عدد النخيل في قرى البحرين واحدة واحدة في ذلك الزمن ، حتى يصل الرقم الإجمالي إلى نحو من

ثلاثمئة وعشرين ألف نخلة تقريبا ، رغم أنه تجاهل بعضها منها ، مثل السهلة الحدرية أو سهلة الصغيرة ، مكتفيا بالقول : إن النخيل تمتد على طول الطريق من السهلة بين المنامة والرفاع ، والجبيلات ، حيث قال : فيها كثير من مزارع النخيل .

وقرى البحرين التي ذكرها المؤلف كثيرة جدا ، أكتفي بإيراد أسماء تلك التي يزيد عدد النخيل فيها على عشرة آلاف نخلة مثل : بلاد القديم : ١١٥٠٠ نخلة - الحجر : ١٢٠٠٠ - جدحفص : ١٦٥٠٠ - كرزكان : ١٦٥٠٠ - مانع (ربما يقصد قرية منى) : ١٩٠٠٠ - صدد : ١٠٥٠٠ - السهلة الفوقية : ١٥٠٠٠ - الزنج : ١٢٠٠٠ - الخ ..

ولو حسبنا المساحة اللازمة لذلك العدد من النخل على أساس المسافة المتعارف عليها في مغارس النخيل (٢٠ قدما أو ٦ أمتار بين الواحدة والأخرى) ؛ لأصبحت تلك المسافة مقاربة إلى ٤٥٠ كيلو متراً مربعاً تقريبا . من مساحة البحرين الإجمالية ، والتي هي تقارب جوالى ٦٥٠ كم مربعاً . وفي الختام ، بمناسبة مأساة النخلة في بلدنا ، يحق لنا أن نعاتب أنفسنا قائلين : ماذا فعلنا بك يا نخلة .. أيتها الأم الرؤوم

حكم وأمثال الشيخ عبد الحسين الحلبي (*)

- ١ -

(خير الملوك إذا تساوا في الحجا
ملك يعز بلاده .. وتذل له)

بما لا شك فيه ، أن كتاب الله عز وجل ، هو المصدر الأساس للحكمة وللأمثال التي يهتدي بها المسلم ؛ لتنتشع عن بصيرته غلالة الجهل والظلمات ، وينجلي عن فكره غبار الخيرة والشك ، وليستعين بذلك على تلمس طريق الهداية والرشد . قال تعالى في سورة البقرة : ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ وقال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ .

وأما ما جاء في كتب العلماء والفلاسفة والمفكرين ، والأدباء والشعراء من حكم وأمثال ، فما هي إلا روافد يستفيد منها من أراد أن يستعبر أو أراد أن يستبصر .

ولقد حوى ديوان المرحوم فضيلة الشيخ عبد الحسين الحلبي ، فيما لم ينشر بعد - مجموعة من الحكم والأمثال ، أورد شطرا منها للقارئ الكريم في هذه الزاوية من واحة الشعر :

يبدأ الشيخ الحلبي أولا بالحديث عن نفسه وزيارة الشيب له قبل الأوان فيقول :

نفر الغراب عن القذال ومنيتي
أنّ الليالي لا تنفّر أجده
لا أجزعن له مضيئاً مفرقي
فالنار أفضل ما أراها مشعله
الزرع يحصد سنبلا لكنني
أسى ، لأنّ الشيب آخر سنبله
أهلا به ، لوزار في أبّانه
لكنّ صرف الدهر نحوي عجله
قد سأل منصله عليّ وإنني
أخشى بأنّ الترب تغمد منصله

ثم ينتقل بعد المشيب إلى الشباب ، وغرور المرء فيه ، وتضييع أوقاته الثمينة
في اللهو ، فيقول :

أه على زمن الشباب لو أنّه
ردّ التّأوه ، فائتاً .. أو أمهله
لولا غرور المرء في غلوائه
لحسبته أحلى النّعيم وأفضله
غفل المضيّع للشباب بلهوه
عن أنّه بيديه يفري من فصله !

ولزمان المشيب عند الحلبي فوائد ، لاسيما فيما يتصل بطلب ما فات من
العلم ، فيقول :

حسبي من اللذات بعد مشيبتني
حليّ لأسرار العلوم المشكله

سهرى لها ليلا ألد لمهجتي
من كل دريلة تسرّ ودركله
العلم إن لم ينتفع فيه الورى
كالبئر فيها الماء .. وهي معطّلة
وإذا الفتى ذو العلم كذب علمه
بفعاله .. أولى له أن يجهله

وبعد تلك المقدمات ، ينشر الحلبي على قرآئه باقة جميلة متنوعة من تلك
الحكم والأمثال ، يستعرض فيها العادات والقيم والأخلاق وحسن الفعال ،
حيث يضيف قائلاً :

خير العلوم إذا توازن قدرها
هو علم آيات الكتاب المنزله
دين الطبيعة جاء فيه مفصّلاً
ولقد كفى الأجيال فيما فصله
خير الملوك - إذا تساووا في الحجى -
ملك يعزّ بلاده ... وتذلّ له
خير البلاد ، هي التي استوطنتها
بالعزم مخصبة غدت ، أو محلّه
خصب البلاد بأهلها فإذا همو
جهلوا .. فما أدرى ثراه وأمحلّه
خير الأكفّ - إذا تشابه برّها -
كّف تجود عليك ، قبل المسألّه
خير القلوب هي النزيهة عن أذى
وقذى ، وإلا فهي أخبث منزله

أوفى خليل من يكون جميعه
لك في الشّدائد والرّخاء ، وأنت له

(*) فضيلة الشيخ عبد الحسين الحلبي ، قدم إلى البحرين من النجف الأشرف في العراق سنة ١٩٣٦
واستوطن فيها ، وشغل منصب رئيس محكمة التمييز الشرعي منذ ١٩٣٦ حتى وفاته عام ١٩٥٦ -
ودفن في مقابر العلماء بالبحرين .
(*) الوسط - ٢٠٠٤ .

حكم وأمثال الشيخ عبد الحسين الحلبي

- ٢ -

من تصفح مخطوطة ديوان الشيخ الحلبي ، تبدو أغراض الشعر التي تطرق إليها كثيرة ومتنوعة الموضوعات . فهي تشمل العلاقات الاجتماعية ، والأخلاق ، وصفات الأفراد من وفاء وكرم وبخل وشجاعة وعلم ، كما تتطرق إلى العلاقات الاسرية ، والصدقة ، والهجر والعتاب ، وكذلك مشاعر الغربة والشوق والحنين ، والتأسي على فقد الأصدقاء ، وإزاء التهنئات . كما تطرق الحلبي في أبداع ما نظمه ، إلى خوالج نفسه وشعوره بالغربة والشكوى والحنين والتمرد على الواقع ، والحب ، كما لم يهمل مشاعر النفس الإنسانية ومعاناة البشر من ضيق العيش ، والتشاحن ، والحروب الظلمة ، وشرور المجتمع وآفاته .

والشيخ الحلبي يعد من الشعراء الذين هاموا في حب الطبيعة وجمالها ، وله قصائد جميلة في وصف البلابل والأطيوار ، وتنظيم الرياحين ، ومناجاة القمر ، وجمال الطبيعة عموماً ولا سيما في العراق - موطنه الأول . فيقول مثلاً مخاطباً الكرخ ببغداد :

(يالوالي بأعلا الكرخ عودي
علّه يخضّر في عودك عودي)
(فرت فيه بجنان جمعت
بين قضبان غصون وقود)
(بيدي الناهد من رمانها
واليد الأخرى لرمّان النهود)

(أنشق التفّاح فيها خجلا
لم لا أرشف تفّاح الخدود)

.. الخ

وبما قاله في موضع آخر عن هيامه بالأزهار :
(إنني امرؤ بهجة الأزهار تسحرني
وما سوى نغمة الأطيّار ترقيني)
(هذا جنوني ، ولكن لا أعيش به
بلذة وهنا ، عيش المجانين)

وفي المجالات الوطنية والقومية ، كتب الحلبي أجمل قصائده في الحنين إلى
الوطن ، والثورة العراقية في العشرين ، وكتب عن فلسطين ، والأمة العربية ،
والقومية .. وبما قاله في ذلك :

(آه على وطني ، ولولا غربتي
في القوم لم تغمرني الأهات)
(لم يجدني الإفلات عن قوميتي
والقوم عنها ما لهم إفلات)
(لولا التفرّق كنت فيهم واحدا
منهم ، تشايح ما يراه مئات)

وبما قاله في الحنين إلى الوطن :

(له صبوت ، وما في صبوتي عجب
إنني شربت هواه العذب في لبني)
(قالو : أتبكي على الأحجار قلت لهم
بهنّ مرمس أبائي الكرام بني)

(بمعشري وبإبائي ، وبني رفعت
منه المقاصير في الأرياف والمدن)
(بها نشأت وفي أبياتها انتزعت
تمائمي ، وبها اقتاد الهوى رسني)
(ما للنفوس سوى أوطانها ثمن
وليس للوطن المحبوب من ثمن) ...

على أنني سوف أتجاوز ما ورد في شعر الحلبي في مجال الحكمة وفلسفة
الحياة وبقية الأغراض التي نظم فيها .. لأختتم هذه الحلقة الثانية بما ورد له في
الحكم والأمثال :

.... النفس مزرعة فإن هي لم تكن
روضاً بهيّ الورد ، كانت مبقلة
والودّ أنواع وخير صنوفه
ودّ ، وآخره يشابهه أوّلّه
البّر خير كلّه وأبـرّه
ما كان عجله الكريم وأجزله
بالعقل كّف حجاج نفسك إنها
ترديك إن بقيت جموحاً مهملة
لا خير في أصل تجفّ فروعه
لجفائه ، كالبحر يظمى جدوله
لا خير في فرع إذا لم ينعطف
يوماً على أصل له ، ليظّله ...

حكم وأمثال الشيخ عبد الحسين الحلبي

- ٣ -

... وبما حفل به شعر الحلبي من أغراض ، هي أشعاره في فلسفة الحياة ،
وخفايا النفس البشرية ، ومنطق الحق والقوة ، والدعابات البريئة ، ورتاء أهل
البيت ، علاوة على ما حفل به الديوان من مساجلات شعرية وإخوانيات .
ففي مجال الإخوانيات ، كانت للحلبي مراسلات شعرية مع الأستاذ المرحوم
إبراهيم العريض ، تستحته على المضي في قول الشعر وعدم اليأس ، لاسيما بعد
أن نظم العريض أبياتا يعبر فيها عن خيبة أمله ، ويأسه ، مثل تلك التي ابتدأها
بقوله :

نفـضت كـفـي من ورد ومن أس
وعدت بالشوك إكليلا على راسي)
(لا يطمح الطير والأشراك ترصده
أن يستقل بوكر فوق مياس)

فقد بادر الحلبي بتوجيه ما يزيد على أربع رسائل شعرية يعاتبه فيها
ويستحته على مواصلة إنتاجه الأدبي .. من ذلك قول الحلبي :

(بحياتي .. عد إلى الفن الذي
هو روح ، وهو روح لحياتك)
(أنت إن طلقته ، أم على
كثرة العشاق من غير لداتك)

(لا سقى الغيث نوادي أدب
أعوزت أربعها ، من بركاتك)

ومن رسائل الإخوانيات التي ذاع صيتها ، القصيدة التي أهداها الحلبي
للأستاذ جعفر الخليلي صاحب مجلة (الهاتف) ، والتي سميت (دلة من
قريض) والتي قال عنها الحلبي :

(هي ذي دلة تصاغ قريضا
لا بفرض ولا بطرق وشعلة)
(لبست من ثواقب النجم تاجا
وأعارت مصبها للأهلة)

مما حدا بأحد المعجبين من الشعراء ، ولعله محمد حسن حيدر ، لإجزاء
قصيدة إعجاب للحلي قال فيها :

(أنت ربّ البيان ربّ القوافي
ملك الشعر أنت ، والشعر دولة)

أما في مجال فلسفة الحياة ، فمن القصائد التي عبّر فيها الحلبي عن مشاعره
وأفكاره ، تلك التي كتبها عن أبي العلاء المعري بعنوان (رهين المحبين) ، والتي
ابتدأ فيها بقوله مخاطبا فيلسوف المعرفة :

(أنت فيما ارتأيت حرّ طليق
ليس يثنيك عنه سجن ، وضيق)
(سرت والناس في طريق ولكن
بك ، لا بالجمهور ، غصّ الطريق)
ثم يقول : (وتبرّمت بالنظام ومن ذا
يرتضي ما به تضيع الحقوق)

ويقول : (حار فكريا «بعالم» قلّ مالا
يتخطّاه «جاهل» —رزوق) ..

وربما ظن البعض ، أن الحلبي كان يتخذ الشعر صنعة ليسمو بها . ولكن الحقيقة غير ذلك ، لأن الحلبي لم يقصد الشعر وإنما الشعر هو الذي قصد إليه ، وذلك من واقع تذوق الحلبي للجمال في كل شيء ورقة أحاسيسه ، وقدرته الفنية على التعبير ، وامتلاكه ناصية القول ، حيث اتخذ سبيله في التعبير منحى الشعر ، الذي وجد فيه سلوانا من الهموم ، وترويحاً عن النفس ، وخليلاً يفضي إليه بخلجات نفسه . أو كما قال هو مخاطباً أحد أصدقائه الأدباء :

(ما الشعر فخري ولكن

لي فيه سلوى .. كمالك)

وقد استمر الحلبي في تعلقه بنظم الشعر ، وهو يعلم تماماً أن البيئة العلمية في النجف لا تستحسن من العالم الفقيه قول الشعر . ولعل الحلبي كان يعاني من نوبات من الصراع بين قول الشعر أو الامتناع عنه ، حملته في أحيان كثيرة (بشهادة عارفيه) على حرق كثير من أشعاره أو تمزيقها .. وكأن الشيخ غير رأيه في أخريات عمره ، حيث عمد إلى جمع ما نشره منها ، ولملمة ما بقي منه لديه ، وعكف على ترتيب كل ذلك لإخراجه بشكل ديوان شعر ، وكتب بنفسه عناوين القصائد ومناسبات معظمها ، ولعله أيضاً كتب مقدمة سيرة حياته ، دون أن يكملها .

وعوداً إلى استكمال حديثنا حول حكم وأمثال الحلبي ، نقول إن الحكم والأمثال متناثرة في كثير من قصائد ديوان الحلبي ، طبقاً لأغراض كل قصيدة ، وإنما اخترنا منها واحدة بذاتها لكونها مخصصة بكاملها للحكم والأمثال . وفيما يلي الشطر الأخير من هذا الاستعراض :

... (من لم يزلزل في عدوّ بلاده

بلدانه ، يلقي عليه زلازله)

(من كان يغرس حنظلا لا يجتني
مما جنته يده .. إلا حنظله)
(جانب فضول القول منك فرما
قتلتك بادرة ، عليك مسجلة)
(بادر إذا سنحت أمامك فرصة
فلرما عنها تصدك عرقلة)
(لا تخضعن لأجل مال أو لمن
للمجد فضل المال دونك أهله)
(المال أحقر أن يذل له امرؤ
بقواه متّعه الإله وكمّله)
(وإذا طمعت من الكرام بدرّة
لا تطمعن من اللئام ، بخردلة)
(وإذا دخلت الضنك فاطلب مخرجا
لك ، قبل أن تدنو إليه وتدخله)
(عمر الفتى الأيام ، وهي رواحل
تغدولهن بكل يوم منزلة)
(لا تخلدنّ لحالك الماضي بها
ما أنت إلا ابن الليالي المقبلة) ...

**

(انتهى)

الشعر: فن وإبداع

- ١ -

مناسبة هذا القول .. قطعة من الشعر قرأتها في (الوسط) الأخير ، يدور معناها حول محاولات نظم الشعر وملاساتها .

يحسب الداخِل إلى دنيا الشعر ، أن هذا العالم الغريب هو بمثابة (فرصة) تتيح له متعة الروح ، حين تخلق على أجنحة الخيال ، وأنه سوف يحظى بالسعادة ، ودفء الحب ، وسحر الجمال ، وفوق ذلك بإعجاب القراء . ولعل ذلك ، في أول أمره .. كذلك .

ولكن الثمن الذي يقتضيه التمرس بالشعر والإجادة فيه ليس باليسير . وكما يبدو ، فإن شياطين الشعر ، أو بنات الشعر - على وصف الأقدمين .. أو ملكة الشعر الفنية - على قول المحدثين ، لا تنتزل على كل قلب .. وهي ربما تغالي في ثمنها مغالاة الحسناء في مهرها .. وهل من ثمن أعلى من انشغال القلب والفكر ، ومعاناة الصبر في استخراج المعاني واصطياد الكلمات ، واستجداء أوزان الخليل بن أحمد وقوافيه ، أو الوقوف طويلا على أبواب سيبويه! ذلك هو مما ينطبق على الشعر الكلاسيكي الموروث ، والذي أصبح في مسمى هذا العصر الشعر العمودي ، أو شعر التفعيلة ، إلخ .. وقد قيل قديما إن من شروطه لمن يروم أن يبرز فيه ، أن يكون حافظا جيدا للشعر ، بحيث يجري على لسانه ما لا يقل عن عشرة آلاف بيت من الشعر ، وأن يكون ملما بلغة الشعر ومفرداته ، وبعلم العربية وآدابها ، وأن يتمتع أيضا بقسط وافر من الخيال المبدع .. وتلك لعمرى وصفة ولا شك مكلفة .

ولكنني أعلم أيضا ، أن من أصحاب المحاولات الشعرية ، من استطاع
الدخول إلى (الحلبة) دون أن يتجرع شيئا من مرارتها ، ثم اجتازها (أو خيل له
ذلك) وكأنه يقول للآخرين : «تفاءلوا بالشعر .. تجدوه» ...
تعالوا معي الآن نسأل بعض الشعراء ، في أمر تجاربهم في الشعر ، وما قالوه
في ذلك .

روى «عكرمة» - من العهد العباسي - قصيدة جميلة زعم أنها «يتيمة» ولم
ينسب لقائلها . يقول فيها الشاعر وهو في غاية السعادة من أمره :
(وكنت إذا ما أردت السقريض
تخبرني الجنّ ، أشعارها)
(أروم صعاب قوافي القريض
حتى تذلّ ، فأختارها)
(قواف يوردها «صاحبي»
إليّ .. وأكففيه إصدارها)

ذاك شاعر قديم . ولدينا شاعر حديث يذهب إلى النقيض من ذلك ، وهو
الشيخ عبد الحسين الحلبي ، الذي يبدو غير مرتاح ، فهو يتهمك على الخليل بن
أحمد بما اخترع من قواف وأوزان ، حيث يقول :

(.. ولو أن القريض يصبح بستانا
فما فيه نخلة ذات غلّة)
(أنا والله لا أرى الشاعر الفطحل
يجني بالشعر غير المذلة)
(ليس ينفك حائرا لو تراه
لم تخله إلا غريقا بوحله)
(.. قلل الله منه كلّ كثير
وكفانا بوافر العزّ ، ذلّه)

(وأرانا (بحوره) غائضات
وقسوافيه غائضات برمله)
(وأعاريضه ، تقطع أوصالا
ومنها (الروي) يعدم وصله)
(ليراها (الخليل) وهي تماثيل
من السّود ، في البرية مثله) ..

وإن جاز لي أن أضيف شيئا مما قلته ، فقد قلت ما يلي :

(.. لا أنظم الشعر إلا عن طواعية
ولا أقول بأني شاعر العرب)
(إن أمني الشعر أدنيت الوساده
وإن تناءى ، تناءى غير محترب)
(تخذته لي خلا ، إن صفا فله
مني الوصال ، وقد يجفو بلا سبب)
(والشعر إن جاء كرها فهو منتقص
وإن أتى طائعا .. يأتيك بالعجب)

على أنني أخشى - بل أتوقع - بعد كل ما ذكرته عن محاولات نظم
الشعر ، أن يظن القارئ ، أنني أدعو إلى انصراف محبي الشعر عن محاولة نظم
الشعر ، وليس الأمر كذلك . بل الأولى أن أحثهم على المثابرة بإصرار وعناد ،
ولكن مع استيفاء مقومات الشعر في الشكل والمضمون . وسوف أختتم هذا
الفصل بمداعبة مع (بنات الشعر) لأعود إليه في فصل قادم - بهذه الأبيات :

(شغلت بالشعر عن الشعر
فسل (بنات الشعر) عن أمري)
(سايرتها في كل ما تشتهي
رضيت بالقييد وبالأسر)

(أعطيتها جهدي وفني فما
جادت بإحسان ولا شكر)
(سكبت أفراحي على خدّها
فأزهرت في وجنة السّطر)
(ذويت أحلامي على جفنها
من كل طيف غامض السرّ)
(ألبيتها الأثواب قد وثّيت
أطرافها بالأنجم الزّهر)
(تسحب فوق الغيم أذيالها
وتكتسي من زبد البحر)
(حتى إذا مرّت أمامي وقد
تألّقت .. بالوشى والعطر)
(ناشدتها: ما أنت؟ قتالت إذا
أردت أن تعرف .. سل غيري)

الشعر فن وإبداع

-٢-

... واستكمالا لما تقدم في الحلقة السابقة ، فقد كتب كثير من الشعراء عن أشعارهم ومعاناتهم الشعرية . وكان لزاما علينا أن نسأل شاعر البحرين الأستاذ إبراهيم العريض عن ذلك ، وها هو يشاركنا في القول ، بهذه الأبيات الجميلة من ديوان «العرائس» :

.. (قلت يوما لابنتي ليلى وقد
أخذت ديوان شعري ، تتغنى)
طبت يا ليلاي نفسا فافهمي
ليس كالشاعر في الأرض معنى)
(هو من أحلامه في جنّة
فإذا حدث عنها ، قيل جُنّا)
(كلنا طائر في قفص
إنما يطلقه المجدود منّا)
.. (يحسب الناس جواه أدبا
قلّ من شاركه فيما أجنّا)
ثم يطوي ليله صبح فلا
هو للحبّ .. ولا من حبّهنّا)

ولقد خيّل إليّ ، بعد إيراد تلكم النماذج ، أنني استوفيت الموضوع ، وأن بإمكانني أن أقفل باب هذه «الفذلّة» عن الشعر والشعراء ، لولا أن طرق الباب طارق يعرفه الشعراء ، وألحّ عليّ بتقديم اعتذار عما سقته من استشهادات فيها تقليل من شأن الشعر وشياطينه . وكما يفعل المتمرسون بانتزاع الإفادات من المتهمين ، فقد طلب أن أضع اسمي على أبيات هذه القصيدة التي أنشرها لتكون خاتمة المطاف ، طمعا في رحيله عني . . . ربما . . .

قدر الشعر

قدر الشعر صار رمية رامية
 فاز فيها المغبون بين الأنام
 فهو في محنة الضمير إذا ما
 عجز القول عن بيان المرام
 إنّ مأساة شاعر ينطق الحقّ
 روتها الأجيال ، من ألف عام
 «فجلوا صارما ، وقالوا : صدقنا
 وتلوا باطلا ، بحمد الحسام» (*)
 قد مضى الشعر حين ولّى بنوه
 كسدت سوقه لدى السّوام
 أيها الشعر : ما الذي يجتنيه
 طالب القرب منك ، غير السّقام ؟
 صاحب الشعر لا تراه سويا
 حين يمشي ، وصحوه كالمنام
 وتراه مؤرقا ، حين يغفو
 الناس ، مستسلمين للأحلام

ناظم الشعر، يتّقي عشرة الأوزان
رعباً.. ونفسه في ضرام
مستلذاً عبذابه في القوافي
وكأنّ العذاب.. كأس مدام!
ليس يرويه مصدر من بنات الشعر،
إلاّ من مصدر الإلهام
يصف الحبّ والغرام كمن ذاق
عذاباً، بصبوة أو غرام
تترأى له الحروف نجوماً
ثمّ تخبو، كتائه في الظلام
يا مجداً في صيد غرّ المعاني
بين كرّ الإقدام والإحجام
سل عن الشعر من قضى العمر فيه
وتزوّد ببلغة، أو طعمام
وتسامر مع المجيدين فيه
من ذوي الشعر أو ذوي الأفهام
«فرصة» الشعر قد تحيىء مع الإبداع
.. طوعاً، وليس بالإرغام
غير أنني منه على مفضض الصبر
مقيم.. ويا لعسر مقامي
لا يرى الناس فيه بلغة عيش
وفصيح الكلام... كالأعجام

أنا إن أمني من الشعر شيطان
مريد، صرفته من أمامي

وتعوّذت ، ثم أغمضت عيني
وهو ما زال وقفًا قدامي
ليس همّي «سهمي» من الشعر
لكنّ همومي من راميات السهام !
يستبيني حيناً ، بنخود تثني
في جمال الصّبا ، وحسن القوام
أو برعى من البساتين والأزهار ،
والطّير ، صادح الأنغام
وإذا خاب ظنّه ، نكأ الجرح ،
عميقاً... بموضع الآلام
في مصاب تسخّ فيه عيون الشّد
عمرهتانة .. كقطر الغمام
أو بجرح دام ، على ضفّتيه
فزع في محاجر الأيتام
في فلسطين ، والعراق ، وحشد
من جماهير شعبنا المستضام
لم يعد همّها التشكّي من الحكّام ..
لكن : من «حاكم» الحكّام !
نحن في «التيه» مثل أعمى تحرّى
بيديه ... مواضع الأقدام
نكبة «الحرّ» حين يطلب حقّاً
فيسمّونه : عدوّ سلام !
ويراه «المحتلّ» ، مصدر إرهاب
.. إذا دبّ عن حمى (الإسلام)

منطق «القوة» استوى منطق «الحق» ..
وما «سلمه» ، سوى «استسلام» .

(انتهى)

(*) معنى البيت يشير إلى قول أبي العلاء المعري :

(جلوا صارما ، وتلوا باطلا وقالوا : صدقنا ، فقلنا : نعم)

(*) .. الوسط ٢٠٠٤ .

البلاغة في نهج البلاغة

الكلام المعجز هو كلام الله عزّ وجلّ في قرآنه الكريم . وإعجاز القرآن بحر غزير الأعماق لا تنفذ ذخائره .

ثم تأتي بعد ذلك ، البلاغة النبوية فيما صدر عن النبي الكريم من قول وموعظة وحكم وخطاب .

ولا يختلف أولو العلم في زمان أو مكان ، في أن خطب الإمام علي بن أبي طالب وأقواله المأثورة ، تأتي في الدرجة الثالثة ، مستمدة نورها الوهاج من إعجاز القرآن ، والبلاغة النبوية وشعلة الإيمان ، ومنهج الحق والصدق الذي انتهجه أمير المؤمنين لآخرته ودنياه . أو كما عبر عن ذلك بصدق الشاعر المرحوم مصطفى جمال الدين في قوله :

(ضرب الله بين وهجيكما
حدًا فأنت المنار وهو المنير)

وقد اشتهرت خطب الإمام علي بالفصاحة والبلاغة حتى أصبحت مدرسة بذاتها . وأصبح «حفظ كلام الأصلع» جواز المرور في عالم الأدب والفصاحة . وأول من عكف على جمع خطب أمير المؤمنين وأقواله هو نقيب الشرفاء في زمانه ، الفقيه العالم والأديب الشاعر السيد الشريف الرضي (٣٥٩ - ٤٠٤ هجرية) الذي شهدت بعبقريته الأجيال ، فجمعها في كتاب «نهج البلاغة» . ثم جاء من بعده العالم المؤرخ الأديب (ابن أبي الحديد) في القرن السادس الهجري فأضاف إليها شرحا موسّعا في عدة أجزاء ، وألف كتابه المشهور في

شرح نهج البلاغة ، وأصبح مرجعا للدارسين وموسوعة قيمة في الأدب والتاريخ وعلم اللغة .

... ثم كتب آخرون عن نهج البلاغة على مدى الأجيال . ومن هؤلاء الشيخ ميثم البحراني من علماء البحرين في القرن التاسع الهجري ، الذي انتهج في شرحه تأويلا روحانيا صوفيا ، كمنهج في درب السالكين ..
أما في العصر الحديث ، فقد عكف شيخ النهضة الإسلامية بمصر الشيخ محمد عبده ، على جمع خطب الإمام علي بعد استبعاد ما رآه مشكوكا فيه عنده ، وطبعها في قالب حديث مقتصر على الشرح الموجز ، وذلك في كتابه (شرح نهج البلاغة) الذي فرض نفسه على جميع المكتبات الخاصة والعامّة كمرجع لا غنى عنه .

وسرعان ما تنازع أولو الاختصاص من أعلام الأدباء المشهورين ، لاسيما في مصر ، حول صحة نسبة بعض من تلکم الخطب إلى الإمام . بعضهم بدافع التحقيق العلمي ومعظمهم انسياقا وراء حملة التشكيك في التراث الأدبي القديم شعرا أو نثرا ، والتي حمل لواءها الدكتور طه حسين ومن شايعه . فمنهم من قال بعدم صحة بعضها ، ونسب الزيادة لمن جاء بعد الشريف الرضي .. ومنهم من نسبها للشريف الرضي نفسه ، ومن بين هؤلاء وأولئك من قال : إن الشريف الرضي بذل جهده في الجمع ولم يبذل الجهد نفسه في التحقيق وهو قول الدكتور زكي مبارك في كتابه عن «عبقريّة الشريف الرضي» .

وليست مناقشة تلك الأقوال والمزاعم هي موضوع هذه الزاوية ، ولكن هنالك أمور متفق عليها ولا ينال منها التشكيك من مثل :

١- أن استبعاد بعض الخطب لا يضير «نهج البلاغة» من حيث قيمته ومكانته .

٢- أن السيد الشريف الرضي ، وهو سليل السادة الأشراف ، كان معروفا بقدرته على التحقيق في المسائل الفقهية ، ونصوص التأويل وأمانة النقل .. فكيف يفرط فيما ينسبه إلى جده أمير المؤمنين .. وهو على تلك المنزلة من

حب الإمام علي والأئمة الأطهار من بعده .

٣- أن استبعاد بعض تلك الخطب التي قيل إنها ليست على شاكلة أسلوب الإمام ونهجه في الخطابة ، وأسلوب عصره المميز ، لا يضير الشريف الرضي - إذا ثبت أنها مدسوسة عليه ، أو إذا ثبت أنها أضيفت من بعده . ولا شك ان الشريف الرضي هو أقدر من غيره على معرفة ما يتماشى مع أسلوب الإمام وأسلوب عصره .

وخلاصة القول : فإن كتاب «نهج البلاغة» كما هو بين أيدينا اليوم سوف يظل نبراسا للسالكين في مناهج البلاغة والزهد وعلم اليقين ، ومرجعاً خالداً للدارسين .

كنت مع الأستاذ المرحوم إبراهيم العريض في زيارة للأستاذ الأديب اللبناني (ألبير أديب) صاحب مجلة «الأديب» خلال الستينيات وسألته : بماذا تشغل أوقات فراغك ؟ فأجابني : (وهو للعلم من الإخوة المسيحيين) قائلاً : أملاً وقتي بقراءة القرآن الكريم ثم كتاب «نهج البلاغة» . . . ثم إنني أقول مطمئناً : إن خطب نهج البلاغة ليست نهجاً للبلاغة فقط ، وإنما هي سبيل للمتقين الصالحين أينما وجدوا . إنها مدرسة لسلوكيات المسلم والإنسان عموماً ، لكسب رضا الله ، والتمسك بالقيم الإنسانية النبيلة .

وبعد - فإن استشهاد الإمام علي في شهر رمضان المبارك على يد أشقى الناس (ابن ملجم) وموقف الإمام النبيل في قوله ما معناه : إذا عشت فأنا أولى به ، وإذا مت فإنما هي ضربة بضربه ، وإياكم والتمثيل بالرجل (يعني عدم الانتقام من ابن ملجم إذا لم يمت من ضربة واحدة) ، وكذلك ما وردني في البريد الإلكتروني من أحد الإخوة الشرفاء ؛ وهو الأستاذ الدكتور أحمد الهاشمي المقيم في كندا ، أثار في نفسي هاجس الكتابة لأقدم للقراء الكرام تلك النصوص القيمة ، التي أرسلها وموضوعها (الصور الفنية في نهج البلاغة) عرفت أنها وردت إليه من القاهرة بتوقيع «جنان» ، باعتبارها بحثاً مقمداً إلى إحدى الجامعات .

وما لفت نظري أن الورقة المشار إليها تعالج الصور الفنية البلاغية لا بالمنظور التقليدي ولكن من منظور أدب الحداثة العصري ؛ وهو الأسلوب المفضل اليوم لدى أوساط الأدباء الحداثيين . وفيما يلي نص الورقة كما وردتني في البريد :

الصورة الفنية في نهج البلاغة

قد يكون مصطلح الصورة الفنية من أشد المصطلحات غموضاً ولبساً واحتمالاً من الدلالات والتأويل . فحالة الانزياح التي تحدث عنها البنيويون تمثل أفضل حالات التصوير الفني في الإبداع . وهي في تفسيرها القريب ، تحويل المفردات من معناها القاموسي إلى فضاء تحمل فيه معاني جديدة مما يضع المتلقي أمام حالة جديدة من الإدهاش ؛ أو قل هي صدمة التحديث في الإفادة من طاقات اللغة . . . والتشبيه في أفضل حالاته تصوير . والاستعارة صورة ، والمقارنة بين شيئين في النص الأدبي وتحميلهما معنى جديداً يُعدُّ كذلك نوعاً من التصوير الفني . ولو أنك بحثت عن مصطلح الصورة الفنية في أفكار عشرة نقاد وعلماء الجمال ، لحصلت على عشر صور تتقارب وتتباعد . ولكن عمق الدلالة في النص ، مما يقدم للنص أبعد من مدلوله اللفظي صورة . والطفرة والجدة في استخدام التعبير ، والبعد عن التعبير المألوف كذلك لون من ألوان التصوير الفني في النص .

على أننا لو حملنا جميع هذه الدلالات ، ونحن نقرأ كلام أمير المؤمنين ، لوجدنا آثارها القديمة والحديثة في أحاديثه وخطبه حتى لنستطيع القول : إن كلام علي تصوير فني كله أو بعضه ضمن أي معيار نقدي : (ملكنتي عيني وأنا جالس فسبح لي رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله ماذا لقيتُ من أمتك من الأود واللدد . . ؟ .) . أليس في هذا النص إضافة إلى أناقته الباذخة ، وبلاغته وتكثيفه ما يقع في أفق التصوير الفني يوم قال الإمام : ملكنتي عيني؟ أوليس التعبير جديداً كله على العربي ؟ إذا كان ذلك فالإمام أول من شق أفق الصورة الفنية في النص الأدبي .

ولن تغيب ظاهرة فنية الصورة عن كلام الإمام بطول الأثر الذي - ربما لا يعرف الناس غيره - وهو نهج البلاغة . وعبر كل حديث طال أو قصر كانت ريشة الألوان تمازج النصوص حتى ليظن المتلقي أن كلام علي كُله يتحرك على بسط موشاة من الصور البديعة بألوان نادرة وزخارف متفردة في خصوصيتها ، لا تتأتى إلا لصاحب النهج الذي دون الوحي لرسول الله ، وامتزجت أنفاسه بأنفاسه ، واستغرقه فذاب فيه .

ولا يشك من يطلع على لغة أمير الكلام أنه كان يخطب أو يكتب أو يوشوش المحبين ، والعصور اللاحقة أمام عينيه وفي مجال رؤيته ورؤياه . فلم يكتف باستخدام التتابع اللفظي الذي يجيء إلى متلقيه عفواً وبلا تصنع أو تكلف . وإنزال الحروف المتشابهة في أواخر الجمل ، حتى تتكوّن جمل حديثة بإيقاعات موسيقية عذبة النقلات لذيدة الوقع شهية التلقي : (فإن الغاية أمامكم ، وإن وراءكم الساعة تحذوكم ، تخففوا تلحقوا ، فإنما تنتظر بأولكم آخركم) أما حذاء الساعة وتحميل هذا الرمز حواس المنشد الذي يحدو الإبل يحثها على المسير ، فهي الانزياح التي تحدث عنه البنيويون بعد الإمام ببضعة عشر قرناً من الزمان . فحمل اللفظة أبعد من مدلولها المألوف ، ليتكثف الإيحاء وتتزاحم المعاني .

ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها . وأي ثوب ترى تلك المدينة ؟ وما الذي يخطر على ذهنك حيال هذه الصورة المدهشة ، التي كان الإمام بارعاً في صوغها وإنزالها في موقعها . أو يهرع إلى خاطرك عندما تسمعه يقول : (فلأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه ؟) إنها ظاهرة تجسيد ما ليس مجسداً والبأس غير محسوس لبوس المحسوس ، إلى أشياء جديدة من دون أن تفقد تواصلها مع معانيها الأولى . وكيف يتجسد الأمر ؟ بل كيف تتحول مسألة ذهنية إلى كيان حي في الصورة التالية : (ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه)

وكان يرسل كلامه على هونه ورسله ، أو هكذا يفهم من يقرأ . ومع تدفق السلاسة والتحرك على قمة البلاغة ، تفجؤك صورة لم تكن قريبة من ذهنك أو

لم يكن خيالك واصلاً إليها ، لتتوقف وقفة الإدهاش أمام خطوطها وغرابة تكوينها . وتلتقط أنفاسك لتقرأ من جديد : (أرسله حين فترة من الرسل ، وطول هجعة من الأمم واعتزام من الفتن ، وانتشار من الأمور ، وتلظ من الحروب والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من ورقها وإياس من ثمرها . . .) ألم يتبادر إلى ذهنك كيان الشجرة ؟ حسنا . هل كنت تتوقع أن يرسم لك الإمام شكل الشجرة وتكوينها وألوانها ، وهو يتحدث عن الدنيا وعن موعد بعث محمد لإنقاذ العالمين ؟ ما لم يكن متوقفاً أن يحدث ، وهو الذي يحدث ، لتظل الصورة الفنية ذات الطرافة والجدة والإدهاش هي التي تشكل محور الكلام لدن علي أمير الكلام .

بهذا النموذج الأسمى يقتدي أمير الكلام ليفقأ عين الفتنة ، بعد أن أبصرها بعين قلبه ويُعد بصيرته وشمولية رؤيته ، بحراً متلاطماً في ليل أعمى ، كما رآها مصابة - وهي هنا كيان حي - بداء الكلب الذي يصيب فلا بُرء من إصابته . وهكذا يرى الفتنة من استطاع إطفاء حُممها وإخماد لهيبها ، على أنه لم يُنه تصوير الفتنة في حديث واحد بل سيعود إلى الحديث عنها في تصوير أسر آخر عندما نادى مرديه وصحبه والسادرين - كذلك - في غياهب الدنيا : (. . . سلوني قبل أن تشعر برجلها فتنة . .) وهي لا تقل سُموماً عن الصورة السابقة : كأن هذه الصورة المدهشة كانت تتخلق ببسر وسهولة في أحاديثه جميعها لتتحول لغته إلى مستودع الصور الجديدة المفاجئة ، كما كانت لغته مستودعا للحكمة .

والصورة الفنية لم تكن زخرفاً في كلام الإمام ، بقدر ما كانت تتدفق عبراً وعظات وتعليماً تجده على مرور القرون . فكان يرى : (الدنيا منتهى بصر الأعمى) وكان يرى : (عدو الله إمام المتعصبين) و(إن لكل عمل نباتاً) وكان يعيب على المرء إذا : (نفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر) كما يعيب أي إنسان يتحول إلى : (نظار في عطفه ، مختمال في برديه ، نفاخ في شراكيه) .

وبعد أن يسمو المتلقي إلى أفق اللذة السامية التي شرحها أدغار الن بو ، والمتولده من جراء القراءة الدافئة للصورة الفنية الغنية في وقعها وإضاءاتها ، هل يرى في أي من هذه الصور الخمس ترفاً أو زخرفاً ، وهي مفرغة من دقيق المعنى وعميق الفكر ؟ أم إنها مزيج من : الأخلاق / الفن ؟

تلك المعادلة الصعبة التي لم تكن تُسلس قيادها إلا للقلّة من المبدعين العظام ! فإذا أقسم ميمناً تنثال من قسمه الصور : (وأيّ الله لأفرطن لهم حوضاً أنا ماتحه) .

ويستطيع المتلقي أن يقرأ حتى يتخّم من معاني هذه الصورة الخصبية البالغة الكثافة . وإذا وصف الصالحين ومن كشفت عن بصائرهم أستار المعرفة يراهم : (يغبقون كأس الحكمة بعد الصبح . . .) أي إنهم مهديون تفيض عليهم أنوار الحكمة مساءً وصباحاً لكن لا ، حاول أنت كمتلقٍ أن تصل إلى أعماق المعاني التي دارت بخلد الإمام عندما رسم هذه الصورة المترفة .

وإذا وصف المرتدين على أعقابهم بعد الإيمان رآهم يرجعون على الأعقاب وقد : (غالتهم السنبُلُ واتكلوا على الولايج ووصلوا الرحم) ، وإذا وصف الزاهد المتبتل الذي طلق الدنيا بشهواتها ومغرياتها ، وسلك الصلاح والحكمة والسلام طريقاً يراه قد : (قضم الدنيا قضمًا) أي لم ينل من لذاتها وشهواتها إلا ما يقيم أوده وبأطراف أسنانه . وكان عليه السلام مثلاً أعلى لهؤلاء في الزهد والترفع عن معوقات الوصول إلى الله . وعندما يصبر أصحابه في زمن الفتنة - حتى في هذه اللحظات القلقة نتلمس صورة الحكمة تتدفق مناسبة بألفاظها وخطوطها انسياب الماء الفرات على لألاء الحصى - فيناديهم : (فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوبُ مواقعها) أو يقول لهم : فشُدُّوا عقد المآزر ، واطووا فضول الخواصر) . في أي صورة من هذه الصور التي تتخذ صيغة السرد أو صيغة الأمر ، أو صيغة الضراعة والعبادة ، يرى المتلقي نفسه في شلال زاخر هادر بالألوان والموسيقى والمشاهد النادرة ، وبتحمس خاصية الانزياح اللغوي ، حيث تقع الألفاظ في مواقع أبعد من مواقعها القاموسية ، ما يشحنها بمعان جديدة لتتكيف

معانيها بفعل بعدها الأول وأبعادها في استخدامها النصّ (انتهى)

ثم إنني علمت مما كتبه الصديق المحقق الأستاذ هلال ناجي من العراق ، أن لدى الأسرة الموسوية العلوية الشريفة ، وهم من ذرية السيد العلوي جعفر بن الإمام علي الهادي الذي أمرت السلطة العباسية بنفيه هو وأولاده وأحفاده وكل ذريتهم ونسائهم ، وقد جاوزا المئة إلى بلدة حماة في سوريا . وأنهم ظلوا في منفاهم قرونا ، وهم الذين عرفوا فيها بالشقاقيين . . . حيث يضيف قائلاً : إنه بعد قرون عاد بعض حفدتهم إلى العراق . . . وإن هذه الأسرة العائدة للعراق كانت لديها مخطوطات متوارثة تجاوز الأربعمائة مخطوطة من بينها مخطوطة نفيسة للغاية من (نهج البلاغة) كتبت في القرن الخامس الهجري ، وهو القرن الذي توفي فيه الشريف الرضي في بواكيره . وقد آلت هذه المخطوطة مع كثير غيرها - بالمصادرة- إلى دار صدام للمخطوطات ، وهم يعدونها ثاني أقدم نسخة في العالم .

وكتب العالم الجليل الدكتور مصطفى جواد ومعه الأستاذان صادق كونه وكوركين عواد : (إن في هذه المخطوطة زيادات لا توجد في غيرها) .
وبناء على ما تقدم من الإشارة إلى تلك المخطوطة النادرة من (نهج البلاغة) ؛ فإنني أتمنى تحقيقها وطبعها فرمما يكون فيها من الحديد ما يرضي تساؤل المتساقلين حول النسخة المتداولة اليوم من (نهج البلاغة) .

هذه «القلعة».. ليست للبيع

(ولم أر في عيوب الناس شيئاً
كنقص القادرين عن التمام)
المتنبي

القلعة المقصودة هنا ، ليست قلعة الشرطة المعروفة ، وإنما هي «قلعة البحرين» الأثرية . . . والتي تعددت مسمياتها مثل قلعة عجاج ، أو قلعة البرتغال (أو البرتقال- في لفظ الصغار) ، أما معناها فقد بقي شامخاً لم يتغير على مرّ العصور ، في أذهان أهل البحرين ، والسكان المجاورين لها ، وأجيالهم المتعاقبة . ولقلعة البرتغال ، في ذاكرة طفولتي وطفولة أجيال البحرين ، موقع لا ينسى ، وذكريات محببة إلى النفس ، أصبحت جزءاً لا يتجزأ من فضول الطفولة عند التزويج من المدرسة ، أو للدخول إلى عالم من الماضي غريب ومثير . فمن فوق أبراجها العالية ، كنت أشعر وكأنني أطل على العالم كله . ومن خلال الفتحات المشقوقة في أبراجها بعناية ، كانت تتراءى لي القدرة الفائقة على التلصص ومراقبة القادمين ، وإحراق الأذى بأي منهم لو أردت . . . وكانت الأحجار التي تتساقط أو تضطرب تحت قدمي ، تبدو وكأنها تتشابك كمن أفاق من سبات طويل . وحينما كنت أتفياً ظلال الأبراج الكبيرة المتأكلة ، كان يبدو لي الزمن وكأنه غول لا يشبع وهو ينهش من تلك الأبراج يوماً بعد يوم . أما الكبار من أهل البحرين خلال الثلاثينات وما قبلها ، فكانوا يؤمنون القلعة لتمضية الوقت ، أو ربما لاكتشاف كنز مخبوء . فقد كان من المعروف أن

بعض الأجداد كانوا يعمدون إلى تخبئة مقتنياتهم الثمينة في باطن القلعة ،
كلّما داهمهم غزو من الخارج . . وهكذا فعل الشيخ يوسف البحراني على ما
يبدو - وهو من أكبر أئمة الفقه في البحرين خلال القرن الحادي عشر الهجري -
حينما جاء الغزو العماني في عهده ، فلجأ إلى دفن كتبه المرجعية القيّمة ، في
القلعة .

ثمّ إنني شغلت بها «قلعة البحرين» طيلة سنوات حياتي بعد ذلك ، وكان
هاتفنا في نفسي يقول : إن وراء هذه الأكمة ما وراءها . . حتى جاءت البعثة
الدانيمركية الأثرية للتنقيب في أوائل الخمسينات ، لتكشف القناع عن هذه
القلعة ، وتفاجيء الأوساط الأثرية العالمية باكتشاف باهر لم يكن في الحسبان .
وقد كنت أداوم على زيارة القلعة أثناء عمل بعثة التنقيب ، وأعجبت بالروح
المعنوية العالية لهؤلاء الباحثين رجالا ونساء . فقد كانوا يساعدون عمال الحفر
بأنفسهم ، وحينما يجدون شيئا ما ، يتوقف العمال ويتولى المختص منهم تنظيف
البقعة بيديه وأصابعه ، خوفا من إحداث الضرر بذلك الشيء . . وكلما تطلعت
إلى خيامهم البسيطة المنصوبة في جوف القلعة ، وتذكرت وحشة الليل البهيم
فيها ، أو نظرت إلى وجوههم وقد لوّحتها الشمس ، وإلى ملابسهم المتسخة ،
وأظافرهم المجرّحة ، تذكرت قول حاتم الطائي ، في وصف ينطبق على حالتهم
آخر النهار :

(وراحوا جميعا ينفضون أكفّهم
يقولون قد أدمى أظافرنا الحفر)

وكذلك استمر الهوس عندي بالقلعة طيلة سنوات العمر ، إلى أن تبنت
الحكومة مشروعا لترميم القلعة ، وصيانتها ، حيث كنت أتابع تلك الجهود
المخلصة ، وأتشاور أحيانا مع المهندسين المسؤولين حول الحفاظ على الشكل
الأصلي للقلعة ، بمراجعة ما هو متوفر من المصادر البرتغالية . واغتنمت زيارتي
للبرتغال في صيف عام ١٩٧٢ لزيارة دار الوثائق والمخطوطات في (الكونغرس)

بمرافقة القائم بأعمال سفارة البرتغال في القاهرة أنثذ ، السيد (بوشتوش) وزميله سعادة سفير البرتغال في لبنان ، وبالتشاور المستمر مع رئيس معهد الدراسات الشرقية في لشبونة الأب البروفيسور (دا سيلفا ريجو) ، ومساعدته الدكتور أنطون دياس فارينها . وقيل لي أنذاك إن دار الوثائق تحتفظ بالتصاميم الأصلية للقلاع البرتغالية . وقد اطلعت على تلك التصاميم والمخططات للقلاع التي أنشئت في الخليج في عمان وهرمز ورأس الخيمة وفي المحرق أيضا . . ولم أجد بينها مخططا لقلعة البحرين ولعلّ معنى ذلك أن القلعة كانت موجودة عند الغزو البرتغالي بقيادة (أنطون كوريرة - دي بهرم) ، وأن البرتغاليين اكتفوا بترميمها لجعلها صالحة لهم كمقر يحتمون فيه .

كما أنني فهمت من شرح الأب (دا سيلفا ريجو) ومساعدته الدكتور(فارينها) ، الذي استأنفت معه مؤخرا مواصلة البحث عن الوثائق والمخطوطات ، أنه توجد في البرتغال مصادر كثيرة من الوثائق والمخطوطات والكتب والمؤلفات باللغة البرتغالية ، تتكلم عن البحرين وتاريخها ، وتسجل ما جرى فيها من أحداث ، كما تحتوي على وصف للسكان والبيئة الطبيعية ، والعلاقات التجارية والاجتماعية ، والسفن وصيد الأسماك ، واستخراج اللؤلؤ ، وإحصاءات لثروات البحرين ودخلها السنوي ، وما تدفعه من ضرائب للغزاة الخ وكل تلك المعلومات مهمة للبحرين ولا شك . . لكنها تنتظر من دولة البحرين الاهتمام باقتنائها وترجمتها لاستخلاص المعلومات منها كي تصبح في متناول أهل البحرين والمهتمين والدّارسين على السواء .

ثمّ نعود - بعد هذا الاستطراد- إلى حديث البعثة الدانيمركية للتنقيب ، التي سجلت كشفا جديدا ، حينما وجدت أن قلعة البحرين تم بناؤها على سقف مستوية بشرية موعلة في القدم تمتد إلى ما وراء حدود القلعة . . ووجدوا بعد إجراء الحفريات ، أن المستوية كانت تضم معابد وممرات وحمامات وأسواقاً ترجع كلها إلى عصر السومريين وحضارة (دلون) القديمة ، التي تعود إلى العصر البشري البرونزي منذ ٤٥٠٠ عام وما قبل ذلك .

وفوق تلك الشريحة من طبقات الأرض ، وجدوا شريحة أخرى تعود إلى فترة (تايلوس) في العصر الروماني ، وفوق ذلك شريحة ثالثة ذات مراحل ترجع إلى العصور الإسلامية . . أي إنهم قد اكتشفوا (كنزا) تاريخيا ثمينا توفرت بفضلها معلومات تاريخية مهمة حول علاقة الحضارة السومرية بالخليج وبوادي السند . كما تم الحصول على معلومات تخص المجتمعات البشرية الضاربة في القدم واحتمالات تاريخية متعددة لتفسير لغز أكبر المقابر البشرية في التاريخ القديم ، والموجودة في البحرين .

وبتوالي التنقيبات بعد ذلك ، تمت اكتشافات عديدة مهمة في باربار ، والحجر ، والتلال الملونية ، والساسانية ، وفي أنحاء متفرقة في البحرين ، مما يجعل من هذه الجزيرة - على صغرها - لؤلؤة في تراث التاريخ البشري ، ومتحفا حيا تجب المحافظة عليه وصيانتته من العبث والتشويه ، بما في ذلك ، مشاريع الصيانة الشكلية ، ذات الطابع التجاري الرخيص .

روت كتب السير في البحرين ، عن الشيخ الحسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الجبعي (نسبة إلى قرية «جباع» وهي إحدى قرى جبل عامل) أن الشيخ المذكور ، كان في مكة المكرمة ، مهاجرا من جبل عامل قاصدا الجوار فيها إلى أن يموت . . . ثم إنه رأى في المنام - وهو بمكة - أن القيامة قد قامت ، وأن أرض البحرين رفعت وما فيها إلى الجنة . . . فلما رأى هذه الرؤيا ، أثر الجوار في البحرين ، والموت في أرضها ، فجاء إلى البحرين . وأقام صاحب الرؤيا في البحرين حتى توفي فيها سنة ٩١٨ هجرية ودفن في قرية «المصلّى» المعروفة ، وقبره معروف فيها إلى اليوم . وللعلم ، فإن الشيخ المذكور هو والد الشيخ محمد بن الحسين المعروف بالبهاثي (أو بهاء الملة) ، الذي ذهب إلى أصفهان وأصبح شيخ الإسلام فيها ، والذي رثى أباه بقصيدة مشهورة مطلعها :

(يا جيسرة هجروا واستوطنوا هجرا

واها لقلبي المعنى بعدكم واها)

ثم يضيف قائلاً :

(يا ثاويبا بالمصلّى من قرى هجر
كسيت من حلل الرضوان أضفاها)
(ربوع فضل ، تباهي التبر تربتها)
ودار أنس ، نخال الدرّ حصباها)

.. الخ

وأقول : إن هذا الحلم ، قد يكون مجرد حلم . . . ولكن هنالك في سجلّ الغابرين ، كتابات مسمارية ، وروايات وأساطير منذ عهد السومريين (كملمحة جلعامش مثلا) كلها تنص على أن أرض «دلمون» مقدّسة ، وأن فيها يوجد سر الخلود ، وأنها واحة للطمانينة والسّلام . . . إلى غير ذلك . . . ولانعلم بالتأكيد مصدر ذلك الاعتقاد ، ولكن آثار قلعة البحرين ، والألوف المؤلفة من المقابر التاريخية ، والمعابد المتعددة ، قد تنطوي على أسرار ما تزال مجهولة ، فيما يتعلق بحضارة «دلمون» ومعتقدات أهلها . .

فلندع إذن المجال مفتوحا للباحثين والمنقبين والدارسين ، من كل مكان يمارسون اختصاصهم للكشف عن المزيد . . . ولننتق جميعا نحن أهل البحرين حكومة وشعبا ، باعتبارنا ورثة هذا التراث العالمي والقيمين عليه ، لاسيما في هذا العهد الميمون ، عهد الانفتاح والتجديد ، على أمر واحد : وهو ضرورة المحافظة الرصينة والمسئولة ، على تاريخ البشرية ، ممثلا في المعالم الأثرية في البحرين ، وقلعة البحرين خاصة .

وفي هذا الصدد ، تأتي مبادرة جلالة الملك المعظم في محلّها . . . وهي مبادرة تحظى ولا شك ، باهتمام خاص من لدن صاحب السمو رئيس الوزراء الموقر ، وصاحب السمو ولي العهد الميمون ، حيث تمّ الإيعاز إلى وزارة الإعلام ، ووزيرها النشط ، ومساعديه في إدارة الثقافة والتراث ، لتنفيذ مشروع طموح يهدف إلى إحياء آثار القلعة ، بتنظيم احتفالية كبيرة خاصة بمناسبة مرور

خمسين عاما على بدء الحفريات الأثرية في قلعة البحرين .

لهذا ، فلعلني لا إبالغ إذا قلت إن المهتمين بالتراث من أفراد ومؤسسات في داخل البحرين وفي خارجها وعلى نطاق عالمي ، يتطلعون اليوم بشغف عظيم لمشروع جلالة الملك المعظم ، يحدوهم الأمل في أن يتم إنجاز هذا المشروع على الوجه الصحيح الجدير بمكانة البحرين وتطلعات العهد الجديد ، لإنجاز حضاري كبير . ومن بين أهم تلك التطلعات ، الملاحظات التي أتشرف بأن أضعها بين يدي المسئولين عن المشروع :

الملاحظة الأولى : - الحرص على تنفيذ مقترحات واستشارات منظمة «اليونسكو» المسئولة عن اعتماد وتسجيل آثار البحرين ضمن التراث العالمي ، وخصوصا فيما يتعلق بالمحافظة على البيئة الأصلية في الموقع ، والبت في قرار استملاك الأراضي المحيطة بالموقع ، وإعادة تخطيط المشاريع الإسكانية والاستثمارية بحيث لا تتعارض مع مشاريع تأهيل الموقع ليصبح معلما تاريخيا ومركزا ثقافيا تستفيد منه أجيال البحرين في الحاضر والمستقبل ، ولا تحجب منظر القلعة ، أو تتداخل مع ساحلها البحري الرائع . ولا بد بالإضافة إلى ذلك ، مراعاة متطلبات الرفق والتعاطف التراثي بين الموقع وما حوله ، لاسيما القرى المجاورة له ، لتصبح بمثابة العمق التراثي التاريخي البشري للمشروع .

الملاحظة الثانية : - أن مشروع تأهيل موقع القلعة للزائرين والدارسين والسائحين يجب أن يتصف بالجديّة وحسن الاختيار ، وبعد النظر . ولتحقيق ذلك فمن الواجب استبعاد إجراءات النظرة التجارية الضيقة ذات المردود المادي ، واستبدالها بنظر بعيد ، يأخذ بالاعتبار القيمة المعنوية لمكانة البحرين وسمعتها في كيفية محافظتها على التراث الإنساني بشكل جيد . ويجب أن ينصب الحافز الأساسي على «التراث» نفسه ، وليس مجرد تشجيع الحملات السياحية . إن مبدأ حفظ التراث له أصول ومتطلبات تختلف في طبيعتها وأسلوبها عن الغرض السياحي المحض . . فالغرض السياحي يأتي كفرع للغرض الأصلي وليس العكس . . . وبهذا الصدد ، فإننا نأمل أن يكون القول المنسوب

إلى السيد الوكيل في وزارة الإعلام ، وفحواه «أن المشروعات ستكون سياحية أكثر منها أثرية . .» (كما ورد في صحيفة الوسط عدد ٦١٧) - نأمل أن يكون ذلك مجرد تعبير غير مقصود ، ولا يمثل سياسة معتمدة للوزارة . هذا مع احترامنا الشخصي للسيد الوكيل ، ودون المساس بصلاحياته في اتخاذ القرار المناسب .

ومن المعلوم ، أنه توجد نظرتان مختلفتان إزاء المقصود بإحياء التراث : الأولى تستهدف استغلال التراث بما هو سياحة وتجارة ، والثانية تؤسس لمفهوم التراث بما هو ثقافة ومعرفة وذخر للأجيال . وبينما تنصب الجهود حسب المفهوم السياحي على إنشاء وسائل لجذب السائحين من تسلية وترفيه ، ممزوجة ببعض البهارات الفنية الهزيلة . . . فإن المفهوم المعرفي للإحياء التراثي يقوم على تأسيس المعرفة ، بما يتطلب ذلك من متحف متخصص ، ومسرح ، ومكتبة تاريخية ، وصلات للندوات والدراسة والبحوث والأنشطة الثقافية ، مع توفير وسائل البحث السمعية والبصرية والأنترنت ، التي تتواصل على نحو مستمر ، مع مثيلاتها في الخارج ، وهي مرفوعة الرأس .

. . . في حديث لسعادة الوزير المغربي «محمد بن عيسى» وهو الرائد لمشروع (موسم أصيلة الثقافي) أوردت جريدة الوسط البحرينية في العدد ٥٩٨ - شيئا من ذكريات الوزير ذات مغزى في حديثنا هذا ، حول الصراع بين المفهومين السياحي والتراثي ، نقتطف منها للفائدة والعبرة ، هذه الفقرات ، حيث يقول على إثر إعلان مشروع (أصيلة) عام ١٩٧٨ :

(. . . وفجأة دعيت لاجتماع مع بعض الناس ، لا أعرفهم يريدون تنظيم مهرجان أصيلة الدولي . أناس كانت لهم مقاصد خاصة ولهم موازنة هائلة . . . كانت غايتهم جلب أكبر عدد من السياح تحت شعار «أصيلة مدينة للبيع» . . . رفضنا الفكرة . . قلنا لهم هدفنا ليس تجاريا ولا نسعى إلى جلب السياح ، بل لا بد أن نهيء المدينة . . . ثم قلنا لا بد من استئذان أهل المدينة ، وهذا ما أثار حفيظة كثير من المسؤولين ، واعتبروا هذا كلاما خطيرا حين قلنا لا يمكن تجاهل السكان . . . ثم يضيف : أتذكر أنني ذهبت ومددت نفسي في باب المدينة

القديمة وقلت : ليمرّوا على جسدي وأنا حيّ ، ولكن لن يدخلوا المدينة القديمة . . . ثم يذكر كيف دعاه رئيس الوزراء ، وأخبره أن الحكومة اختارت أصيلة لاستقطاب السواح . . . وأنه أجاب على ذلك قائلا : لا يمكن إقحام المدينة في هذا المشروع ، وأن أصيلة لها حرمةا ومقابرها وشيوخها وبعض ناسها لم يغادروها مطلقا . . . ثم ينهي حديثه بسيرة النجاح الذي حققه في تحويل المشروع السياحي ، إلى . . . «موسم أصيلة الثقافي» ، الذي يحمل في طياته الملامح الأصلية لتفعيله دينية وصوفية مغربية على غرار مواسم الأولياء في المغرب . . .) .

وبمناسبة هذا القول من مذكرات الوزير المغربي ، نتمنى لو أن وزارة الإعلام عندنا تتبنى ضمن سياستها في صيانة الآثار ، شعارا مائلا لشعار أصيلة يقول أيضا كما قال الوزير المغربي : «هذه القلعة ليست للبيع» . . . بما ينطوي عليه هذا العنوان من معنى مجازي ، يستهدف إنقاذ (آثار البحرين) من براثن الإغراء السياحي التجاري . . . حتى تطمئن قلوب كل المنشغلين بشأن «قلعة البحرين» .

الملاحظة الثالثة : - والأمر الثالث الذي يتعلق بمشروع القلعة ، هو المبادرة الملكية السامية بشأن تنظيم احتفالية في شهر نوفمبر هذا العام ، وذلك بمناسبة مرور خمسين عاما على اكتشاف حضارة دلمون في البحرين ، منذ بدء التنقيبات في آثار القلعة من قبل البعثة الدانيمركية . وفي الأصل كان هنالك مشروع متكامل مقترح للاحتفالية باليوبيل الذهبي ، يتضمن احتفالية رئيسية برعاية جلالة الملك المعظم ، وحضور ملكة الدانيمرك ، ووفود عالمية ، لافتتاح المتحف الأثري ، والوثائقي ، ومسرحية ، وأمسية فنية ، وندوة علمية على مدى ثلاثة أيام ، وموعدا لعقد مؤتمر عالمي للآثار في البحرين ، يتم فيه الإعلان عن ضم آثار البحرين للتراث العالمي ، تحت رعاية منظمة (اليونسكو) ترافق كل ذلك حملات توعية شعبية عامة . . . الخ . . .

ولكن يسود الاعتقاد في الأوساط الأهلية المهمة بهذا الحدث ، أن الوزارة

ربما تكون قد صرفت النظر عن المشروع المتكامل لليوبييل الذهبي ، كما ورد في الأصل ، والاستعاضة عن ذلك بمشروع متواضع قد لا يفي بالغرض المطلوب . وأشير هنا على سبيل المثال ، إلى ما نشرته صحيفة (الوسط-الأعداد ٦١٧/٦١٨) من تعليق اختصاصي الآثار في البحرين السيد : علي أكبر بوشهري ، وفحواه «أن برنامج وزارة الإعلام (فيما يختص بقلعة البحرين) ، ترفضه منظمة (اليونسكو)- وإلى رد السيد وكيل الإعلام عليه . كما أود الإشارة أيضا إلى وجود مشاعر من الإحباط لدى عدد من الأفراد والمؤسسات الأهلية المعنية بالتراث لعدم إشراكها في مشروع الاحتفالية والاستماع إلى أفكارها . ومهما كانت الظروف ، فإننا نتمنى لوزارة الإعلام المسئولة عن الثقافة والتراث ، التوفيق والنجاح لتحقيق هذا الحدث الحضاري ، كما نتمنى عليها أيضاً أن لا تكون بمعزل عن الشعب ، وذلك بدعوتها للأفراد والمؤسسات الأهلية المعنية بالتاريخ ، والثقافة والتراث والدراسات التاريخية ، والمسرح والفنون ومن يعينهم الأمر ، للمشاركة الفعالة في هذه الاحتفالية ، جنبا إلى جنب ، لكي تصنع بأيدي الجميع ، وتحمل على صفحتها الناصعة ختما شبيها بأختام (دلون) مكتوب عليه : (صنع في البحرين) . . والله الموفق .

من أدبيات الثورة العراقية

يقول التاريخ الحديث . . . تمّ للقوات البريطانية احتلال ميناء البصرة في ٢٢ نوفمبر من عام ١٩١٤ . وبذلك أمّنت بريطانيا آبار الزيت في إيران ضد أي خطر محتمل من جانب القوات الألمانية والتركية . وشرعت في إعداد البصرة لتكون قاعدة حربية لحملة التي أزمعت سنّها على بغداد والموصل .

وقد عهدت بريطانيا بمسئولية الإدارة السياسية في العراق إلى السير (بيرسي كوكس) الذي إذاع على العرب بيانا أكد فيه أن بريطانيا لا تضمّر لهم العدا . وأنها تنتظر أن يبادلوها شعور الصداقة ، وأنها ستعمل على حماية مصالح أصدقائها العرب . . .

وبعد أن فرغت بريطانيا من حملتها على البصرة ، شرعت في غزو بغداد . لكنها منيت بهزيمة ساحقة . أمام القوات التركية والعراقية ، عند مشارف بغداد واضطرت إلى التراجع والانسحاب .

وفي خريف عام ١٩١٦ إذاع قائد الجيش البريطاني في العراق الجنرال (مود) بيانا على الشعب العراقي يمينه فيه بالحرية والوحدة والاستقلال . . . فمكّن ذلك بريطانيا من استمالة العراقيين بالوعود وتجنيدهم لخدمة الجيش البريطاني . ثم احتلت بريطانيا العراق وأخذت قواتها تطارد الأتراك شمالا إلى أن تم توقيع الهدنة بينهما في ٣٠ نوفمبر عام ١٩١٨ ، فاحتل الجيش البريطاني الموصل في اليوم التالي . . .

وفي نوفمبر ١٩١٩ حاولت السلطات البريطانية إغراء شعب العراق بأن يطلب حماية بريطانيا العظمى لكي تفرض رسميا على العراق ، بدلا من إعلان

الاستقلال الموعود . فكان ذلك إيذانا باشتعال الثورة في العراق ضد الحكم البريطاني . وقد ظلت الثورة العراقية مشتعلة حوالى العام ، ضحى فيها الشعب العراقي بأكثر من عشرة آلاف بين قتيل وجريح . . وبسبب الخسائر البشرية التي تكبدتها بريطانيا ، وملايين الجنيهاات التي أنفقتها في سبيل قمع الثورة دون جدوى ، فقد عمدت إلى أسلوب الخداعة وتقديم الوعود لكي تتخلص من ضغط الثورة ، ريثما يتم لها موافقة المجلس الأعلى للحلفاء ، الذي تم عقده بعد ذلك في (سان ريمو) على إنتدابها على العراق . فتم لها ذلك ، وقامت بتعيين (السير بيرسي كوكس) مندوبا ساميا في العراق . . فأذاع في ١٧ من يونيو ١٩٢٠ بيانا أشار فيه إلى مسئولية بريطانيا عن الأمن الداخلي والخارجي للعراق . كما بادر بتشكيل مجلس الدولة ، وإقامة حكومة عراقية مؤقتة ، على أن يخضع رئيس الوزراء والوزراء جميعا لإشرافه ولرقابته الشخصية . وعلى أن لا يكون للوزراء اختصاص في الشؤون العسكرية أو الشؤون الخارجية . كما عين لكل وزير مستشارا بريطانيا يتولى توجيه السياسة الداخلية . . مما حدا بأحد الشعراء المشهورين للتهكم على أولئك الوزراء قائلا : «المستشار هو الذي شرب الطلا . . فعلام يا هذا الوزير تعربد؟»

هذا ما يقوله التاريخ القريب . .

والسؤال الوارد هنا : هل هناك احتمال اليوم لأن يعيد التاريخ نفسه ؟
... ثم نترك هذا السؤال الحائر ، لننتقل إلى أدبيات مرحلة الثورة

العراقية . .

من المعروف أنه كان لعلماء الدين ، لاسيما في النجف الأشرف ، الدور البارز في المقاومة وحث الجماهير على القتال ضد الغزو البريطاني . فقد أصدرت المراجع الدينية العليا في النجف الأشرف ، الفتوى بالجهاد . وتقدم العلماء صفوف المجاهدين وهم يلبسون الأكفان . وثار قبائل الفرات الأوسط وانتظم المجاهدون والثوار في فرق متعددة ، وتم الاستعداد للقتال وحفر الخنادق ، استعدادا للمواجهة .

وقد ذكر أن فضيلة الشيخ عبد الحسين الحلبي (الذي أصبح فيما بعد أول قاضٍ للتمييز الشرعي ، في محاكم البحرين) كان في صفوف المجاهدين . وفي قصيدته التي نوردها بهذه المناسبة وصف شاعري ، مهيج ومثير للمشاعر ، يصف مشاركته في الثورة العراقية :

(الحنين إلى الوطن)

للشيخ عبد الحسين الحلبي

لولا انتزاحي عن أهلي وعن وطني
لم يجف جفني يوماً لذة الوسن
له صبوت وما في صبوتي عجب
إنني شربت هواه العذب في لبني
فارقته وبرغمي أن تباعدني
عن قربه مهن جرت إلى مبحن
إن دام حزني فلا والله ما نظرت
عيني إلى منظر من بعده حسن
إذا شجاني أني عنه مبتعد
فإن ذكره سلواني من الشجن
قالوا هواه من الإيمان قلت لهم
نحووا حديث (من الإيمان) عن أذني
إنني امرؤ لا أرى الإيمان يحفزني
له ومن فوق إيماني أرى وطني
عبيدته وهو أحجار ولا عجب
من مسلم في هوى أوطانه وثني
كفى بأنني لم أشرك بوحده
سرا وأنني ما داهنت في علني

لقد بكيت وأبكيت الصخور معي
من غربة لي جرّت أعظم المحن
إن الغريب وإن عزت مكانته
هيهات ينفك عن وجد وعن حزن
تظنه بهناء العيش مغتبطاً
لكن عيش غريب الدار غير هني
قالوا أتبكي على الأحجار قلت لهم
بهن مرمس آبائي الكرام بُني
بمعشري وبآبائي وبني رفعت
نها المقاصير في الأرياف والمدن
إني لأعذل من يبكي على أحد
ولّي وأعذر من يبكي على الدّم
أرض رسا مغرسي فيها فطاب وكم
منه تفرّع للعلياء من غصن
بها نشأت وفي أبياتها انتزعت
تأثمي وبها اقتاد الهوى رسني
لها تحملت ما تفنى النفوس به
يا حيّ من بقيت أوطانه وفني
ما للنفوس سوى أوطانها ثمن
وليس للوطن المحبوب من ثمن
كم غمرة خضتها للذب عنه وما
غامرت بالنفس في يوم من الزّمن
ونار حرب له كنت اشتملت بها
كالماء أفرغه برداً على بدني

إن عربرد المدفع الرّعاد قمت له
 شوقاً ، وما قمت من خوف ومن جبن
 وإن دوت من فم الرّشاش زمجرة
 حسبتها نغمة الأوتار في أذني
 أبيت في خندق ضنك فأحسبه
 غمداً أقام به سيف بن ذي يزن
 أصافح الترب فيه وداعاً وأرى
 أنني على المسك ثاو لا على درن
 وأستلين به الأحجار أحسبها
 مههداً ولولا هوى الأوطان لم تلن
 إنني أغار عليها أن تدنّسها
 أو أن تمد لأدناها أكف دنني
 أعيذاها أن يحل الضيم ساحتها
 وإن تهبي . . لا وهت يوماً وإن تهن
 يا أيها الوطن المحبوب لا برحت
 منك المواطن في أمن من الفتنة
 إنني لأنعم عسينا في هواك وإن
 أوليستني منك ظهر المركب الخشن
 أفسديك بي إن غدا في لحظ باصرة
 موتى ومحياك مقرونين في قرن

وهكذا سجل التاريخ كيف شارك شعب العراق تحت لواء المراجع الدينية
 في النجف الأشرف للدفاع عن الوطن في وجه الغزو البريطاني . . متناسين
 مشاعرهم تجاه حكم السلطنة العثمانية وتعسفها ، وذلك في سبيل الدفاع عن

حياض المسلمين كافة .. لولا أن الأقدار لم تسعفهم وسارت الرياح بما لا
تشتهي السفن ، حيث نجحت القوات البريطانية في احتلال العراق ..
وتخليصهم من الحكم العثماني .. ولله في أمره حكم وشؤون .

حكم وأقوال

١- كيف يحكم الملك،

وردت هذه الفقرة في كتاب «قصة الحضارة» تأليف : ول ديورانت عن الصين :

ألقى الحكيم الصيني (دوق جو) بين يدي الملك (لي-وانج) خطبة تضمنت هذه الفقرة ، وذلك حوالي عام ٨٤٥ قبل الميلاد :

(... يعرف الإمبراطور كيف يحكم ، إذا كان الشعراء أحرارا في قرض الشعر ، والناس أحرارا في تمثيل المسرحيات ، والمؤرخون أحرارا في قول الحق ، والوزراء أحرارا في إسداء النصح ، والفقراء أحرارا في التذمر من الضرائب ، والطلبة أحرارا في تعلم العلم جهرة ، والعمال أحرارا في مدح مهارتهم وفي السعي إلى العمل ، والشعب حرا في أن يتحدث في كل شيء ، والشيوخ أحرارا في تخطئة كل شيء . . .)

٢- الاقتصاد والتنمية البشرية:

من كتاب «التجارة في خدمة الناس» من إصدار البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة :

(إن النظرة إلى التنمية من منظور التنمية البشرية ليس بالأمر الجديد ، وتعود فكرة الحكم على التدابير الاجتماعية بمقدار دعمها للبشر إلى عصر «أرسطو» الذي قال : «من الواضح أن الثروة ليست الصالح الذي نسعى إليه ، لأنها نافعة فقط لمصلحة شئى آخر» وقد دعا إلى رؤية «الفارق بين الإجراء

السياسي الجيد ، والإجراء السيء» في ضوء نجاحاته وإخفاقاته في تيسير قدرة الأفراد على معيشة حياة مزدهرة .)

وجاء أيضا : . . . (النمو الاقتصادي ضروري ولكنه غير كاف للتنمية البشرية . وتعتبر جودة النمو ، لا مجرد حجمه ، حاسمة لرخاء الإنسان . فالنمو قد لا يخلق الوظائف وقد يكون قاسيا وبلا قلب ، بدلا من أن يؤدي إلى الحدّ من الفقر . وقد يكون بلا صوت بدلا من أن يكون مشاركا ، وقد يكون بلا جذور بدلا من أن يكون له تراث ثقافي ، وقد يكون بلا مستقبل بدلا من أن يكون صديقا للبيئة . إن النمو الذي لا يخلق الوظائف والذي لا قلب ولا صوت له ، والذي هو بدون جذور أو ثمار لا يؤدي إلى التنمية البشرية - ص ٢٥)

٣- في الصداقة (بشاربن برد)

إذا كنت في كلّ الأمور معاتباً
صديقك ، لم تلق الذي لا تعاتبه
فعلش واحداً ، أو صل أحمك فإنه
مقارف ذنب مرةً ومجانبه
إذا أنت لم تصبر مرارا على القذى
ظمئت ، وأي الناس تصفو مشاربه . .

٤- في الحب :

وردني في دعوة زواج ما ترجمته :
(ليس الحب أن تتقابل العيون
ولكن الحب هو أن تتقابل النظرات . .)

٥- عشرات الآراء: (حافظ إبراهيم):

(نحن نجتاز موقفاً تعثر الأ
راء فيه ، وعثرة الرأي . . تردي

ونعيير الأهواء حرباً عوانا
من خلاف، والخلف كالسّل يعدي
ونشير الفوضى على جانبيه
فيعيد الجهول فيها... ويبدي
ويظنّ الغويّ أن لا نظام
ويقول القويّ... قد جدّ جدّي
فقفوا فيه وقفه العزم وارموا
جانبيه بعزيمة المستعدّ
إننا عند فجر ليل طويل
قد قطعناه بين سهد ووجد
غمرتنا سود الأهاويل فيه
والأمانيّ... بين جزر ومّدد...

أمثال الشريف الرضي

- ١ -

الأستاذ المحامي هلال ناجي كان زميل أيام الدراسة في الأعظمية ببغداد . بدأ شاعرا ثم انتهى محققا وناشرا لمخطوطات التراث . تطف بإهدائي الكثير بما حققه ونشره من مخطوطات التراث ، ووصلت مؤلفاته في هذا المجال لأكثر من مائة وثلاثين . وقد تم مؤخرا اختياره عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومرشح أيضا لعضوية المجمع اللغوي الليبي .

ومن بين المخطوطات التي نشرها «مختصر أمثال الشريف الرضي» (*) ولأن للأمثال الشعرية منزلة في النفوس ، والاستشهاد بها يعد زينة في الكلام لا سيما حينما يأتي المثل في موضعه ، فقد اخترت منها بعض النماذج في مسلسل هذه الزاوية :

١- قالوا في العقل:

يعدّ رفيع القوم من كان عاقلا
وإن لم يكن في قومه بحسيب
إذا حلّ أرضا عاش فيها بعقله
وما عاقل في بلدة بغريب

**

عدم الخير كله عدم العقل
وبالعقل كل شيء ينال

لا تضيع حزمًا فإن عذب
الرأي .. فلا يعزبنّ عنك السؤال

تقارب آراء الرجال إذا رأوا
ويسبقهم من أدبته التجارب

إذا كان كلّ الناس عندك جاهلاً
فمن ذا الذي يدري بأنك عاقل؟

تخطي النفوس على العيان
وقد تصيب على المظنة
كم من مضيق في الفضاء
ومخرج بين الأسنة

٢- الخلق والنصيحة:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

إنما البشر روضة فإذا كان
عطاء .. فروضة وغدير

ونفسك أكرمها فإنك إن تهن
عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

وإياك والامر الذي إن توسّعت
موارده ، ضاقت عليك المصادر

**

وما كلّ ذي نصح بمؤتيك نصحه
وما كلّ مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد
فحق له من طاعة بنصيب

**

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى
عدوّ له ، ما من صداقته بدّ

**

(*) الشريف الرضي : أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى ، المنتهي نسبه بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام . وهو أشعر الطالبين . وصاحب كتاب «نهج البلاغة» الذي جمع فيه ما صح عنده من خطب الإمام علي عليه السلام . ولد سنة ٣٥٩ هـ . وتوفي سنة ٤١٦ هجرية .

أمثال الشريف الرضي

-٢-

أمثال الشريف الرضي ، هو المخطوط المنسوب إلى ابن الظهير الأربلي المتوفى سنة ٦٧٧ هـ . والذي قال عنه المحققان : د . نوري القيسي وهلال ناجي من ضمن ما ورد في المقدمة ما يلي : «لقد حاول الرضي - رحمه الله - فيما انتقاه من أشعار العرب ، أن يرسم صورة مثلى للقيم العربية الخالدة عبر مختاراته . . . ولعله قصد أو تخيل جيلا عربيا يتخلق بهذه الخلائق الرفيعة فيعيد لبغداد العربية المسلمة صبوتها وبهجتها وعزها ، بعد أن أذلها علوج الاحتلال البويهبي .» ، هذا وقد اخترنا في الحلقة السابقة أمثالا تقال في زينة العقل ، وحسن الرأي وفي الخلق والنصيحة . ونواصل تقديم ما تبقى من النماذج الأخرى من أقوال متفرقة :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم
وابداً بنفسك فانهما عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع إن وعظت ويقتمدى
بالقول منك ويقسبل التعليم
ولا تجزعن من سنة أنت سرتها
فأول راض سنة من يسيرها
ليس الغيبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه .. المتغابي

والمرء تلقاه مضياعاً لفرصته
حتى إذا هي فاتت عاتب القدرا
إذا تولّى سراة القوم أمرهم
نما على ذاك أمر القوم وازدادوا
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت
فإن تولّت . . فبالأشرار تنقاد
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة . . إذا جهّالهم سادوا
إذا كنت تبغي شيمة غير شيمة
طبعت عليها ، لم تطعك الطبائع
تأديبك الكهل يكفي الطفل أيسره
وما العناء سوى تأديب مكتهل
من أطاق التماس شيء غلابا
واغتصابا . . لم يلتمسه سؤالا
أخفض الصوت إن نطقت بليل
والتفت بالنهار قبل الكلام
ما تبلغ الأعداء من جاهل
ما يبلغ الجاهل من نفسه
وإذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعن وحده والنزلا
ناري ونار الجرار واحدة
وإليه قبلي تنزل القدر
ما ضر جارا لي أجاوره
أن لا يكون لبابه ستر

ولا تك في حب الإخاء مفرطاً
وإن أنت أبغضت الصديق فأجمل
فإنك لا تدري متى أنت مبغض
حبيبك ، أو تهوى بغيضك .. فاعقل
وأنت امرؤ منا ، خلقت لغيرنا
حياتك لا نفع ، وموتك فاجع !
بلاد بها نيّطت عليّ تمائمي
وأول أرض مسّ جلدي ترابها
وكنت إليك أذمّ الزمّان
فأصبحت فيك أذمّ الزمانا
وكنت أعذّك للنائبات
فها أنا أطلب منك الأمانا !
ولم أر نفعاً عند من ليس ضائراً
ولم أر ضرراً عند من ليس ينفع
من لم يؤدّب به والديه
أدّب به الليل والنهار
إذا ذهب العتاب فليس ودّ
وببقى الودّ ما بقي العتاب
متى ما أتيت الأمر من غير باب
ضللت .. وإن تقصد من الباب تهتدي
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله
فليس له في ودّه نصيب
وإنّي لألقى المرء أعلم أنّه
عدوّ وفي أحشائه الغلّ كما من

فأوسعه عذرا ليرجع قلبه
سليما .. وقد ماتت لديه الضغائن
يا عشرة ما وقيتم شر مصرعها
وعشرة الرأس تنسي عشرة القدم
نار الروية نار جدّ محرقة
وللبديهة نار ذات تلويح
وقد يفضلها قوم لسرعتها
لكنها سرعة تمضي مع الريح!
وبقيت في خلف يزين بعضهم
بعضا ، فيستر معور عن معور
وما كل ما أمّلكه أنت مدرك
ولا كل ما حاذرتك عنك يدفع
إذا الأمر أعياء اليوم فانظر به غدا
لعلّ عسيرا ، في غد يتيسر
إن حلمي إذا تغيب عني
فأعلمي أنني جليلا رزيت
ربّ جهل سمعته فتعلمت
وعني تركته فكفيت
ضيق الصدر بالخيانة لا
يذهب فقري أماني ما حييت .
إذا الرأي لم يحضرك والأمر مقبل
فليس بمغن عنك .. والأمر ذاهب .
ولو كان يبدو مقبل الأمر للفتى
كمدبره .. ألفيته لا يشاور .

إذا كنت في أبناء قومك زاهدا
فقومك فيما يرتجى منك ، أزهد
وليس حليم بالذي كل ساعة
به غضب في أنفه يتوعد
ترى القوم أشباها عقولا وحرفة
فيشقى امرؤ منهم ، وآخر يسعد
هوى ناقتي خلفي ، وقدامي الهوى
ورآني وإياها الخ تلفان

**

لقد دأب أبأؤنا على حفظ الأمثال والحكم شعرا أو نثرا .. فصيحة مأثورة أو
شعبية منتزعة من صميم الحياة .. وكانوا يستشهدون بها فتكون أبلغ من كثير
الكلام ... فإذا جاء الاستشهاد في موقعه المناسب ، كان حجة دامغة في وجه
المخاطب .. إلا إذا كان المخاطب موهوبا في الرد عليها بمثلها أو بأحسن منها .
كأن يستشهد أحدهم في طلب الثاني في أمر ما بقوله :

.. قد يدرك المتأني بعض حاجته

وقد يكون مع المستعجل الزلل

فيجيبه الآخر :

.. وقد تفوت على قوم حوائجهم

إذا توانوا .. وكان الحزم لو عجلوا

**

وختاما .. أقول : ما أجمل لغة الكلام العربية في الحكم والأمثال وفي
جوامع الكلم .. فذلك هو الحوار العقلاني الحضاري ، الذي أصبحنا نفتقده
كثيرا في هذا الزمن .

(*) أخبار الخليج-٢٠٠٢ .

(اليتيمتان)

- ١ -

يشهد التاريخ للبحرين ، أنها كانت حاضنة لعلوم الفقه والأدب والشعر ، وكان يصدر منها واليها وفود من طلبة العلوم والآداب . وفي خلال الأربعينيات من القرن العشرين ، ازدهر النظام التعليمي في البحرين لكلا الجنسين بما في ذلك التعليم الصناعي . وأستقبلت مدارس البحرين مجموعات من طلبة الخليج العربي ، وفي مقدمتها البعثة الكويتية لمدرسة الصناعة في البحرين . وأتذكر على سبيل المثال لا الحصر ، أربعة من الطلاب عايشتهم بحكم الدراسة أو بحكم الصداقة والمعرفة .

أحد هؤلاء الأربعة جاء من بلدة «كلبة» بساحل عمان ، وهو ابن شيخ قبيلتها ، وانضم إلينا في الدراسة بالمدرسة «الثانوية» كما كانت تعرف آنذ عام ١٩٤٢ . وسكن في القسم الداخلي الملحق بالثانوية . وأضفى وجوده بالنسبة للمدرسين والطلاب جواً من المرح والفكاهة ، فقد كان شخصاً مرحاً لعوباً وكان قدومه للدراسة بترتيب من قبل السلطات البريطانية على أنه ابن شيخ مرشح للإمارة . ثم رجع إلى «كلبة» وسمعنا بعد سنوات من أمر تنافسه على السلطة مع أخيه ما سبب لنا الكدر والحزن . إن صح ما قيل من أن أخاه تغلب عليه وأنه سمل عينيه !

وطالب آخر جاء من القطيف من عائلة الشماسي المعروفة ، وذلك بعد افتتاح القسم الداخلي الجديد بالقضيبية . واستمر في دراسته مدة من الزمن ثم حزم أمتعته فجأة ليعود إلى القطيف . ولما سألته عن السبب قال : إنها «عصاة»

الأستاذ يوسف الشيراوي ، لقد تحملت أذاها في الصيف ولكنه «لشطني» على راحة يدي منذ أيام في صباح يوم شتاء قارس ، ولا أزال أتألم منها ، فقررت الرحيل وفشلت في إقناعه بالبقاء . وأما الثالث فقد جاء للدراسة من حضرموت أواخر الأربعينيات ، وهو من عائلة «السقاف» ، وكان حافظا للشعر محبا للأدب وفي غاية البساطة والمرح . ثم أصيب بمرض بعد سنوات وهزل جسمه واضطر للرحيل . وقبل سفره سلمني قصيدة أبديت له إعجابي بها فكتبها كاملة بقلم الرصاص ، وعرفت فيما بعد أنها قصيدة مشهورة منسوبة للعصر الجاهلي تعرف «باليتيمة» لأن قائلها مجهول . . وهي التي مطلعها :

هل بالطلول لســــــــــــــــائل رد

أم هل لها بتكلم عــــــــهد

ثم ذاع صيت هذه القصيدة اليتيمة وقصتها المشوقة ، بعد أن نظم أستاذنا الكبير إبراهيم العريض تلك القصة شعرا متضمنة أبيات «اليتيمة» . ومجمل قصتها أن أميرة من اليمن مشهورة بالحسن والجمال ، آلت على نفسها أن لا تتزوج إلا من شاعر يحسن وصف جمالها . . فأعجبت بالقصيدة أيما إعجاب ، لولا أنها اكتشفت بذكائها من بعض أبياتها الأخيرة أن الشحص الذي جاء بالقصيدة طالبا التقرب بها للزواج منها هو ليس ناظمها الأصلي ، وهنا صاحت غاضبة «أمسكوا الرجل فإنه قاتل زوجي» وأمرت بقتله !

أما الطالب الأخير من الأربعة ، فهو ليس غريبا عن البحرين ، إذ هو ينتمي إلى أسرة «القاضي» التي استوطنت البحرين ، ووالده المرحوم محمد القاضي من سراتها وكبار تجارها .

وابنه عبد العزيز كان وما يزال أخا عزيزا كريما . وقد كنت معه في المدرسة «الثانوية» ، وكان في الصف الأعلى . انتقل إلى الدمام ثم إلى «عنيزة» في المملكة العربية السعودية . وكان عبد العزيز شاعرا متمرسا وأديبا فصيح اللسان . خطب في الأندية وتكلم في المحافل الأدبية ، وانضم إلى نادي العروبة وكتب

في مجلة «صوت البحرين» ونظم تاريخ «عنيزة» مسقط رأسه في قصيدة طويلة نشرها باسم (العنيزية) أواخر الأربعينيات . وخلال سنوات الدراسة في الثانوية استفدت من معرفته باللغة والأدب ضمن اتفاق للتبادل الثقافي بيننا مكون من عشرين بنداً! .. وغايته تبادل الأفكار والبحث في أمور المعرفة والثقافة والأدب والشعر ، ولم أكن في ذلك الوقت لأتجاوز سن الرابعة عشر . وكان كل منا يجتهد في المطالعة والقراءة ثم تتنافس في تقديم الجديد للمناقشة ، ونقوم بتدوينه في محضر! .. حتى جاءني عبد العزيز ذات يوم يخطال فرحاً وبيده قصيدة قال إنها يتيمة أخرى أنشدها أبو عكرمة الضبي ولم يخبر بقائلها . ثم مضى الزمن .. وكنت أحفظ أبياتاً منها ، ثم عدت لأبحث عنها بين الأوراق فوجدتها قد تأكلت! .. ثم أرسل الي عبدالعزیز نسخة من كتاب نشره عن أدب الفتیان ، فوجدت القصيدة اليتيمة الأخرى منشورة بكاملها في الكتاب .. وهكذا من ثم جاءت فكرة نشرها في هذه الزاوية .. واحة يستظل بها القارئ المهتم بالتنقيب عن التراث الأدبي ..

يقول عبدالعزیز : (رأيت هذه القصيدة في مطبوعة قديمة لديوان جرير نشرها محمود عبد المنعم الشواربي عام ١٣١٣ هـ . وذكر في آخر الديوان قصائد لغيره منها هذه القصيدة ، تتقدمها عبارة «أنشدها أبو عكرمة الضبي ولم يخبر بقائلها» ، ولما تتضمنه أبياتها من فصاحة وبلاغة ، ولندرة وجودها ، كما أظن - أثرت أن أذكرها ها هنا كاملة فهي كما أقدر إحدى فرائد البيان في لغة البيان) .. ثم يورد أبياتها كما يلي :

ألا مالعينك مطروفة

بذكر الخيال الذي زارها

لذكر خيال سرى مؤهنا

فهاج على العين عوارها

تجاوزن نحوي هول النجو

دوسهل البلاد وأوعارها

فـسـبـتُ بـه جـذـلا لـيـلـتـي
 إـلـى أن تـبـيـنـتُ أسـحـارـهـا
 فـلـمـا انـتـبـهتُ وـجـدتُ الخـيـال
 أمـانـي نـفـس و تـذـكـارـهـا
 و فـاضـن مـن العـيـن مـغـرُورُوق
 مـن الـدمـع أـلـشـق أشـفـارـهـا
 لـذـكـر الـتـي دـون أبـيـاتـهـا
 تـنـائـف تـقـطـع مـزـدـارـهـا
 و سـاج مـن البـحـر مـغـرورُوق
 يـنـهـنـه دـونـي أـحـبـبـارـهـا
 و لـم تـشـتُ فـي صـرـمـه بـالـغـضـا
 و لا الحـزـن تـنـظـر مـيـبـارـهـا
 نـزـور الـكـلام قـطـيـع القـيـا
 م ، لـم يـظـلـم الـهـم أسـهـارـهـا
 كـأن سـخـامـيـة عـتـتـت
 ثـلاـثـيـن حـولـا و إـعـصـارـهـا
 لـقـيـصـر لـم يـغـلـهـا طـابـخ
 و لـم يـتـعـب الـوـطـء عـصـارـهـا
 فـأصـفـى بـعـقـوتـة نـفـسـه
 و لـم يـدع لـلـبـيـع تجـارـهـا
 يُعـلّ بـهـا بـرد أنـيـابـهـا
 إذـا انـتـابـت الطـيـر أو كـارـهـا
 فـيـالـيـتـهـا سـاعـفـت بـالـوـصـول
 و فـتـنـا ، و حـمـلـتُ أو زارـهـا

وكفي لها الرهن أن لا أخون
وأن لا أضـيـع أسرارها
متى ما أنل ودّها صافيا
فقد قضت النفس أوطارها
وكنا ونحن لها جبيرة
يطول تجنّبنا دارها
حياءً على أنسي أستجن
عليها وأغـيـب زوارها
إذا أنا ابثثتها حاجةً
أطال فؤادي إضـمـارها
أرتني مخائل تُعجبني
لغـيـري تُنزل أمطارها
فياليت شعري هل أبصرن
بوادي العقيقين حُضارها
وهل أشهدن بتلك الهضاب
سحبَ الذبول وتجرارها
وعاذلة باكرتني تلوم
وتفري من الغيظ أطمـارها
تخاف عليّ اجتنابي البلا
دَورمـيـي بنفسي أقطارها
فقلت لتعلم ما نيستي
وأن لستُ أحفل إكثارها
أعاذل مهلاً فؤدماً عص
يتُ مقال النساء وتأمـارها

دعيني فلا أنا أرجوا الخلو
دَولا النفسُ تسبقُ مقدارها
وليس القعود بمنجي النفو
س بل الله يكتب إنشأها

**

وأرضٍ قطعتُ بلا صاحب
إذا الالُ البس إطرارها
لهوت ببيض حسان الوجوه
لم يلح الضح أبشارها
كمثل الجأذر يلهيني
وأدعو إلى اللهو أبكارها
وخيل هديت وخيل حميت
إذا هي لم تحم إدبارها
وما زلت منذ فهمت الشؤ
ن ونقض الأمور وإمرارها
لزاز خصوم إذا أجلبوا
أكفكف بالصمت مهادرها
وكشأف هول وركآبه
وحلال بيد وسيارها
عقرت لهم عند أرمالهم
قلوصي ولم أدع أيسارها
ولم أك إذ خفت أرمالهم
كمن يكسع الشول أغبارها
فهذا بلائي وإني امرؤ
حلبت المعيشة أشطارها

وكننتُ إذا ما أردت القـريـض
تخبرني الجن أشعارها
أروضُ صعاب قوافي القريض
حتى تذل فاختارها
قوافٍ يوردها صاحبـي
إليّ واكفـيه ، إصـدارها

**

وفي ختام هذه القصيدة يقول القاضي : يتيمة هي هذه القصيدة حين لم يعرف قائلها ، وما ضرها اليتيم ، بل هي فريدة إذ لم تعرف ضرائرها .
أما اليتيمة الأولى فقد قيل في تسميتها باليتيمة إنه لم يعرف قائلها . . .
وقيل أيضاً إن قائلها معروف ، حيث إنها تنسب إلى شاعر وهو دوقلة المنبجي . .
وإنما هي يتيمة في حسنها وروعيتها . . وأنا سوف أورد فيما يلي هذه القصيدة على اختلاف الرواة في بعض نصوصها وحذف بعض الأبيات منها . . . كخاتمة لموضوع (اليتيمتان) :

القصيدة اليتمية
لدوقلة المنبجي

هَلْ بِالطُّلُولِ لِسَائِلِ رَدُّ
أَمْ هَلْ لَهَا بِتَكَلُّمِ عَهْدُ
دِرْسِ الْجَدِيدِ جَدِيدَ مَعَهْدِهَا
فَكَأَنَّهَا هِيَ رِبْطَةُ جُرْدُ
مِنْ طُولِ مَا تَبْكِي الْغَيُومُ عَلَى
عَرَصَاتِهَا وَيُقَهِّقُهُ الرَّعْدُ
وَتُلِثُ سَارِيَةً وَغَادِيَةً
وَيَكُرُّ نَحْسٌ خَلْفَهُ سَعْدُ

**

فَوَقَّفتُ أسألها وليسَ بها
إِلا المَهْما وَنَقَانِيقُ رُبْدُ
فَتَنانِثرتِ دِرْزُ الشُّؤُونِ عَلَى
قَدْيِ كَمَا يَتَنانِثِرُ العِقدُ
لَهْفِي عَلَى دَعْدِ وَمَا خَلقتِ
إِلا لِحَرِّ تَلَهُّفِي دَعْدُ
بَيْضَاءُ قَدْ لَبِسَ الأَدِيمُ بهاءُ
الحُسْنِ فَهوَ جِلْدِهَا جِلْدُ
وَيَزِينُ فَوْدِيهَا إِذا حَسَّرتِ
ضَافِي العَدائِرِ فَاحِمْ جَعْدُ

فَالْوَجْهَ مِثْلَ الصُّبْحِ مَبِيضٌ
 وَالشَّعْرَ مِثْلَ اللَّيْلِ مُسْوَدٌ
 ضِدَّانٍ لِمَا اسْتُجْمِعَا حَسَنًا
 وَالضِّبْدُ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّبْدُ
 وَكَأَنَّهَا وَسْنَى إِذَا نَظَرْتَ
 أَوْ مُدْنَفٌ لِمَا يُفْقُ بَعْدُ
 بِفَتْوَرِ عَيْنٍ مَا بِهَا رَمَدٌ
 وَبِهَا تُدَاوَى الْأَعْيُنُ الرُّمَدُ
 وَتُرِيكَ عَرْنِينًا بِهِ شَمَمٌ
 وَتُرِيكَ خَدًّا لَوْنُهُ الْوَرْدُ
 وَتُجِيلُ مَسْوَكَ الْأَرَاكِ عَلَى
 رَتْلِ كَأَنَّ رُضَابَهُ شَهْدُ

وَأَمْتَدُّ مِنْ أَعْضَادِهَا قَصَبٌ
 فَعَمُّ تَلْتِنُهُ مَرَاثِقُ دُرْدُ
 وَالْمِعْصَمَانُ فَمَا يُرَى لَهُمَا
 مِنْ نَعَمَةٍ وَبَضَاضَةٍ زَنْدُ
 وَلَهُمَا بَنَانٌ لَوْ أَرَدْتَ لَهُ
 عَقْدًا بِكَفِّكَ أَمْكَنُ الْعَقْدُ
 وَبَصْدَرُهَا حَقَّانُ خَلْتَهُمَا
 كِافُورَتَيْنِ عَنَّا لَاهُمَا نَدُ
 وَالْبَطْنُ مَطْوِيٌّ كَمَا طُوِيَتْ
 بَيْضُ الرِّبَاطِ يَصُونُهَا الْمَلْدُ
 وَيَخْصِرُهَا هَيْفٌ يُزَيِّنُهُ
 فَإِذَا تَنَوَّءَ يَكَادُ يَنْقَدُ

وَالْتَفَّ فَخَذَاهَا وَفَوْقَهُمَا
كَفَلٌ يَجَاذِبُ خِصْرَهُ نَهْدُ
فَقِيَامِهَا مَثْنَى إِذَا نَهَضَتْ
مِنْ ثِقَلِهِ وَقَعُودَهَا فَرْدُ
وَالْكَعْبُ أَدْرَمٌ لَا يَبِينُ لَهُ
حَاجِمٌ وَلَيْسَ لِرَأْسِيهِ حَادُ
وَمَشَتْ عَلَى قَدَمَيْنِ خُصَّرتَا
وَأَلَيْتِنَا فَتَكَامَلِ الْقَدُ
مَا عَابَهَا طَوْلٌ وَلَا قِصْرُ
فِي خَلْقِهَا فَقَوَامِهَا قِصْدُ

إِنْ لَمْ يَكُنْ وَصَلٌ لَدَيْكَ لَنَا
يَشْفِي الصَّبَابَةَ فَلْيَكُنْ وَعَدُ
قَدْ كَانَ أَوْرَقَ وَصَلِكُمْ زَمْنَا
فَذَوَى الْوِصَالِ وَأَوْرَقَ الصَّدُ
لِلَّهِ أَشْوَاقِي إِذَا نَزَحْتَ
دَارَ بِنَا وَنَأَى بِكُمْ بَعْدُ
إِنْ تُتْهِمِي فَتَّهَامَةَ وَطْنِي
أَوْ تُنْجِدِي يَكُنِ الْهَوَى نَجْدُ
وَزَعَمْتَ أَنَّكَ تَضُمُّرِينَ لَنَا
وَدَأَّ فَهَلَّا يَنْفَخُ الْوُدُ
وَإِذَا الْمُحِبُّ شَكَا الصُّدُودَ وَلَسْمُ
يَعْطَفُ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ عَمْدُ
يَخْتَصُّهَا بِالْحُبِّ وَهِيَ عَلَى
مَا لَا يَحِبُّ فَهَكَذَا الْوَجْدُ

أَوْ مَا تَرَى طَمَرِي بَيْنَهُمَا
رَجُلٌ أَلْحَ بِهِ زَلِهُ الْجِلْدُ
فَالسَّيْفُ يَقْطَعُ وَهُوَ ذُو صَدَأٍ
وَالنَّصْلُ يَفْرِي الْهَامَ لَا الْغَمْدُ
هَلْ تَنْفَعَنَّ السَّيْفَ حَلِيئَتُهُ
يَوْمَ الْجِلَادِ إِذَا نَبَا الْحَدُّ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْنِي رَجُلٌ
فِي الصَّالِحَاتِ أَرْوَحُ أَوْ أَغْدُو
بِرْدٌ عَلَى الْأَدْنَى وَمَرَحْمَةٌ
وَعَلَى الْحَسَوَادِ مَسَارِدٌ جَلْدُ
مَسْتَسْجَلِبٌ ثَوْبُ الْعَمْفَسَافِ وَقَدْ
غَسَفَلُ الرَّقْسِيْبِ وَأَمَكْنُ الْوَرْدُ
وَمَسْجَانِبُ فَسَعَلُ الْقَسْبَسِيْعِ وَقَدْ
وَصَلُ الْخَبْسِيْبِ وَسَاعِدُ السَّعْدُ
مَنْعُ الْمَطَامِعِ أَنْ تُثَلَّسْمَنِي
أَنْنِي لَمَعَسُوْلِهِمَا صَسَسَا صَلْدُ
فَأَرْوَحُ خُرًّا مِنْ مَلَلْتِيهَا
وَالْحُرُّ حِينَ يُطَيِّعُهَا عَبْدُ
أَلْسِيْتُ أَمْدَحُ مَسْكِرْفَا أَبْدَا
يَبْسُقِي الْمَدِيْحُ وَيَنْفَسِدُ الرَّفْدُ
هَيْسَهَاتٍ يَا بَنِي ذَاكَ لِي سَلْفُ
خَمَسَدُوا وَلَمْ يَخْمَسُدْ لَهُمْ مَجْدُ
وَلَيْنَ قَسْفَسُوْتُ حَمْسِيْدَ فَسَعْلِهِمْ
بِذَمْسِيْمِ فُسَعْلِي إِنْنِي وَعَسْدُ

وَالْجَسَدُ كَنَسْدَةِ وَالْبَنُونَ هُمْ
فَنَزَكَا الْبَنُونَ وَأَنْجَبَ الْجَسَدُ

**

أَجْسَمِلُ إِذَا غَالَيْتَ فِي طَلَبِ
فَأَلْجِدُ يُغْنِي عَنْكَ لَا الْجَسَدُ
لِيَكُنْ لَدَيْكَ لِسَائِلٍ فَسِرِّجُ
إِنْ لِمَ يَكُنْ فَلَيْتَ حَسُنَ الرَّدُّ
وَطَرِيدٍ لَيْلٍ قَسَادُهُ سَقَبُ
وَهِنَا إِلَيَّ وَسَاقِيسُهُ بَرْدُ
أَوْسَعْتُ جُهْدَ بِشَائِسَةٍ وَقِرَى
وَعَلَى الْكَرِيمِ لَضَيْفِهِ الْجُسْهُدُ
يَا لَيْتَ شِيسَمِرِي بَعْدَ ذَلِكَ كُمْ
وَمَصْمِيرُ كُلِّ مُؤَمِّلٍ لِحَسَدُ
أَصْصِرِيغُ كَسَلِمِ أَمْ صَصْرِيغُ رَدَى
أُودَى فَكَلَيْسَسِ مِمَّنِ السَّرْدَى بُسْدُ

سيرة الخليفة عمر بن عبد العزيز

- ١ -

.. (فلما آلت إليه الخلافة ، حاول أن يدافعها عنه ليخلص لحياته المترفة .. ولكن المسئولية أدركته على غير رغبة منه ، فإذا الأمير المترف المتنعم يتحول إلى راهب منخوش .. وإذا هو يأمر بجمع كل ما يملك من ثياب ودواب وعبور وزينة فيبيعها ويضع ثمنها في بيت المال . ولا يستبقي غير الكتب . حقا أصبح الأمير المترف المثقل بالمتاع راهبا في الحكم يثقله الإحساس بالمسئولية في إقامة العدل بين الرعية والإحسان) .

ما تقدم .. هو فقرات من كتاب (عمر بن عبد العزيز) للكاتب المعروف عبدالرحمن الشرقاوي . اشتريت الكتاب بثمن بخس - على كبر شأنه وأهميته - بعد أن عذف عن شرائه جمهور المرتادين لمعرض للكتاب أقامته دار وطنية للكتب مؤخرا . ثم بدا لي (وربما كنت مخطئا) أن الجمهور الكريم على غير اطلاع واسع بسيرة هذا الخليفة الأموي سلالة ، الصالح عملا .. فقلت في نفسي : هذه السيرة العطرة هي نعم الواحة للمستجير من وهج الدنيا وزخرفها . ولولا أن الواحة للمستريح لا يتسع فيها لمسافر عجول ، أن يمكث إلا قليلا ، لوجدت إذا للقول متسعا وللإفاضة سبيلا ، ولكنني سأكتفى بقراءه عجلي لسيرة عمر بن عبد العزيز يتبلغ بها المسافر وتنتفتح بها شهية المستزيد .

**

يقول الشرقاوي مكملا .. (وإذا هو ينتزع من أهله الأمويين كل ما أترفوا فيه ، ليرده إلى أصحابه ، أو إلى بيت المال . ذلك أن الخليفة الشاب قد خصص

كل وقته وفتوته وطاقاته لإسعاد الناس ، وأصبح حظه من متاع ، هو إشباع عقله من العلم ، حتى قال عنه علماء عصره : إنه معلم العلماء ، وملاً النفس بالسكينة لأنه استطاع أن يوفر للرعية حياة أرغد من حياته وهو راعيهم) .

ثم يروي على لسان عمر من ذكرياته قبل الخلافة : (وتذكرت أبي (عبدالعزیز) إذا خطب فنال من علي ، رضي لله عنه ، تلجلج ، فلما سألته : يا أبت إنك تمضي في خطبك ، فإذا جاء ذكر علي عرفت منك التقصير . قال : أو فطنت لذلك ؟ قلت : نعم . فقال يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من (علي) بن أبي طالب ما نعلم ، لتفرقوا عنا إلى أولاده . فلما أصبح عمر بن عبد العزيز واليا على المدينة قبل الخلافة ، صار حريصا على أن يرضي بني هاشم ويظهر للناس فضلهم ، قال : ما من أحد من بني هاشم إلا له شفاعة . وتعود عمر إذا جاءه أحد من آل البيت ، أن يأذن له الدخول عليه مهما تكن مشاغله ويقول له أمام الجميع (إني لأستحي من الله أن تقف ببابي) .

ولما دخلت عليه فاطمة بنت علي بن أبي طالب قال : يا بنت علي ، والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إلي منكم ، ولأنتم أحب إلي من أهل بيتي . ثم يضيف الشرقاوي قائلًا : وفي الحق أنه تعلم الكثير من صحبة الفقهاء وبصفة خاصة الفقهاء من آل البيت . وكان أهل الفقه قد أجمعوا على أن أوثق الأحاديث ، هي ما يرويها عميد آل البيت : علي (زين العابدين) عن أبيه الحسين عن جده الإمام علي عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجهد عمر في أن يحفظ هذه الأحاديث . . كما تلقى عنه كثيرا من ضروب الحكمة وأقول : إن الشرقاوي كتب عن عمر بن عبدالعزيز بأسلوب روائي بسيط ، وكأنه أخذ على عاتقه مسئولية التوثيق في روايته ، فجاء الكتاب خاليا من الهوامش والحواشي التي تصرف انتباه القارئ ؛ فهو يقص ويروي بذلك الأسلوب متحاشيا الإسناد إلا فيما أورده من مراجع في آخر صفحات الكتاب .

وتحدث الشرقاوي في النصف الأول من الكتاب عن حياة عمر وسيرته في

عهد خلفاء بني أمية ، بدأ بعمه عبدالملك بن مروان ، ثم ابنه الوليد ثم سليمان . وذكر لعمر مواقف تاريخية أملاها ضميره وإيمانه وحبه لتقوى الله ، معارضة لما كان يجري من أحداث ، ما كان غيره ليجرؤ على المصارحة بها ، ولا سيما بعد أن سمع الناس أن عبدالملك بن مروان يعلن مقالته المشهورة : (لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا ، إلا ضربت عنقه) ، ومن ذلك ما قاله الفتى لعمه عبدالملك : ((إن الإمامة قامت على الشورى والعدل والإحسان والرحمة)) . كما شكاه جور الحجاج بن يوسف وبطشه بالمسلمين ، وعدم تورعه عن ارتكاب أي عمل مشين وألح عليه بعزله .

ولما ولي الأمر الوليد بن عبدالملك ، جاءته رسل من المدينة يشتكون ظلم أميرهم . فرأى أن يولي عليهم عمر بن عبدالعزيز . فكان أول ما عمله في المدينة أن دعا إليه عشرة من كبار فقائها وعلمائها ، وهم أصحاب علم وفقه ومعرفة واسعة ، لا أصحاب مال أو حسب ، وذلك بعد أن تحرى آراء أهلها واطمأن إلى أن هؤلاء العشرة الكرام ينوبون عن المدينة حقا ، ويمثلون كل ما يضطرب فيها من آراء وأفكار ومذاهب واتجاهات ومصالح .

وإذ اطمأن إلى أنهم مجلس نواب المدينة ، جعلهم مجلس شورى ، وألزم نفسه اتباع الشورى ، فقد تعلم في المدينة منذ نحو عشر سنوات ، أن الشورى تلزم الحكام والمحكومين على السواء . ورحب الشيوخ بهذه السياسة الجديدة التي لم يتعودوها منذ زمن بعيد ، فقد ألفوا ولاية يستبدون بالرأي منذ أن انقضى عصر الخلافة الراشدة . ثم بدأ عمر بن عبد العزيز ، وهو لا يزال واليا على المدينة بالإصلاح . فأطلق السجناء من غيابات سجون المدينة ومكة والطائف ، ومن خلف أسوارها التي خنقت أنين المظلومين منذ حين ، وهم أصحاب الآراء التي تخالف رأي النظام الأموي . ثم انطلق ينشر ضوء الحرية في الغياهب الموحشة على وهج ساطع من شعار جده عمر بن خطاب : (متى استعبدتم الناس وقد

ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟! فملأت الفرحة قلوب أهل الحجاز .

**

ثم إن الأمير الجديد سعى إلى علي زين العابدين بن الحسين والي سعيد بن المسيب معتذراً إليهما باسم الدولة نفسها عما اقترفه ضدّهما أحد عمالها وهو هشام الأمير المعزول ، وما زال بهما حتى أعطياه الرضا . وأبلغه مستشاروه بكل ما عرفوه من مظالم فأزالها ليسود العدل والإحسان ، بدلا من الظلم والإرهاب .

**

وكان الحجاج يعرف أن عمر يزيديه ويلعنه في كل مكان ويسميه السفاح الجبار المنافق ، فما ذكر اسمه أمام عمر إلا قال : لعنة الله على الظالمين . وما إن علم الحجاج بما صنعه عمر ، حتى وجد الفرصة التي طال انتظارها للرد عليه للإيقاع به ، والحجاج مطمئن إلى عرفان عبد الملك وبنّي أمية صنيعة ، وأنه غاص في دماء المسلمين ليوطد له ملكه على الأشلاء . ثم ما زال يكيّد لعمر عند الوليد حتى عزله واستدعاه إلى دمشق . .

عمر بن عبد العزيز دستور في الحكم والحياة

-٢-

وقف بنا الحديث في الحلقة السابقة ، عند مؤامرة الحجاج بن يوسف للإيقاع بعمر بن عبد العزيز بسبب سياسته الإصلاحية العادلة ، وبسبب إقدامه على تأليف مجلس للشورى فأقدم الوليد بن عبد الملك على استدعاء عمر إلى دمشق ، ثم عزله .

وبعد الوليد جاء سليمان بن عبد الملك ، وعانى عمر في عهده من محنة الضمير ، ما عاناه في عهد الوليد ، وذلك تجاه الممارسات الظالمة . فكان يعترض على الأحكام الجائرة بشتى الوسائل ، مستفيدا بما له من حظوة عند كليهما .

وبعد وفاة سليمان ، بويع عمر بالخلافة فقبلها على مضض . وما كاد يفرغ من جنازة سليمان ، حتى بادر بإصدار أوامره بعزل الولاة الطغاة ، ولا سيما في مصر وأفريقيا ثم في سائر الأمصار ممن كانوا يعذبون الرعية وينتهكون الحرمات ، ويلقون الأبرياء في السجون ، ويأخذون الناس بالشبهات . وقد تولى المؤلف عبدالرحمن الشرقاوي تفصيل أحداث تلك المآسي ، التي تعزى إلى سوء الولاة وسوء تعليمات سليمان المشددة إلى عماله للحرص على جباية الأموال من الناس ، وذلك بالرغم من وفرة الأموال المتراكمة من إيرادات الفتوح . ومن جملة تلك الأوامر الغريبة ما كتبه إلى أسامة التنوخي والي مصر قائلا : «أحلب الدر حتى ينقطع (والدر هو اللبن) واحلب الدم حتى ينصرم» !

ولما فزع أهل مصر إلى سليمان يستغيثون به ليرحمهم ، لم يأبه لهم ، كما لم يأبه لشفاة عمر الذي جاءه وهو يبكي لما نزل بأهل مصر .

ثم قدم لعمر كل ما يقدم للخليفة الجديد من متاع مطهمة ، وفرش ثمينة فاخرة ، وسرادقات مفروشة بأفخر السجاد ، وكلها جديد لم يستعمل ، فجعل عمر يدفع كل ذلك برجله حتى يفضي إلى الحصير . . ثم قال : «يا مزاحم . . ضم هذا لأموال المسلمين» . . ثم ركب بغلته واكتفى بها .

ثم أتوا بالجواري فعرضن عليه كأمثال الدمى من حسنهن ، فجعل يسألهن واحدة واحدة فتخبره بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت ، فيأمر بردهن إلى أهليهن مخפורين حتى فرغ منهن .

ثم يضيف الشراوي في تحليل شخصية عمر ونظرته إلى الحكم فيقول :
«واحتجب عن الناس ثلاثا لا يدخل عليه أحد . . وحده يتعبد في مصلاه بمنزله ويدعو الله أن يعينه ، ويقرأ القرآن الكريم ويتفكر ويتدبر . جده عمر بن الخطاب هو أول أمير للمؤمنين . . والأمة حين تطلق لقب : أمير المؤمنين وتسكت عن الاسم فهي تعنى الإمام علي بن أبي طالب . . وأمير المؤمنين الجديد عمر بن العزيز يريد أن يتخذ القدوة من هذين الإمامين العظيمين : فكلاهما واجه الأطماع وعالج في الرعية ما زين لها حب الشهوات ، وهو بلاء نجا منه أبو بكر الخليفة الأول وعاناه الخليفة الرابع . . رضي الله عنهم جميعا ، ولكن عمر وعليا واجها الأطماع والشهوات بعزم شديد وبهيبة الشريعة وسلطان العدل والإحسان والرحمة . . اعتكف عمر على سيرتي الخليليتين العظيمتين عمر وعلي يتعلم منهما ومن أسلوبهما في الحكم معنى شرف الحكم ويجعل منهما الأسوة .

وهزه أن كلا من الإمامين العظيمين يحمل في عقله الأفكار نفسها ، وإن يختلف بهما الزمان والمكان والأحوال . . ولأمر ما عمقت مودتهما ولأمر ما قال عمر (لولا أبو الحسن علي لهلك عمر) !!

أخذ عمر بن عبد العزيز في معتكفه يتفكر فيما تركه الإمامان العظيمان

من آثارهن الحكم الغوالي . . فجعلها دستوره في الحكم والحياة .
ثم يورد الشرقاوي كشفا تفصيليا بالأقوال والأفعال والمبادئ الإسلامية
والإنسانية ، في سيرة عمر وعلي ، والتي قرر أن يتخذها له دستورا في الحكم
والحياة . . نكتفي بإيراد شيء منها فيما يلي :

* «من استعمل رجلا (أي جعله عاملا) لمودة أو لقرابة لا يستعمله . إلا
لذلك ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»

* «إياكم والهدايا فإنها من الرشا»

* «إننا والله ما وجدنا إلى هذا المال سبيلا إلا أن يؤخذ من حق فيوضع في حق
ولا يمنع عن حق .»

* «إن أسعد الرعاة من سعدت به رعيتته وإن أشقى الرعاة من شقيت به
رعيتته» .

* «لا تضربوا الناس فتذلّوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم» .

* «إنما يرحم الله من عباده الرحماء» .

* «إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما
تمتع به غني والله سائلهم عن ذلك» .

* «في قلب الأحوال علم جواهر الرجال» .

* «لا يزهديك في المعروف من لا يشكر لك» .

* «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد» .

وفي نهاية التفصيل الوافي لدستور تلك الأحكام يقول الشرقاوي عن عمر

بن عبدالعزيز :

بهذه الكلمات المضيئة أشرقت نفسه ولم يعد في طوفان الشعاع الطاهر -

يعرف كلمات عمر من كلمات علي ! فكلاهما ينساب من نبع النبوة القدسي ،

وارتفع نشيجه وهو في مصلاه يتأمل ويتفكر ، ودموعه تجري على لحيته حتى

اشتد بكأؤه وندت منه زوجته فاطمة تؤاسيه وتخفف عنه فلما كففت دموعه

قال لها :

«يا فاطمة إنني تقلدت أمر أمة محمد ﷺ فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع والعمري والمظلوم والمقهور والغريب والأسير والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض ، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ فخشيت أن لا تثبت حجتي عند الخصومة فرحمت نفسي فبكيت» .

وكانت لفاطمة عند عمر منزلة خاصة فوق نساءه ، فأشارت عليه أن يرسل إلى عماله في الأمصار بنصائحه ، ويحملهم أمانة من يحكمونه من بشر وما يحكمون من أموال ، وينذر بعزل وعقاب من يخالف دستوره في الحكم ونهجه في الرعية ، ففعل وأصدر نصائحه وأوامره في رسالة واحدة إلى العمال جميعا ، يوصيهم فيها بتقوى الله ومحاسبة النفس ، والعدل بين الناس والرفقة بأهل الجزية ، ومعاملتهم بالحسنى كما يوصيهم بالعدل في توزيع أموال الخراج والصدقات والجزية والفيء والخمس ، كما منعهم من التعذيب ، وأمرهم في القصاص أن لا يعجلوا في قطع أو صلب حتى يراجعوه فيه .

وكتب لعامله على سمرقند أن يعمل خانات لاستضافة المسافرين ، وتعهده دوابهم ومرضاهم ، وكذلك إيصال المنقطعين إلى بلدانهم . كما كتب لعامله :
* «ثم إن المكيال والميزان نرى فيهما أموراً علم من يأتيها أنها ظلم . فنرى أن تمام مكيال الأرض وميزانها أن يكون واحداً في جميع الأرض كلها!» .
* «وإن استطعت أن تكون في العدل والإصلاح والإحسان بمنزلة من كان قبلك في الظلم والفجور والعدوان ، فافعل ولا حول ولا قوة إلا بالله .»
* «ونرى أن توضع السخرة عن أهل الأرض فإن غايتها أمور يدخل فيها الظلم» .

* «ونرى أن ترد المظالم المغصوب إلى أهلها» .
* «ونرى أن ترد المزارع إلى ما جعلت له وإنما جعلت لأرزاق المسلمين كافة ، فإن أمر العامة هو أعظم للنفع وأعظم للبركة .»
وبعد أن فرغ من كتابة هذه الرسائل إلى عماله قرأها على امرأته (فاطمة)

فأبدت إعجابها بما تضمنته من أصول للحكم ودعت له بالتوفيق .
فما كان مغتصبا رده إلى أهله ، ومن لم يعرف له أصحابا رده إلى بيت
المال ، وسيبدأ بنفسه فيرد الإقطاعات والأراضي الشاسعة والأموال الطائلة ،
التي يملكها في أقطار الدولة إلى بيت المال ، وسيحتفظ بما يعرف عن ثقة أنه حق
خالص له لم يدخله غضب الآباء والأجداد ولا شبهة غضب !
فهشت له فاطمة وامتدحت رأيه فقال لها : «إن أردتني يا فاطمة فردي ما
معك من مال وحلي وجواهر إلى بيت المال فإنه للمسلمين وإنني لا أجمع أنا
وهو في بيت واحد» فردته جميعا .
ومن عجب أنه لما تولى أخوها يزيد بعد وفاة زوجها عمر رد عليها جواهرها
فلم تأخذها وقالت : «ما كنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتا» ؛ ففرقها على نسائه
وجواريه !! .
وهكذا أضافت زوج عمر (فاطمة) سيرة صالحة للمرأة المسلمة إلى سيرة
زوجها عمر بن عبدالعزيز .

عمر بن عبد العزيز الإنجازات ومكاسب الأمة

-٣-

استغرقت مدة حكم عمر بن عبد العزيز زهاء السنتين ، وقد تحقق خلال هذه الفترة الوجيهة - من منظور العدالة الاجتماعية في الإسلام - ما عجز عن تحقيقه كثير من جاء بعده على امتداد قرون من تاريخ الحضارة الإسلامية ، بما في ذلك ما يسمى بالعصر الذهبي للحضارة الإسلامية في عهدي الرشيد والمأمون . ومن مطالعتنا في هذه الحلقة الأخيرة لكتاب عبد الرحمن الشرقاوي عن عمر بن عبد العزيز ، نستطيع أن نستخلص جملة أفكار عن إنجازات عهد عمر بن عبد العزيز ، ومكاسب الأمة التي تحققت على يده ، ونستعرض طائفة منها فيما يلي :

١- تصحيح مسار الحكم الأموي

أخذ عمر على نفسه أن يلتزم حكم الإسلام على أساس الشورى والعدل والإحسان في الرعية ، ونجح إلى حد كبير في إعادة الطمأنينة إلى الناس ، واكتساب قلوبهم وإنهاء حكم الاستبداد والظلم ، وإخلاء السجون وتعويض المتضررين من أحكام سلفه ، فعادت الثقة بعدالة الحكم ، وأخلصت الرعية في حبها له ، وعادت لأحكام الشريعة الغراء هيبتها ، مما أثار إعجاب سائر الأمم من غير المسلمين .

يقول المؤلف (ص ١٣٥) : (كرهه وأنكره وجوه بني أمية ، وأهل الأطماع

وأصحاب الضياع ، واستبشر به الفقراء وسواد الناس وأهل الورع من العلماء والفقهاء ، والذين يعانون حرارة الأشواق إلى العدل والإحسان والحرية واحترام الإنسان) . ولما زاد إلحاح بني أمية عليه ، جمع الناس كلهم وصعد المنبر وقال : (أيها الناس ، إنني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأيي كان مني فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإنني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختراروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون) ، فصاحت العامة صيحة واحدة : (قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا ، ورضينا كلنا بك) . . فكانت بيعة جديدة من الشعب نفسه ، لا من رؤوس الناس فحسب ، ولقد منحته هذه البيعة الجديدة قوة جديدة ، وجسارة على الباطل ليصول عليه بالحق فيدحضه ، لا يبالي ما يكون من رؤوس الناس ، ما دام معه تأييد العامة .

٢- رعاية أهل الذمة

كما يذكر لعمر في مراعاته للحقوق الإنسانية أنه كان يفدي الأسرى الذميين الذين قاتلوا في صفوف المسلمين في الفتوحات السابقة ، وما كان ملوك بني أمية ليفدوا ذميا قط ، بل كانوا يتركونه ليسترقه الأعداء ، وكتب إلى عماله في الأمصار وخاطب كل واحد منهم قائلا : (فانظر في أهل الذمة ، فارق بهم وإذا كبر الرجل منهم وليس معه مال فأنفق عليه) ، كما أمر بأن يساوى الموالي (أهل البلاد المفتوحة) بالعرب في المعونة والرزق ، كما استرضى المسيحيين ورد عنهم ما اغتصبه الوليد ، وخفف الجزية عن غير المسلمين جميعا ، وعاد إلى أصول الحكم التي وضعها الإسلام ؛ فجعل لكل من يعيش في أرض الإسلام حقوقا وواجبات متساوية . ثم إنه ألغى امتيازات العرب على الموالي ، فهدأ السخط الذي كان قد بدأ يشتعل على سياسة الأمويين في التفرقة العنصرية بين العرب وغير العرب . وأبقى الأرض المفتوحة - على نهج عمر - في يد فلاحها بدل توزيعها على الفاتحين ، واستفاد من خراجها لتعمير بيت المال ، ولسد الثغور ، ولكيلا يستأثر بها القوم دون قوم ، فتوارد على بيت المال

من خراجها الشيء الكثير .

٣- توزيع الثروات وتعميم الرخاء

امتلاً في عهد عمر بيت مال المسلمين ، لم ينقص منه أمره بإيقاف حملات الفتوح بدون مبرر مشروع ، ولم يؤثر فيه توزيع الأموال في مظانها الشرعية ، ولا رد المظالم وإرجاع الضياع إلى أهلها ، ولا ما أهدقه على عماله ليعفوا عن أكل أموال الناس أو الاستيلاء على ما ليس من حقهم . قال أحد عمال عمر : (بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقيا فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً ، ولم نجد من يأخذها مني ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشترت بها رقاباً فأعتقتهم ، وولاهم للمسلمين) ، وهكذا اغتنى الناس في مصر والشام والعراق واليمن وخراسان وبلاد ما وراء النهر ، وسائر أمصار الدولة من بحر الظلمات في أقصى الغرب إلى الصين في أقصى الشرق ! (ص ١٧٦) . ولما فاضت الأموال في خزائن عمر بعد كل الإصلاحات ، أصدر أمراً إلى عماله في الآفاق أن ينطلق المنادون في كل مكان لينادوا في الناس : أين الغارمون (المدينون) أين من يريد الزواج ؟ أين المساكين ، أين اليتامى ، ولا غرو فقد تدفقت الأموال حتى أصبح عماله لا يعرفون ماذا يفعلون بفوائضها !

٤- انتشار الدعوة الإسلامية بلا قتال

لما ظهر لغير المسلمين ما يعم الأمة الإسلامية من أمن ومحبة ، ومن رفاهة وما يظللها من عدالة ، وما تنعم به من حرية ومساواة ، صبا كثير من غير المسلمين إلى الدخول في دين هذا الخليفة الجديد ، فلم يكذب يدعوهم إلى الإسلام حتى دخلوا فيه أفواجا . كتب إلى ملك الروم يدعو إلى الإسلام ، وكان ملك الروم يحترم عمر ويقدره ويسميه (الرجل الصالح) فترك ملك الروم الحرية لرعاياه ، فدخل كثير منهم في الإسلام ، ثم أرسل إلى ملوك آسيا فأسلم كثير

من رعايهم . . ودعا ملوك الهند والسند ، فأسلم عدد منهم ، وتسموا بأسماء عربية ، وسارع كثير من أهل المغرب وأهل خراسان إلى الدخول في الإسلام ، لما شاع من عدل عمر وإحسانه .

٥- استتباب الأمن والطمأنينة

وقف عمر ومزاحم على طريق المدينة ، لا يعرفهما أحد ، فسألا ركبا قادمين منها عن أحوال الناس فيها وفي الحجاز . . قال الراكب الحجازي : (تركنا المدينة والظالم بها مقهور ، والمظلوم بها منصور ، والغني موفور ، والعائل مجبور) ، ويروي الشرقاوي هذه الحادثة الطريفة : أرسلت إليه امرأة من الجيزة وهي عجوز مسكينة من أهل مصر ، اسمها فرتونة السوداء ، تشكو أن لها حائطا قصيرا جدا ، وأن جيرانها يتسلقونه في يسر ، ليسرقوا دجاجها . . فكتب إليها يطمئنها ، وكتب إلى أيوب ابن شرحبيل عامله على مصر : (أما بعد ، فإن فرتونة السوداء كتبت إلي تذكرك قصر حائطها وأنه يسرق منه دجاجها ، وتساءل تحصينه لها ، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها) ، فذهب بنفسه وفعل ما أمر به عمر .

لقد استتب الأمن في عهد عمر ، إلا ما كان من بعض الخوارج حين عرفوا أن عمر يكره الحرب ويصر على السلام ، فأطمعهم ذلك فيه ، وكان أسلاف عمر من الأمويين إذا تحرك الخوارج أرسلوا إليهم جيوشا كثافا فذبحوا رجالهم ، واستحيوا نساءهم وساقوهم سبايا ، واسترقوا غلماءهم ، فهم عندهم كفار ، أما عمر فقد رآهم مسلمين بغاة عصاة ، فعدل عن محاربتهم ومقابلتهم بالبطش والإرهاب ، مستدلا بوصية الإمام علي عليه السلام بالخوارج حين قال : لا تقتلوا الخوارج من بعدي فإنهم أرادوا الحق فأخطؤوه ، فبعث إليهم من ينصحهم ، فلم يأبهوا له ، وهاجموا البصرة حتى أوشك جند مسلمة أن يفروا أمام الخوارج ، ثم ما لبثوا أن حملوا على بسطام وشوذب حتى هزموهم ، وكتبوا لعمر في أمرهم . ثم إن عمر كتب إلى بسطام الخارجي : (بلغني أنك خرجت

غضباً لله ولرسوله ، ولست بذلك الأمر أولى مني ، فهلم إلي أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس (من الطاعة) وإن كان في يدك ، نظرنا في أمرك) .. فرد عليه بسطام الخارجي : (قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يناظرانك ويدارسانك) ، وأرسل إليه مولى حبشياً اسمه عاصم ، وآخر عربياً من بني يشكر .

فأما عاصم فقد حازه عمر حتى أجم حجته (بعد حوار متشعب لا مجال لسرده) فقال : (أشهد إنك على حق وإنني بريء ممن خالفك) ، وأما اليشكري فقال ما قال صاحبه بعد أن نفذت حجته ، لكنه تمسك بواحدة منها ، وهي إقرار عمر بخلافة يزيد بن عبد الملك من بعده ، فقال ، فقال عمر إنما ولاء غيري ! فاحتج اليشكري قائلاً : كيف تسلم أمر الأمة إلى يزيد وأنت تعلم أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ .. فصمت عمر وفاضت عيناه بالدمع إشفاقاً على نفسه من الأمانة التي يحملها ... ثم قال : (أهلكني أمر يزيد ، وخصمت فيه (أي غلبت) فأستغفر الله .. أنظراني ثلاثاً) .. فأنظراه .. ولكن أهل بيته من بني أمية لم يمهلوه .. فقد خشوا أن يخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد ويتركها شورى ، فيخرج الملك من أيديهم ، فدسوا إليه غلاماً فسقاه السم !! فمات وقد شارف الأربعين ! .

رحم الله عمر بن عبدالعزيز رحمة واسعة ، فقد كان أمة وحده ، على ما ينسب إلى الإمام محمد الباقر والد الإمام جعفر الصادق قوله في عمر : (لكل قوم نجيبة ، ونجيبة بني أمية عمر بن عبدالعزيز ، فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده) . ولله در السيد الشريف الرضي ، حين رثى عمر على فترة من الزمن بينهما فقال أبياته المشهورة :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين
فتى من أمية لبكيتك
غير أني أقول إنك قد طببت
وإن لم يطب ولم يترك بيتك

أنت نزهتنا عن السب والقذف
فلو أمكن الجزاء جزيتك
ولو أني رأيت قبرك لاستحييت
من أن أرى وما حييتك
وقليل أن لو بذلت دماء البدن
حزنا على الدرى وسقيتك
دير سمعان لا أغبك غاذ
خير ميت من آل مروان ميتك
أنت بالذكر بين عيني وقلبي
إن تدانيت منك أو قد نأيتك
وإذا حرّك الحشا خاطر منك
توهمت أنني قد رأيتك
وعجيب أني قلت بني مروان
طراً وأنني ما قلّيتك
قرب العدل منك لما نأى الجور
بهم فاجتويتهم واجتبيتك
فلو أني ملكت دفعا لما نابك
من طارق الردى لفديتك

**

أهل السنة... أهل الشيعة

أين الوطن؟

في سبيل بناء مجتمع سليم على أسس من الوحدة الوطنية ، ونبراس من الوعي في الممارسة والفكر والتوجهات المسئولة ، لا بد من الحرص والحذر في اختيار الأوصاف والمسميات ، واستعمالها في الموارد الصحيحة التي تحقق الدلالة المقصودة دون إساءة أو تجريح .

إن الاختلاف بين المذاهب الإسلامية ، الذي أساسه الاجتهاد في الشريعة والفقهاء ، أصبح أمراً مألوفاً ومفروغاً منه منذ نشوء تلك المذاهب ، وتعدد آراء الفقهاء المسلمين ، واختلافهم فيها هو حق مشروع وقائم في الإسلام منذ قيام دولة الإسلام ، بعد انقضاء عصر الرسالة المحمدية ، وانتشار الدين الحنيف في أقطار الأرض ، وهذا التعدد في الفقه والاجتهاد يجب أن يكون مصدر ثراء وعطاء في التعامل مع هذا العصر والأمور والأحوال المستجدة فيه ؛ لتزداد أمة الإسلام تماسكاً ووحدة وتعاوناً على البر والتقوى .

ونحن في البحرين نعيش - ولله الحمد - مجتمعاً تسوده روح المحبة والإخاء كما عاش أسلافنا من قبل ، وعلينا أن نؤمن جميعاً بأن حالات الاستثناء التي رافقت ظروفاً سياسية أو اجتماعية لا تغير من هذه الحقيقة شيئاً ، وهي زائلة حتماً بزوال الظروف التي أوجدتها ، لهذا وجب علينا الحرص على المحافظة على تلك الروح الأصلية في طبيعة شعب البحرين قديماً وحاضراً .

ولقد قرأت في (أخبار الخليج) موضوعاً عنوانه «أهل السنة .. وعسر الهضم السياسي» وظننت أن مورد «أهل السنة» يأتي في سياق الرأي والاجتهاد

الفقهي ، فإذا به يرد في مجال السياسة والشأن العام فقلت في نفسي : لماذا يستوجب أن يكون في البحرين همّ سياسي سني وهمّ آخر شيعي؟ ومطلب وطني سني يقابله مطلب شيعي؟ أوليست هموم الجميع مشتركة وانتماءهم الوطني والقومي والإسلامي واحداً؟

ولماذا يتوجه الكاتب المحترم بكلامه إلى أهل السنة في موضوع سياسي أو اجتماعي ؛ وهو يعني في حقيقة الأمر جمهوراً من المواطنين؟

إن ما ورد في المقال لا ينطبق حتماً على جميع أهل السنة في البحرين ، هكذا تعميماً مطلقاً من حيث كونهم سنة! وفي المقابل فهناك جمهور آخر من المواطنين الشيعة (مجازاً) ينطبق عليهم القول المذكور ، الذي مجمل فحواه الخمول وعدم النشاط في الأخذ بزمام المبادرة في مجال العمل الوطني ؛ أو الانشغال في خلافات هامشية . . . مهما كان نوعها .

في رأيي المتواضع ، أن الوحدة الوطنية تتطلب منا أن تقتصر التسميات المذهبية على موارد الآراء الفقهية والاجتهادات في التشريع الإسلامي ، وأن نبتعد عن تلك التسميات في غير مجالها ، ولا سيما عند الحديث عن الشأن الوطني العام . يجب أن نرفع من قاموسنا ، ولا سيما في عهد الميثاق الوطني ، ما يوحي بأن هناك زعامات سنية أو شيعية ، وعمالا وتجارا وموظفين ووزراء سنيين أو شيعيين ، وإذا ما ذكرنا فرداً من هؤلاء فهو مواطن وإن كانوا جماعة فهم بعض المواطنين أصابوا أم أخطأوا ، لا يحمل وزرهم مذهب الشيعة ولا مذهب السنة ، بل هو التعصب الأعمى البغيض .

فلنتق الله في مستقبل هذا الوطن ومستقبل أبنائنا وأجيالنا ؛ لتربيتهم على أحسن من أخلاقنا لأنهم - كما قال الإمام علي عليه السلام - ولدوا لزمان غير زماننا ، طالبين من المولى القدير الهداية والرحمة وحسن العقبى .

العجلة والشيطان

بين العجلة المؤدية إلى الندامة ، والتأني المفضي إلى الخسران . . خيط رقيق دقيق يهتدي إليه العاقلون ويضلّ عنه الجاهلون ، والجهل المقصود هو بمعنى الإسراف والتفريط فيما يتصف به السلوك لعالم أو جاهل على حد سواء . قال الشاعر :

قد يدرك المتأني بعض حاجته
وقد يكون مع المستعجل الزللُ
وقد تفوت على قوم حوائجهم
إذا توانوا وكان الحزم لو عجلوا

. . . . فلنقل إذن إن العجلة والمبادرة محمودتان في مسالك الخير ، مذمومتان في كل ما يسيء إلى النفس أو للغير ، وإنه بعكس ذلك يكون معنى «التأني» ، وما قرأته في المدرسة في القراءة الرشيدة الابتدائية أتذكر قصة الرجل الذي ترك في بيته رضيعاً ومعه (ابن عرس) أليف لحراسته . فلما رجع إلى المنزل وجد على فم ابن عرس دمًا فظن أنه قتل الرضيع ، فانهال على ابن عرس بالفأس حتى قتله . . . فلما دخل على الرضيع وجده سالماً وبجانبه أفعى مقتولة . . . فندم الرجل على قتل ابن عرس الذي أنقذ الرضيع . . .

وقرأت منذ أيام قصة قصيرة «الزكريا تامر» في منشورات (الأيام - كتاب في جريدة) خلاصتها أن شخصاً غير شخصاً آخر - في حالة غضب - أمام ملاء من الناس بما يطعن في شرف أخته . . . فاستشاط الأخير غضباً وطعنه بسكين

طعنات قاتلة . . . ثم هرب والسكين في يده . . . فلما هداً روعه تذكر أنه وحيد
أبويه وليس له أخت . . . !

والانفعال السريع وعصبية المزاج خصلتان مذمومتان ، لا سيما عند ذوي
السلطان . وذلك لقدرتهم على الانتقام السريع ؛ لهذا كان مما يُحمد في الملوك
(بعد العفو والعدل) الحلم والتأني .

يقول المتنبي مخاطباً سيف الدولة :

وفيك إذا جنى الجاني أناةً
تُظن كرامةً ، وهي احتقارُ
إذا لم يُرع سيدهم عليهم
فمن يُرعي عليهم . . . أو يغارُ

وقد جاء الإسلام فدعا المسلمين والعرب خاصة إلى الاحتكام لله وحده
ونبذ حكم الجاهلية . وما هو في حكم الجاهلية الانفعال الحاد السريع والإسراف
في الظن ، والتعجل قبل وضوح البيّنات . ومن أشعار بعضهم (وهو قريظ بن
أنيف) يمدح قومه

«قوم إذا الشّر أبدى ناجديه لهم
طاروا إليه زرافات ووحداً
لا يسألون أحاهم حين يندبهم
في النّائبات على ما قال برهاناً»

أما صاحب المعلقة عمرو بن كلثوم فيقول :

«ألا لا يجهلن أحدٌ علينا
فجهل فوق جهل الجاهلينا»

ولقد عاجلت آيات القرآن المجيد هذه الحالة من حالات السلوك في البشر . .

في آيات بينات ومن ذلك

قوله عز وجل :

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (- ٣٤ / ٣٥ سورة فصلت)

وقوله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ (٦/الحجرات)

وقوله تعالى من سورة آل عمران :

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾

والحمد لله أولاً وأخيراً على ما وهب الإنسان من نعمة البصر والعقل ...
«بل للإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره» ، والحمد لله على حلمه بعد علمه ، وعلى عفوه بعد قدرته ، وعلى طول أناته في غضبه ، وهو قادر على ما يريد

(*) الأيام - مايو ٢٠٠١ .

الأمن يتحقق بالمشاركة الشعبية

الهزة العنيفة التي أحدثتها الغزو العراقي للكويت ، أدت دون شك إلى ضرورة ملحة لمراجعة الحسابات وإعادة النظر في الكثير من الأوضاع التي كانت سائدة قبل احتلال الكويت ، لا سيما وأن مثل هذه الظاهرة - الغزو - لم تكن في الحسبان ؛ إذ لم تحدث سابقة مشابهة في المحيط العربي منذ انحسار الحكم العثماني .

العلاقات العربية اليوم بحاجة إلى إعادة ترتيب ، بما في ذلك الأجهزة التي كانت وما زالت مسؤولة عن المحافظة على الأمن العربي ، وحل المنازعات وتنسيق التعاون كالجامعة العربية ومنظماتها ، مجلس الدفاع العربي ، والوحدة الاقتصادية .. الخ . وبمثل هذه الأهمية ينظر العالم في وضع المنطقة باعتبار الغزو حدثا عالميا ستترتب عليه نتائج هامة في علاقات الدول وتحالفها ، والترتيبات العالمية التي تعد اليوم لمرحلة نهاية الصراع بين الدول وبداية عهد السلام والاستقرار .

(الاستجابة)

أما إذا تساءلنا عن نوع الاستجابة المحلية لهذا الحدث في ضوء المستقبل ، فمع الأسف لا نجد مبادرات في مستوى ما هو مطلوب على الصعيدين الرسمي والشعبي ، وإن قامت الكويت حكومة وشعبا ببعض الإعدادات للمرحلة القادمة ، قد تكون هناك خطط غير معلنة بالنسبة لدول مجلس التعاون ، أما ما أعلن فلا يفيد بوجود تحسس واضح لقضايا ما بعد الأزمة ، رغم أن الجهود في المجال

الأمني نشطة ، وأخرها اجتماع وزراء الخارجية العرب في القاهرة ودمشق ، وانضمام مصر وسوريا للمشاركة في وضع إطار أمني . إلا أن مفهوم الأمن اليوم بات أوسع .

مفهوم الأمن لم يعد يقتصر على تنمية القدرة العسكرية ، ولا على تنمية القدرة على المحافظة على استتباب الأمن الداخلي بمفهومه المعروف ، إنما هو تحقيق الأمن للأفراد ، والأمن القومي على أساس شموليته للأمن السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي ، وكل هذه كل لا يتجزأ للأمن العام ، فإذا كنا نفكر للمرحلة المقبلة يجب أن نفكر بمفهوم الأمن الشامل .

(المشاركة)

فبالنسبة للأمن السياسي هناك أهمية المشاركة الشعبية في القرار السياسي ، ولا تهم التسميات ، مجلس وطني ، أو برلمان أو مجلس شورى . . . إذ إن الأهم ، الصلاحيات دون التسميات ، والدور الذي تلعبه هذه المشاركة الشعبية في إصدار التشريعات والرقابة على الأجهزة ، وإعطاء الثقة أو حجبها ، ومناقشة المشاريع والتشريعات وسواها . وحبذا لو توحدت الأشكال الدستورية الموجودة في دول الخليج ، وأصبح للمشاركة الشعبية تمثيل مساند لتمثيل الحكومات في مجلس التعاون الخليجي .

أما الأمن الاقتصادي فإن المقصود منه أن توجد للمنطقة الوسائل والأسس التي تستطيع بها أن تستقل باقتصادها ، فلا يكون تابعا ولا متأثرا بعوامل خارجية ، نحن في حاجة إلى اقتصاد خليجي أو عربي قائم بذاته وأولوياته ، كما هو في أمريكا وبريطانيا واليابان ، حيث تتحكم مصلحة الشعوب في الثروة ، خصوصا وأن أصل المعركة - الغزو - معركة نفط . اتهامات العراق للكويت من أجل النفط وردود الفعل العالمية من أجل النفط بشكل أساسي .

إن بناء السياسة الاقتصادية (تحرير الاقتصاد) لا يتحقق إلا عن طريق المشاركة الشعبية ، وعن طريق التعاون بين دول الخليج ، ومتى ما وجد هذا

التعاون فسوف نصل إلى التكامل الاقتصادي ، وهذا يجرننا إلى مفهوم ليس جديدا ولكنه جاءت به الأحداث ووضعتة على السطح ؛ وهو (التكامل الخليجي) الذي هو بحاجة إلى خطة ماثلة لتكامل عربي ، فالخليج باعتباره يتمتع بمصادر مالية تتيح له إقامة مشاريع كبيرة ، فإن ذلك يحتاج إلى سوق ، وبعد تجربة ٨ سنوات ، ثبت بأن السوق الخليجية لا تستوعب الطاقة الإنتاجية لتلك المشاريع ؛ لذا نرى مجموعات ضخمة كمجمع الجبيل التجاري في السعودية ، ومصانع الألمنيوم بالبحرين وسواها تتطلع إلى أسواق عالمية ، وبما أن العالم يميل إلى التكتلات الكبيرة ، فإنه سيأتي وقت نجد فيه تصدير الصناعات للأسواق العالمية ، تعترضه صعوبات بسبب الضرائب وارتباطات العلاقات الثنائية ؛ لذا ينبغي التوجه إلى الأسواق العربية بنوع من التكامل الاقتصادي ؛ ونحن كشعوب دول الخليج لا يضرنا أن نستهلك منتوجات عربية مقابل أن نصدر منتوجاتنا

إن غياب الأمن الشامل أو اضطرابه يزيد من كلفة تحقيق الأمن بالمفهوم الدارج ، وهذا يؤدي إلى مزيد من الإنفاق على التسليح ، ونحن نجد بأن الخلافات بين الدول أساسها انعدام الأمن الاقتصادي . وتجربة احتلال الكويت أوجدت ثغرات كبيرة أسوأها زوال الثقة بين الإخوة . إن إعادة الثقة يجب أن تكون الخطوة الأولى حتى لا نضطر إلى مزيد من التسليح ، ومزيد من الإنفاق على الجوانب العسكرية بدلا من تنفيذ المشاريع التنموية والخدمات والتعليم وغيرها .

(*) أخبار الخليج العدد ٤٣٢٥ بتاريخ ١٠ مارس ١٩٩١ .

الفصل الثاني

ألوان

ذكريات عن الجامعات

القطار الذي ركبته من حدود كندا إلى بلدة «أمهرست» الأمريكية ، حيث الجامعة الشهيرة «ماساشوتس - امهرست» أتاح لي فرصة نادرة للتعرف على المناظر الطبيعية الخلابة ، بغاباتها وسهولها الخضراء ، ومزارعها وأنهارها الصغيرة . . . أما القرى الريفية الجميلة فتجدها مترامية على أعتاب محطات الوقوف . وهي تتيح لركاب القطار استعادة مناظر رعاة البقر وأسلوب حياتهم إلى الذاكرة ، التي تغذيها أفلام الرعاة وأغانهم . ويمكن اعتبار بلدة «أمهرست» واحدة من تلك القرى لولا أنها تختلف عنها في العراقة والشهرة ، بسبب جامعته العريقة والشخصيات المنتمية إليها .

لم نجد في محطة قطار امهرست سيارة تاكسي توصلنا إلى حرم الجامعة ، واستلقت وقوفنا على الرصيف إحدى دوريات الشرطة المحلية ، فاقترب منا شرطي خيال على ظهر حصانه ، وأفهمنا أن عدد سيارات التاكسي في البلدة لا يتجاوز الثلاثة ؛ وقد نتأخر إذا قررنا الانتظار ، وحينما رأى علينا علامات الاستغراب والدهشة قال مودعا إن البلدة قريبة ويوجد مسار للباص قريب منا . . . وعلى عادة الأمريكيين ودعنا قائلا : إذا احتجتم إلى مساعدة أخرى فنحن حاضرون ثم انصرف .

وفهمت أم الأولاد المغزى ، فأمنكت بالشنطة ذات العجلات لتجرها على رصيف الشارع ، وما لبثت أن حذوت حذوها وسرنا معاً قاصدين تلك الجامعة حيث يدرس أحد أولادنا .

ومر في ذهني وأنا أسير متلفتا أبحث عن سيارة الباص وأسأل أصحاب

الحوانيت ، رغم قلتها وقلة المارة ، شريط من الذكريات عن الجامعات التي قدر لي أن أزورها قاصداً أو لمجرد حب الاستطلاع أثناء أسفاري الكثيرة .
وأول تلك الجامعات في حياتي كانت الجامعة الأمريكية في بيروت خلال الخمسينات ، حيث كان يدرس بعض من الأصدقاء منهم ، على سبيل المثال ، د. علي فخرو ، ود. إبراهيم يعقوب ، ود. راشد فليفل ، ورسول الجشي وآخرون . وكنت أنتظرهم في مطعم الجامعة ، حيث تتبادل النكات عن الشارع (بليس) ، وقاعة (بليس) ، ورداءة الطعام في مطعم (بليس) ، الذي كنت أستنتج من مبالغتهم في وصفه وهم يقدمونه لي مرفقاً بالشاي المثلج الذي عرفته لأول مرة هناك . . . حاجتهم لتذوق وجبة بحرينية ، فأدعوهم إلى المصيف الذي أنزل فيه في القماطية أو في فندق حجار بسوق الغرب . واستمرت تلك الزيارات لطلاب الجامعة الأمريكية في بيروت تتكرر كل سنة أو سنتين تقريباً خلال الخمسينات والستينات ، حتى انتقل مركز الثقل بعد ذلك إلى باريس ، ولها ذكرياتها المتمتزة بروائع الحي اللاتيني ، ومطاعم الشانزلزيه الفخمة ، ومقاهي الطلاب في (أودي بارت) لوكسمبورغ ، وحول سان جرمان ، وسان ميشيل ، وجامعة السوربون العريقة .

ولم أكن الوحيد ممن كان يأنس بزيارة طلاب البحرين في الخارج . . فقد كانت عادة محمومة تميزت بها عدد من الشخصيات الأدبية وأصحاب الأعمال البحرينيين ، وكبار المسئولين ، والتي تبخرت بمرور الزمن ، رغم أن هذه اللقاءات كان لها أثر إيجابي في نفوس الطلاب وعلاقاتهم بالوطن . وقد أتاحت لي كذلك زياراتي المتكررة للعراق خلال الستينات من القرن المنصرم ، تجديد لقاءاتي مع بعض الطلاب من البحرين ومن العراقيين ، الذين كنت أدرس معهم في ثانوية الأعظمية أو أساكنهم في دار البعثات العربية . وقد تحولت ثانوية الأعظمية إلى كلية العلوم للبنات ، حين زرتها لتسليم رسالة لإحدى الطالبات عام ١٩٦٣ . وتذكرت وأنا أتجول في رواقها الوحيد الطويل المزدحم ، كيف كانت هذه الدار عام ١٩٤٥ هادئة راقية وجميلة ، لا يكدر صفوها سوى إدمان طلابها

على إعلان الإضرابات ، والخروج للشارع في كل مناسبة سياسية . وكنت أنا
والمرحوم دعيج بن علي وأخي حسين نبقي في صفنا وحيدين ، حتى يأتي مدير
المدرسة وينصحنا بالانصراف مجاملة لمشاعر المضربين!

وحديث الجامعات طويل . . أذكر منه بعض الملاحظات التي لفتت
انتباهي :

١- جامعة أكسفورد:

وهي الشهيرة في بريطانيا ، والتي يمتاز طلابها ويتفخخرون على غيرهم
بإجادة اللغة الفصحى الإنجليزية وطريقة نطقها ، وتعرف بلغة أكسفورد . وقد
لفت نظري بناؤها التاريخي القديم ، ومساكن الطلاب الخالية من المرافق ،
وفناؤها الواسع ، حيث يعيق البرد والمطر تنقل الطلاب فيها من جهة
لأخرى . . . ومنظر النهر والحدائق الجميلة فيما حولها . . كان ذلك عام ١٩٦٢ ،
وأهم من كل ذلك روائع المشهورين التي يحملها التاريخ عن هذه الجامعة وما
حولها ، لا سيما الشاعر الإنجليزي المشهور : وليم شكسبير .

٢- جامعة كمبردج:

وتتميز بمناظرها الطبيعية الخلابة ، وسباق القوارب ، وملاعب يمارس فيها
الأساتذة المرهقون (لعب التيلة) ، التي يعرفها أولاد الحارة في البحرين . ومن
أغرب حكايات كمبردج حكاية المكتبات العامة . وقد حدثنا الدليل المرافق عن
إحدى المكتبات التي اشترطت أن لا يزيد عدد الكتب المفقودة منها سنويا على
١٠٪ وإلا تم نقلها إلى مكان آخر . . . ثم قال إنها أصبحت تنتقل من مكان
لآخر في كل سنة لنقص الكتب باستمرار ، ولعلها الآن بعد ٢٧ عاما أصبحت
خالية من الكتب ، إذا لم يتم استبدال الناقص منها . . .

٣- جامعة القاهرة:

تعدّ جامعة القاهرة أقدم الجامعات في مصر، ومن أقدمها في البلاد العربية، تأسست عام ١٩٠٨ كجامعة أهلية، بمساعي عدد من رواد الفكر والتنوير في مصر؛ أمثال محمد عبده، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وقاسم أمين، وسعد زغلول، ولم يكن لها مقر دائم وقتذاك، فقد كانت المحاضرات تلقى في قاعات متفرقة كان يعلن عنها في الصحف اليومية؛ كقاعة مجلس شورى القوانين، ونادي المدارس العليا، ودار الجريدة حتى اتخذت الجامعة لها مكاناً في سراي الخواجة (جناكليس)، الذي تشغله الجامعة الأمريكية حالياً. ولما تكاثرت عليها المصاعب المالية انتقل مبناها إلى سراي محمد صدقي بميدان الأزهار بشارع الفلكي اقتصاداً للنفقات.

وقد أنشئت الجامعة في أول تأسيسها من أموال تبرعات المحسنين ومحبي الخير، سواء ما دفع منها نقداً أو عن طريق تخصيص ريع الأرض والأطيان. ولكن الأزمة المالية ظلت تلاحقها إلى أن احتضنتها بالرعاية الأميرة فاطمة إسماعيل، بنت الخديوي إسماعيل، التي أوقفت أملاكها وأطيانها وعرضت مجوهراتها الثمينة للبيع، وذلك في سبيل إنشاء مقر جديد وهو مقر الجامعة الحالي، وتنفيذ بناء الجامعة ومرافقها على طراز الجامعات الحديثة، حيث تم وضع حجر الأساس للجامعة في ٣١ مارس ١٩١٤ (١٣٣٢هـ). وبعد اكتمال البناء تم الإعداد من قبل الحكومة المصرية لاندماجها بالجامعة الحكومية، منذ عام ١٩١٧.

وكانت أول صلتها بالجامعة حينما زرتها برفقة عميد الجامعة عام ١٩٧٣، حينما كنت سفيراً في مصر، وتسنى لي أثناء الزيارة التجول بين عدد من كلياتها ومراكز الأبحاث فيها. وتعرفت على عدد من الأساتذة والعلماء المختصين في مجال الزراعة، وحملت ملخصاً للتجارب والأبحاث الخاصة بتطوير الزراعة في الأراضي المالحة غير الصالحة للزراعة، وذلك باستعمال أساليب وتقنيات جديدة، تحت عنوان تغيير البيئة الصحراوية، وقمت بتسليم تلك

الدراسات إلى وزارة التجارة والزراعة في عهد سعادة الوزير حبيب قاسم ، الذي كان يبدي اهتماماً آنذاك بزراعة منخفض (البحير) ، وأجزاء أخرى من الأراضي المهملة في البحرين .

وخلال وجودي في مصر ؛ كانت اتصالات السفارة بجامعة القاهرة والجامعات الأخرى مستمرة بالنسبة لقبول طلاب البحرين ، حيث كانت الجامعات ترفض عددا من طلبات الالتحاق ، إما بسبب ازدحام الصفوف أو أفضلية الدراسة للطلاب المصريين ؛ أو بسبب المعدلات والجامع أو قدم المؤهلات إلى غير ذلك . وكانت سفارة البحرين في القاهرة ، بناء على طلبات الوزارات المعنية ، ومن واجب الحرص على مستقبل أولئك الطلاب ، تزود المتقدمين برسائل لوزارة التعليم المصرية ، طالبة منح أولئك الطلاب استثناء خاصاً ، باعتبار أن البحرين بحاجة ماسة إلى تلك التخصصات التي يرغبون في دراستها ، وكانت استجابة وزارة التعليم المصرية لطلبات السفارة وتعاونها بمنح الاستثناء لطلاب البحرين (إلا في حالات قليلة) مما يستحق الإشادة والتأييد .

وقد تسنى لي كذلك أن أحضر عددا من جلسات مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه في جامعة القاهرة ، والتعرف على أساليب المناورات والمباحثات المزوجة ببعض الاستفزاز من قبل الأساتذة الممتحنين تجاه الطلبة ، بغية استخلاص الحقائق والتوصل إلى القنوات السليمة .

وبعد رجوعي إلى البحرين ، استمرت زياراتي لعدد من الأساتذة والعلماء المختصين في جامعة القاهرة ، واطلعت على عدد من الأبحاث والدراسات والمشاريع الزراعية والصناعية ، التي تحتاج إلى تمويل للاستفادة منها في البحرين ومنطقة الخليج العربي . واطلعت في بعض تلك الزيارات على دراسات تفصيلية لمصادر المياه في جمهورية مصر وليبيا ، وذلك بمناسبة مشروع النهر العظيم في ليبيا ، الذي تبناه سيادة الرئيس معمر القذافي ، والذي تبين تلك الدراسات الشكوك في جدوى المشروع اقتصاديا ، علاوة على كونه يستنزف احتياطات مائية من أراضي مصر المجاورة للمشروع .

وأخيراً فمن الجدير بالذكر عن جامعة القاهرة الدور البارز للأساتذة والطلاب في تأييد الحركات الوطنية ، سواء في عهد الاستعمار الإنجليزي أو بالنسبة للحركات الوطنية والقومية بعد ذلك إلى يومنا هذا .

٤- المعهد العالي للدراسات الدولية في جنيف - سويسرا

تعرفت بالسيد (مارسيل بوازار) أثناء عملي في القاهرة ، وكان ممثلاً لجمعية الصليب الأحمر الدولي لشمال إفريقيا ومركزها جنيف . وكنت أتبادل معه النقاش والأفكار حول الإسلام والثقافة العربية ، حتى ارتحلنا أنا وهو عن مصر في العام نفسه سنة ١٩٧٤ . ذهب هو إلى مقره في جنيف ، ورجعت إلى البحرين بعد انتهاء مهمتي في مصر .

وبدأت بيننا المراسلات فأخبرني أنه يزاول التدريس في المعهد العالي للدراسات الدولية ، وقد قمت بزيارته في المعهد المذكور المتخصص في تدريس العلاقات الدولية وتدريب السفراء والدبلوماسيين الجدد ، وتأهيلهم كدبلوماسيين لخدمة بلدانهم . وكان المعهد حافلاً بالطلاب من مختلف أنحاء العالم ، وقد وجه المعهد رسائل لجميع دول الخليج العربي ، مرحباً باستقبال أعداد الطلاب الذين يرغبون بتدريبهم كدبلوماسيين وسفراء ، وذوي خبره في العلاقات الدولية . وقد استجابت دول الخليج لا سيما الإمارات وعمان والسعودية وقطر ، فأرسلت عدداً من الطلاب إلى المعهد ، وحملني السيد مارسيل دعوة مماثلة للبحرين سلمتها شخصياً إلى وزارة الخارجية .

وأثناء زيارتي للمعهد الدولي لفت نظري موقع المعهد الرومانسي الجميل وسط غابات الأشجار الباسقة والمياه المتدفقة ، والنافورات المضاءة والأزهار المنسقة على جوانب الطرق ، والمساحة الواسعة المشتملة على قصر تراثي قديم تحول إلى مكتبة عامة ، ومرافق أخرى تابعة للقصر ، فسألت السيد مارسيل عن ذلك فأجابني مبتسماً إن لهذا القصر قصة غريبة ، فقد كان لأحد الأمراء الأثرياء في جنيف وبعد وفاته تحير الورثة في أمره ؛ إذ يتطلب منهم القانون رعاية

القصر وكل ما يتبعه من حدائق وبساتين وطرق وممرات ، والحفاظة عليه وصيانتها بحيث لا يتغير منه شيء عما كان عليه سابقا . وذلك بالإضافة إلى دفع رسوم بلدية وحكومية باهظة أدت بورثته إلى الإفلاس ، وتراكمت عليه الديون والمصاريف ، ولم يستطيعوا أن يحصلوا على ما يرغب في شرائه ، فقرر الورثة إهدائه مجاناً للدولة للاستفادة منه ، فلم توافق الدولة . فنصحهم المحامي برفع دعوى على الدولة ، وبعد مضي عدد من السنوات أمرت المحكمة الحكومة باستلام القصر . . . وارتاح الورثة من أعباء القصر والحدائق الملحقة به ، فجعلت منه الحكومة مقرا للدراسات الدولية ، وسكناً للطلبة ومكتبة عامة ومنتزها جميلا ، وأنشأت فيه مرافق رياضية وفنية وثقافية . . . إنها فعلا قصة لا تخلو من طرافة وعبرة .

ومن المشاريع ذات الأهداف النبيلة ، التي أقامها السيد مارسيل بوازار ، تأسيس رابطة دولية باسم «الإسلام والغرب» مقرها جنيف ، وذلك للتقريب بين الإسلام والغرب ، لا سيما في مجال الثقافة والفكر ، وبرامج التدريس ، وسرعان ما اكتسب أصدقاء مساندين له من رجال السياسة والنفوذ بعد عقد المؤتمر الأول ، وذلك من أمثال (لورد كاراغون) في بريطانيا ، ووزير الخارجية السعودي آنذاك السفير (السقاف) ، والمرحوم عبد الملك الحمر ، والحبيب الشطي ، أمين عام المؤتمر الإسلامي آنئذ ، ومعروف الدواليبي وأحمد بهاء الدين ، وشخصيات أخرى من دول الخليج وأوروبا وأمريكا اللاتينية ، حيث تم عقد المؤتمر الثاني في باريس .

أما المؤتمر الثالث لرابطة (الإسلام والغرب) فقد تم عقده في اشبيلية بإقليم الأندلس من إسبانيا عام ١٩٨٤ ، حيث افتتح المؤتمر برسالة من (خوان كارلوس) ملك إسبانيا . وحضره أكبر تجمع في مسيرة الرابطة ، ضم نخبة من الأساتذة الجامعيين ومن رجال الفكر والسياسة والثقافة في معظم دول العالم ؛ وقد دعيت إلى هذا المؤتمر وشاركت فيه . . . وأذكر أن الحفل الختامي تعرض إلى أزمة مفاجئة حين تقدم للخطابة أحد الإسبان المسلمين ، وهو رئيس رابطة المسلمين

في الأندلس السيد (عبد الرحمن مدينا) ، فقد هاجم بشدة غير مألوفة حكومة إسبانيا واتهمها باضطهاد المسلمين الإسبان ، وتجفيف المساعدات عنهم ، ومنع بناء المساجد أو تعليم الدين الإسلامي ، وتضمن مناهج الدراسة معلومات خاطئة عن الإسلام والمسلمين ، وقال نحن في إشبيلية إسبان أصليون ، وعددنا فوق الثلاثمائة إسباني ننتمي إلى أجدادنا مسلمي الأندلس ، ولكننا لا نتمتع بالامتيازات والحقوق التي يتمتع بها المواطنون الإسبان ، وذلك بسبب الإسلام الذي توارثناه أبا عن جد .

وإذا كان ما سمعته هو الحقيقة فهي أول مرة أجد فيها مسلمين إسبان من العهد الأندلسي ، وليسوا ممن هاجر إلى إسبانيا في العصر الحديث . وقد وصلني فيما بعد المؤتمر بيان من عدد من الرابطات الإسلامية في إسبانيا ، يتبرؤون فيها بما قاله الشيخ عبد الرحمن مدينا وأنه لا يمثلهم! وقد واصلت الجمعية نشاطها لسنوات وأنشأت لها جمعيات وطنية في العالم بما في ذلك العالم العربي والإسلامي . . . ثم انقطعت عني أخبارها .

٥- جامعة ماك جيل McGill في مونتريال

تحتل جامعة (ماك جيل) موقعا متميزا من حديث الجامعات . . . فهي التي تولت تعليم ثلاثة من أبنائي في أول بعثة تعليمية بين البحرين وكندا ، بدأت حين قررت ابنتي إكمال دراستها الجامعية في المملكة الأردنية عام ١٩٧٦ ، وبينما كنا منشغلين في اتخاذ الإجراءات اللازمة ، وصلنا نبأ مفاده أن وزارة التعليم الأردنية اعتذرت عن استقبال بعثة البحرين التعليمية الرسمية لعدم توفر المقاعد الدراسية . . . فقلت في نفسي : هي إذن أولى بالاعتذار لمن يبتغون إكمال الدراسة كأفراد .

وكان من بين الأساتذة في (ماك جيل) الدكتور الأستاذ أحمد أبو حكيمة ، وهو من الأردن الذي لم يرتح لهذا الخبر ، وبذل جهده في إقناع إدارة جامعة ماكجيل بقبول طلاب البحرين خاصة . ولما وافقت الجامعة حضر إلى البحرين

وتم ترتيب سفر الطلاب للالتحاق بجامعة مونتريال . وقمت بتسجيل ابنتي في جامعة ماكجيل ، بعدما تأكدت من سمعتها ومستواها الأكاديمي المعترف به في العالم ، وقد واصلت ابنتي تعليمها بنجاح حتى التخرج ، والتحق بها بعد ذلك أخوها وتخرجاً منها كذلك .

وقد أهلك الدكتور أحمد أبو حكيمة بلاء حسناً في تعهد طلاب البحرين بالرعاية الأبوية ، وكان مكتبه مفتوحاً لتذليل الصعوبات ، ومنزله وعائلته مضيئاً ومؤنساً عن الوحشة والبعد عن الوطن .

ولي مع الدكتور أبو حكيمة (رحمه الله) لقاءات ومناقشات وذكريات لا تنسى في مونتريال ، وفي البحرين ، وفي لبنان ولندن .

ومن الأساتذة الآخرين في ماكجيل ، الذين أبدوا رعاية وحباً أسمى لطلاب البحرين ، الدكتور موسى كمال ، ولعل تلك الرعاية والحب أن تكونا من صفات الأساتذة العرب في مونتريال . . .

والدكتور أبو حكيمة كان مديراً لقسم دراسات التاريخ الإسلامي في جامعة ماكجيل ، الذي يتولى رئاسته أستاذ مستشرق من أصل يهودي . واختلاف الآراء ووجهات النظر كان أمراً وارداً بينهما ، سواء في تقدير الامتحانات والشهادات أو في أنشطة القسم البحثية والثقافية والاجتماعية وغيرها . . . مما أدى في النهاية إلى استقالة الدكتور أبو حكيمة بعد سنوات من مزاولة التدريس في الجامعة ، حتى انتقل إلى جواربه رحمه الله في أوائل التسعينات .

ولجامعة ماكجيل مزايا كثيرة عدا شهرتها كجامعة عريقة ، ومن ذلك مكتبتها الكبيرة المفتوحة ليلاً ونهاراً . . . ثم موقعها الممتاز الذي يجمع بين منشآت ومرافق وسط المدينة من جهة ، والمناظر الطبيعية الخلابة من حدائق وبحيرات طبيعية على الجهة الأخرى - وفي جوار الجامعة مجمع ضخيم يضم فندقاً أو أكثر ذوات طوابق متعددة تسمى لاسيتي lacity وشققاً كثيرة للسكن ، وأسواقاً كبيرة وصلاتاً لمختلف الأنشطة الاجتماعية والثقافية والرياضية

والفنية ، ومسابع ، وكلها متصلة بمدخل لمدينة الأسواق الممتدة إلى عمق المدينة تحت الأرض ، ولها مداخل موصلة إلى مخازن التسوق المشهورة ، بحيث لا يحتاج المرء الخروج إلى الشارع خلال المطر أو البرد . . . وتشتهر كندا واليابان بهذا النوع من الأسواق الكبيرة تحت الأرض ، وكذلك بعض مدن العالم الأخرى مثل كوريا .

٦- جامعة (سينا) في إيطاليا:

أخذنا دليل السياحة إلى مدينة (سينا siena) القريبة من فلورنس ، وتوقف بنا عند بناء تاريخي قال إنه جامعة (سينا) وإنها أول وأقدم الجامعات في العالم . . . وإلى مصرف (بنك) قريب وقال إنه أول وأقدم مصرف في العالم يملكه اليهود ، وإن هذا المصرف وتلك الجامعة كانا مركز تمويل الحملات الصليبية على العالم الإسلامي بالمال والرجال . . . فيا لها من شهرة عظيمة لمدينة (سينا) . . .

٧- جامعة «كولجستر» Colchester

تقع الجامعة على مقربة من مدينة «كولجستر» التاريخية العريقة في شمالي شرق لندن . . من حيث أتى أول الغزاة الرومانيين للجزر البريطانية . وقد ذهبت إليها لتسجيل أحد أبنائي الذي أتم دراسته فيها .

وموقع الجامعة الريفي الجميل كان من دواعي افتتاني بها وبالتلال الخضراء من حولها ، حيث كنت أمارس المشي . وهي مثل الجامعات الأخرى في العالم الحديث ، التي يسترعي اهتمامنا فيها الوجود البارز لأندية الطلبة ومؤسساتهما ، التي تهيب لهم مشاركة وحضورا في مساعدة الطلبة الجدد ، وتقديم الاستشارات لهم وتهيئة السكن ، وممارسة الرياضة والألعاب المسلية ، والتمثيل ووسائل القراءة ، ومراجعة الدروس وقاعات الاجتماعات والمحاضرات . . . علاوة على دورها في التواصل مع إدارة الجامعة والمؤسسات الرسمية وتمثيل الطلاب .

ومن الأمور التي لفتت انتباهي في هذه الجامعة مكاتب البنوك التي تقدم للطلاب قروضا من دون فوائد ، تساعدهم على تدبير شؤون السكن والرسوم والمعيشة ، لا سيما عند أول قدومهم للجامعة ، وكذلك رخص تذاكر المواصلات العامة من الجامعة إلى المدينة وبالعكس .

إن مدينة (كولجستر) على صغر حجمها تحفة معمارية تاريخية لا يمل الإنسان من التجوال في معالمها وبين أسوارها أو في شوارعها ومطاعمها وفنادقها التي تجمع بين التاريخ ونكهة الماضي ووسائل العصر الحديث .

٨- جامعة (إكستر) في بريطانيا؛

اشتهرت إكستر بدورها في الدراسات الشرقية ، وعقد المؤتمرات والندوات لكبار المشهورين من المثقفين والسياسيين حول قضايا الإسلام والشرق الأوسط . وقد حاضر فيها عدد من وزراء البحرين والخليج ، من بينهم المرحوم يوسف الشيراوي .

وخلال زيارتي لها وجدت قريبا من بابها عربة كبيرة تضم مكتبة متنقلة . وتعرفت إلى الموظف المسئول فيها وأخبرني إن العربة تتبع جامعة (اسكس) ، وهي تتيح للطلاب وغيرهم الدخول إليها وقراءة الكتب والصحف ، ولها مواقع محددة تقف فيها . ثم أخذوني معهم إلى جامعة (اسكس) وتعرفت على بعض المسئولين فيها ، وشرحو لي عن قسم جديد أنشأته الجامعة لتدريب الطلاب على حساب بعض الشركات وتأهيلهم للعمل في تلك الشركات .

٩- جامعة ومكتبة ومطبعة ليدن في هولندا ؛

وهي أشهر وأقدم المكتبات في العالم ، ذات الاهتمام بطبع المخطوطات العربية والإسلامية وكتب المستشرقين . وقد وافقوا على تزويدي بخمسة مجلدات تحتوي على فهرس المخطوطات العربية لديهم ، وقدموا لي صورة لمخطوطة للقرآن الكريم ، أملين أن يجدوا من مؤسسات خليجية الاستعداد لطبعها . وذلك

بعد مشاركتهم في معرض للطباعة والنشر أقيم في البحرين أوائل الثمانينات .
١٠- جامعة لشبونة؛

ولها امتداد واسع على ربوة في العاصمة ، فيها دار الوثائق والمخطوطات التي كانت سابقا تشمل الحيز الأرضي من مجلس الكونغرس البرتغالي . وتسمى توري دي تومب (torre detomb) (ومعرفتي بهذه الدار ترجع إلى سنة ١٩٧٢) ، وقد أخذني إليها رئيس معهد الدراسات الشرقية الأب البروفسور (دي سيلفا ريجو) برفقه نائبه دكتور (دياس فرينها) ؛ للاطلاع على المخطوطات التي تخص الوجود البرتغالي في البحرين وهرمز والخليج العربي . وقد تمت تلك الزيارة بمرافقه الوزير المفوض البرتغالي في القاهرة السيد (بوشتوش) ، وذلك للتعرف على البرتغال ومعالمها وآثارها ، وتقدمها في صناعة السفن والصناعات الكيماوية والأدوية الطبية وغيرها ، بما في ذلك زيارة المؤسسة الخيرية العملاقة للسيد كولبانكيان - عراقي الأصل المعروف بالسيد خمسة بالمائة- وأثمرت تلك الزيارة في توطيد العلاقات مع البحرين ، حيث ساهمت البرتغال في إدارة مشروع الحوض الجاف لبناء السفن في البحرين عن طريق الشركة المختصة في البرتغال والمعروفة باسم ليزنيف (lisneve) .

ثم تكررت زياراتي لدار الوثائق منذ التسعينات من القرن الماضي بصحبة البروفسور دياس فرينها ، ونقلت منها صوراً عديدة من تلك الوثائق ، التي قدمتها لإدارة الآثار والتراث ، مع اقتراح لعقد اتفاق ثقافي بين البحرين والبرتغال لترجمة تلك الوثائق إلى العربية ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالوجود البرتغالي في البحرين والخليج عامة .

١١- الجامعة الشهيرة (السوريون) في باريس ؛

كنت أتجول فيها كلما زرت باريس ، وأتأمل بناءها التاريخي العريق ، وأتذكر جيل الأديباء والمثقفين من الرواد العرب ، الذين درسوا فيها وبعضهم زاول التدريس فيها ، من أمثال طه حسين ، وزكي مبارك وغيرهم .

وذات مرة تجرأت ودخلت أحد الصفوف ، واستمعت إلى محاضرة البروفسور عن الفلسفة . . . ولكن في مقاعد الصفوف الخلفية . . . ولم يتعرض لي أحد ، والمعروف عن «السوريون» أنها تقبل تعليم طلاب البعثات ، وعلى الأخص الإفريقيين مجاناً .

١٢- جامعة لندن للقانون:

طالما تجولت برفقة الأستاذ المحامي السيد بالانتاين في الجامعة ، حيث نذهب لنرى (Lincolns inn) الذي يتخرج منه المحامون ، ولا يسمح لهم بشهادة التخرج إلا بعد تسجيل حضورهم لإحدى وعشرين جلسة عشاء في إحدى قاعات المدرسة حيث يتدربون على أصول وكيفية تناول العشاء من دون ضوضاء ، وتداول الحديث بأدب واحترام للأساتذة الذين يتناولون العشاء معهم على منصة المسرح ، وهناك من دارسي القانون الأجانب من لا يستطيع إكمال عدد الوجبات ، ويعود إلى بلاده ويزاول أعماله ولكنه يلتزم بتلك الوجبات فيما بعد ، خلال عدد من السنوات قد تصل إلى عشر سنوات أو أكثر كما فعل الأستاذ المحامي والقاضي وصفي النمر خلال سني عمله في البحرين .

أما السيد بلانتين الذي عمل في البحرين أيضاً فكان مكتبه في خان مشهور أيضاً يسمى greys inn وكان يحمل دراجته الهوائية (باسيكل) معه إلى الدور الرابع في كل مرة يأتي إلى مكتبه . ويفعل مثل ذلك عند المغادرة خوفاً على دراجته من السرقة . وهو يستعمل سلالم الدرج المتأكلة لعدم وجود مصعد كهربائي . لقد كان للسيد بلانتين دور بارز في قضايا البحرين المهمة ويعرف البحرين وأهلها جيداً .

١٣- جامعة بكين:

وهي جامعة عريقة تضم كلية لتعليم اللغات والآداب ، ومنها اللغة العربية ، زرتها برفقة الملحق التجاري السابق للصين السيد ظافر والتقيت بالطلاب العرب

ومعظمهم من اليمن وأفريقيا والدول العربية ، التي كانت لها صلوات قوية سابقا مع النظام الاشتراكي ، ويلقى تعلم اللغة الإنجليزية في الصين إقبالا كبيرا . . . مما شجع حركة انتشار مراكز تعلم اللغات من جانب القطاع الخاص . وقبل ذلك بسنوات قمت بزيارة المعهد الإسلامي في بكين في أوائل التسعينات من القرن الماضي . ولقيت عددا من الأساتذة والطلاب ، ووجدت عندهم شغفا للتواصل مع العالم الإسلامي وتعلم اللغة العربية . ويقع المعهد في مركز مدينة بكين القديمة وداخل الحي الإسلامي ، الذي تنتشر فيه المطاعم والمخابز ومحلات الحلابة ، وبيع اللحوم . . . على الطريقة الإسلامية كما يصفونها . . . وقد لاحظت أن الصينيين الذين يمكنهم التكلم بالعربية ، ولو كانت على علاتها . . مع اتقانهم اللغة الإنجليزية ، يصرون على التخاطب بالعربية مع العرب أو على حد تعبير السيد ظافر الذي طالما كان يردد هذه العبارة : (نحن نريد أن نتكلم مع الأصدقاء العرب بلغتهم الأصلية دون واسطة . .)

١٤- جامعة «ستوكهولم» بالسويد

في منتصف الثمانينات من القرن الماضي ، كنت واقفا على مدخل فندق «شيراتون» في ستوكهولم ذات مساء ، فتقدم نحوي أحد الداخلين وسألني إن كنت أستطيع أن أدله على قاعة فيها اجتماع يريد أن يشارك فيه ، فناديت أحد الموظفين في الفندق ورافقته إلى تلك القاعة بدافع الجمالة وحب الاستطلاع ، فأصر على دخولي معه لأنه اجتماع مفيد كما قال . فدخلت وإذا بالقاعة الكبيرة مملوءة بالحاضرين . وعرفت منه أنه مدرس (بروفسور) في الفلسفة في جامعة ستوكهولم ، وأن المتكلم في هذه الحفلة هو الداعية الهندي المشهور (بالمهراشي) رئيس مؤسسة (التأمل - مديتا شن) ، والتي لها فرع في استوكهولم وفروع في أمريكا ودول جنوب شرق آسيا وكثير من دول العالم ، كما أخبرني أنه عضو في فرع الجمعية في ستوكهولم ، وقد استفاد من ممارسة جلسات التأمل وما تفيضه على النفس من راحة في الأعصاب وصحة عقلية

وجسدية في الجلسات الانفرادية . أما الجلسات المشتركة فيتعدى أثرها ليبلغ مرحلة التواصل الروحي مع المشاركين . . .

وقد قال الداعية «مها راشي» في كلامه كل ذلك . . . وأضاف ما معناه : إنه لو أمكن اقتناع عدد من رؤساء الدول لا يقل عن ٤٥ رئيساً بالانضمام إلى نادي (التأمل) فإن السلام والأمن سوف يسودان العالم ، وسوف تنقطع الحروب بين البشر . وأضاف أن عقل الإنسان إذا استطاع عن طريق التأمل المستمر أن يجتذب إليه القوى الكهرو ماغناطسية الثلاث في العالم ، فإنه سوف يعمل المعجزات . وإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث في عقل الإنسان فإن بإمكانه أن يتصرف خارج الزمان والمكان ويتحرر من قيوده الجسمانية .

ويؤيد البروفسور بجانبه هذه النظرية قائلاً : إنه شاهد بأمر عينيه جلسات (التأملين) المتقدمين في درجاتهم وهم يرتفعون من أماكنهم إلى أعلى بقوة سيطرة الجاذبية على أبدانهم . . .

ثم إنني سألته عن هذه «المؤسسة الروحية التأملية» ، والتي لم أسمع بها من قبل ، وعن موقفه وهو أستاذ فلسفة من منطلق المهراشي وما يدعيه . فقال ما معناه إنها نوع من فلسفة ما وراء الطبيعة ، وما وراء المستقبل لإمكانات العقل البشري ، وهو مهتم بمتابعة مثل هذه الاتجاهات . . . ودعاني قبل الانصراف لزيارته في الجامعة فوافقت .

وقد زرته في اليوم التالي وتجول معي في أقسام الجامعة ، ثم أخذني إلى مكتبه لمواصلة الحديث - وبما قاله إن لدى جامعة ستوكهولم اهتمام بالرؤى المستقبلية للعالم من منظور تطور الفكر البشري ودور (الإنسان) في حضارة مادية تعتصر القيم الروحية ، وتسحق المنجزات الإنسانية تحت عجالاتها الهائلة ، ليصبح هذا الإنسان كالألة فاقد الوزن يدور معها بلا إرادة مستقلة نحو مصير مجهول .

وفهمت منه أيضاً أنه كون مع أساتذة زملاء في السويد وأمريكا وسويسرا جمعية صغيرة تحت اسم (التخطيط المستقبلي - فيوتشر ديزاين) ، وقد دعاني

للمشاركة في اجتماع سيعقد في مدينة (انتاليا) في تركيا العام القادم .
وحضرت ذلك الاجتماع في (انتاليا) مع ستة أساتذته من السويد وسويسرا
وأمریکا - أحدهم أستاذ في الجامعة الأمريكية بالقاهرة . . وقد تم طبع تلك
المحاضرات فيما بعد في كتاب صدر باسم تلك الجمعية ، تدور أبحاثه حول
مصير (الإنسان) في حركة العالم المستقبلية ، وكيف يستطيع أن يسيطر على
عصر الآلة المتمردة ، سواء كانت متمثلة في الطفرة الصناعية أو المعلوماتية أو
الفضائية أو العولمة أو ما شابه ذلك ، فيما يتصل بإحكام السيطرة على الكائن
البشري والتحكم في مدركاته الإنسانية الفطرية المستقلة .
وقد عدت من تلك التجربة بسؤال مازلت أسأل نفسي عنه حتى اليوم ؛
وهو : هل أبقت لنا المصائب والويلات في عالمنا الإسلامي والعربي وقتاً للتأمل
في مصير الإنسان وحياة البشر على هذا الكوكب في المستقبل من السنين . . .
كما تفعل غيرنا من الأمم المتقدمة؟

١٥- جامعة (سيؤل) عاصمة كوريا الجنوبية

كانت تلك الجامعة تقع على مقربة من فندق (أمبا سادور) الذي نزلت فيه
عام ١٩٩٢ .
كنت أتجول في أوقات الفراغ حول بنايات تلك الجامعة وحدائقها الجميلة
حيث الطلبة والطالبات يستلقون على الحشائش الخضراء ويتداولون الحديث
والإشارات الغامضة ، بمثل ما شاهدته في جامعات آسيوية أخرى مثل جامعة
(مانيللا) في الفلبين . . . كما كنت أحترق ملاعبها العامرة بالمتبارين
والمشاهدين ، بما يدل على شغف الكوريين بالألعاب الرياضية البدنية . ثم استقر
رأبي أن أزورها في اليوم التالي . . .

ولكنني فوجئت في ذلك اليوم بعد خروجي من باب الفندق أن الطريق
الواسع الموصل إليها تحول بقدرة قادر إلى ميدان صراع بين الطلبة وفريق الشرطة ؛
ففي الجانب المحاذي للفندق تصطف الشرطة بدروعهم الواقية ومن حولهم

سيارات الإسعاف والضباط .

وعلى الجانب المحاذي للجامعة تقف أمامهم طوابير الطلاب والطالبات ، حيث تملأ الهتافات وتنتشر اللافتات ، وتتبادل مكبرات الصوت من الجانبين العبارات الانفعالية التي لا أفهمها ، لولا الحدس في كون الشرطة تدعو إلى الهدوء وإيقاف المسيرة . . . بينما مكبرات الصوت من جانب الطلبة تتبارى في إطلاق الشعارات والشتائم ، واستنهاض الجماهير ضد سياسة الحكومة . والمسافة بين الفريقين لا تتعدى المائة متر .

ويتساوى الصف الأول من الطلاب أو معظمهم مع الشرطة في لبس الخوذات الواقية وحمل الدروع ، على نحو ما شاهدته من مظاهرات في اليابان - في مواجهة الشرطة بالحجارة والزجاجات الحارقة (قنابل الملتوف) ، والتي تسقط بين جموع الشرطة فينتابهم الهرج والمرج في محاولة إطفائها ، ولكن الشرطة لم تكن ترد على الطلبة لا بالغاز المسيل للدموع ولا بالرصاص . وقد شاهدت بنفسني شرطين علق النار بشيابهما ونقلتا إلى الإسعاف . ويبدو أن الشرطة رسمت خطاً أحمر على مقربة منها حيث تهرع لإلقاء القبض على من يجتاز ذلك الخط أو إبعاده باستعمال خرطوم المياه .

ويتراجع الطلاب الذين تعبوا من المواجهة بالزجاجات الحارقة ؛ ليأخذ غيرهم مكانهم في الصفوف الأمامية ويستمررون على هذا المنوال . وقد ذهبت لعملي ورجعت بعد ست ساعات والوضع لم يتغير . . . وكأن الجانبين يشاركون في لعبة مواجهة ذات أصول . . . ولما خرجت من الفندق عند المساء وجدت الساحات خالية إلا من آثار الزجاجات والحرائق والدخان والأحجار .

القسم الثاني : من ذكريات عن الجامعات

عوداً على بدأ ، ، ،

أواصل الحديث في هذا القسم عن جامعة (ماساشوتش - أمهرست) التي بدأنا بها هذه الذكريات .

١- تضم بلدة (امهرست Amherst) على صغرها خمس جامعات من أهمها وأكبرها جامعة ماساشوستش - امهرست .

وقد نشأت ابتداء باعتبارها كلية امهرست عام ١٨٦٢ ، ثم تم تحويلها من كلية إلى جامعة عام ١٩٤٧ .

ومن أساتذتها المشهورين السيد (ديبوا deibois) والذي تحمل اسمه المكتبة العامة للجامعة ، وتحتوي على ٢ مليون كتاب ، موزعة على ٢٤ طابقاً مضافاً لها طابقان أرضيان للفهارس والنسخ والإدارة والمراجعة .

والسيد (ديبوا) هو من أشهر قادة عدم التمييز العنصري ومحبي السلام ، ومعارضني الحرب ، وقد أدخل السجن باتهامه بالشيوعية ، وأخرج منه بضغط من الجماهير . ثم عاد بعدها إلى مركزه في الجامعة . وقد شارك في أول مؤتمر في طشقند عام ١٩٥٨ . وهو المؤتمر الأول للكتاب الإفريقي الآسيوي (حضرت أحد مؤتمراته التالية في بيروت عام ١٩٧٠ مع الأستاذ العريض ، والدكتور محمد جابر الأنصاري ، وتعرضت بعد رجوعي للمساءلة من قبل السيد هندرسون في البحرين بسبب مشاركتي تلك) .

وقد توفي دوبا . . . ولكن ذكره لا يزال ماثلاً في تاريخ نضاله من أجل السلام ، وفي متحف الجامعة المخصص له ، وكذلك في ذلك البناء الضخم وهو أعلى الأبنية في المنطقة ، والذي يضم مكتبة الجامعة المسماة باسمه .

ويرأس الجامعة عند زيارتي لها السيد وليم بلجر . willium bulger

وأول رئيس مقيم للجامعة اسمه William smith وهو نفسه قام بتأسيس جامعة يابانية بناء على رغبة اليابان ، والتي سميت Hokkaido university sapparo - japan وقد أقيم له تمثال تذكاري متأثر بالفن الياباني المسمى

Japanese landscaping capping design

في بلدة امهرست الصغيرة حديقة عامة مفتوحة تتميزه بالرقة والشاعرية على صغرها ، حيث يلتقي شارعان في البلدة . وقد أقيم نصبان صغيران في أحد أركانها الأربعة لشاعرين من أمهرست ، وأمام كل منهما لوحة معدنية

حفرت عليها إحدى القصائد لكل منهما .

الأول شاعر معروف وهو (روبرت فروست) robest frost وقصيدته المختارة محفورة على اللوحة المعدنية ، وقد اختاروا له قصيدة تصف طريقتين تؤديان إلى الجهة نفسها ، إحداهما عامرة بالمارة زالت عنها الحشائش ، وقد عبدت بالإسفلت ، والأخرى مهجورة وعامرة بالعشب ، ويتألم من ذلك الهجر ، والثاني لشاعرة من امهرست أيضاً وهي (أميلي ديكسنن) Emily dickensen - وكانت مدرسة في جامعة (ماس) mas .

أما سكان (أمهرست) ومعرفتهم بالعالم فلا تتجاوز تلك الطرائف التي وجدتها عند سكان (ديتريوت) غير البعيدة عن أمهرست ، والمستشفى الذي نزلت فيه للفحص الطبي - وفيما يلي بعض من تلك الطرائف .

* رئيسة المرضات (كيت) في مستشفى آن-آربر المشهور Ann-arbor لم تسمع في حياتها عن شركات تسليم البريد السريع مثل Dhl - fedex الخ ...

* الفندق العالمي الكبير في ديتريوت - هلتون لا تعرف عاملة البدالة فيه مدينة لندن London العاصمة البريطانية ، وتصر على القول إن مدينة لندن الصغيرة في أمريكا لا تستعمل الأرقام التي طلبتها . حتى ذكرت لها لندن بريطانيا المجاورة لأوروبا وفرنسا الخ

* الطبيب في المستشفى نفسه لم يسمع عن دواء مشهور لعلاج الصداع النصفي وآخر لا يعرف شركة بريطانية للأدوية اسمها Rusel ولا يعرف حبوب الصداع panadol . وطبيب العيون لم يسمع عن شارع مشهور بالأطباء في لندن باسم (هارلي ستريت) ، وكل أولئك المشار إليهم والمحيطين بهم لا يعرفون دولة البحرين ولا أين تقع ، وكل ما يعرفونه عن حرب الخليج الأولى أنها أحدثت إصابات مرضية لدى الجنود الأمريكيان .

وتحدثت مع عدد من الأطباء والمعالجين عن المستشفى الأمريكي في البحرين ، وبعثة الإرسالية الأمريكية ، واحتفال المستشفى والبعثة الأمريكية عام ١٩٩٠م مرور مائة عام على وجودها في البحرين ... فاستغربوا ذلك .

* معظم المشتغلين في المستشفى الذي يقع على بعد ٤٠ كم من دترويت لم يذهبوا إلى دترويت ولا يعرفونها... وبعضهم زار مسارحها فقط... ثم عاد. ومعظمهم لم يزر بقية مناطق ومدن أمريكا للمشاهدة أو السياحة، وقليل منهم ذهب إلى كندا... على الحدود القريبة، أما دوافع السفر والانتقال لديهم فهي إمكانية وجود عمل أو طلب عمل أو زيارة أقرباء.

بحيرة الجامعة.. ملاذي الآمن:

البحيرة الصغيرة التي تحتل موقعا جميلا في الوسط الأخضر من جامعة ماساتشوستس - أمهرست الشهيرة؛ كثيرا ما أغرتني بالوقوف عندها والتأمل في أسرارها. فهي تغفو معظم النهار ثم تستيقظ حينما يلتم بها العابرون، ثم تنام منطوية على أسرارها كما ينام الناس من حولها. وقد عجبت أن تكون حال المقيمين في هذه الجامعة، أساتذة أو طلاباً أو دارسين، مثل حالي وأنا الزائر العجول. فهم يروّون عليها حثيثاً وهم عنها معرضون، في طريقهم إلى مكاتبهم أو إلى صفوف الدراسة وقاعات المحاضرات والختبرات والمعامل أو المكتبة، المنتصب بناؤها العالي كالمسلة المشرفة على ما حولها، وهي متخمة بما في جوفها من كتب ومصادر يربو عددها على مليونين ونصف المليون كتاب.

وتتنظم تلك الأبنية ذات الفعاليات المتنوعة في محيط بيضاوي الشكل حول الوسط الأزرق والوسط الأخضر والوسط الرمادي. فالأزرق هو تلك البحيرة وجداولها وشلالاتها، والأخضر هو الأشجار والمنزهات والحدائق. وأما الوسط الرمادي فمواقف السالكين والعابرين والقادمين والذاهبين، وممرات وسائط النقل والسيارات. ولا يشذ عن هذا الترتيب نوعاً ما سوى مجموعتين من الأبنية: المجموعة الأولى يتكون منها فندق الجامعة ومركز النشاط الطلابي والإدارة واتحاد الطلبة ثم الأسواق والمطاعم.

وميزة هذه المجموعة التي في الوسط إطلالتها الجميلة على ذلك المنظر الأزرق والأخضر.

وأما أبنية المجموعة الثانية فهي المتميزة هندسياً ، والمكسوة بالرخام الفاتح ، وهي تضم معارض الفنون وقاعات التمثيل والعروض المسرحية والباليه وصالات السينما وما شابه . وتترامى البحيرة الزرقاء وكل ما يحيط بها من أشجار وحدائق تحت أقدام الأبنية الشامخة للأنشطة الفنية وتتميز عن غيرها بميزة المنظر الجميل من جهة البحيرة ، ولكنك إذا ما استدرت إلى الجهة المقابلة طالعتك المنطقة الرمادية بوجهها الكالح لتسلب من مخيلتك جمال ما رأيتة على الجانب الآخر .

حديث البحيرة:

قوافل العابرين مشغولة أكثر أوقاتها عن مناجاة مواطن الجمال في تلك البحيرة الصغيرة . ولعلها أن تكون عنهم في شغل عظيم . فهي تبدولي عن بعد مثل الشاعر المنهمك في توليد المعاني الجميلة .

وإذا تأملتها عن قرب وجدتها مثل الأم ذات القلب الكبير يشغلها أن لا يتوقف دبيب الحياة في الكائنات التي تحنو عليها فوق سطحها أو في الأعماق . وإذا كان سطح البحيرة الراكد الكدر لا يكاد ينم عن شيء عما تحته أو في أعماقه من حياة ، فإن دوائر من الماء سرعان ما ترتسم على السطح هنا أو هناك كلما أخذت السمكات الصغيرة أنفاساً من الهواء ، وإذا بظلال الأشجار تتراقص على مرآة سطحها ، بينما تسكب عليها شمس المغيب أشعتها الحمراء الخجولة ، فيما يمر النسيم على سطحها في يوم من أيام الخريف يحمل رائحة الصيف المتشردم ، فيوزع على جنباتها في أوجه الجالسين الحالمين مزيجا من العطر جادت به الحشائش والأغصان والثمار والزهور والبدور .

وأنت ترى على صفحة الماء ما تنثر من أوراق حمراء أو خضراء وعروق أغصان صغيرة ، مما تحمله الريح يمازج كل ذلك ريش أبيض صغير يدعوك ، لأن ترفع رأسك لترى مصدر تلك الوشوشات ، وتسمع حواراً هادئاً أو مستعراً بين مجموعات من البط ذات الأجنحة البيضاء أو السمراء أو الداكنه ، تتزاحم أو

تتشاجر على طعام الدنيا كما يفعل البشر، ويتطاير منها ذلك الريش الأبيض ليطفو على سطح الماء كلما خفقت أجنحتها عند الطيران أو عند الشجار أو الفرار . . .

وإذا خرج البط من الماء فإنه يتمشى عادة على ضفاف البحيرة متمائلا نحو اليمين ونحو الشمال، يتسلى بالتقاط الحشرات الصغيرة من الحشائش حتى إذا جف عن جناحيه الماء زاد ولعه بالبعيد، وسار خفيفاً وكأنه يستكشف باطن التربة وملمس الحشائش ومكامن الديدان والحشرات، وسرعان ما يكتشف غريزياً أنه ابتعد عن البحيرة بما يكفي، فيطير من مكانه ليحط على سطح البحيرة في خط أفقي مائل، كما تحط طائرة الماء، وتخلف كل بطة وراءها شقاً أبيض في الماء. وهي تمارس بخبرة ومهارة إمساك (فرامل) أرجلها كي لا يطول ذلك الشق المائي أكثر مما يجب، وتجدف بأرجلها في الماء لتنتقل إلى حيث تريد، وكأنها تهتدي بالغريزة إلى مواقع المقدور لها من الرزق؛ أكان ذلك في الماء أم على سطح التراب.

وتفاجؤك بعد هنيهة شردمة من الطلاب العابثين وهم يعبرون الجسر الصغير الضيق في عنق البحيرة، وتسمع من اللهجات والتشائم فيما بينهم ما يחדش صفاء المنظر ورقته.

لولا أن سرباً جميلاً من الطالبات سرعان ما يعبرن ذلك الجسر نفسه، وهن ينشدن ويغنين فتزول عن نفسك آثار الجلبة المزعجة. ثم يعود الاستقرار إلى ذلك الجسر الصغير لتسمع غير بعيد، همسات المحبين ووشوشات الإخلاء والعابرين في تهويمه من تغاريد الطيور.

وإذا كنت سيء الحظ فقد يصادفك بعد ذلك كله الإزعاج الأكبر، متمثلاً في تلك الحركات البهلوانية النزقة على اللوح المنزلق قريباً من مقعدك أو من حولك أو من على ظهر الجسر، ثم لا يهدأ لهم بال إلا إذا تعبوا أو ملوا . . . أو أصيب أحدهم بأذى فينصرفون إلى ساحة أخرى.

ويتجه نحوي وقرص الشمس ينخفض رويدا رويدا في الأفق البعيد، سرب

جميل من ذلك البطّ ذهبّت الشمس أجنحتة المنسدلة على جانبيه وإذا بي
أكتشف عن شمالي في الجانب الآخر تحت الجسر صبية لم يتجاوز عمرها
الرابعة عشر، وأرى ذلك السرب يهرع نحوها مسرعاً بإحساس داخلي حتى قبل
أن تنثر له الطعام . بينما يبدو على وجه الماء ظل خفيف لطائرة كبيرة تعبر
الأجواء بعيداً . . . فلا يظهر من أثرها على الماء أكثر من ظل لطائرة ورقية .

وكأن بين البط العائم وصغار السمك تحت سطح البحيرة اتفاقاً غير
مكتوب . تلك تلتقط فتات الخبز العائم . . والسمك يلتهم ما تثار منه إلى
القعر ، وقد ترتكب أكبر تلك الأسماك الصغيرة حماقة تجعلها تتربص بالطعام
قريباً من السطح فتتعرض لأفواه البط الطائشة .

وبرحابة صدر الأم الحنون . . . توزع البحيرة الصغيرة الأقوات على الجميع
لمن يسيح في ظلّماتها أو يستجم على صفحتها ، بالقدر الذي توزع فيه الفتنة
والجمال على من يرتادها من البشر ، والتسليّة وراحة النفس لمن يلقي إلى
الأحياء فيها . . . بالطعام .

وقد لفتت نظري تلك الصبية اليافعة التي جاءت بها بعثة تبادل الطلاب
في الجامعات ، فهي هناك في ميعادها على ضفة البحيرة ، تنثر ما بسلتها
الصغيرة من فتات الخبز وبقايا الطعام . قالت إن اسمها (إيمان) ، وهي مصرية
ستمضي سنتين في جامعة ماساسوستش - امهرست ، وهي تدرس الإعلام
والصحافة والعلاقات العامة . وتستأنس بإطعام البط والأسماك ، وأن منظر
البحيرة الصغيرة يذكرها بمصر وبحيرة (قارون) في الفيوم حيث يكثر البط
والأوز . . وأسلوبها الذكي في إلقاء الطعام بعيداً منها للبط وقريباً منها للأسماك
يحول بينهما وبين الخصام . . . أو الموت الزؤام .

وأقول لنفسي وأنا ألقى على بحيرة الجامعة نظرة الوداع . . .

ما أشبه معترك الحياة بما يجري في هذه البحيرة ، ودرسها العظيم في
الوقوف عند الخطوط الحمر في مجال حرية الفرد ومراعاة حقوق الآخرين ؛ كيلا
تختفي فتنة الجمال في تنافس الأجيال . . .

حيث يتعايش الأحياء بينما تستمر الحياة في توليد الفتنة الرائعة والمعاني
الجميلة .

**

سؤال وجواب

١- السؤال الأول : ملكة الشعر؛

إن حاسة الشعر متوارثة في أجيال المجتمعات العربية منذ العصر الجاهلي إلى اليوم . أما موهبة الشعر فيمتلكها أناس دون آخرين . ولولا ذلك لأصبح أبناء الأمة العربية كلهم من الشعراء . فالشعر هو تراث الأمة العربية في بواديها وحواضرها ، أو كما قيل : (إن الشعر ديوان العرب) . وقد عبّر عن هذه الحالة شاعر البحرين الأستاذ إبراهيم العريض في قوله :

(كلنا طائره في قفس

إنما يطلقه المجدود منا)

أما السؤال عن العوامل التي أدت عندي إلى حبّ الشعر منذ الطفولة فهي كثيرة ، أذكر منها على سبيل المثال تأثير المنابر الحسينية ، والأناشيد الوطنية في المدرسة ، وما سمعته من والدي ووالدتي من أشعار وأراجيز . وقد دخلت المدرسة الأهلية عند الأستاذ عبد الرسول التاجر ، وأثار انتباهي للشعر وتفهم معناه درس تحسين الخط العربي . فقد كان الأستاذ يكتب في أعلى الصفحة كل يوم بيتا من الشعر العربي بالخط الأحمر الجميل ، وأقوم بإعادة كتابته على جميع سطور الصفحة إلى أسفلها . وكانت تلك الأبيات من الأشعار المشهورة المعنية بتهديب الأخلاق وطلب العلم ، من مثل :

(هي الأخلاق تنبت كالنبات

إذا سقيت بماء المكرمات)

(وانما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا)

(يمشي وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تلّ نفاق) إلخ . . . وقد كنت أبذل جهدي لفهم معانيها وحفظها وأستلهم تقاطيعها الموسيقية وأوزانها الشعرية .

وفي المدرسة الابتدائية الحكومية تولعت بالأناشيد المدرسية وحفظها . وفي الصف الرابع الابتدائي وقع في يدي كتاب (جواهر الأدب) ، وكله حكم وأمثال وأشعار ، فحفظت من أشعاره الكثير حتى أبيات الغزل مثل :
(يامن لعبت به شـمـول
ما ألطف هذه الشـمـائل)

وفي الخامس والسادس الابتدائي وقع في يدي من مكتبة أخي صادق دواوين شعراء المهجر ، مثل إيليا أبو ماضي ، وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران ، ثم كتاب الموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبارك ، والوساطة بين المتنبي وخصومه - للجرجاني ، وكتاب المدينة الفاضلة لسقراط ، وغيرها من الكتب الأدبية والشعرية . . فقرأتها ودخلت من بوابتها إلى عالم الشعراء المشهورين قدامى ومحدثين .

وخلال دراستي في ثانوية البحرين (١٩٤١-١٩٤٤) كان زملائي يتذمرون من مقرر الشعر الجاهلي والمعلقات لصعوبة الفهم . ولكنني على العكس منهم كنت أبذل الجهد لفهم الكلمات والمعاني ، حتى حفظت المعلقات التسع عن ظهر قلب . وأعجبت كثيرا بمعلقة شاعر البحرين طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة في معلقته المشهورة :

(أذنتنا ببينها أسماء
ربّ ثاو يملّ منه الثـواء)

وكان أحد زملائي في الثانوية شاعرا مجيدا هو عبد العزيز محمد القاضي ؛
فاتفقنا على تبادل الأشعار وقراءة المختارات الجيدة مثل حماسة أبي تمام ،
والبحتري ، وغيرها مما نتوصل إليه في قراءاتنا الشعرية والأدبية .
وتلك هي إذن المواقف والظروف التي أنمت لدي حب الشعر منذ الطفولة .

السؤال الثاني-الشعراء:

تولعت منذ أيام الدراسة بالشعر العربي القديم وشعراء الجاهلية ، مثل امرؤ
القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير ابن أبي سلمى ، وحاتم الطائي ، والحطيئة ،
وأشعار صعاليك العرب ، بالإضافة إلى شعر المعلقات ، وقرأت مختارات أبي تمام
والبحتري ، ودواوين وأشعار العصر الجاهلي والإسلامي ، وخطباء العرب ونهج
البلاغة للإمام علي بن أبي طالب ، ثم أكملت اهتماماتي الشعرية بأدب العصر
الحديث ، مثل وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي ، والشعراء المشهورين مثل
أحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، والرصافي والزهاوي ، والصافي النجفي ، وعمر
أبو ريشة ، بالإضافة إلى شعراء المهجر مثل إيليا أبو ماضي ، وغيرهم .
والشعراء الذين أحببتهم وتأثرت بإبداعهم متعددون على مر العصور
ومنهم : طرفة بن العبد ، والمتنبي ، وأبو نؤاس ، وأبو فراس الحمداني ، والشريف
الرضي ، وأبو العلاء المعري ، والبحتري الخ . . ومن المحدثين أحمد شوقي ،
وصالح جودت ، وبدر شاكر السياب ، والأخطل الصغير ، وعمر أبو ريشة ، وإيليا
أبو ماضي ، ونزار قباني ، والأستاذ إبراهيم العريض ، والشيخ عبد الحسين
الخلي . . وغيرهم .

ولا أستطيع القول إنني تأثرت بشاعر معين من هؤلاء ، بحيث حاولت أن
أنسج على منواله ، ولكنني استفدت منهم في تكوين ذخيرة شعرية وذوق أدبي ؛
فالشاعر الملهم يجب أن يكون له أسلوبه الخاص وطابعه المميز .

السؤال الثالث :

حول التجارة وهواية الأدب- إن التجارة مهنة شريفة تضمن حرية الفرد وتوفير مصدر رزقه . وقد كرمها الإسلام بما ورد في القرآن الكريم عنها وعن شروطها . وبما عرف عن الرسول الأمين من بدء ممارسته للتجارة بأموال أم المؤمنين خديجة . كما عرف عن عدد من الصحابة ممارستهم للتجارة ؛ كأبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان رضي الله عنهما ، وغيرهما .

ومنذ ممارستي للتجارة كنت أستعمل مجال الحرية المتاحة في ممارسة الأنشطة الاجتماعية والثقافية . . وقد كنت وأخي صادق نستقبل في محلنا التجاري معظم الأدباء والشعراء والمثقفين والخريجين وأصحاب الفكر من داخل البحرين وخارجها ، كالأستاذ إبراهيم العريض ، وحسن الجشي ، وعلي التاجر ، وعبد الرحمن الباكر ، ويوسف الشيراوي ، وقاسم أحمد فخرو ومحمد قاسم الشيراوي ، ورسول الجشي ، وماجد الجشي ، والدكتور علي محمد فخرو ، والدكتور راشد فليفل ، والدكتور إبراهيم يعقوب ، والشيخ عبد الحسين الحلبي ، والشيخ عبد الأمير الجمري وغيرهم . .

ومن شرقي المملكة العربية السعودية لفيف من الشعراء والأدباء والعلماء ، من بينهم الحاج أحمد المصطفى ، وأحمد راشد المبارك ، ومحمد سعيد المسلم ، والشيخ عبد الرسول الجشي ، والشيخ حسن علي البدر ، وأدباء من عائلة الزاير والخنيزي وسواهم ، حيث تدور المناقشات الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية ، ولا سيما صبيحة يوم الجمعة من كل أسبوع .

وما تعلمته من التجارة هو الصبر والصدق والقناعة وحسن المعاشرة ، وحسن الإدارة ، وحسن معاملة المستخدمين والعملاء . أضف إلى ذلك متطلبات العمل التجاري كالأسفار وحضور الاجتماعات في الشركات وغرف التجارة ، والمؤتمرات التجارية والثقافية على حد سواء . وكذلك المشاركة في تأسيس وإدارة عدد من المؤسسات ، من بينها شركات التأمين والبنوك وسوق الأوراق المالية وغيرها . . وقد ظهرت ملامح تلك الأنشطة على كثير من أشعاري وكتاباتي .

ومن الطريف أنني خلال الاجتماعات الطويلة المملة كنت أشغل وقتي بكتابة الشعر . . بدلا من «الشخبطة» على الورق كما يفعل الآخرون . أمثلة ذلك موجودة في أشعاري ، لاسيما ديوان شعري (في خاطري يبكي الحنين) ، ففيه من أشعار الأسفار بالإضافة إلى فصل بعنوان (أشعار التجار) . .

السؤال الرابع :

عن الشعر والسياسة - لم يكن الشعر عندي من أجل تحقيق جمال لغة التعبير فقط ، وإنما هو التعبير عن مشاعر النفس بأسلوب رصين وسهل ، يتجاهله اليوم كثير من الشعراء المحدثين . ولست ممن يستطيع أن يقول الشعر بناء على طلب من أحد . وقد مارست العمل الدبلوماسي والعمل في مجلس الشورى ، دون أن أتخلى عن الشعر ، ووظفت شعري وشعر الآخرين في تضمينه خطاباتي وكتابتي بما يؤيد اتجاهاتي الفكرية وأحيانا بما يلفظ الجوع على الحضور . . وما زلت أفعل ذلك .

وعلى سبيل المثال في افتتاحية «المجلة الثقافية» مقالة عن حرب عاصفة الصحراء وما تلاها . . حيث بدأتها بالتعليق على بيتين للشاعر محمد صالح بحر العلوم في تأبين الشيخ عيسى بن علي (١٩٣٢) وهما :

(حتى أثار الجوزوبعة بها

خصّ الخليج فعّمّه التغيير)

(نسفت سعادته ومنعة شعبه

وحقوق أمته وهنّ ندور)

السؤال الخامس :

حول رؤيتي للأسفار - أجيب عن هذا السؤال شعرا من قصيدة جديدة بعنوان «نجمة الهلال» أقول فيها :

ألقت من طفولتي الأسفار

أكشف عن وجوه العالم الأستار
أهدي عقوداً من رياحين ومن أزهار
مدينة أهدي لها الورد ، وأخرى أجمل الأشعار ..

... شهدت في العالم أصنافاً من الشعوب
وسرت في شوارع اللغات والدروب
وفي الثقافات وفي التاريخ والحروب

فلم أجد كالحبّ للنفس دواءً شافياً وبلسماً
وعبرة التاريخ للعاقل نصحاً .. وفما
ورفعة الأخلاق والتقوى لزيغ عاصماً
وفي العلوم للشعوب في الرقي سلماً
عواصم العالم قالت مثل ذلك إنمّا
في وطني ... يختلف الأمر تماماً كلّما
مرّت جيوش للتتار ...
وعشّش الجهل كليل يستر النهار
واستلب «الولاية» من شعوبنا القرار ... الخ .

السؤال السادس :

عن الهوايات والمعرفة - أهم الهوايات عندي هي القراءة والمطالعة
والدراسة ، وكلها لها علاقة مباشرة بالفكر والمعرفة . ثم الكتابة والشعر والأسفار
وأثرها في المعرفة واضح ، لا سيما من حيث معرفة التاريخ والشعوب وتقاليدها ،
والأماكن وأثارها إلى غير ذلك . ويشغل وقتي أيضاً الاهتمام بالعمل الخيري
والتطوعي .

ومن هواياتي القديمة تسجيل أسفاري والمناسبات العائلية بالصوت والصورة

والتصوير السينمائي ، والتسجيل على الأشرطة .
ومن هواياتي لعبة الشطرنج الذي قال فيه الشاعر :
(في علمه فن وفي لعبه
تشاغل عن غيبة الناس)
(فتشغل الجاهل عن جهله
وصاحب الكاس .. عن الكاس)
(وأهلها من حسن أخلاقهم
من خير أصحاب وجلاس)

والشطرنج هو لعبة الملوك والأمراء والفضلاء . وقد قيل عن الإمام مالك
وشيوخ آخرين من الأندلس ، إنهم كانوا يجيدون الشطرنج ويتحدون خصومهم
باللعب معهم استديارا . (دون رؤية رقعة الشطرنج) . . .
وفي مجال الرياضة البدنية أحب المشي ولعب التنس والسباحة والأندية
الرياضية .

السؤال السابع :

عن البحث والمعرفة - القراءة والمطالعة بقصد التعلم والاستفادة هما أهم
مصادر تكوين المعرفة ولا أعني قراءة التصفح وإنما القراءة الواعية . وتعلمت أن
أقرأ الكتب المرجعية في أبواب الأدب والاجتماع والسياسة والتربية وعلم
النفس ، والتاريخ والدين والعلوم عامة ، بأسلوب الدارس لها ، وذلك منذ سن
الشباب ، حيث قمت بتلخيص عدد من تلك المراجع لتسهيل عملية الاستفادة
منها . وما أزال أومن بالحاجة لتجديد المعرفة في شتى المواضيع ، بسبب التطور
العلمي السريع . وكذلك من خلال المشاركة في الندوات الفكرية والمحاضرات ،
ومن خلال صفحات (الانترنت) مؤخرا .
إن مجال المعرفة واسع الحدود ، ولا يزعم حتى أصحاب المعرفة الحقيقيون

أنهم يعرفون كل شيء . وأنا مع الحكمة التي تقول : (من قال لا أعرف فقد أفتى) والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ .

(*) مقابلة مع الصحافي : حسن علي - ٥ فبراير ٢٠٠٢ .

احتفالية منتدى الفكر العربي

حري بمنتدى الفكر العربي ، أن يكون احتفاله بالذكرى الخامسة والعشرين من عمره الحافل . . . على مثال متميز عن المؤلف : يستفيد من دروس تجربته فيما مضى ، ويستوعب الحاضر بكل مظاهره وتحدياته وآلامه ، ثم يخطو نحو المستقبل بمشروع متكامل مدروس . ولكل مرحلة من تلك المراحل شأن خاص يستحق أن تفرد له ندوة مستقلة .

إن وقفة شجاعة مع الماضي ، وإحباطات الحاضر المؤلم ، وتطلعات المستقبل المجهول ، غاية يجدر بهذه الاحتفالية أن تتوخاها متجاوزة كلمات الإطراء . . التي هي جديرة بهذا المنتدى دون ريب .

لقد تأسس منتدى الفكر العربي عام ١٩٨١ ، في ظروف تختلف كثيرا عن ظروف اليوم . وأدوات الحوار الفكري ومدى فاعليتها المتوفرة خلال الثمانينات ، رغم انكماشها ، كانت خاضعة للتوجه السياسي والفكري لدى الأنظمة العربية ، السائرة في ركاب أحد المعسكرين الدوليين : المعسكر الغربي الرأسمالي ، والمعسكر الشرقي الاشتراكي . وكانت أساليب القمع والتخويف والتشريد ، من وسائل تلك الأنظمة أو معظمها ، لخنق الأصوات المفكرة الحرة . وقد حاول المنتدى جهده أن يعمل بحرية ولو نسبية تحت ظل هيمنة الأنظمة المطلقة تلك ، في شكل ندوات وحوارات عربية وعالمية . . من مثل : «تجسير الفجوة بين صانعي القرار والمفكرين» (عام ١٩٨٤) ، ومن مثل «العنف والسياسة في الوطن العربي» (عام ١٩٨٧) - والصحوة الإسلامية - والتعددية السياسية والديموقراطية (عام ١٩٨٩) - إلى غير ذلك . وقد استفاد من تلك

الندوات الكثيرون ، فيما عدا الطرف المعني بها ، ممثلا في الأنظمة العربية المتحجرة ، وكأن لسان حالها يقول : (محضتني النصح ، لكن لست أسمع . . .) .

إن مؤسسات المجتمع المدني (المنتدى واحد متميز منها) لم تكن بسبب تسلط الأنظمة القمعية ، شيئا مذكورا في الثمانينات ، من حيث توفر حرية النقد ، وحرية العمل . وهذا جانب من فوائد مراجعة تجربة الماضي لاستثمارها حاضرا ومستقبلا . ونحن نشهد اليوم تفعيلا نشطا لأدوار مؤسسات المجتمع المدني من جديد في ظل التطورات الدولية ، والأحداث المتسارعة ، والوقائع الميدانية المؤلمة . . حيث راية الإصلاح أصبحت ترفرف اليوم عاليا فوق عالمنا العربي ومجتمعاته من محيطه إلى خليجه . . طوعا أو كرها .

لهذا فإن دعوة منتدى الفكر العربي لاستيعاب الحاضر بكل مظاهره ، يتركز الجانب الأهم منها في نظري ، بأن يقيم المنتدى جسورا نابضة مع مؤسسات المجتمع المدني على امتداد الوطن العربي ، الفكرية منها والثقافية ، والإسلامية ، والتربوية ، والمعرفية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والمهنية ، وكل مؤسسة أخرى لها دور في تكوين الفكر العربي المعاصر ، وتطويره ونشره ومساندته بجميع الوسائل المتاحة .

وربما تعددت الآراء ، واختلفت المفاهيم ، وتفرقت السبل . . وسيكون في كل ذلك إثراء للراي ، ومجال خصب لاختيار البدائل والوسائل ، وتقريب وجهات النظر . . ولكن الحد الأدنى غالبا ما يكون متفقاً عليه ، بل هو من ضمن أهداف المنتدى المعلنة . . . كالإسهام في تكوين فكر عربي معاصر ، والتأثير على صانعي القرار في الوطن العربي ، وتأمين المشاركة الشعبية ، وإطلاق الحريات العامة ، ونشر الديمقراطية ، ومفهوم التنمية الشاملة ، والدفاع عن حقوق الإنسان ، وحقوق المواطن ، والتصدي للفساد والإفساد في شئون الإدارة والموارد العامة . .

إن تفاعل المنتدى إيجابيا مع مؤسسات المجتمع المدني ، سبيل لإغناء اليقظة

الفكرية ، ووسيلة فاعلة لنشر الوعي المجتمعي ، وطريق سالك للدعوة إلى الإصلاح المنشود . وقد مارس المنتدى جهدا يحمد عليه في تنويع قنوات الحوار عربيا ودوليا ، ولكن المرحلة الحرجة الحاضرة تتطلب من ذلك الجهد المزيد ثم المزيد وبأسلوب متطور .

وفي هذا السياق ، فإن مشروع المستقبل الفكري المتكامل المدروس للمنتدى الذي أشرت إليه ، لا يصبح ذا جدوى حقيقية بدون تظافر القوى الشعبية والمؤسسات الأهلية ، لمساندته ونشره والسعي لتفعيله على كل المستويات .
ويبقى السؤال بمناسبة احتفالية المنتدى قائما :

«هل يستطيع منتدى الفكر العربي أن يصبح جزءا من تفكير المواطن العربي . . وما هي الوسائل لتحقيق ذلك . . . ؟»

تحقيق ديوان أبي البحر الخطي المتوفى سنة ١٠٢٨ هجرية

لي مع الشاعر جعفر بن محمد الخطي ، شأن في هذا المقام ، ولي شأن آخر مع محقق ديوانه الأخ الأديب الأستاذ عدنان العوامي ، الذي نحتفي به جميعاً في مقام التكريم في هذا الحفل البهيج .

أول ذكرياتي مع شاعر القطيف والبحرين الشيخ أبو البحر جعفر بن محمد الخطي بدأت وأنا ما زلت صبياً ، حينما أصدر أستاذنا إبراهيم العريض أول دواوين شعره الحديث (العرائس) عام ١٩٤٦ . . . فقد صدر الأديب والشاعر اللبناني المعروف محمد علي الحوماني صاحب مجلة العروبة لهذا الديوان بمقدمة عن الشاعر البحراني ، ورد فيها ما يلي :

(. . على أنني وقد رجعت بالذاكرة إلى عشرة أعوام أو تزيد ، فاسترجعت ذكرى الشاعر الخطي البحراني قبل مائتي عام أو تزيد إذ أقرؤه في (سلافة العصر) فيملاً نفسي إعجاباً بقريضه الفحل ، وهو يصف سببوية البحر التي شجت رأسه على ساحل البحرين . وعدت بعد هذا غير منكر على شاعر البحرين السيد إبراهيم العريض أن يكون خليفة الخطي ، وغير منكر على تلك البقعة أن تكون منصدر اللؤلؤ بكلا معنيه) .

تلك هي الفقرة من مقدمة الحوماني ، التي أثار في نفسي الفضول وحب الاستطلاع ، وقد ظل هذا السؤال قائماً لدي إلى أن وقعت بيدي نسخة من ديوان الخطي في أواخر الخمسينات ، فقرأت منها أول ما قرأت قصيدة الشاعر في السببوية ، وعرفت منها قدرة الشاعر الخطي على توليد المعاني والأفكار من حادثة بسيطة لو حدثت لغيره لكان أولى بأخفائها أو تجاهلها ، لولا أن ملكة

الشاعر في نفس الخطي أبت إلا أن تجعل تلك الحادثة ميداناً يصول فيه ويجول ، وكأنها تحولت على لسانه إلى ملحمة شخصية للبطولة .

وقد أقيمت عن هذا الشاعر محاضرة عن شعره وعصره في جمعية التاريخ والآثار في البحرين عام ١٩٩٩ ، وما ذكرته آنفاً كان مقدمة لتلك الكلمة التي نشرت في مجلة الواحة العدد السابع عشر سنة ٢٠٠٠ ، تناولت فيها شهرته ومكانته لدى معاصريه ، ومن كتبوا عنه بعد ذلك ، وتاريخ حياته وتنقلاته ، وتحليل عدد من أشعاره في مختلف الأغراض ، لا سيما قصيدته المشهورة في (السببية) ، وعلاقته مع علماء عصره وأدبائه ، وسفره إلى إيران وتشوقه إلى البحرين والقطيف ، وختمتها بنبذة عن القيمة التاريخية لشعره في تسجيل الأحداث ، وذكر أسماء القرى والمنازل في البحرين والقطيف ، وأنواع المأكّل والمشارب ، وأنواع الحرف والأعمال الموجودة ، وأسماء أصحابها وأحوال المجتمع البحريني والقطيف وإيران من خلال شعره ورسائله إلى غير ذلك .

وأضيف هنا في مقام الخطي وشعره ظاهرة تمسّكه بانتمائه العربي لبني عبد القيس ، وحبّه لوطنه حيثما سار كما جاء في أشعاره ومنها على سبيل المثال :

«ألا أبلغ الحيين بكرأ وتغلباً
فما الغوث إلا عند تغلب أو بكر
أيرضيكما أن امرأ من بنيكما
وأبي امرئ للخير يدعي وللشر»

..... الخ

وكذلك أشعاره في الحنين إلى الوطن كلما هاجه الشوق وهو في إيران . . . على أن تلك الظاهرة لم تقتصر على الخطي وحده ، فقد كان علماء البحرين وأدباؤهم وشعراؤهم من قبل ومن بعد . . . في الإحساء والقطيف والبحرين ، على هذا المنوال نفسه من التفاخر بعروبتهم وولائهم لأوطانهم حيثما ذهبوا ،

ومعارضتهم للاحتلال الأجنبي بكل الوسائل ، وادخارهم لثرواتهم الفكرية والثقافية في سبيل حفظ لغة الضاد وسبر أغوارها والتضلع فيها ، خدمة للعروبة والإسلام .

وما كان لنا ولغيرنا أن نشيد بهذه الظاهرة لكونها أمراً طبيعياً مفروغاً منه لولا ما نسمعه اليوم بين الحين والآخر من ضجيج مغرض ، يتقصد عرب هذه المنطقة البحرانيين للتشكيك في انتمائهم لأوطانهم العربية وحبهم لها وتفانيهم في خدمتها ، وهو أمر مؤسف يدل على الجهل ونقص المعرفة ويؤدي إلى التفريق بين أبناء الوطن الواحد .

ثم أعود إلى مقالتي عن الخطي فأقول إنه قد بدت لي خلال البحث في شعر الخطي أسئلة وملاحظات تحتاج إلى المزيد من البحث من قبل الدارسين ، من مثل : محل وتاريخ مولد الخطي ، ومدة إقامته في القطيف والبحرين ، وأين وكيف تلقى علومه ومعارفه ، ومن هم أساتذته ، وأسباب نزوحه عن القطيف ، ولماذا كان يشكو دائماً من العسر وضيق ذات اليد ، وهل كانت لديه عقارات أو بساتين مثل سائر أهل عصره ، وأسباب هجرته من القطيف وملاستها ، وما هي آثار وجوده في البحرين في ظل الحكم البرتغالي ، وأسباب ذهابه إلى إيران ، وتحليل مشاعره من أشعاره تجاه موطنه في القطيف والبحرين وشيراز ، ودلالاتها النفسية والاجتماعية ، إلى عدد من الأسئلة الأخرى الحائرة . كما أخذني الاستطراد خلال إعداد ذلك البحث أو المقال إلى تقصي مصادر المعلومات عن هذا الشاعر ، والكتب التي تناولت سيرته ، وكذلك أسماء العلماء والأدباء المعاصرين للخطي في البحرين خاصة ، ومن أنس بصحبتهم وتبادل معهم الأفكار والأشعار . . . إلى غير ذلك مما لم أقم بنشره ، على أمل أن تسنح الفرصة لمزيد من التحقيق وإعادة طبعه من جديد .

لقد كان المتداول بين الناس من ديوان الخطي عبارة عن ديوان شعر هزيل لا يملأ كف القارئ ، مطبوع في إيران سنة ١٩٥٣ ، ومجموع قصائده حوالي ١٣٣ قطعة شعرية ، بما فيها القصيرة جداً ، قام بإخراجه والتعليق عليه الخطيب علي

بن الحسين الهاشمي ، وطبعه على نفقته الوجيه زيد الكاظمي .

ثم تأتي المفاجأة السارة . . . حين تصدى الأستاذ عدنان العوامي لهذا الأمر ؛ فأراحني وأتحف البحث العلمي الجاد بمجلدين كبيرين أعاد فيهما طبع ديوان الخطي وشرحه والتعليق عليه ، والإجابة عن كثير من الأسئلة الغامضة في حياة الشاعر وعصره . بل إن المحقق أضاف أبعاداً جديدة للاستفادة من هذا الديوان حينما استطرد في ربط معاني الخطي وألفاظه بمن تقدم عليه ومن تأخر من الشعراء . . . وهو جهد يتطلب أفقاً واسعاً من الدراية بالشعر العربي ؛ وهو ما أسماه الأستاذ محمد رضى الشماسي (بالتداعي المعرفي) ، كما أن المحقق المتميز أضاف إلى ديوان الخطي بعض القصائد التي لم تكن موجوده في النسخة السابقة ، استناداً إلى مصادر جديدة ، وأضاف إلى كل ذلك فصلاً يلقي الضوء على الحركة الأدبية في وطن الشاعر منذ عصر علي بن المقرب العيوني حتى عصر الخطي ، وعلى مجرى التاريخ والسياسة ، وذلك استطراد في رأي محمود ومفيد وفرّ الجهد على القارئ والباحث معاً .

ولا أراني مبالغاً إذا قلت إنني أكاد أعتبر أن ما قدمه لنا الأستاذ عدنان العوامي هو بمثابة (موسوعة ديوان الخطي المعرفية) . . . وبهذا فإن أبا البحر الخطي نال بعد وفاته حظوتين :

الأولى : على يد جامع ديوانه في حياته الحسين بن محمد الغنوي ، والأخرى على يد محقق ديوانه الذي نحتفي به وبإنجازته في هذا الحفل البهيج . اسمحو لي أن أنصرف إلى فصل خاص بيني وبين الأخ المحقق . فقد كتب الأخ العزيز ملاحق للديوان وأولها بعنوان (دفاع عن أبي البحر) ، للرد على من تحامل على الخطي وعلى شعره من غير حق ، حيث أبلى المحقق في ذلك بلاء حسناً ، وثانيهما الملحق الثاني عن الحياة الثقافية في البحرين وعلى الصفحة ٢٠٧ من الجزء الثاني كتب المحقق عني ما يلي :

(. . . حتى آل الحال أن كتب صديقنا الحبيب الأستاذ الشاعر تقي محمد البحارنة متظلماً ومستنكراً نسبة الشيخ جعفر الخطي إلى القطيف ، متذرعاً بأن

الخطي أقام في البحرين ثلاثين سنة ، وأنه كتب قصائد يتشوق فيها إلى
البحرين) .

وأنا أجيّب عن ذلك بإيراد النص الذي استند عليه الزميل الفاضل ،
والمنشور في مجلة الواحة العدد ١٧ وهو كالآتي حيث قلت : (ولا نطيل الوقوف
عن ذكر أسباب هجرة الخطي من القطيف في مقابل أسباب تعلقه بالبحرين ،
لولا أنني لاحظت بعضاً ممن يؤرخون للأدب والشعر حديثاً . . . قد استبعدوا أبا
البحر الخطي من قائمة شعراء البحرين ، وألحقوه بالقطيف على أساس أنه ولد
فيها . . ولم تشفع لديهم في ذلك حقيقة كونه عاش في البحرين طيلة حياته ،
ونظم في حبها قلائد الشعر ، وخالط مجتمعها حتى أصبح واحداً منهم فبخلوا
عليه بالانتساب إلى جزيرة البحرين . . حباً وانتماء رغم ولادته في القطيف) .

هذا الكلام الذي تلوته ليس فيه تظلم ولا استنكار في نسبة الخطي
للقطيف ؛ فهو مجرد ملاحظة تخص بعض المؤرخين للشعر حديثاً ، الذين
استبعدوا الخطي من قائمة شعراء البحرين ، أما المؤرخون القدامى فجلهم إن لم
يكن كلهم قد وصفوا الخطي بالشاعر جعفر الخطي البحراني ، فجمعوا بين الخط
(القطيف) والبحرين ؛ أو كما ضبطه البهائي (جعفر بن محمد بن علي بن ناصر
بن عبدالإمام الشهير بالخطي البحراني العبدي من بني عبد القيس) ، ورغم أن
الخط تعني القطيف عموماً إلا أن العنوان على غلاف النسخة الأصلية من ديوان
الخطي طبع سنة ١٩٥٣ لم يرد فيها لفظ القطيفي ، ولكن الأخ عدنان أضاف
كلمة القطيفي من عنده فخالف بذلك سنة المؤرخين قبله ، حيث كان اسم
الخطي المتداول وهو (أبو البحر جعفر بن محمد الخطي البحراني) وبهذا الصدد
فإن انتمائي وحببي للقطيف شيء ، والأمانة التاريخية شيء آخر . أتري أن
المحقق وقع في المنزلق نفسه الذي عابه على الآخرين ، حين أضاف القطيفي
واستبعد كلمة البحراني .

أما جوابي على ما نسبه إلي من استنكار نسبة الخطي إلى القطيف ، فقد
تولت الإجابة عنه أول فقرة من المقال الذي قرأته ، حيث قلت (أول ذكرياتي مع

شاعر القطيف والبحرين أبو البحر جعفر بن محمد الخطي بدأت وأنا ما زلت صبياً . . إلخ) فقد نسبته صراحة إلى القطيف والبحرين ، كما فعل المؤرخون السابقون غيري ممن لم يستكثروا على الشاعر نسبته إلى وطنه الثاني البحرين . ومن هذا القبيل ما أقدم عليه الأخ المحقق فيما يتعلق بالقصيدة المنشورة في الديوان الأصلي ومطلعها :

سلام يغادي جوكم ويراوحه
ونشر ثناء تنتحيكم روائحه

فقد كان عنوان القصيدة في الديوان الأصلي هكذا (وقال : يتشوق إلى وطنه البحرين) ، والمفروض أن الغنوي جامع ديوان الخطي وضع العنوان بمعرفة الخطي نفسه على الأرجح ، حيث أكد الهاشمي أنه لم يتصرف بشيء من الديوان قط ، فإذا راجعنا الصفحة ٣٩٩ من الجزء الأول نلاحظ أن الأخ المحقق استبدل عنوان القصيدة (التشوق إلى وطنه البحرين) بعنوان (كفى حزناً) والسؤال : لماذا؟

وخلاصة القول فيما نسبته إليّ الصديق الحبيب ، أن تلك النسبة لا تنطبق على ما كتبت ، حيث قلت إن الخطي هو شاعر القطيف والبحرين ، وهو كذلك بالفعل . وحيث أبدت ملاحظتي على الصفحة ٨٣ من الواحة بصدد من ينكر على الخطي انتسابه للبحرين ، فيستبعده من قائمة شعراء البحرين ويقتصره حصراً على القطيف وحدها (وهو ما أقدم على مثله الأخ المحقق) .

فليس لدي إذن استنكار على نسبة الخطي للقطيف عند من يؤرخون لشعراء القطيف وحده ، وإنما ملاحظتي كانت لمن يؤرخون لشعراء البحرين في عصر الخطي ثم يهملون ذكره .

وأقول : لو كان المرحوم الخطي موجوداً في البحرين اليوم لاستحق أن يصبح مواطناً ممتازاً فيها ، تقديراً لحيته للبحرين وانتمائه لها ، وأن يصدر له جواز سفر دبلوماسي بجانب جوازه الأصلي ، أليس هو القائل : وهو متوجه إلى خراسان :

(يا هل ترون لنا زح قذفت به
أيدي البعاد لجدحفص إياباً)

وهو القائل :

(لا تحسب البحرين أني بعدها
مستوطن داراً ولا أحباباً
ما أصبحت شيراز وهي حبيبة
عندي بأبهج من أوال جناباً
ما كنت بالمبتاع دارة سروها
يومها بفاران ولا بمقاباً)

وهو القائل :

(لسكان ظهـر مني من أوال
أول مطلبنا والمنى
فإن ترني مشئماً تارة
وأونة ترني معـمنا
فما ذاك إلا لأن أستقر
عندكم ولأن أسكننا)

وهو القائل :

عج بالمطي على مـرابع بوري
بمحل لذاتي وربـع سـروري
آه وقل على أوال تلهفي
فإذا جننت بها فغير كثير

هذي مزاياها وكم علقت يدي فيها بذمة صاحب وعشير

والشواهد كثيرة ولا مجال للاسترسال في ذكرها :

... فما هو المنكر في ذلك ، ولماذا لا يكون الخطي هو شاعر القطيف والبحرين؟ فنسميه (بالشاعر أبو البحر جعفر بن محمد الخطي القطيفي البحراني) كما سماه الأقدمون ، ثم نعرف جميعاً من البئر الثرثار ماؤها نفسها بدلاً من اقتسامها نصفين (*) .

على كل حال أيها الأخ العزيز عدنان .. فلتعتبر إن سمحت - أن ما ذكرته فيما بيني وبينك شقشقة بشقشقة . ونحن في هذه الأمسية أملنا أن نكسب رضاك ونهنتك على هذا الإنجاز الكبير ، ونحتفل بك شاعراً وأديباً وباحثاً ومحققاً نفتخر به جميعاً . أنت الحصان الأصيل الذي يصول بلا سهيل ، الشاعر الفنان والكاتب المقدم ، معجزة الحروف تزفه جيلاً لجيل .. أهديك شعري والهوى نجوى الخليل إلى الخليل ..

ثم إنني أقول في الختام :

يا أبا البحر نلت خير المرام
مذ تصدّي لشعرك العوامي
ذاك عدنان ينتضي القلم المرهف
يجلوك شامخاً للأنام
مذ زواك التاريخ عنا فأضحى
شعرك الغض .. قابعاً في الظلام
نسي الجليل أن جلك يوماً
كأن مأوى النهى وربّ الكلام

كنت في عصرك المبرز في الشعر
مقاماً . . . بين الفحول الكرام
وتساوى فيك المحب منامي
هواه تراه أم عــــــــــــــــــــــــــــــــوامي
شاعر زاحم الفحول وكم من
شاعر تاه ضائعاً في الزحام
جهلوا شعره وسر معانيه
وأطراف بحرته المتــــــــــــــــــــــــــــــــرامي
فسبرت الأعماق تجلو الدراري
مستشفاً ما دق في الأفهام
فلك الله من دؤوب صبــــــــــــــــــــــــــــــــور
غير مستسلم ولا محجج
فارس أنت كم له وثبات
وثبات في موضع الإقدام
ملهم إن أتاه وحي من الشعر
أتاه من مصدر الإلهام
مستلذا عذابه في القوافي
وكان العذاب كأس مدام
وإذا سأل في الخطاب يراعياً
أترع الكأس للنفسوس الظوامي
إن خير التكريم ما كرم الفكر
مشيدا بالمنجزات العظام
ولعدنان في الريادة (سابق)
هو فنحنر لنا وللأقوام

بك تستنطق الحروف ويجري
دمها في المداد والأقدام
منحتك القلوب حبا وتقديراً
وحبّ القلوب خير وسام

(*) ألقى في حفل تكريم السيد عدنان العوامي بتاريخ ٣٠ أبريل ٢٠٠٦ في صالة الملك عبدالله بن عبد العزيز في القطيف .

(*) درج المؤرخون القدامى في البحرين خاصة بمعناها التاريخي ممن كانوا في عصر الخطي أو قبله أو بعده أن ينسبوا العلماء والأدباء والشعراء إلى مواطن سكنهم بالإضافة إلى مواطنهم الأصلية . وهذا العرف لا يخلو من فائدة ، وفيما يلي نماذج من ذلك مأخوذة من الجزء الثاني مما أورده الأخ المحقق في ترجمة سير الأشخاص ابتداء من صفحة ٢٠٧ وما تلاها :

- ١- سيرة (زاكي بن كامل القطيفي الهيتي) قطيفي نسب إلى هيت بالعراق حيث سكن .
- ٢- سيرة (أبو الحسن العبيدي البصري) قطيفي نسب إلى البصرة .
- ٣- سيرة (موفق الدين الأربيلي البحريني) أربيلي منسوب للبحرين .
- ٤- سيرة (ناصر بن إبراهيم البويهي الأحسائي العاملي) أحسائي نسب إلى عامل .
- ٥- سيرة (علي بن حماد البحراني البصري) وهو قطيفي أو بحراني نسب إلى البصرة .

عاصفة الصحراء

حتى أثار الجوّ زوبعة بها
خصّ الخليج ، فعمّه التغيير
نسفت سعادته ومنعة شعبه
وحقوق أمّته ، وهنّ نذور

هل كان يدور في خلد الشاعر العراقي النجفي ، محمد صالح بحر العلوم ، وهو يلقي قصيدته ذائعة الصيت ، التي قالها في رثاء الشيخ عيسى بن علي آل خليفة ، حاكم البحرين الراحل ، عام ١٩٣٢ . . . أن الأمور ستجري في الخليج والعراق على نحو ما تنبأ به . . . ولكن بعد نحو من ستين سنة أو أكثر؟ وبالتحديد في عام ١٩٩١ ، وهو عام «عاصفة الصحراء» الأمريكية التحالفية ، أو أن تتكرر بعد ذلك لتصبح زوبعة حقيقية مدمرة ، تأكل الأخضر واليابس ، وتسحق تحت عجالاتها حضارة بلاد الرافدين في شهر مارس من عام ٢٠٠٣ ، حينما احتلت أمريكا وحليفاتها قلعة الرشيد (بغداد) ثم كامل التراب العراقي ، بقوات عسكرية ضاربة متطورة لا مثيل لها في التاريخ . . .

وكما يبدو اليوم ، بعد أن هدأت عاصفة الحرب ، واستبد العنف والإرهاب بشعب العراق المغلوب على أمره ، فإن الزواجع التي أشار إليها الشاعر محذرا ، سوف لن تتوقف آثارها عند الخليج والعراق ، بل ستتعدهما إلى أقطار الوطن العربي والإسلامي ، بما في ذلك شعب فلسطين المستباح ، والأقطار العربية وإيران ممن اعتبرتهم أمريكا (دولا شيطانية) ، وسيصبح العراق وعمقه الاستراتيجي في الخليج ، قاعدة لهذا الانطلاق .

والعالمون بالأمور في الوطن العربي أو في خارجه ، باتوا يشعرون بالقلق

الشديد ، وتساورهم المخاوف والشكوك من هذا الامتداد الأحادي القطب في منطقة حساسة من جسم العالم ، ومصادر الثروات الطبيعية فيه ، دون أن يكون للشرعية الدولية مكان ، أو دور فاعل يوجه ذلك الوجود والامتداد . وهم على حق . . ولعلهم أدرى من غيرهم بما هو قابع فيما وراء الأكمة من مشاريع ونوايا لا تمت بصلة إلى ما يجري الإعلان عنه .

ومن البديهي - في وضع كهذا - الاستنتاج بأن إقصاء الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن ، وتحدي الشرعية الدولية في العراق المحتل وفي فلسطين المغتصبة ، إنما هو أمر مدبر لبليل ! يؤيد الشكوك ولا يساعد على الاستقرار .

ومن جهة أخرى ، فإن الأوراق المطروحة اليوم على امتداد الساحة العربية (وربما الإسلامية أيضا في مراحل متزامنة أو لاحقة) تتحدث كلها عن ضرورة التغيير لمصلحة الشعوب والديموقراطية ! وتلك حقيقة تدركها شعوب المنطقة ، وتطلع إليها . . ما لم تكن من قبيل «كلمة حق ، يراد بها باطل !» ويفهم بما هو مطروح في العلن - على لسان الاحتلال - أن المقصود بذلك هو إحداث التغيير في أساليب الحكم الانفرادية ، وتعميم الحكم الديموقراطي الشعبي الحر ، وإسناد دور مؤسسات المجتمع المدني ، وفي الاقتصاد ليصبح اقتصادا حرا مفتوحا على العالم . وكل تلك الأهداف أمور لا غبار عليها من حيث المبدأ ، لاسيما إذا أخذنا بمفهوم (العولمة) على علاته . أما القادرون على قراءة ما بين السطور . . في مشروع التغيير هذا ، فبإمكانهم استنتاج الكثير مما لم يتم الإعلان عنه بعد ، لكونه من الأمور التي تتعرض للسيادة الوطنية ، ربما ، أو أو لأنه مما يدخل في باب الاستعمار الثقافي السافر ، ربما ، أو لأنه في حقيقته من نوع «التطبيع» الذي تشترطه «إسرائيل» لإبرام صفقة الاستسلام تحت مسمى السلام ! . . وأخيرا ربما لأنه (وهو الأرجح) مشروع لتغيير بنيوي طموح جدا ، يشتمل على أكثر مما سبق ، ويحتاج إلى مهلة من الزمن لتنفيذه على مراحل . ولا يستبعد أن يتناول ما يتصل بالفكر والثقافة والتعليم والمناهج ، والمرأة والمجتمع ، والدين ، والعلاقات الإقليمية والدولية . ثم إن المنصف الذي يؤمن بضرورة التغيير كمبدأ تقتضيه سنة التطور وحركة

العالم ، لا يفترض أن يكون متسرعا في إصدار الأحكام المسبقة على حوادث لم تقع بعد . ومع ذلك فإنه من الغرابة بمكان ، ومن قبيل السذاجة المستهجنة ، تصور إحداث التغيير بأوامر عسكرية ، أو بشروط إملائية قسرية ، دون توفر أجواء من الحوار المتكافئ ، والاقتناع والرغبة الحرة ، من جانب الطرف المستهدف . وأشد من كل ذلك خطورة ، تجاهل ردود الفعل وجليان العاطفة ، مما يؤدي بدوره إلى عدم الاستقرار ، والمعاناة وعلى الأخص حين تكون الدوافع الحقيقية للتغيير هي المزيد من الاستيلاء وبسط النفوذ الخارجي للاستيطان في قلب الأمة العربية وفكرها وثقافتها ، وعلى ترابها المقدس .

إن الأمة العربية اليوم تجتاز مرحلة حرجة ، ما في ذلك شك . مرحلة تسعى فيها القوى العظمى بالتحالف مع إسرائيل ، لتحجيم دورها ، وزعزعة استقرار أنظمتها ، وخلق خلل في البنى الأساسية في الفكر والعقيدة . وسيكون كل ما يحدث من تغيير لصالح تلك القوى ، ما لم تتمكن من الإمساك بمقدراتنا بأيدينا ، وما لم نثبت للعالم أننا لسنا أمة قاصرة تحتاج إلى وصاية ! وأن بمقدورنا أن نباشر بالإصلاح والتغيير على الطريقة التي نريدها لصالح أمتنا وشعبنا ومستقبل أجيالنا . وهو كلام موجه في أصله لقادة الأنظمة العربية ، ممن لم يستجيبوا بعد لسنة التطور والإصلاح ، ومنطق العصر . .

ولا جدال في أن هذه الفترة الحرجة إنما هي أنسب الأوقات لنا لقيام تواصل حقيقي جدي بين أنظمتنا العربية المتفوقة ، وبين المشاريع الإصلاحية التي ما فتىء ينادي بها المخلصون من رواد الفكر العربي التقدمي الإصلاحي ، قومية كانت أو إسلامية ، أو بمجهود شعبي مشترك بينهما بمباركة شعبية ، وذلك من أجل الوصول إلى سفينة النجاة لهذه الأمة المغلوبة على أمرها بهوى النفس وطغيان الاستبداد ، والتي وصف حالة القسر والشلل فيها ، وأجاد ، فيلسوف المعرة حين قال :

(جلوا صارمًا ، وتلوا باطلا ،

وقالوا : صدقنا .. فقلنا نعم .)

فن الترجمة - عمل صعب

- ١ -

مقدمة للمترجم:

قديمًا ترجم الآباء ، ترجموا عن اليونان والرومان والسريان والفرس والهنود ، وخلفوا لنا تراثًا في الطب والفلسفة ، والعلوم والثقافة . فالترجمة كانت بالنسبة إليهم معبراً يصلهم بعلوم أهل الأرض وثقافات الأمم . وقد اعتمد مترجمونا الأوائل أكثر ما اعتمدوا ، أسلوب التعريب ، فلم يلتزموا بنصوص التراجم الحرفية ، ولم يضعوا كلمة مقابل كلمة ، وإنما انصب اهتمامهم على أخذ المعنى الأعجمي وتقريبه إلى الأفهام العربية بكلام عربي مبين .

ونحن بدورنا ترجمنا عن الثقافات الأخرى منذ بداية هذا القرن وما قبله ، لكننا لم نلتزم دائماً بأسلوب التعريب ، ولم نملك من قياد اللغة العربية ما ملك الأوائل ، فاختلف لدينا الجيد من الترجمة بالرديء حتى - أصبحنا - جمهور القراء - نواجه صعوبة في أكثر الأحيان ، تشبه حل الطلاسم وتحليل الرموز حينما نقرأ بحثاً علمياً مترجماً إلى لغتنا العربية الجميلة .

لقد واجهت هذه الظاهرة منذ بضعة شهور وأنا أقرا في إحدى المجالات المتخصصة ، بحثاً مترجماً عن لغة أجنبية ، ووجدت نفسي أشق الطريق بصعوبة لاجتلاء المعنى الذي يريده المترجم ، وإرجاع أعجاز الجمل الطويلة الملتوية إلى أوائلها لفك الطلاسم والمصطلحات الفنية التي تغلف النصوص وتساءلت مشفقاً على القارئ - لمن يريد المترجم توجيه هذا الكلام الذوي الاختصاص وهم القادرون على مراجعة الأصل الذي يجيدون لغته غالباً

أكثر من العربية؟ ... أم للقراء الذين يجهلون لغة الأصل ، ويطمعون في إثراء معارفهم بكلام مفهوم؟

وقد أخذت على عاتقي ترجمة مقال أعجبني في موضوعه الجديد الطريف ... وأدركت عندها كم تكون الترجمة المتأنية شاقة ومتعبة ، على غير المتمرس بها . ثم شعرت أن من الغبن أن لا يجد المترجمون والمترجمون الأكفاء من يهتم بتقييم أعمالهم ، وجهودهم ، لا سيما إذا كانت تتصف بالإبداع وبالجهد الحريص .

الموضوعان اللذان قمت بترجمتهما فيما يلي عن الأصل باللغة الإنجليزية يدوران حول قضية تشغل حالياً بال مفكرين في عصر التقدم التقني الهائل - ألا وهي قضية «الإنسان» ، والسؤال المطروح هو: هل ينتظر الإنسان مصيره الحتمي في عصر التقدم الآلي السريع ... ليصبح بدوره آلة مسيرة ... أم إن عليه أن يقوم قبل فوات الأوان - بتطويع التقنية ، وتوجيه عصر المعلومات وجهة إنسانية جديدة ، فلا يصبح مجرد آلة مسيرة أو رقماً ضائعاً ... بل إنساناً مسيطراً على ما حوله .

لقد حاولت جهدي - ما وسعني التعبير - أن أتصدى لهذا النوع من الترجمة بأسلوب ينم عن هذا الجهد ، والله الموفق ...

وقفة للتأمل ماذا يخبىء لنا عصر المعلومات

بقلم : كلارا بيهلا جامكي

برج بابل،

بالأمس لم نكن نعلم لأننا لم نكن على معرفة ، واليوم نحن لا نعلم أيضا ، والسبب كثرة ما نعرفه من معلومات . أصبح حالنا كحال من لم يعد يعلم من بعد علم شيئا . . .

إن الأنظمة التي يصنعها البشر عرضة للالتباس ، وعدم الجدوى ، تتجاذبها اتجاهات مختلفة . فلا عجب ، إذن ، إذا أسفرت عن نتائج معاكسة للمطلوب منها .

إن طموحنا لإثراء معارفنا عن طريق تحسين أنظمة المعلومات لدينا ، يقودنا إلى نتائج هي إلى الضدّ أقرب : فكلما زادت معرفتنا . . . قلّ علمنا .

وكذلك فإن توقنا إلى استخدام الحاسب الآلي (الكمبيوتر) كوسيلة لإحكام التواصل بين البشر ، يؤدي إلى مزيد من التباعد ، ومحاولة الدمج تسفر عن مزيد من الانعزال ، وتكاثر رسائل الاتصال تفضي إلى تناقص فرص التفاهم . . . (نيفيت - ١٩٨٥م) .

إن قصة (برج بابل) الرّمزية التي وردت في الكتاب المقدس ، توضح ما أشرنا إليه : فلقد تعاون البشر لبناء صرح ضخم ليبلغ بهم أسباب السّماوات ، وكانت عاقبة ذلك أن تقطعت بينهم الأسباب فتباعدوا ، ثم انتشروا في الأرض فهاموا ، وتعدّدت ألسنتهم فعجزوا عن التفاهم .

وبالمثل ، فنحن اليوم ننشئ أنظمة عقلانية كبيرة ، مبنية على أبجديات لغة الحاسب الآلي الشائعة ، فنخلق النظريات ، ونشكل النماذج ونوجد المفاهيم ، ولكن السؤال الوارد هنا هو : هل ازدادت بذلك فرص التفاهم فيما بيننا كبشر؟

حياتنا الخاصة:

يستولي علينا الشعور بأن شبكة المعلومات المترامية الأبعاد ، أصبحت تهدد حياتنا الخاصة . فالوسائل الالكترونية ألغت (الحوازن) القائمة بين البشر ، كما ألغت - في الوقت نفسه - عامل الزمن أيضا . وبسبب هذه النزعة لاقتحام حياتنا الخاصة ، فإن حماية المعلومات أصبحت تجارة في منتهى الشمولية والتعقيد . نحن نشحّ بالمعلومات ، ثم لا نبوح منها إلا بمقدار يسير (مع العلم أن لدينا منها الفيض الوفير) لكي نبيعها بالأجر الذي نريد . نضع المعلومات لسلعة خاصة ثم نوجد حمايتها (حقوقا للاستعمال) ضد لصووية (سرقة الأفكار) ، وذلك لكي نحمي حقوقنا في التسويق ومنافعنا المالية . ويزداد التعقيد في حماية (حقوق الاستعمال) كلما اقترنت تقنية المعلومات بتقنية وسائل الاتصال .

لم نعهد أبدا ، فيما يمكننا تذكره من تاريخنا ، أننا واجهنا وضعا نكون فيه قادرين على التواصل العالمي الشامل مع الاحتفاظ - في الوقت ذاته - بخصوصيتنا الفردية المميزة .

وكما يقول (نيفيت - ١٩٨٥) - فإن الإنسان الإلكتروني الذي أصبح قادرا على الانتقال - في لمح البصر - عبر وسائل المعلومات ، إلى أي مكان في العالم - يستطيع أن يتجول أيضا خارج عالمنا ، أو أن يوجد في أركان كثيرة منه في آن واحد . . . نحن مكرهون اليوم على معايشة وجود يتنازع الشيع والخصوصية في الوقت نفسه .

فكيف يمكن لنظام كهذا أن يستمر؟

ما هو الإبداع؟

لنطرح هذا السؤال : هل باستطاعتنا أن نتغلب على مظاهر التناقض وقلة الجدوى في أنظمتنا؟

أنا أعتقد أن بالإمكان معالجة الأعراض المرضية ومشاكلها ، المتولدة من تناقض أنظمتنا إذا استطعنا أن نسمو معنويًا بأنفسنا وبذواتنا ، ثم نرتفع بتلك الأنظمة إلى المستوى نفسه .

عند ممارسة الإبداع ، نكون قد سمونا بذواتنا وشخصياتنا الفردية ، وبإمكاننا أن نذو الأذى المقامة في صلب أنظمتنا المتعددة .

إن سر الوجود يكمن في العمل الخلاق . ونحن في الواقع نمارس الإبداع حينما نختبر شيئًا بالممارسة الفعلية . . . فأنظمة المعلومات (الخفية) التي نبتدعها قد تحقق تقدمًا ما في الإنتاجية والإبداع .

إن مقدار تعديل دفة الاتجاه فيما يخص النمو المتسارع للمعلومات ، بإمكانه أن يؤثر على حالة المعرفة - بمعنى أننا نبدأ من جديد تقييم علاقتنا بعالمنا الأرضي . فكل التحولات التاريخية الكبرى كانت تتسم بإحداث تغييرات في نظرة الإنسان لنفسه وفي طريقة تفكيره .

فإذا كان التعقيد في أنظمتنا قد وصل إلى الحد الذي يستعصي علينا فيه تطويعها لمثلنا المنطقية والعقلانية المستقيمة ، فما الذي يتبقى لنا بعد ذلك غير أن نرجع إلى أنفسنا وفطرتنا ، وإلى ما نتمتع به من قدرات على الإبداع ؟ . . .

هل يكون الإبداع شأنًا خاصًا؟....

علمتنا التجارب كيف يحدث التخاطر (التلثاثي) بين النباتات - فإذا لمستُ النبتة ، أو شعرت بالتهديد ، فإن إحساسًا خارقًا للمألوف ، يولّد تيارًا إلكترونيًا في النبتة الأخرى على الجانب الآخر . تلك هي الظاهرة الغريبة التي تعمل حرةً مستقلة عن الزمان والمكان .

فإذا تواصلت (العقول) فيما بينها على هذا النحو ، فهل من الممكن اعتبار

كل منها مستقلا بذاته عن الآخر .

من علم الطبيعيات (الفيزياء) نعرف أنه ليس بإمكاننا أن نفصل بين الغرض والموضوع . كما نتعلم من (الفيزياء) وعلم النفس معا ، أن الزمان والمكان ليس لهما وجود فعلي ، بل هما مجرد مظهر للتركيب الآلي في مدركاتنا الحسية .

وفي مراسلاتنا أيضا ، لا نستطيع أن نفصل بين المرسل والمرسل إليه . فكلاهما مسؤول عن إتمام الاتصال ، أى عن ماهية الرسالة ذاتها .

بهذا المفهوم إذن ، ليس في الأفكار المنقولة ما هو ذاتي خالص .

وهكذا . . . فحينما تلوح فكرة أو خاطرة فى مكان ما ، فإنها قد تكون موجودة بالفعل في مكان آخر . ونحن نعلم من تجاربنا كيف يحصل توارد الخواطر بين طرفين في وقت واحد .

وقد جرى مثل ذلك بين العلماء أنفسهم ، فقد اكتشفوا أنهم كانوا يبحثون عن المشاكل نفسها في آن واحد ، دون أن يعلم أحدهم عن الآخر . وما يدرينا أن تكون الأفكار التي أوردتها الآن موجودة بالفعل عند غيري أو أنه يستشهد بها في مكان آخر ، فبإمكانى أن أسرد أسماء كثير من الكتاب لهم آراء مشابهة .

إن معنى الإبداع هو سمو الشخصية والذات فوق الوجود المادي ، وذلك على الرغم من أن التعبير عن ذلك الإبداع نفسه ، إنما يتأتى من خلال تلك الشخصية بعينها . فالشخصية وهيكلها المادي يتحولان إلى مجرد (وسيط) للإبداع_أما الإبداع نفسه فإن له وجودا مستقلا عن تلك الشخصية والكيان ، كليهما .

فهذا السمو الروحي يؤكد أن الإبداع لا يكون (شأنا خاصا) .

حينما نبعد فنحن جميعا كل لا يتجزأ . أما إذا اقتصر عملنا على مجرد التكرار والتقليد ؛ فإننا نصبح عندئذ ذواتا متعددة ، بعيدة عن مجرى الإبداع .

هل نعصي الله في الأرض، كما عصيناه في السماء؟

نحن نتصرف كمن يريد أن يجعل مع الله (عز وجل) شبيها يشاكلة في ملكوته!

وكان الأحرى بنا أن نكون مع الله ليكون معنا .
لقد غرّتنا الأمانى الكبار بأن نزداد علما وقوة ، فكانت النتيجة عكس ما توقعناه .

تلك كانت لحظة الوقوع في الخطيئة ثانية - وهي لحظة الطلاق بيننا وبين الإبداع . فطالما ظلّ همنا الأول من تعزيز أنظمتنا هو الاستحواذ على مزيد من العلم والقوة ، بغية التحكم في مصير الآخرين ، فسرى - عاجلا أم آجلا - أن جهودنا ستذهب هباء . فبعملنا هذا نحن لا نخلق إبداعا . . . بل نرتكب خطيئة أخرى ، كما حدث في الجنة فنرجع من حيث انتهينا - دواليك - لنبدأ السير من جديد .

تقول الكاتبة (جيل شيهي) في كتابها (الشواهد) : «نحن نكرّر بكثرة بالغة الأشياء نفسها في حياتنا وكأنها لم تحدث لنا من قبل . لقد أصبحت حياتنا مجرد تكرار ، وليست في شيء من الأبداع» .

إن العلم والمعرفة لا ينصاعان لأهواء التحفظ الشحيح . فالمعلومات والمعارف تحولان القوانين المادية لاقتصادياتنا الحالية إلى أنظمة ذكية (مبرمجة) في العقل الالكتروني ذات طبيعة مختلفة تماما عما كانت عليه .

إن الإبداعية في الأفكار والآراء ليست ملكا شخصيا يمكن التحفظ عليه لصيانتها ، وإنما شأنها في ذلك شأن الوجود الأزلي الخالد الذي لا تعرف له بداية ولا نهاية في أزمنة التاريخ . إن الإبداع - كالوجود المطلق - لا يحده زمان ولا مكان .

يصف (ويلهلم رايج) - ١٩٤٨ في كتابه ، (استمع أيها الإنسان الصغير) - سلوكنا المتناقض غير المبدع في كلمات مشرقة جميلة فيقول :

* أنت تستغل الحب والمعرفة لتختلس منها سعادتك ، كلصّ يتسلّل في جنح الظلام .

- * تسرق شيئاً هو لك ، وتعطي لغيرك ما ليس له .
- * تخلط - عامداً - بين الحرية وعدم الشعور بالمسئولية - لتتخذ من ذلك ستاراً يحجب فزعك من الحب والمعرفة والعطاء .
- * تخاف أن تعطي ، لشعورك بأنك أجوف ، خالي الوفاض .
- * أنت ترضع حتى الثمالة من صدقات المحسنين ، ثم تصفهم - حمقاً - بأنهم هم البخلاء .
- * أنت تحمي نفسك بسن الأنظمة والقوانين لأنك لا تؤمن بالحب وتخشاه .
- * ما أردت حفظه وصيانتَه فقد هدمته ، وما سعيت لهدمه ، فهو يزداد شموخاً وتطاولاً .
- * أنت ذكي ... ولكن مزاجك المنقبض لا يجعلك أهلاً للإبداع ...

نحن أشقاء بمواهبنا المبدعة:

يطيب لنا عادة أن نوصف بأننا (أناس مبدعون) . ويركبنا الزهو ونحن نتباهى بحفظ المقررات الدراسية عن الإبداع ، فنخال أننا نحن (الذين) يعرفونها حق المعرفة .

أجل ، نحن اليوم نتغنى بمزايا الإبداع ، والحب والمعرفة ، لكننا في الوقت ذاته نعدّها (محرمّة) على غيرنا . نحن نحرمها عليهم عندما لا نتيح لهم مجال الاستمتاع بها ، وعندما لا نعترف بأنهم - مثلنا - جديرون بالإبداع .

ألم نعلم أن مصادر الإلهام وفيض المعرفة في هذا الوجود أقوى وأغزر بكثير من تلك الأفكار والآراء التي تستوعبها مواهبنا الذاتية وقدراتنا الجسمية ، وأنه حين تنقطع عنا مصادر الإلهام الخافية علينا ، لا يبقى لنا من الإبداع شيء يذكر؟

حين نبعد شيئاً فنحن نتجاوز خلواتنا وعزلتنا لنسهم مع الآخرين .
إن الإنسان المبدع يفيض بالإبداع على من حوله بمجرد حضوره أو وجوده .

وإن صحبة المبدعين تجلب الارتياح ، والانوجاد في (كنفهم) يوحى بالطمأنينة
والانشراح ...

فالإبداع هو التواضع ، وهو الشجاعة وهو البلسم والشفاء .
أما أساليب التعبير عن الأفكار (المنمّقة) ، بغية الاستحواذ على إعجاب
الآخرين أو استرها بهم لكسب الأموال ، فذلك أمر لا يمت بصلة إلى الإبداع
الحقيقي .

وأخيرا لتساءل : هل نحن فعلا قوم مبدعون ، أم نحن موهوبون؟ ... وهل
آن لنا أن نتغيّر أم سنظلّ على مكانتنا وما نحن فيه! ...

(*) ملاحظة : KLARA PIHLAJAMKI أستاذة في فرع إدارة الأعمال بجامعة ستوكهولم بالسويد ،

والموضوع المترجم هو إحدى الأوراق المقدمة إلى أحد المؤتمرات في السويد بعنوان «WHAT

«COMES AFTER INFORMATION AGE?» .

Human resources
possibilities and limitations
Ostersund, September 29 – October 1, 1986

Palling is sin again?
What comes after information age?

By klara pihlajamoki

The Tower of Babel

Before we did not know because of lack of information. Today we do not know because of overload of information. We do not know any more what we know.

Human systems are paradoxical and counterproductive; pulling in different direction and producing opposite results to the expected ones.

Our ambition to increase our knowledge by improving our information systems leads to counterresults: the more we know the less we know.

our ambitions to connect more people together by computers leads to separation, integration leads to isolation. More media leads to less communication (Nevitt, 1985).

The symbolic story of the Tower of Babel in the Bible illustrates this. People built a huge common system to reach the heaven with the result that they were separated from each other, scattered all over the world, unable to understand each other's languages.

We build up large logical system based an common computer language. We create theories, models and concepts. But has our understanding of each other increased?

Privacy

We feel our privacy threatened by large-scale information networks. Electronic media cancel 'buffers' that insulates us from each other, as well as they cancel time.

نموذج من المقال المترجم

وقفزة للتأمل رؤية في الإدارة

بقلم : كلارا بيهلا جامكي (١)

- ٢ -

على مدى سنتين ؛ ماضيتين كنت أستمع إلى (جون فان كيخ) وهو يحاضر في مدينة ستوكهولم ، وما تزال كلماته (تتعقبنني) إلى الآن حيث يقول :
(نجد أنفسنا اليوم (متورطين) في تعقيد كبير ، إنه تعقيد بالغ أورثنا العجز عن النظر إلى المشكلة ؛ فاقصرنا على رؤية متغيراتها فقط . ومشكلتنا؟ أننا لم نعد نستطيع أن نعرف ما هو الأمر ، ولم يعد بإمكاننا أن نتطلع إلى ما وراء المشكلة ، ولا أن نعرف ماهيتها على وجه التحديد ، وبالتالي فلا يمكننا أن نعرف من هم الرابحون ومن هم الخاسرون .

إن معنى النجاح يعتمد على الزاوية التي ننظر منها ، ولكن كيف نستطيع تجنب الفشل؟ . . . هل إنه لا بد من حدوث كارثة ، لكي يحدث التغيير؟
كنت أتأمل في تلك الكلمات وأفكر . إن سرعة التغييرات تزداد باطراد ، ومع ذلك ، فمن الصعب التمييز بين أعراض القضية ومسبباتها . فحينما يكون بالاستطاعة تجاوز سرعة الضوء ، فإن الآثار - كما نراها - تستبق مسبباتها . تلك هي إحدى الحقائق في مجتمع المعلومات اليوم . إذن ؛ كيف يصبح من الممكن توظيف وسائل سبر الأغوار المتاحة لضبط القواعد لأوضاع من هذا النوع؟
بعد سنة أو أكثر منذ إصغائي إلى أقوال (فان كيخ) ، سنحت لي الفرصة للاستماع إلى (بارينكتن نافيت) في أحد كتبه الأخيرة^(٢) ، ووجدته يصرح بأن

الإستراتيجية الجديدة للبقاء ، تتطلب الإصغاء المتأنى لنصائح المعلمين القدامى ثم الاستعداد لعمل (العكس) .

وأنا هنا أؤكد من عندي على كلمة (العكس) لأهميتها .

فحينما تزداد كمية المعلومات وسرعتها ومجالاتها - كما هو حاصل اليوم - فإن القواعد المنطقية القديمة وأساليب التفكير المرتب ، والأعمال والتصرفات يتفكك بعضها عن بعض ، ويصبح مألها إلى التعطل والإخفاق . هذا ما يقوله (نيفيت) .

... كان تفكيري منصبا على معرفة ما الذي يعنيه ذلك الاتجاه (المعاكس) ، وكيف يمكن تطبيقه ، وما هي الأسس (التقنية) وراء الذهاب إلى الاتجاه المعاكس؟ هل يجب علينا أن نحاول تصعيد سرعة التقنيات الآلية أكثر مما هي عليه الآن لإحداث التغييرات بسرعة أكبر على جميع المستويات لنتجنب تعطل أنظمتنا وتخلفها؟

أنا لا أعتقد مثل ذلك . أنا أعتقد أن علينا التحلي بالمزيد من (الإصغاء) والتبصر لكي نستطيع الاتجاه في الطريق المعاكس . إن الإصغاء معناه (إيقاف) الزمن - حتى يتسنى التركيز على ما يحدث ، وما يقال ، لكي نتفهم العملية بشكل أفضل . لنتصور أننا مسافرون في قطار لا نهاية له ، يسير بسرعة كبيرة (القانون الثاني للدينامية الحرارية)^(٣) . وأنا منعزلون في مقصورات صغيرة ، ونحن نقيس مرور الوقت بتعداد الالفتات التي تمر عبر نوافذ القطار ، حيث تثير فينا الكتابات ، على تلك اللوحات العابرة ، الاهتمام والفضول (رغم أن قراءتها مستحيلة بسبب سرعة القطار الكبيرة) . ولنتصور أننا كمسافرين بدأنا نتصل ببعضنا بعض فنزيل الحواجز التي بيننا ، لنوجد مراً لانهاثيا في وسط القطار . فإذا نجحنا في توحيد وتنظيم أنفسنا ، ثم صنعنا آلة تحملنا في وسط القطار بسرعة متنامية ، لكن في الاتجاه المعاكس لوجهة القطار ، فإننا نصبح قادرين عندئذ على تحييد سرعة القطار بالنسبة لتلك اللوحات . وفي اللحظة التي يبطل فيها مفعول سرعة تلك اللوحات من جراء سرعتنا في الاتجاه المضاد ، فإن

إحدى تلك اللافتات سوف تنتصب أمامنا وكأنها واقفة لا تتحرك ، لنقرأ منها بوضوح (أسرار الكون) الخافية .

هذه التقنية تكشف لنا كيف أن علينا أن (نخسر) الزمن أولاً لكي (نربحه) في الأخير ، ونحن نربح الوقت بالتنظيم ، وبالإبداع ، وكذلك بالسير الحثيث نحو الاتجاه المعاكس .

لنأخذ مثلاً آخر من أمثلة (التقنية) المعاكسة ، وذلك من علم الأحياء - ماوبرلنك - (١٩١٣) تناول بيده قارورة ليس بها غطاء ، ثم حشر فيها أكبر عدد من الذباب والنحل معا ، وبعد ذلك رص أسفل القارورة إلى النافذة وانتظر نحواً من دقيقة واحدة ، فماذا حدث؟

أفلت الذباب أولاً من القارورة ، وذلك من جراء مسلك الذباب العشوائي المتهيج . أما النحل فإنه لم يفلت من الزجاج بل ظل متلاحماً في القاع ، شغوفاً على سجيته في عشق الضياء . ثم ما لبث أن مات .

إن سلوك الذباب الفوضوي وهو (عكس) ذلك السلوك التقليدي الذي يفضل التخلق والتحول المعلوم ، والتمسك بالمدرجات الحسية القديمة - كان هو الاختيار الأصوب في تلك التجربة . وذلك يوضح أيضاً الحاجة لمستوى عال من التنوع ، عند الاستجابة لوضع متأزم - دون الاقتصار على التعلق بالتقليد القديم . إن (الفوضى - في حالة التحول) اعتبرها كثير من المنظرين شكلاً من أشكال التطور والارتقاء .

والتحولات الكبرى غالباً ما تتميز بأسلوب الخطوة المتحفرة للوراء استعداداً للقفز إلى الأمام . وطبيعة التقنية الآلية تشبه ما يتصف به الإنسان المبدع المسيطر على مشاعره حينما يتورط في مشكلة ما ، فنجده يتراجع بتفكيره إلى الغور الأعمق من الشعور الواعي ؛ ليجد مخرجاً يقوده إلى حل مبدع . فالتفكك والفوضى ليسا دائماً من صفات التدمير ، فقد يكون الأمر مجرد مرحلة عابرة في مسار التحولات .

يذكر (جانتيش) - (١٩٧٦) في موضوع (طرق التعلم) - أن عملية التعلم

ذات مسالك حلزونية مزدوجة إلى الإمام والخلف . ومفهوم التقدم إلى الإمام لا ينفصل عن معنى التراجع إلى الوراء في منعطفات المسيرة الحلزونية . وهكذا ، فإن أفضل الأوضاع لقطف الثمار من شجرة المعرفة ، أن تقف في الجانب المعاكس لا تجاهها .

ولو استعرضنا مثلاً آخر ، لقلنا إنه حينما تتلاشى معرفتنا في المطلق اللانهائي ، كما هو الحال عندما تتلاشى الصورة من مرآة مقعرة ، فإنها سرعان ما تعود ثانية وترسم على وجه المرآة أمامنا - عندما تتحرك في الاتجاه الصحيح . والآن ؛ ما الذي يعنيه كل ذلك في مجال الاقتصاد . وبحكم اختصاصي في الاقتصاد فإنه يهمني كثيراً مثل هذا السؤال .

من الملاحظ ، أن نظريتنا الاقتصادية ونماذجها تأسست على مبدأ التبادل والمنفعة النسبية . وفي أسلوب التبادل هناك من يعطي وهناك من يأخذ ، وما يربحه أحدهم يخسره الآخر . إنها لعبة (النتاج المعدوم) في الرياضيات ، ولا نعرف بالضبط كيف تكون اللعبة المعاكسة لها ، أي لعبة (إلغاء الناجم المعدوم)^(٤) .

ففي اقتصاديات المعرفة والمعلومات (وهو ما لا نفتأ نتكلم عنه كثيراً هذه الأيام) ، فإن المبدأ الواجب العمل به في هذه الرؤية المغايرة هو الاتجاه المعاكس لنموذج التبادل المتعارف عليه ، على أساس أنك كلما أعطيت الكثير مما في وسعك من معلومات ومعرفة ، أصبح بإمكانك أن تستفيد ، ويستفيد الآخرون ، ولكننا لا نعرف كيف يمكننا أن (نعطي دون مقابل) . إن علاقتنا مبنية على مبدأ (خذ وأعط) أو على أساس مضاعفة المصلحة الذاتية إلى أقصى حد مستطاع . ولا شك في أن من الصعب تصوّر نموذج في الاقتصاد يقوم على أساس (أن نعطي فقط) فهو أمر مخالف تماماً لما تعودناه .

أوضح (أكسل رود)^(٥) في أحد كتبه أن بإمكان أي لاعب أن يضاعف مكاسبه حتى ولو سلك طريقاً وسطاً بين لعبة (النتاج المعدوم) وعكسها المضاد . ففي لعبة أخرى مشهورة وهي (لعبة مأزق المساجين)^(٦) فإن أحدهم اختار أن

يعمل ما يعمله الآخر نفسه ، وأن يحذو حذوه في اللعب . هذا اللاعب الذي تخلى عن الغرور والأناية استطاع ، بتدخله في اللعب ، أن يضاعف مكسب اللاعبين معا ، بحيث ظفر كل منهما بحصيلة أكبر . والسؤال هنا : ما الذي كان سيحدث لو تخلى اللاعب الآخر أيضا عن (أنايته)؟

حينما يلعب الآخرون لتحقيق مكاسب ذاتية ، فلتبدأ من جانبك بممارسة اللعبة المعاكسة لها . وهذا الأمر ربما تطلب مزيدا من الشجاعة في مواجهة الضغوط الاجتماعية التي يتعرض لها من يسير في الاتجاه المعاكس . ولكن ، هل لدينا في نهاية المطاف ، خيار آخر للتصحيح غير أن نعمل (عكس) ما نعمله اليوم .

أليس من الأفضل لنا أن نبدأ بمعرفة المزيد عن الرؤية التنبؤية في الإدارة الاقتصادية؟ أعني أن نعرف كيف نذهب إلى الاتجاه المعاكس إذا لم يكن هنالك خيار آخر ، حتى ولو كان ما نعرفه عن ذلك (العكس) رجما بالغيب؟ وأن نستجيب لأحكام القانون الثاني للدينامية الحرارية ؛ لكي نتوصل لمعرفة ما هو (كائن) هناك .

يقال أحيانا إن تقنية المعلومات سوف تقودنا إلى مستوى أعلى من «الشعور بالمشكلة» ، وإنها سوف توسع نظم الاستشعار فينا لكي نتحد في الزمان والمكان . أما أنا فأعتقد أن هذه التقنية التي توسع مجال مدركاتنا لن نجني منها فائدة أكثر من الفائدة التي نجنيها من تطوير عجلة تزيد من سرعة أقدامنا . إن أقدامنا سوف تتحرك بسرعة أكبر - ثم لا شيء بعد ذلك .

لقد قارن أحدهم وضعنا الحاضر بوضع (أطفال يلعبون بموسى الخلاقة) . إن باستطاعتنا أن نجعل تلك المواس أكثر حدة وأشد مضاء ، ولكننا لا نستطيع ان نرفع من درجة الإحساس بالخطر وهي تقترن بعقلية طفل . إن الوعي الراشد لا نستطيع أن نجده في التقنية المجردة ، حتى ولو جاءت مقترنة بالعقل البشري . إن الوعي إنما يستتب على المستوى الإنساني ذاته ، من وراء التقنية وما حولها . يجب علينا إذن أن نسلك الاتجاه المعاكس .

ملاحظات:

- ١- في الفيزياء كلمة «Entropy» معناها فهرس للدرجة ، التي بموجبها يتوزع مجموع الحرارة في النظام الترمودينمى بصورة متساوية . وبالتالي تصبح غير مؤهلة للتحويل إلى مزيد من الجهد (العمل) لتحويل الطاقة إلى حرارة ، والحرارة إلى الطاقة .
- ٢- وفي نظرية المعلومات هي تعني القياس على مدى عدم الوثوق والتأكد من معلوماتنا وأصلها أغريقي معناه (التحول) aturning .
- ٣- THERMO DUNAMIC هي في الأصل كلمة تتعلق بالعلاقة بين الحرارة وعمل الآلة ، ولكنها تطورت في المعنى لتشمل العلاقة بين الحرارة وأي شكل من أشكال الطاقة .
- أما بالنسبة للمهندس فهي تعني دراسة عمل ماكنات الغاز البخار والتبريد وما شابه ، أما بالنسبة لعالم الفيزياء فإنها تعني أشياء كثيرة .
والترمودينمىكي - تقوم على أساسين رئيسين :
الأول يسمى بالقانون الأول للدينامية الحرارية
والثاني يسمى بالقانون الثاني للدينامية الحرارية
فالأول يوصف بأنه التعادل بين مقدار الطاقة الحرارية المفقودة والعمل المتولد عنها HEAT +e energy
- أما القانون الثاني للدينامية الحرارية فتعريفه كالاتي :
إن الحرارة لا تستطيع من ذات نفسها (من دون تدخل خارجي) أن تمر أو تنتقل من جسم أقل حرارة إلى آخر أكثر حرارة .
أما المعنى العام بالنسبة للقانون فهو :
أ-القانون الأول يعني أن الحرارة هي نوع من الطاقة وهي تخضع لقانون بقاء الطاقة الطبيعي (أي الطاقة لا تفنى بل تتحول من شكل إلى آخر) .
ب-بالنسبة للقانون الثاني فإن التجارب التي أجراها Carnot عن الدائرة المعكوسة Reversible cycle - فقد أظهرت أن جميع الآلات ذات القدرة

على الحركة العكسية بين مجالين حرارين - لدى كل منها - (أي الآلات) ، القدرة والفعالية نفسها بغض النظر عن العمل . فإذا كانت قدرة إحدى الماكينات مثلا أكبر من الأخرى ، فإن الأولى يمكن جعلها تحرك الأخرى في الاتجاه المضاد ، وبالتالي تنقل الحرارة من الدرجة الصغرى إلى الدرجة الأكبر ذاتيا من دون مساعدة خارجية ؛ أي إن الحركة الثنائية perpetual motion - للنوع الآخر من الآلات يصبح ممكنا .

إنه يمكن تحويل أية طاقة أخرى إلى حرارة بالكامل ، ولكن لا يمكن مطلقا تحويل كمية معينة من الحرارة إلى نوع آخر من الطاقة . فإذا ألقيت بحجر من علو إلى الأرض فإن الطاقة تتحول إلى مجال حركة . فإذا اصطدم بالأرض تتحول هذه الطاقة إلى حرارة . فالطاقة لم تتبدد أو تفتى ولكن من المستحيل جعل الحرارة التي تولدت من هذا الحقل ذاته (سقوط الحجر واصطدامه بالأرض) قادرة (أي الحرارة) ، على أن ترفع الحجر نفسه إلى علوه السابق الذي وقع منه . ويعني ذلك أن بعض الطاقة اعتبرت غير موجودة ، أو بتعبير آخر فإن «انثروبيا» النظام قد ازدادت .

الهوامش:

(*) أمسية ثقافية - نادي العروبة ٢٠٠٥

(١) Klara Pihlajamaki : أستاذة في فرع إدارة الأعمال بجامعة ستوكهولم بالسويد ، والموضوع المترجم هو إحدى الأوراق المقدمة باللغة الإنجليزية إلى أحد المؤتمرات في السويد بعنوان :
Apocalypse Management

2- Barrington Nevitt: Keeping Ahead of Economic Panic, 1985

3- Increased Entropy (Disorder, Disorganization) De Rosnay: The Macroscopic, 1978, P.178.

4- Zero - Sum Game and Non Zero sum - Game.

5- Axelrod : The Evolution of Cooperation.

6- Prisoners Dilemma Game.

HUMAN RESOURCES -
POSSIBILITIES AND LIMITATIONS
Östersund, September 29 - October 1, 1986

APOCALYPSE MANAGEMENT ✓

By

Klara Pihlajamäki

For about two years ago I was listening to John van Giggoh when he was lecturing in Stockholm. His words have "followed" me:
"We are in enormous complexity. It is such a complexity that we cannot see the problem. We see only changes. Our problem is that we do not see what is there - we cannot see behind the problem and we cannot define the problem. We cannot define winners and losers. What is success? It depends on from which point of view to see it. How to avoid failure? Is a catastrophe necessary for a change? Why do all systems fail?"

I have been pondering over these words.

Also the speed of changes is increasing, even so that it is difficult to distinguish effects and causes. When being able to break the speed of light the effects - as we perceive them - precede causes. This is already "reality" in our information society.

How to arrange hierarchical cybernetic control rules and principles for this kind of situation?

A year or so after I had listened to van Giggoh I got an opportunity to listen to Barrington Nevitt. In one of his latest books (1) he declares that "the new strategy for survival is to listen very carefully

(1) Barrington Nevitt: Keeping Ahead of Economic Panic, 1985

نادي العروبة..... الوجه الآخر

حظي نادي العروبة - منذ تأسيسه عام ١٩٣٩ - بتشجيع وإسناد أمراء البحرين ، ابتداء من عهد المغفور له الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة ثم سلمان بن حمد آل خليفة ، ثم على عهد المغفور له الشيخ عيسى آل خليفة ، وانتهاء بالعهد الميمون لجلالة الملك الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة ، الذي أكد للمسئولين في النادي في أكثر من مناسبة ، اهتمامه وتشجيعه لنادي العروبة ، وحرصه على أن يستمر النادي في تأدية رسالته في توجيه الشباب ، والمساهمة في المشروعات الثقافية والفكرية والأدبية ، لرفع اسم البحرين في مضمار الثقافة وخدمة المجتمع ، والحفاظ على انتمائها العربي الأصيل . وقد تتوج هذا الاهتمام من قبل جلالته ، حين أبدى رغبته السامية للمسئولين في النادي بوضع جائزة باسم الأستاذ المرحوم إبراهيم العريض ، تكون مخصصة للإبداع الأدبي والثقافي ، يتولى إدارة شؤونها نادي العروبة ، باعتبار علاقة الأستاذ العريض بهذا النادي منذ نشأته الأولى .

وقد أورد النادي في كتابه (نادي العروبة وخمسون عاما . ثم . . نادي العروبة وستون عاما . .) جوانب متعددة من المواقف المشرفة لحكام البحرين مع النادي ، ابتداء من الرسالة التي رفعها مؤسس النادي الأستاذ محمد دويغر ، إلى صاحب العظمة الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة ، بتاريخ ٣١ ربيع الثاني سنة ١٣٥٨ هـ . والتي جاء في مقدمتها ما يلي :

(مولاي المعظم : يتشرف نادينا بأن يرفع إلى سيادتكم العلية نسخة من نظامه ، مشفوعة برجاء حار في أن يتفضل بقبولها ، وأن يتنازل فيسبغ عليها ظل

رعايته الكريمة . . .) .

وتقص علينا أوراق النادي القديمة حديثا ممتعا لتلك العلاقة المستمرة يعتد بها النادي ، ويحتفظ بها ضمن أعلى وثائقه وسجلاته . لقد كان للمغفور لهما الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة ، ومن بعده الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة ، حضور شبه دائم في حفلات النادي مع باقي الشيوخ ، ومنهم أصحاب السمو الشيخ عبدالله بن عيسى الخليفة ، والشيخ محمد بن عيسى الخليفة ، والشيخ مبارك بن حمد الخليفة ، والشيخ علي بن خليفة بن دعيج الخليفة ، والشيخ عبدالله بن خالد الخليفة ، وغيرهم من أفراد الأسرة الكريمة . وحينما يحول مانع من حضور تلك الحفلات ، كان النادي يستلم رسائل اعتذار رقيقة فيها شرح لمسببات الغياب .

وتتضمن صفحات كتاب النادي نماذج من تلك الرسائل المتبادلة ، وصورا لبعض الاحتفالات التي يتصدرها أصحاب السمو الأمراء وأفراد الحاشية الكريمة . ومن بين تلك المناسبات الحفلة التأبينية الأربعينية لوفاة المغفور له الشيخ حمد بن عيسى الكبير ، التي أقامها النادي في ٦ صفر ١٣٦١ هـ . وكذلك الحفلة الشعبية العامة في قاعة نادي العروبة بمناسبة تولي صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة مقاليد الحكم في العام ١٩٦٢ .

وقد تضمنت كلمة الترحيب التي كان لي الشرف إلقائها بين يدي سموه باسم النادي واتحاد الأندية الوطنية ، استشرافا للمستقبل المضيء الذي تحقق بوضع دستور للبلاد وانتخاب المجلس الوطني ، وذلك بعد عشر سنوات تقريبا . . . وما جاء فيها : . . . (إن من توفيق الله عز وجل أنه لمّا يبشر بالخير والأمل أن عاهلنا الكريم ، الذي نحتفل اليوم بعيد جلوسه ، هو زينه شباب هذا البلد . وهل أقدر على تفهم نفسية الشباب من الشبان أنفسهم ، لا سيما وقد تجمعت في شخصيته الفذة ، وشخصية أخويه الكريمين ، تجارب الأجداد وخبراتهم ، مقرونة بهمة الشباب وعزماته ، وهذه لعمري التربة الخصبة للتعاون المثمر والعمل

البناء . إذا تعهدت كل ذلك عيون ساهرة محنكة وقلوب محبة ناصحة .
والنصح والمشورة هنا في حد ذات كل منهما عملية يمكن أن تتوفر على مراحل
بين البساطة والتنظيم .

والمقصود بالنصح والمشورة محاولة الاستفادة من آراء المجربين وذوي
الاختصاص ؛ لتفهم وجهات النظر العامة حول موضوع معين . وقد تأتي أيضا
عن طريق عمل تنظيمي ثابت تبعا للظروف . وقد تكون عفوية تستجيب لكل
مناسبة في وقتها . كما قد تكون مرسومة ذات منهج منخطط وأصول مدروسة .
والمهم في كل ذلك أن تتمثل وجهة النظر العامة لكي يكون الرأي أصدق تعبيراً
عن الواقع وأكثر تمثيلاً للرجبة . .) .

ومن أواخر تلك المناسبات الحفل التأسيسي الكبير الذي أقامه النادي بمناسبة
الأربعينية على وفاة المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة ، وتخليدا
لذكراه العطرة . ذلك هو الجانب الأول من علاقات النادي نستعيدنا اليوم
للتاريخ والذكرى .

أما الجانب الآخر فهو ما أردت أن أستعرضه في هذا المقال ؛ للكشف عن
مواقف تدور حول علاقة المؤسسات والدوائر السياسية الأجنبية بالنادي ،
والبريطانية على وجه الخصوص . لقد كانت في البحرين آنذاك أربع شركات
كبرى بريطانية الجنسية أو محسوبة عليها :

الأولى : شركة النفط (بابكو) - وهي شركة تكاد تخلو سجلات النادي في
سنواته الأولى من مساهمات مادية أو إسناد معنوي حتى في حقل التعليم .
وذلك فيما عدا عرض الأفلام الدعائية خلال سنوات الحرب العالمية الأخيرة ،
بالتعاون مع دائرة العلاقات العامة البريطانية (التي أنشئت زمن الحرب) ثم من
خلال قسم المعهد البريطاني . . ولكن سياسة شركة بابكو تغيرت خلال
الخمسينيات . فبالرغم من حماسة نادي العروبة في تأييد القضايا العمالية ،
ونشاط بعض المسئولين فيه لصالح مطالب العمال . . فإن شركة بابكو - في عهد
رئيسها أي . أي سكينر والمدير «براون» - استجابت بحماسة لرسالة النادي

وتبرعت بمبلغ خمسة عشر ألف روبية ؛ لمساعدة النادي لشراء دار جديدة في شارع الزيارة . وذلك بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩٥٢ ؛ وبتاريخ ٢٨ جون ١٩٥٣ قدمت شركة بابكو تبرعا آخر بمبلغ ثلاثة آلاف روبية ، ثم استمرت هذه المنحة السنوية للنادي من قبل الشركة ، وازيدت في بعض السنين التالية إلى ستة آلاف روبية ، فيما عرف بعد ذلك بمنحة بابكو السنوية ، والتي تبرعت بها أيضا لأندية أخرى . واستمرت علاقة بابكو الجيدة مع النادي خلال الخمسينيات والستينات ، وربما إلى ما بعد ذلك .

وثاني الشركات الكبيرة كانت شركة (جرميكزي) ، وثالثها شركة (البرق اللاسلكي - كيبيل أند وايرلس) ، ولا يوجد في سجل النادي ما يدل على أية علاقة خاصة أو إسناد مادي من قبل هاتين الشركتين .

أما رابعة الشركات في البحرين ، فكانت (شركة امتياز النفط القطرية - بي . س . أل .) وأول رسالة في سجلات النادي كانت بتوقيع مديرها السيد (باركر) بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٩ . وقد أرسلها نيابة عن ضيفه المليونير (ونثروب روكفلر) ، الذي زار البحرين في نوفمبر ١٩٣٩ ، وذلك جوابا على دعوة النادي له لزيارة النادي ؛ وقد تضمن الجواب اعتذاراً غير رقيق فحواه أن السيد روكفلر ليس لديه وقت لزيارة النادي ، كما أنه لا يحمل معه نقوداً في السفر ليشترع بها .. (يعني : مسكين !) إلا أن السيد (باركر) نفسه سرعان ما أصبحت له علاقة طيبة ومميزة بالنادي ، عن طريق ممثل شركته المحلي السيد نعمة داغر - وهو من العراق . فكان ينوب عنه في حضور الدعوات ويقدم دعماً مالياً محدوداً على فترات . ولعل من أسباب تلك العلاقة الخاصة صلته برئيس النادي السيد محمد دويغر ، والأستاذين إبراهيم العريض وعلي التاجر . وكان يعملان في الجهاز الإداري للشركة .

أما إذا جئنا إلى علاقة المعتمدين السياسيين لبريطانيا العظمى ، فنجد أن العلاقة مع النادي لم تتعد المجاملات ، وتلبية بعض الدعوات والاعتذار عن حضور معظمها ، وذلك في عهد جي هوس (باليوز الدولة البريطانية في

البحرين) وبرتريان توماس (مدير العلاقات العامة) ، ورئيس الخليج في بوشهر . ومعظم تلك الرسائل اعتذارت عن حضور الحفلات ، أو إهداء صورة جلالة ملك بريطانيا ، جورج السادس في ملابس تتويجه ، أو بعض الكتب والمجلات ومواد الدعاية الحربية ، وذلك فيما بين الأعوام ١٩٤٠-١٩٤٣ . ولا تشير مستندات النادي إلى موقف غير ودي . ولكن الإفراج عن الوثائق التاريخية من قبل وزارة الخارجية البريطانية ، أتاح لنا الاطلاع على مستندات تقول شيئا آخر كان غائبا عن الأذهان ، من مثل التقريرين المترجم فحواهما أدناه :

الأول : وهو تعريف بنادي العروبة ، ضمن تقرير حول «الأندية والمؤسسات» مؤرخ في ٧ أغسطس ١٩٤٤- حيث يقول :

(تقرير عن نادي العروبة في المنامة - تأسس هذا النادي سنة ١٣٥٧ (١٩٣٨) من قبل الشباب البحارنة . ورئيسهم السابق والحالي هو محمد دويغر - مدير دائرة أموال القاصرين - وقد كان رئيس الدائرة الفخري هو صاحب العظمة ، الشيخ السير سلمان الذي كان مديرها سابقا ، وكان محمد دويغر آنذاك رئيس الكتاب في تلك الدائرة ، ويعمل تحت إشراف صاحب العظمة . وقد كان صاحب العظمة يدفع (للنادي) مساهمة سنوية بمبلغ ١٥٠ روبية ، والآن فإن صاحب العظمة هو الرئيس الفخري للنادي . إن أعضاء هذا النادي هم ١٠٣ وبينهم ١١ سنيا والباقي من الشيعة .

وموازنته الحالية تقل عن ألفي روبية . والاشترك الشهري للأعضاء هو روبية واحدة لكل منهم . إن قسما من النادي تم تحويله إلى مدرسة ذات مدرسين فخرين من قبل الأعضاء . هذه المدرسة قصد بها تعليم الأبناء وبعض الأعضاء ، والأبناء عليهم أن يدفعوا أيضا روبية واحدة في كل شهر . ومنذ ثلاث سنوات مضت ، ذهب محمد دويغر للعراق وسوريا واتصل برجال النشر لتجهيزه بمطبوعات مجانية . وقد أثمرت دعايته عندهم ، وبعضهم واصل إرسال المطبوعات مجانا . .)

أما التقرير الثاني فهو في صورة رسالة من الوكيل السياسي في البحرين

الميجرتي . هيكونبوتايام -بعث بها إلى المقيم السياسي في شيراز رقم
جيم/١٢٥٩ بتاريخ ٣١ أغسطس ١٩٤٤ يقول فيها :

(... يشرفني أن أعود لظهيركم رقم ج /٤٨ بتاريخ ١٥ جولاي

: ١٩٤٤

* إن نادي العروبة ليست له أهمية تذكر ، وعدد أعضائه كما هو الآن ١٠٣
أعضاء . إن صاحب العظمة الشيخ كان في وقت من الأوقات مهتما
شخصيا بالهيئة الإدارية للنادي ، ويواصل دفع الاشتراك سنويا لهذه
المؤسسة .

* أنا أفهم أن صاحب العظمة لا يؤيد أن تطلب الأندية المحلية مساعدات مالية
من مصادر خارجية ، وأجد نفسي في اتفاق تام مع وجهة نظر عظمته . إن
خدمات التعليم التي تقدمها حكومة البحرين تعدّ كافية ولا توجد حاجة
لمدارس تعتمد على التبرعات لكي يتم تمويلها من الخارج لأندية من مثل
(نادي العروبة) . لهذا أقترح أن يتم الطلب من سفير صاحب الجلالة
(البريطانية) في القاهرة بالإيعاز إلى وزير الخارجية (المصرية !) بعدم
الاستجابة للمساهمة في هذه المؤسسة . . انتهى .

في ضوء ما ورد في التقريرين يمكن استنتاج ما يلي :

١ . أن عظمة حاكم البحرين الشيخ سلمان كان رئيسا فخريا لنادي العروبة
ويواصل التبرع للنادي في كل سنة . ولعل ذلك كان مصدر عدم ارتياح
للمعتمدين فيما يستنتج مما بين السطور .

٢ . أن استجابة بعض دور النشر في العراق وسوريا لإرسال مطبوعات مجانية
للنادي كان بسبب (دعاية) قام بها رئيسه محمد دويغر .

٣ . أن نادي العروبة ليست له أهمية تذكر .

٤ . أن خدمات التعليم في البحرين كانت كافية ، وأن البحرين ما كانت
بحاجة إلى مجهود أندية في مضممار نشر التعليم ، مثل (نادي العروبة) .

(وهنا يتجاهل التقرير أن نادي العروبة لم تصله مساعدات مادية من خارج

البلاد ، وأنه لم يتصل بوزارة الخارجية المصرية ؛ لأن رسائل النادي كانت موجهة لدور النشر المصرية للحصول على المطبوعات فقط . وأن النادي كان يعتمد على ماليته واشتراكات الأعضاء ، كما أن طبيعة مشروع التعليم في النادي كانت لمحو الأمية ، وهو مشروع مكمل للتعليم النظامي ، وليس بديلا عنه . . . أما المشروع الآخر فكان لرفع مستوى الأعضاء الثقافي عن طريق محاضرات وندوات ذات مستوى ثقافي أوسع ، على يد الأستاذ العريض وعدد من المثقفين والمربين) .

٥ . أن النادي - على ضالة شأنه كما تصفه الرسالة - قد استدعى من بريطانيا العظمى أن تقوم باتصالات دبلوماسية مع الخارجية المصرية لمنع مد يد العون لمشروع التعليم في النادي ، فإذا أضفنا إلى موقف المعتمدين السياسيين ما عرف عن موقف المستشار البريطاني لحكومة البحرين السيد بلكريف ، الذي أبدى أسفه في مذكراته على تشجيع التعليم في البحرين ، والذي أوقف عددا من البعثات الطلابية بعد سنتها الأولى ، وأعادها إلى البحرين . . . وإذا أضفنا إلى كل ذلك ما نسب للمستشار حين قال عن طالب يتعلم الحقوق في بريطانيا في الخمسينات «أن البحرين لن تحتاج إلى خريج في القانون أو حامل درجة الدكتوراه لمدة مائة سنة قادمة» . . .

عندئذ يمكننا أن نستنتج الكثير الكثير عن موقف بريطانيا العظمى في ذلك الوقت تجاه نشر الثقافة والتعليم بشكل عام ، والذي انعكس بشكل خاص على أنشطة أندية البحرين ، ونادي العروبة بالذات . . .

CONFIDENTIAL

Political Agency,

No. 7/1259.

Bahrain, 31st August 1944.

From

Major T. Hickinbotham, C.I.B., O.B.E.,
Political Agent,
Bahrain.

To

The Hon'ble the Political Resident
in the Persian Gulf,
Bushire. (Camp Shiraz)

Sir,

I have the honour to refer to your endorsement No. 7/48 dated the 15th July 1944.

2. The "Aruba" Club is of no particular importance numbering as it does only 103 members. His Highness the Shaikh was at one time personally interested in the management of the Club and continues to subscribe annually to the institution.

3. I understand that His Highness is not in favour of local clubs seeking ~~the~~ financial assistance from outside sources and I find myself in complete accord with His Highness' views. The educational facilities offered by the Bahrain Government are adequate and there is no need for charitable schools to be financed from abroad through clubs of the nature of "Al Aruba". I therefore suggest that His Majesty's Ambassador in Cairo be requested to intimate to the Ministry of Foreign Affairs that they should decline the invitation which they have received to subscribe to this institution.

In the honour to be,

Sir,

Your most obedient servant,



Political Agent, Bahrain.

youth. Their head at that time and who is still in office is Mohammed Dawaghir, Superintendent of the Minors Department. Its honorary President was H.H. Shaikh Sir Salman who was then Superintendent of the Minor Department and the above Mohammed Dawaghir was Head Clerk of that Department working under H.H. H.H. has been paying an annual subsidy of Rs.150/-. Now H.H. is a nominal honorary President of this club. The members of this club are 103 among them 11 Sunnis and the balance are Shi'as. Its present finance is below Rs.2,000/-. The monthly subscription of the members is Re.1/- each. A branch of the club has been ^{made} into a school with honorary teachers from the members. This school is meant for teaching boys and some members. The boys also have to pay Re.4/- each month. Some three years ago Mohammed Dawaghir went to Iraq and Syria and approached the pressmen there to supply him with free prints. His propaganda bore effect on them, and some of them continued to send ~~xxx~~ printed matters free.

7.4.44

ميثاق للعمل السياسي البحرين أنموذجاً دعوة لتنظيم العمل السياسي

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ (سورة الأنفال - الآية ٥٣)

أنعم الله على شعب البحرين إذ هيأ له قائداً شجاعاً مبادراً إلى فعل الخير والإصلاح وإقامة العدل . كما أنعم الله على البحرين بمبادرات من أميرها الصالح - بأن تحتضن كل أبنائها ، فتضمهم إلى صدرها الحنون ، بمن فيهم من عانى غربة الدار ، أو استوحش بعد المزار فترد كلا منهم إلى داره ، وتعيده إلى قراره ، مطمئناً إلى كنف العائلة ، وحسن المصير ، دوغماً شائبة تريق ماء الوجه ، أو إملاء يחדش الكرامة والانتماء ، وكأن لسان حاله يقول :

حتى .. إذا هاج الحنين بخاطري وبكى طويلاً
بادرت يا وطني اليك فلم تكن عني بخيلاً
ونهلته حبك مورداً عذبا وماء سلسبيلاً

وأقول : إن بالشكر تدوم النعم .. والشكر لله في طاعته بالإخلاص والمحبة والعمل الصالح ...

وأما الشكر للوطن فيكون بالتفاني في خدمته ، والسعي في سبيل توطيد أواصر الوحدة الوطنية ، وابتغاء المصلحة العامة في ممارسة الحرية مقرونة بالمسؤولية وحسن التقدير .

وتلك في رأيي أمانة في مضمون الشكر ، تعجز عن حملها كثير من

النفوس التي تنظر إلى ما تجنيه في يومها ، أكثر مما تنظر فيما تقدمه لغد أو لما بعده .

وزوال النعم . . . بإساءة التعاطي معها ، أو عدم الاعتبار بتقلب الأحوال ، أو طغيان المزاج الفردي على المصلحة العامة ، أمر وارد في تاريخ الأمم والشعوب . وما على المرء إلا أن ينظر فيما حوله عن قريب أو بعيد ، ليأخذ العبرة ، ويكتسب المزيد من المعرفة والتجارب . . . فلا فائدة من علم لا ينفع .

تواردت إلى ذهني الخواطر وأنا أتابع ما تنشره صحافتنا كل يوم ، حيث يجتهد حملة الأقلام والمفكرون في تصوير مفهوم كل منهم للإصلاح المنشود ، في مجالات السياسة والاجتماع والثقافة والعمل ، وفي مجالات الحرية العامة والاقتصاد والإدارة والسلطات التنفيذية إلى غير ذلك . ولا أبالغ إذا قلت إن ما تم نشره يصلح لأن يصبح مرجعا لا غنى عنه لمن يريد تصنيف أولويات العمل الوطني في المجالين الشعبي والرسمي . . . ليمكن الجميع من الإجابة عن هذا السؤال الملح ألا وهو : «من أين نبدأ؟» وهو سؤال حان وقته ، ولا يمكن تأجيله لكيلا تضيع فرصة العمل ولا تمر سانحة تحويل الأقوال والتمنيات إلى واقع ملموس . فالميثاق والدستور على بهائهما لا يملكان حتى الآن أذرا ولا أرجلا يمشيان بها بين الناس .

وقد شدتني (الأيام) في عديدها الأخيرين (٤٣٩٣ / ٤٣٩٤) إلى الندوة المميزة التي عقدتها مع نخبة من حملة الفكر السياسي في هذا البلد ، وأدار الحوار فيها بمهارة ، السيد أحمد جمعة . ورأيت من المفيد الإشارة إلى عدد من الآراء والأفكار ، التي جاءت على لسان أهل الندوة ضمن محور النقاش العام حول مهام القوى الوطنية السياسية في تحقيق مبادئ الميثاق الوطني ، وفي مقدمتها الوحدة الوطنية .

- ١ . يجب أن نؤسس نوعا من الثقة لتقبل بعضنا بعضا بشكل حضاري .
- ٢ . التيارات السياسية سوف تلعب بالضرورة دورها من خلال رموزها الوطنية على الساحة .

- ٣ . نحن الآن لا نشكل معارضة لعدم وجود مشكلة مع النظام .
- ٤ . سمو الأمير أدخل خطابا سياسيا جديدا في البلاد ، وكذلك كل من رئيس الوزراء وولي العهد .
- ٥ . حينما تُوَظَر هذه الرؤى السياسية ويكون لها وجودها سوف تساعد على التوازن الاجتماعي .
- ٦ . ضرورة أن يكون هناك حوار ما بين التيارات السياسية كافة التي بإمكانها أن تلتقي على الأقل من أجل حوار للتفكير بآليات صحيحة مؤطرة .
- ٧ . في تقديري أن البحرين بحاجة إلى تكتيل هذا الصف الواسع من أقصى اليسار - إن صح التعبير - إلى أقصى اليمين من الشخصيات الديمقراطية التي تهدف إلى الإصلاح والتقدم . . . ضمن اجتهادنا يمكن أن نقول إن التجمع الوطني قد يكون هو الحل حاليا في المرحلة الانتقالية . . . ربما نحن بحاجة إلى منابر . . أنا أعتقد أننا في مرحلة تحتاج إلى التوافق أو نوع من الاتفاق الوطني حول أن مصلحة الوطن تتطلب أوسع عمل مشترك على قواسم مشتركة ، رسمها الميثاق فيما يتعلق بالإصلاح السياسي ووحدة الوطن . .
- ٨ . التسامح من قبل التيار الإسلامي مطلوب لخلق جسور وطنية بينه وبين القوى الوطنية والإسلامية الأخرى ، على غرار تجارب عديدة في العالم سواء في لبنان أو غيرها . . بحاجة إلى لغة تقربنا من بعضنا البعض .
- ٩ . بالإضافة إلى الأفكار والآراء ، فقد وردت على لسان المشاركين في الندوة إشارات بخصوص عدد من القضايا ، في الشأن المحلي نورد منها :
- أ - وجود أزمة ثقة بين التيارات السياسية ، وتجاه الموقف الرسمي في الحكومة . . فرغم إلغاء قانون أمن الدولة ، فهناك قوانين متفرعة تحد من حرية الكلمة والمشاركة ، (مثل قانون الجمعيات والصحافة والنشر ، ومشاركة عدد كبير من موظفي الدولة) .
- ب - سلبية القطاع التجاري وعدم مشاركته بصورة فاعلة ، على العكس مما

كان الوضع عليه في التجارب السابقة .

ت - وجود مخاوف من قيام تيار ديني متطرف معارض لدور المرأة ومشاريع السياحة والخدمات وغيرها . . .

ث - البطء في عملية التجنيس (للبدون) تحرمهم من المشاركة السياسية .

ج - إمكانية إسهام مجلس الشورى الحالي ، في إحداث التغييرات في الأنظمة والقوانين والتشريعات ، التي تتطلبها المرحلة الحاضرة ، في ضوء الميثاق .

١٠- وأخيرا يأتي استنتاج (الأيام) من خلاصة الندوة وهو يؤكد ضرورة التلاحم الوطني ، وأهمية حماية المكاسب الوطنية والتاريخية ، وعدم التورط فيما لا يدخل في أولويات هذه المرحلة التاريخية . كما تؤكد الخلاصة على الإيمان بالحاجة الماسة لمظلة الميثاق ؛ لتكون الجسم الوطني الشامل لكل التيارات والقوى التي لم تعد بحاجة إلى الأحزاب .
(انتهى)

ثم إنني أقول :

وذلك تعليقا على هذه الندوة وما ورد فيها ، بالإضافة إلى ما ذكرته عن كتابات الآخرين ، إن هناك على ما يبدو حاجة ملحة لتنظيم حوار وطني بين مختلف التيارات السياسية للتفاهم ، على أرضية مشتركة والاتفاق على سلم الأولويات ، وأخلاقيات العمل السياسي ، بما تتطلبه كل مرحلة على النحو الذي يحقق المصلحة الوطنية ، وذلك ضمن مبادئ الميثاق وأحكام الدستور . ولعل من المفيد أن يتم هذا الحوار مبكرا للحيلولة دون تدخل العنعنات والانتماءات والعوامل الشخصية ، بفعل الضعف البشري عند ممارسة العمل السياسي الفعلي (وخلق الإنسان ضعيفا . . .)

كما أن هناك تيارات أساسية لم تشترك في هذه الندوة ، وفي مقدمتها التيار الإسلامي ، والرموز الدينية التي تحظى بتأييد شعبي كبير ، وكذلك التيارات

المستقلة ، وما ذكر أيضاً عن القطاع التجاري . . . وغير هؤلاء ، لذلك فإن إشراك مختلف التيارات في الحوار ضرورة لا غنى عنها . وأنا لا أفترض هذه الحاجة للحوار افتراضاً ، وإنما استنتاجاً من الدعوة الصريحة الواضحة التي أعرب عنها المشاركون في الندوة وغيرهم ممن كتب في هذا الموضوع ، عن ضرورة مواصلة الحوار الوطني الملتزم والبناء ، باعتبار ذلك عملاً تنظيمياً تتطلبه المرحلة الحاضرة ، وتقع مسؤوليته في تقديري على جميع المفكرين والمهتمين بالشأن العام .

ومن ثم . . . وإذا كنا نعني ما نقول ؛ فليظهر هذا التلاحم والاتفاق للعيان . إن اقتراحاً بتنظيم مؤتمر عام للقوى السياسية ، بتياراتها وأنواعها ، ربما كان أمراً وارداً - في غياب أي اقتراح أفضل - للاتفاق على أسس ومبادئ العمل السياسي المقبل بالنسبة للتطبيق والممارسات والأولويات على حد سواء .

ومثل هذا الاقتراح لعقد مؤتمر وطني سوف يحتاج بلا شك إلى تمهيد وإلى تشاور واستمزاز للآراء لكي يحظى بالموافقة المبدئية ، ولكي ينعقد تحت مظلة من الشرعية والديمقراطية . كما أنه يحتاج إلى التوقيت المناسب قبل انطلاقة الممارسة الدستورية وانتخاب المجلس الوطني .

وإذا صحت العزيمة على انعقاد مؤتمر كهذا بعد تحديد الأهداف الرئيسية ، ضمن مبادئ الميثاق والدستور ، واستيفاء الإجراءات التي لا بد منها ، فقد تكون محصلة الاتفاق النهائي ، بين مجموع التيارات الموجودة على الساحة ، أو بيانها العام بمثابة ميثاق للعمل السياسي للالتزام به على مدى طويل من الزمن أو على أقل تقدير ، برنامجاً مشتركاً يتم الاتفاق عليه للعبور بهذه المسيرة التي يتطلع إليها الجميع إلى شاطئ الأمان ، بما يحقق التوافق المطلوب بين تطلعات الأمير القائد وشعبه الوفي .

وأخيراً فقد يستغرق عقد هذا المؤتمر إذا وجدت هذه الفكرة تجاوباً وقبولاً ، على مدى يوم أو أكثر ، ومن الممكن أن تكون له لجان وهيئة تنظيمية ، على غرار المؤتمرات المشابهة ، وذلك تحت شعار يتطلع نحوه الجميع مثل : تنظيم العمل

السياسي - البحرين نموذجاً .

ثم أختتم هذا الحديث فأقول إنها مجرد فكرة حرة راودتني ، ونحن في عهد حرية الأفكار في ظل مبادرات سمو الأمير القائد . . . أضعها في عهدة المهتمين بهذا الشأن العام . . . وللقراء الكرام . . . ونسأل الله التوفيق (والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً) .

(*) نشرت في (الأيام) العدد ٨٤٢٨ - ٢٠٠١ .

دعوة لإنشاء مؤسسات وقفية مدنية

يعد نظام الوقف الإسلامي من أقدم المؤسسات الخيرية الخاصة في تاريخ العالم . ولاشك في أنه توجد لدى وزارات الأوقاف ودوائرها في العالمين العربي والإسلامي وثائق وسجلات تاريخية مفيدة ، فيما يختص بالأوقاف الخيرية ، سواء من حيث مصادرها أو من حيث أغراضها المتعددة .

وبدأ بالعصر الأموي والعباسي ، حتى العصور المتأخرة ، كانت تشاد بأموال الأوقاف المستشفيات العامة (البيمارستانات) ، ودور العجزة والأيتام ، والكثير من المدارس والمؤسسات الدينية .

ومن يراجع سجلات الأوقاف في البحرين ووثائقها ؛ سوف يكتشف ما يدل على سعة التفكير عند بعض الواقفين ، أو نقيض ذلك عند البعض الآخر . فمن قبيل سعة التفكير ، ذلك النوع من الأوقاف ، التي تتجاوب مع متطلبات هذا العصر ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالمحافظة على البيئة وتمويل الخدمات الاجتماعية والعلمية . ومن قبيل ذلك تلك الأوقاف التي رصدت للتعليم ، وأخرى لتشجيع العالم الذي له أهلية التصنيف من علماء البحرين ، والخطيب الذي له أهلية التوجيه والإرشاد ، بل إنه وجدت بعض الوقفيات مخصصة لصيانة الطرق وإزالة الحصى من دروب المسلمين . . وأخرى لحفر العيون وآبار الماء وإرواء السابلة . . وما شابه ذلك .

وكل ما تقدم ذكره يتعلق بالجانب الإيجابي من الوقف . إلا أن هناك جوانب سلبية كثيرة ، منها ما يتعلق بتخصيص الوقف في حدود ضيقة تبعا لنص الوقفية ، ومنها ما يتعلق ب«الولاية» على الوقف ، ومنها ما يتعلق بالإدارة

وحرية التصرف في الأوقاف .

ويمكن إجمال تلك السلبيات في عدد من النقاط والملاحظات فيما يلي :
أن جميع الوقفيات العينية أو معظمها تقريبا لا بد وأن تحمل هذا النص أو ما شابهه : «وقفا مؤبدا وحسبا مخلدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ثم الآية الكريمة : ﴿فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم﴾ (البقرة ١٨١)» .

ومن واقع التجربة التطبيقية نرى أن هذا النص يقف عائقا أمام تحقيق الفائدة المرجوة لدى الواقف من العين الموقوفة ، كما تدل على ذلك الأمثلة التالية بالنسبة للأوقاف الجعفرية : المثال الأول - وقف الذرية وهو يكاد يكون أكثر الأوقاف انتشارا ، وبوجهه يرصد الواقف منزلا أو بستانا أو أرضا أو عقارا من أي نوع ، ليكون العقار أو الدخل موقوفا على أفراد ذريته . وفي هذه الحالة قد تستفيد الذرية ، لاسيما المحوجين منهم ، بتوفير السكن في بداية الوقف إلى أن يكثر العدد بمرور السنين وتتضاءل حصص الورثة ومن يرثهم فيه ، ويكون ذلك مدعاة لنشوء الخلاف ثم النزاع والتخاصم . أما العين الموقوفة فتعرض للإهمال فتتصدع أو تنهار بمرور الزمن ، ويتفتت نصيب الورثة فيها حتى تنتفي الفائدة المرجوة .

والمثال الثاني : وقف المساجد والمآتم ودور العبادة ؛ وقد يكون ثاني أكبر أغراض الوقف التقليدي . وكثيرا ما يحدث - نتيجة للتطور العمراني ونشوء مدن جديدة - أن تباعد تلك المساجد عن موقع الكثافة السكانية ؛ فتصبح مهملة على جوانب الطرق ، أو عقبية أمام شق الطرق الجديدة . وتبقى الأموال المخصصة لها محبوسة عليها .

وفي المقابل توجد أوقاف لمساجد ومآتم توصف بأنها «غنية» ، بسبب التطور العمراني وارتفاع حصيلتها من الإيجار بسبب الموقع ، ثم تتراكم المبالغ الزائدة عن مصرف الموقوف له ، ولا تستطيع إدارة الوقف التصرف في الأموال الزائدة لصرفها في المشاريع الخيرية ، لكونها محبوسة على ذات الوقف . وفي أحسن

الحالات التي بذلت فيها إدارة الأوقاف جهودا كبيرة لاستصدار فتاوى شرعية ، لم يسمح بالتصرف في تلك الأموال إلا في وجه واحد هو تقديمها كقروض لاستصلاح أوقاف أخرى ثم استعادتها من دخل المستصلح منها . ومع ذلك فقد اعتبرت هذه الخطوة بادرة إيجابية مفيدة من قبل إدارة الأوقاف السابقة . لكنها ظلت عاجزة عن تلبية المطلب الاجتماعي الملح بإنفاق المال الزائد على مشاريع خيرية عامة ؛ أو التبرع بها للغرض نفسه ، وذلك بسبب النص الصريح في تلك الوقيات . واللوم هنا لا يقع على الإدارة وإنما على نص الوقية . . اللهم إلا إذا أذنت الفتوى الشرعية ، خلاف ذلك وهو أمر غير محتمل في أغلب الأحوال .

لكل تلك الأسباب ، نلاحظ أن إدارة الأوقاف الشرعية لا تستطيع - رغم ضخامة الموارد المالية المتوفرة تحت إدارتها - أن تمد يد المساعدة لمشروع خيري ، فضلا عن أن تباشر بنفسها تأسيس أو تمويل مشاريع خيرية ليست لها أملاك موقوفة عليها . وحتى لو وجدت أوقاف لمشاريع خيرية عامة بلا تخصيص ، فإن حصيلتها تكون في الأغلب قليلة ، نظرا لانصراف معظم الواقفين عن هذا النوع . . إما بسبب ضيق التفكير أو عدم انتشار الوعي ، أو ربما عدم الراحة النفسية لديهم لتفويض أمر صرف الأموال الوقية إلى مجالس إدارة الأوقاف .

ولمعالجة هذا الوضع ، فإن أمام إدارات الأوقاف لدينا مسئولية توعية الجمهور ومحبي أعمال الخير بسائر الطرق المتاحة (خطابيا وإعلاميا ، واستصدار الفتاوى الشرعية) ، وذلك بهدف تشجيع الوقف الخيري للنفع العام دون تخصيص ؛ لكي تساهم إدارات الأوقاف في المشاريع الخيرية ، في مجال التعليم والتدريب والصحة والإسكان إلى غير ذلك . وهو أمر أصبح أكثر إلحاحا اليوم بسبب تراكم المشاكل الاجتماعية وتفشي البطالة ، وفي العهد الميمون للإصلاح الشامل ، أصبح من اللازم إجراء تطوير ملموس في أنشطة إدارات الأوقاف ، وتنويع مصادرها وطرق مساهمتها في تحقيق التقدم الاجتماعي .

المؤسسات الخيرية ودورها:

تعد الصناديق الخيرية المنتشرة اليوم في أنحاء البحرين الرافد الأساسي للأعمال الخيرية ، وهي تضطلع بدور أساسي ومهم في توجيه التبرعات والصدقات للصرف على الأعمال الخيرية . والمشكلة التي تواجهها تلك الصناديق والجمعيات - إذا صرفنا النظر عن مشاكل الإدارة ، والوسائل والأهداف - هي قلة الموارد المالية لديها . فهي تعتمد على رسوم اشتراكات الأعضاء والتبرعات التي تصلها .

كما أنها لا تملك مصادر مالية متجددة ذاتيا ؛ فهي تصرف بقدر ما يصلها من إيراد .

ومن المعروف أنه في بلدان العالم الحديث ، توجد مؤسسات خيرية تعتمد على مصادر ذاتية متجددة ، وهي أيضا تسمى بمؤسسات خيرية لتمييزها عن الصناديق الخيرية .

وتنشأ تلك المؤسسات الخيرية حين تقوم جهة ذات قدرة مالية كبيرة ، أو مجموعة من الجهات والأفراد من محبي الخير ، بتخصيص مبالغ كبيرة من الأموال أو الأملاك القيمة لإنشاء مؤسسة للأعمال الخيرية ، وتسجيلها لدى كاتب العدل ، وتكوين إدارة تكون مسئولة عن تحقيق أغراض المؤسسة ، والحفاظة على استمراريتها واستمرار مشاريعها وأعمالها . فهي ليست وقفا شرعيا يدار من قبل الأوقاف ، وإنما هي وقف خيرى ذو صفة مدنية ، يتم تسجيله كمشروع مؤسسى . ومن أمثلة ذلك في العالم مؤسسة فورد الخيرية ، ومؤسسة روكفلر ، وفي البرتغال مؤسسة كولبنكيان المشهورة ، وفي بريطانيا مؤسسة (ولكام) التي تملك وتدير مشاريع ومنتجات تجارية وصحية كبيرة منحصصة أرباحها للمشاريع الخيرية .

ومن هنا نشأت منذ بضع سنوات لدى عدد من رجال الأعمال ومحبي الخير فكرة إنشاء مؤسسة للمشاريع الخيرية ، وهي فكرة لم تر النور حتى الآن ، ولكن ذلك لا يمنع من استمرار المحاولة لإنشاء رافد جديد للأعمال الخيرية ،

حيث تتبنى هذه المؤسسة إنشاء مشاريع اقتصادية ذات جدوى في المجالات الصناعية والاستثمارية والخدمات وغيرها . . وتخصيص أرباحها للصرف على أعمال الخير ، وامتصاص العمالة الوطنية ، وتدريب القوى العاملة ، والمساهمة في شئون الصحة والتعليم وغيرها . ومثل هذه المؤسسات يكون شعارها «ساعد نفسك» فهي تدرس الأسباب والعقبات التي تحول بين شخص ما والحصول على عمل مجزء ، أو الترقى في ذلك العمل . وهي تقوم بتذليل تلك الصعوبات ، سواء عن طريق التعليم أو التدريب أو العلاج ، أو تزويد الحرفيين بالأدوات والمواد للإبداع في حرفهم أو أعمالهم . إن سياسة المؤسسة تقوم على أساس مساعدة الفرد على كسب عيشه بنفسه ليتحول من عاطل إلى شخص منتج . ولا شك في أن هذه القاعدة هي أساس نهوض المجتمعات وازدهارها . وفي الختام أرجو أن أكون قد استطعت إعطاء هذه الفكرة العامة الموجزة حول ضرورة تطوير أسس ومفاهيم العمل الخيري ، بدءاً بدوائر الأوقاف مروراً بالصناديق والجمعيات الخيرية . . وانتهاء بجدوى إنشاء مؤسسة للمبشرين الخيرية تقوم على مفاهيم حديثة متطورة مع العصر وحاجات المجتمع المتجددة .

(*) (مجالس رمضان - ٢٠٠٤) .

ذكرى مرور أربعين عاماً على الثورة المصرية

حينما طلبت مني «أخبار الخليج» أن أتحدث عن الثورة المصرية ، من منطلق ذكرياتي الخاصة ومعايشة الأحداث ، تحيرت من أين أبدأ . . . وكيف أستطيع أن أستوعب حدثاً بهذه الفخامة في كلمات قليلة .

ولكي نفهم حقيقة ما جرى صبيحة ٢٣ يوليو من عام ١٩٥٢ - لا بد من الرجوع بالذاكرة إلى أواخر الأربعينيات ، وما رافقتها من إرهابات وتقلبات . وأنا أتذكر اليوم قرار تقسيم فلسطين والمظاهرات الصاخبة في البحرين التي لم أشهدها ، حيث كنت في بغداد ، وهناك شاهدت قطعاً من الجيش العراقي ترافقها أعداد غفيرة من المتطوعين ، قيل إنهم ذاهبون لتحرير فلسطين من الغاصبين ، وكانت الهتافات تعلو بالصيحات ، من قبل الجماهير الغاضبة وهي تصرخ : اجعلوا تل أبيب وادي أبيب - ولكن ما أسرع أن أعقبت ذلك مشاعر الخيبة والمرارة . . . لأن الجيش العراقي لم ينفذ مهماته ؛ لأن القواد يقولون : (ماكو أوامر) ! ووقع اللوم على نوري السعيد وحكومة عبدالإله ، وارتباطه بأوامر الإنجليز . . . ثم عمت المظاهرات شوارع بغداد .

وأذكر بعد رجوعي إلى البحرين ، وفي غمرة الفرح بدخول الجيوش العربية لتحرير فلسطين أنني رسمت خارطة فلسطين بالألوان ، وعليها أسهم كبيرة تشير إلى مناطق دخول الجيوش العربية ، وكتبت عليها عبارتين : الأولى عن بدء تحرير فلسطين في ١٥ مايو ، أما العبارة الثانية فتشير إلى تاريخ الانتهاء من تحرير فلسطين ، وفي موضع التاريخ علامة استفهام كبيرة! وصرت أنتظر مع غيري إتمام تحرير فلسطين لأضع التاريخ ، ولكن بدون طائل . فلما كثرت مفاوضات الهدنة

وطال أمدها نفذ صبري ومزقت تلك الورقة أو أضعفتها .

ولم يقتصر الجو العام الملتهب في تلك الفترة على العراق وحده . ففي سوريا توالى الانقلابات تحت شعار تحرير فلسطين وإقرار العدالة الاجتماعية ، ومحاربة الفساد .

أما في مصر فالأمر كان أعظم من ذلك . فحصار الفالوجة ، وقضية الأسلحة الفاسدة ، وفضائح القصر الملكي ، وتغيير الوزارات بالأوامر الملكية ، وسيطرة الإقطاع والرأسمالية ، وتصارع الأحزاب فيما بينها ، وتصاعد الدعوات لإنصاف الفلاحين ، وتحرير الاقتصاد والسياسة من التحكم الأجنبي ، وتعثر المشاريع والقوانين الإصلاحية مثل كهربة أسوان ، وقانون من أين لك هذا . . . ومحاربة الفساد والرشوة ، وما تلا كل ذلك من المواجهة مع الإنجليز في القنال ، وحريق القاهرة ، وتعثر محادثات الجلاء ، وديون مصر الإسترلينية على بريطانيا . . . كل تلك الأخبار كنا نتتبعها في الإذاعات والصحف ، وكانت تجد صداها الواسع في البحرين ، وفي غير البحرين على امتداد الوطن العربي ، ولم يكن أحد ليخالجه الشك في أن مستقبل مصر هو مستقبل العرب جميعا .

في مثل ذلك الجو المشحون بالنقمة والتذمر والاستياء من الأوضاع ، جاءت الثورة المصرية ذلك الحدث الذي لم تصدقه أذاننا ونحن في عنفوان الشباب . أما فخرامة ذلك الحدث ، الذي لم تشهد الأمة العربية له مثيلا في تاريخها الحديث ، فنتج عن شيئين : الأول تسلسل الأحداث والمفاجآت ذاتها ، والثاني : فخرامة الآمال العريضة للجماهير العربية التي كانت معلقة عليها والأحلام التي كانت مشدودة إليها ؛ فقد وضع كل ذلك الثورة المصرية في صف المعجزات التي ينتظر منها الشعب العربي أن تحل له كل مشاكله وتناقضاته دفعة واحدة .

ولم يكن أحد يجرؤ أن يتساءل عن تطابق الإمكانيات المتاحة لهذه الثورة ، ماديا ومعنويا أو محليا وعربيا ودوليا ، بغية تحقيق النجاح المنشود . وكأنه كان من الأسهل على الجماهير العربية بدلا من أن تضع أمامها هذه التساؤلات

الجادة ، أن تغمض عينها مستسلمة للأحلام ، مرددة قول الشاعر أبو القاسم
الشابي :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

وكأنه كان على قائد الثورة المصرية جمال عبد الناصر أن يحقق لهذه
الجماهير كل ما تصبو إليه مقابل الهتافات والمسيرات ، وتعليق صوره في المنازل
والمكاتب .

ولما كانت أدوات الاتصال بين القائد والجماهير العربية الغفيرة هي
الإذاعات ؛ فإن الراديو (الترانزستور) أصبح الرفيق الدائم لكل إنسان عربي ،
سواء كان في المدينة أو في الريف أو بطن الصحراء ، وكان الكل ينتظر أن يسمع
المزيد من الأخبار السعيدة ، أما الصحف والإذاعات الغربية التي جاهرت
بالعداء ؛ فكانت على ما أذكر تسمي كل ذلك بثورة (الترانزستور) ، ولو أنها
كانت تنظر إلى هذة الثورة الوليدة بمنتهى الحذر والخوف والترقب .

ولكن الإذاعات والأخبار لم تبخل على الشعب العربي وعلى الجماهير
المتعطشة بشيء فكان كل خبر نسمعه يتفوق على ما قبله ، وكانت دموع الفرح
تنهال إثر كل خبر من تلك الأخبار بدءاً بالإصلاح الزراعي في مصر والتأميم
واتفاقية الجلاء ، وصفقة الأسلحة التشيكية ، وتأميم القنال ، وبناء السد العالي
ومؤتمر باندونج ، وتكوين كتلة عدم الانحياز ، وإفشال مشروع الهلال الخصيب ،
ثم مشاريع التصنيع الهائلة في مصر ، وأخيراً انتهاء بالوحدة مع سوريا ، حينما
كان صوت أم كلثوم يتردد في كل مكان (وفق الله على الخير خطانا*) والتقت
في موكب النصر يدانا) ، كما يردد الآخرون (الموسكي والحميدية) ، وفي
البحرين كما في غيرها ، تلونت الأحداث داخلية وخارجية بلون الثورة المصرية ،
واكتست الخطابات الجماهيرية بالأشكال التي تبثها الإذاعات من العاصمة
المصرية ، وتبسطها الصحف والمجلات ، سواء كان المتحدث يتكلم من حفل عام

أو ناد أو مسيرة عمال أو تجمع شعبي . وهرعت الجماهير عن بكرة أبيها للقاء قائد الثورة جمال عبد الناصر أثناء مروره بالبحرين ، وبمثل ذلك استقبلت أيضاً السيد أنور السادات نائبا عنه .

ولكن تلك الفرص لم تدم طويلا فسرعان ما توالى الأحداث الحزنة ، والتي كانت بدايتها انفصام الوحدة بين مصر وسوريا ، وأحداث اليمن ؛ والأحداث الداخلية في مصر . ثم نكسة عام ٦٧ وما تلاها من أيلول الأسود في عمان ، ثم وفاة زعيم الثورة الرئيس جمال عبد الناصر على إثر ذلك .

وبعد وفاة عبد الناصر توالى النكبات وبدأت مسيرة الأحزان العربية ، تحت مختلف الرايات والألوان والشعارات وهلم جرأ ، حتى تعمق الجرح العربي وغار ، وانشغل كل قطر بهومومه الخاصة ، وألف الناس مالم يألفوه من قبل ، ولسان حالهم يقول (تعودت مسّ الضر حتى ألفتته) بينما يتململ المتنبئ في قبره صارخا :

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح ببيت إيلام

وإذا أردت أن أكون صادقاً مع النفس تجاه مشاعري كشاب ؛ فقد كنت دائما مع جمال عبد الناصر حتى عند ساعة وفاته ، ولا شك في أن ذلك كان أيضا شعور الجمهور الأعظم من الشعب العربي ، وفي كل مرة يحدث فيها فشل ذريع كانفصام الوحدة مع سوريا ؛ أو مشاكل في السياسة والاقتصاد ، كانت الدعاية التي يصدقها الجمهور عادة تعزو هذا الفشل إلى وجود الاستعمار والصهيونية وقوى الإقطاع والرأسمالية . . وتتجه الأصابع نحو خصوم الثورة أينما وجدوا ؛ فالمعارضة الصريحة كانت تمتنع الجماهير العربية عن الإنصات إليها . أما المعارضة المعتدلة فهي بدورها لم تكن تصل إلى مسامع المسئولين . وليس في هذا المكان مجال لإصدار الأحكام ؛ فالأمر لا يعدو استحضار شريط من الذكريات يختصر فيه الزمن وتسارع فيه مسلسل هذه الأحداث .

وفي الختام بارك الله للثورة المصرية في ذكراها الأربعين ؛ فهي الثورة الأم

مهما اختلف أبناؤها فكراً واتجاهاً أو منهجاً وأسلوباً ، ما دام الرائد هو المصلحة العامة ، والدليل هو الاجتهاد المخلص ، والحكم الفصل راجع لإرادة الشعب . ورحم الله جمال عبد الناصر ؛ لقد شغلت حياته وهمته الآمال الكبار فأوهنت قواه واستغرقت جهده كله حتى انشغل أو غفل عن أمور مصر الداخلية والهموم الصغيرة للمواطنين التي استفحل أمرها حتى تراكمت واستعصى حلها على من جاء بعده .

(وإذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرامها الأجسام)

وتحيه لمصر وشعب مصر في ذكرى الثورة المجيدة .

اتحاد العمل البحراني (للعمال والموظفين وأصحاب المهن الحرة) من ذكريات تقي محمد البحارنة

مقدمة تاريخية:

في التاريخ الحديث للحركات الوطنية في البحرين، تشكل القضايا العمالية محورا أساسيا منذ بداياتها في أوائل القرن العشرين. ففي الفترة التي سبقت استخراج النفط (١٩٣٠) وما قبلها كانت الطبقة العاملة الكثيفة التي تتشابه في ظروف العمل ومستوى المعيشة هي طبقة الغواصين اللذين كانوا يعملون في صيد واستخراج اللؤلؤ وما يتعلق بذلك من جمع المحار، وفرزه وتنظيفه، وأعداده ليصبح صالحا للبيع والتجارة. أما الطبقات الأخرى فكانت تشمل الفلاحين، والعمال في البناء، وغيرهم من المستخدمين في أعمال الخدمات. وهؤلاء مختلفون من حيث ظروف العمل، والأجور ومستويات المعيشة.

وقد سجل المؤرخون بداية المطالبة بالأصلاحات العامة والاصطدام مع سلطات الحماية البريطانية، وذلك في عام ١٩٠٤/١٩٠٥. وكانت الموجات الجماهيرية خليطا من كل أولئك، بما أدى الى مضايقة المقيم السياسي البريطاني الميجر (برسي كوكس).

وينطبق مثل ذلك على أحداث عام ١٩١٤ والمعروفة بانتفاضة علماء الدين المشهورة، أما أحداث عام ١٩١٩ فقد قام بها الغواصون بالذات لتحسين أحوالهم والتي عرفت بثورة (الخير).

ثم تلت ذلك أحداث ١٩٢٠ والتي شاركت فيها شرائح المجتمع بمختلف فئاتها. تلت ذلك أحداث عام ١٩٢٣ المشهورة.

وفيما بين الأعوام ١٩٢٦ و١٩٣٢ شهدت البحرين سلسلة من التظاهرات قام بها الغواصون احتجاجاً على القوانين الظالمة لتحديد نظام القروض للغواصين وأصحاب السفن (النواخذة). ثم تطورت الى مطالبات إصلاحية أخرى، وذلك على أثر كساد سوق اللؤلؤ عام ١٩٢٩.

وحينما بدأت في البحرين صناعة النفط (١٩٣٢) أجتذبت شركة النفط (بابكو) معظم الايدي العاملة وذلك رغم قلة الاجور وظروف العمل السيئة واعتماد الشركة على التعاقد مع الوسطاء لتوفير العمال. لهذا بدأت مشاكل العمال وشكاواهم من قلة الاجور والظروف السيئة للعمل، تظهر الى السطح ابتداء من عام ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٤٢. حيث شهدت البلاد الاضرابات والمسيرات، وقامت الشرطة باعتقال أعداد من المتهمين بتأجيجها، ثم أنزلت السلطات البريطانية قوات كبيرة لقمع المتظاهرين واعتقال عدد اخر منهم.

ومن الجدير بالملاحظة في هذا الصدد فيما يتعلق بما ذكر من احتجاجات ومطالب إصلاحية سواء من قبل الغواصين أو العمال أو الوطنيين ذوي المطالب الإصلاحية.. أن السلطات في معظم الأحوال كانت تتجاهل عامدة الأسباب الرئيسية لها، وطرق معالجتها بأسلوب سليم، لكي يقتصر همها الوحيد على القمع والأعتقال والتسفير.. والبيانات الغامضة عن الاخلال بالأمن العام. وكأنما أمن المواطن وتحسين ظروفه المعيشية وشروط العمل كلها أمور ثانوية لا أهمية لها. وقد تشكلت في معظم تلك الحركات هيئات قدمت مطالبها الى السلطات، وبدلاً من اغتنام فرصة الإصلاح بالتفاوض مع تلك الهيئات المعروفة بوطنيتها وأخلاصها لبلدها، فقد قامت السلطات باعتقال أولئك الممثلين في معظم الأحوال، أو ملاحقتهم أو تسفيرهم..

حدث ذلك فيما قبل عهد مستشار حكومة البحرين السيد بلغريف، ثم حدث بصورة أشد أثناء عهد المستشار المذكور بأسناد من سلطة الحماية.

في مثل تلك الظروف ذات المشاكل العالقة مع فئات العمال، ودعاة الإصلاح والتغيير، تنحصر الجو السياسي عن ولادة حركة سياسية شعبية عارمة

تحت أسم (الهيئة التنفيذية العليا) والتي تغير اسمها بعد اعتراف حكومة البحرين بها الى (هيئة الاتحاد الوطني) . . وبغض النظر عن الموضوع السياسي ، فإن أحوال العمال عند نشوء «الهيئة» كانت تتردى الى الأسوء . ولم يكن التذمر العمالي آنذاك مقتصرًا على عمال شركة (بابكو) التي تمادت في فصل العمال ، واستبدلهم بالأجانب والتضييق على حقوقهم ، بل تعداه الى شركات كبرى في المقاولات مثل شركة (أكمي) وغيرها . . حيث لعبت تلك الشركات دورا مهما في التخفيف على شركة (بابكو) عن طريق ضم العمال اليها مما أدى الى فقدان حقوقهم المكتسبة من الخدمة الطويلة مع (بابكو) الأمر الذي أثار المزيد من الاحتجاج والتذمر العمالي .

ولما كان عمال البحرين على مختلف فئاتهم ، هم اكثر اللذين تحمسوا لنشاط (الهيئة) وساندوها في أنجاح الاضرابات والامتناع عن العمل التي قامت بها (الهيئة) وكانوا هم المتضررين الأكثر من جراء تلك الاضرابات سواء بسبب فقدان رواتبهم وتعريضهم مع عوائلهم للجوع ، أو بسبب تهديد الشركات لهم بالفصل من أعمالهم ، أو منع الترقيات عنهم . . الى غير ذلك . وبسبب كل ذلك ، ولكون مطالب العمال المشروعة كانت وما تزال من أولويات كل مواطن غير ، فاننا لا نستغرب أن تكون تلك المطالب العمالية من أولويات الحركات الوطنية ولا سيما حركة (الهيئة)

لهذا جاء في المطالب التي تقدمت بها (الهيئة) عند تأسيسها ما يلي :

(٣- السماح بتأليف نقابة للعمال ونقابات لأصحاب المهن الحرة تعرض

قوانينها

ولوائحها على المجلس التشريعي لأقرارها . .)

. . يقول السيد عبدالرحمن الباكر بهذا الصدد في مذكراته المنشورة ما

يلي :

(ص- ١٥٧ - كان تأليف نقابة العمال وسن قانون عادل للعمل من مطالب الشعب الرئيسية التي تقدم بهامثلوه الى المسؤولين ، والتي تدل على ما تحته

القضية العمالية من مكانة بارزة بين قضايا المجتمع الاخرى . ولاغرو اذا ما اعتبر الشعب ا ، أي حل لتلك القضايا لا يتضمن أنصاف الطبقة العاملة والاعتراف بحقوقها الثابتة ، هو حل مبتور لا يرضى به ولا يقره . .)

فيما عدا ذلك فقد طرأت على الساحة في عهد الهيئة ابتداء من عام ١٩٥٥ مشكلة عمالية فرعية تخص أصحاب السيارات والتأمين الأزماني من خلال شركات أجنبية مستغلة . وقد عولجت هذه المشكلة بمهارة من قبل السيد عبدالرحمن الباكر (سكرتير الهيئة) بإنشاء المؤسسة التعاونية (صندوق التأمين التعاوني) الذي شاركت في وضع قانونه الأساسي مع المذكور بالإضافة الى المرحوم قاسم أحمد فخرو .

اتحاد العمل البحراني :

أنشأت (الهيئة) بمجهودات من قبل عبد الرحمن الباكر هذه الهيئة العمالية للعمال والموظفين وأصحاب المهن الحرة . ويقول الباكر بهذا الصدد في مذكراته (ص ٨٦) ما يلي :

(. . .) في غمار هذه المعمة قررنا تأسيس نقابة للعمال دون الحصول على إذن من الحكومة ، وقبل الانتهاء من سن قانون العمل والعمال . وقد أقبل العمال على الاشتراك في النقابة أقبالا منقطع النظير وبصورة لم يكن أحد منا يتصورها مما يدل على أن الوعي العمالي أقوى بكثير مما يروجه المرجفون من جهلهم وعدم تفهمهم لأوضاعهم . وعلى أثر تأسيس اتحاد نقابة العمال أرتجت الأوساط النفطية والأستعمارية لهذا الأجراء الذي لم يكن متوقعا حدوثه بهذه السرعة وانزعجوا وتضايقوا منا وجاء الانكليز كعادتهم يحذرون من الاندفاع دون أيجاد قاعدة أساسية ويهددون بسحب عطفهم على الحركة . . .) . . . وبصدد ما اضطرت اليه الحكومة لمباشرة وضع قانون للعمل والعمال ، يقول في موضع اخر (٩٢-٩٣) من خلال جواب الهيئة على مذكرة الحكومة البريطانية ، والمؤرخ ٢٩-٣-١٩٥٥ ما يلي :

(. . ذكرتم في نية حكومة البحرين سن قانون شامل للعمل والعمال بمساعدة المستر أولزي الخبير العمالي البريطاني في الشرق الأوسط. ونحن مع ترحيبنا بهذه الخطوة ألا أننا نود أن نشير الى أن مثل هذا القانون كان من الواجب إصداره قبل عشر سنوات على الأقل كما أن هذه النية لم تظهر أخيرا إلا نتيجة لبروز الوعي العمالي بوضوح، وتكتل العمال في نقابة موحدة تدافع عن مصالحهم وحقوقهم بعد أن يئسوا من أقدام الحكومة (التنفيذية) على عمل أيجابي يصون مصالحهم . . .)

ثم يضيف الباكر في مرحلة أخرى قوله (ص- ١٥٧/١٥٨) :

(. . . لقد كان المنتظر أن يتم إصدار قانون العمل والاعتراف الرسمي بحق العمال في تشكيل نقابتهم الموحدة قبل انتهاء العام الميلادي المنصرم (يعني عام ١٩٥٥) - ولكن تشدد بعض أصحاب العمل المدللين وتمسكهم بوجهة نظرهم الأستغلالية كل ذلك أدى الى تأخير هذا القانون وعدم الفراغ منه حتى الان . .) ثم يضيف في فقرة أخرى . لقد أصدر العمال مؤخرا في بيانهم المؤرخ ٢٣ فبراير ١٩٥٦ والذي تضمن التعبير عن وجهة نظرهم في عدد من النقاط المتعلقة بقانون العمل والنقابة، وقد سلمت نسخة منه الى الحكومة، فماذا فعلت لأنصافهم . . .)

وعلى الصفحة ١٨٠ وما بعدها من مذكرات الباكر، إشارة الى الأزمة التي حدثت أثناء مناقشة مسودة قانون العمل والعمال بين ممثلي العمال ومثلي الشركات، حيث يقول . . (لقد أخذت الحكومة مبدأ موافقة الطرفين لاقرار القانون، وهو مبدأ غير صحيح، نظرا لاستحالة تطبيقه ولانعدام كفة التوازن بين كل من جانب العمال وأصحاب العمل . إذ كيف يجوز أن تعطي الحكومة لعدد محدود من الشركات التي كانت ولا تزال تستفيد من نفوذها الواسع العريض لظلم العمال وأرهاقهم، نفس الحق الذي يعطى لفئات العمال المغلوبة على أمرها والتي تمثل غالبية المجتمع ! . .) كما تتضمن الفقرة الأخيرة من كلام الباكر تصورا لفلسفة الهيئة تجاه قضايا العمال والتي يقول فيها . . عن سياسة الحكومة

بصدد العمال : (. . . أنها لا تزال تنظر الى مشاكل العمال وكأنها قضايا متناثرة لا رابط بينها ، بدلا من أن ترسم لها سياسة أصلحية شاملة تستوعب القضية العمالية برمتها وتعالجها من جميع نواحيها ، بوضع قانون للعمال وتعويضات الأصابات ، و تأليف نقابة للعمال ، وتحديد مستوى أدنى الأجور ، والسيطرة الكاملة على الهجرة الاجنبية وتحديد نسبة المواطنين في الأعمال ، ومكافحة البطالة والعوز المادي والعناية بشئون الإنتاج ، وأثناء الثروة المحلية ، كل هذه وغيرها أجزاء مترابطة لا يمكن فصلها عن الآخر ، وكل تسوية تقوم على أساس تجزئة هذه القضايا وتحقيق شطر منها دون الآخر ، لن تؤدي الى النتيجة المتوخاة من تنظيم الحياة العمالية ووضع أسسها الصحيحة وبالتالي تحقيق الاستقرار العمالي المنشود . . .)

قصة أول نقابة عمال في الخليج :

كان من الممكن تدوين تاريخ أول اتحاد عمالي في البحرين وفي دول الخليج العربي من واقع سجلات «اتحاد العمل البحراني» المرتبة ، ويوميته المدونة ، وبطاقات الأعضاء المرقمة ، لولا ما ال اليه وضع (الهيئة) السياسي بعد اعتقال اعضاءها وملاحقة الناشطين فيها ومن بينهم من كان عضوا في الهيئة الادارية لاتحاد العمل . وقد حالت ظروف الاحتقان السياسي منذ اواخر ١٩٥٦ ، والتشردم ، والتشرد والهجوم الخاصة ومصارع الاقدار - دون التفرغ لجمع المستندات ورصد الوقائع وتسجيلها .

وفي اخر اجتماع للهيئة التنفيذية لاتحاد العمل بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٩٥٨ - تم اقرار حل الاتحاد (أختياريا) وأغلاق مكاتبه ومقره الرئيسي على النحو التالي :

- ١- أيداع مالية الاتحاد في البنك البريطاني للشرق الاوسط تحت إشراف أمين الصندوق السيد أحمد الجابر .
- ٢- إعادة الاثاث المستعار من مجلة (صوت البحرين) الى السيد أبراهيم حسن

كمال . ثم حفظ البطاقات والاثاث المتبقي والسجلات الخاصة بالمكتب لدى نائب الرئيس السيد محمد قاسم الشيراوي .

٣- أبلغ السكرتير الاداري لحكومة البحرين المستر (سميث) بذلك ، والذي وعد بدراسة الموضوع والاجابة عليه . ثم جاء الجواب على لسان السيد يوسف الشيراوي أذ اتصل تلفونيا بالسيد تقي البحارنة وأبلغه أن صاحب العظمة يرى أن يبقى الوضع على ما هو عليه . ولما كان النشاط العمالي محظورا انذاك ، وأهداف الاتحاد أصبحت غير ذات موضوع . وقانون العمل الجديد لا يشمل قيام اتحاد عام لنقابات عمالية ، وانحلال كيان مجلس الإدارة وتفرق أعضائه عنه . فقد رأى الاعضاء المضي في تنفيذ خطة أغلاق المكتب ، ومن ثم تكليف السيد ميحمد قاسم الشيراوي بالاتصال ثانية بالمستر سميث وتسليمه صورة من هذا القرار .

وقد احتفظ السيد حسن علي المدني (أمين سر المجلس) بسجلات محاضر جلسات الاتحاد . . كما احتفظ السيد محمد قاسم الشيراوي بالباقي من الاوراق والسجلات والاثاث وبطاقات العضوية وغيرها . وصارت بيني وبينه مراجعات عديدة على فترات من الزمن لتفريغ تلك المعلومات والكتابة عنها ولم تسفر عن نتيجة .

من حديث الذكريات :

واليوم . . فأن البحرين في عهد المشروع الاصلاحى لجلالة الملك المعظم ، تشهد مرحلة جديدة في تاريخ العمل النقابي المنظم . يهدف الى تحقيق مكتسبات عمالية طال انتظارها ، كما تشهد وعيا عماليا وجماهيريا مشرقا ، وقيادة عمالية ونقابية متوثبة ومخلصة ومسئولة .

لذلك وجدت من المفيد تسجيل ما علق بذاكرتي عن اتحاد العمل البحراني ومسيرته حرصا على تجذير تاريخ العمل النقابي في البحرين ، وتدوين بعض الحقائق والأفكار والملابسات التي أحاطت بتكوين الاتحاد المذكور وذلك مع

اتحاد العمل البحراني

(للعمال والوطنيين واصحاب المهن الحرة)

المنامة - البحرين

Bahrain Labour Federation

MANAMA - BAHRAIN

الرقم
التاريخ: ١٥ شباط ١٩٥٨

حضرات اعضاء الهيئة التنفيذية لاتحاد العمل البحراني المحترمين .

بسم الله -

بمطلب

بناء على الرؤية التي ابداهها عدد من اعضاء اللجنة التنفيذية لجمعية ادارة اتحاد العمل البحراني في تقرير مستقبل الاتحاد فقد وضعت لجنة اقتراح بهذا الشأن بعد التشاور مع عدد من هؤلاء الاعضاء .
الرجاء من حضرات الاعضاء الكلام ابدأ رأهم بالموافقة وقد ما على مشروع القرار كما هو مبين ادناه في حالة نيله موافقة الاغلبية نستخذ الاجراءات المطلوبة اللازمة لتنفيذه .

١ - مالية الاتحاد : يتكفل يقوم كل من السيد احمد الحايك والسيد حسن المدني والسيد محمد رحمه التاجر والسيد احمد الساعني بمراجعة الحسابات مع كافة ما يذم الاتحاد من مصاريف او رواتب متدلفة واعاد كشف بالرصيد المتبقي معاد فاعلمه من قبل اللجنة المذكورة .

ب -

ببذع الرصيد المتبقي في البنك الهيلاني في الشرق الاوسط باسم

اتحاد العمل البحراني ضمن حساب متعدد يستحق فائدة سنوية .

ج - سحب المبلغ المذكور او جزء منه لا يتم الا بتوقيع جميع الاعضاء .

د - تحفظ الوصولات والاوراق المتعلقة بالمبلغ المذكور في البنك لدى

السيد احمد الجابر .

٢ - ادوات المكتب والاثاث

١ - يتم كل من السيد قاسم الشبراوي والسيد تقي البحرارنه بتسليم الاثاث

المستعار من مجلة صوت البحرين للسيد ابراهيم حسن محال .

ب - حفظ البطاقات والاثاث المتبقي والسلالات الخاصة بالمكتب لدى السيد محمد

قاسم الشبراوي .

٣ - اشعار المسؤولين

١ - سبق للسيد محمد قاسم الشبراوي ان اتصل بالسركتيد الاداري لحكومة البحرين المسترشد والمطلع على عملي الهيئة التنفيذية للاتحاد العمل البحراني لتقرير مستقبل

الاتحاد المذكور . وكان جواب المسترشد ان وفد بدراسة الموضوع وواجبته على ذلك

ب - تم جاء الجواب على لسان السيد يوسف الشبراوي ان اتصل بثلقتيها بالسيد

البحر

اتحاد العمل البحراني

(للعمال والموظفين واصحاب المهن الحرة)

الثامنة - البحرين

Bahrain Labour Federation

MANAMA - BAHRAIN

- ٢ -

- تنتهي الجوارته وابلغته ان صاحب العتمة يرى ان يبقى الوضع على ما هو عليه .
- ج - سيتم السيد محمد قاسم الشيرازي بالاتصال ثانياً للغة بالستروست
لا وابلغه صورة هذا القرار .
- د - التصرف في المبلغ المودع او اى جزء منه او ما يخص الاتحاد لا يتم الا بعد جلسة
يتم فيها جميع اعضاء المجلس الاداري السابق ان امكن او الهيئة التنفيذية الموثمة
على هذا القرار لاتخاذ قرار بهذا الخصوص .
- هـ - تم هذا القرار بعد عن ثلاث نسخ * واحدة لدى السيد احمد الحايبر والثانية
لدى السيد محمد قاسم الشيرازي والثالثة لدى السيد حسن المدني *

اسم العضو	مباقة على القرار	توقيع العضو و
١. محمد قاسم الشيرازي	محمد قاسم الشيرازي
٢. تقي الجوارنة	تقي الجوارنة
٣. حسن المدني	حسن المدني
٤. محمد الساعي	محمد الساعي
٥. احمد الحايبر	احمد الحايبر
٦. محمد رحمة التاجر	محمد رحمة التاجر
٧. ميمى العسدي	ميمى العسدي
٨. حسن واد الدتني	حسن واد الدتني

انا مراعى مع كل الاجراءات ان اتحدث به قبل اظن اني اعتد
عنه الضمان بان يمكن ايجاز ، حبه ان امكن الحاجة بالبيان كثيرة
وليس لديه متفقا من الوقت جيد

الاعتذار سلفاً للقارئ الكريم ، عن مغبة الخطأ والنسيان :

أولاً - التأسيس :

تأسس اتحاد العمل البحراني بقرار من هيئة الاتحاد الوطني (الهيئة التنفيذية العليا) وتولى عملية التأسيس السيد عبد الرحمن الباكر بالتعاون مع أعضاء مجلس إدارة الاتحاد ، وهيئته التنفيذية وهم :عبد الرحمن الباكر - محمد قاسم الشيراوي - تقي البحارنة - حسن المدني -محمد الساعي - أحمد الجابر - محمد رحمة التاجر - عيسى الحادي - حسن جواد الجشي . (ويحتمل أن مجلس الادارة كان يضم بالاضافة الى هؤلاء ، اثنين على الاقل من ممثلي العمال من بينهم السيد على السيد حسين المسعود . . .)

وقد أسندت الرئاسة الى عبد الرحمن الباكر ، ولكنه لم يكن دائم الحضور في اجتماعات المجلس ، بسبب مشاغله وارتباطاته في الهيئة ، واضطراره للسفر خارج البحرين ، كما أنه ربما امتنع عن الحضور قصدا رغبة في عزل العمل العمالي عن النشاط السياسي . ولذلك فأن محمد قاسم الشيراوي كان يترأس الجلسات بالنيابة .

وقد أسند منصب الامين العام الى تقي البحارنة ، وسكرتارية المجلس الى حسن المدني ، وأمانة الصندوق الى أحمد الجابر . وكان مدير المكتب الأول أحمد علي التاجر ، ومن بعده حسن عيسى الخياط . أما المقر فكان في شارع التجار بالمنامة في ملك الشيراوي (حاليا فوق متجر وبرادة علي أمين)

ثانيا- مهام الاتحاد وأنشطته:

١- لا يذكر أنه كان للاتحاد نظام أساسي ، أو لائحة داخلية متكاملة (فيما عدى ما نصت عليه محاضر الجلسات والقرارات الادارية) وقد كان من المفروض أن يتحول اتحاد العمل تلقائيا الى اتحاد عام للنقابات الحرة في البحرين ، التي كان يتوقع بموجب القانون المزمع اقراره ، أن يتم انتخاب تلك

النقابات في الشركات والمؤسسات العاملة في البحرين . ويعاد تشكيل الاتحاد ليصبح اتحادا عاما لجميع تلك النقابات ، عن طريق التمثيل الديموقراطي ، بوجود ممثل أو أكثر لكل نقابة منها في الجمعية العامة للاتحاد ، التي يوكل اليها انتخاب مجلس إدارة للاتحاد . وعلى الرغم من أن اتحاد العمل البحراني كان يشمل الموظفين واصحاب المهن الحرة . . ، فأن كل العمال أو جلهم ، من الذي انضموا اليه كانوا من عمال الشركات .

٢- كانت عضوية مجلس الادارة والهيئة التنفيذية شرفية تطوعية ، وكان حماس العمال في الانضمام الى الاتحاد كبيرا . حيث انضم اليه ما بين خمسة الاف الى عشرة الاف عامل ، وهو عدد كبير في ذلك الوقت . وكان العضو يدفع رسم دخول ثم رسم اشتراك قدره ثلاث روبيات كل شهر . ولم يطلب الاتحاد معونة مادية من أية جهة . وكان المبلغ المسلم الى البنك البريطاني عند حل الاتحاد حوالى ثلاثين ألف روبية ، والمبلغ المخصص لدفع المصاريف والديون المتخلفة حوالى ستة الاف روبية .

٣- أهتم الاتحاد منذ يوم تأسيسه مباشرة حل قضايا العمال وبمناقشة مسودة قانون العمل والعمال مع ممثلي العمال في لجنة وضع القانون .

(أ) - فبالنسة لقضايا العمال فقد كانت متعددة مثل الفصل التعسفي - أصابات العمل والتعويض - الاجور - الخلافات بين العمال وأصحاب العمل - منح قروض للمحتاجين منهم لبناء منزل أو للعلاج . . الخ . . وكان الاتحاد يتصل بأصحاب العمل مباشرة (مثل بابكو) ويعرض الشكوى ويتم التفاهم في معظم الاحوال . وإذا تعذر إيجاد حل ، كان الاتحاد يقوم بتفريغ الشكوى وظروفها في لائحة يرفعها الى ألى رئيس دائرة العمل والعمال الشيخ علي الخليفة ، حيث يستدعي مسئول الشركة ويقوم بحلها وديا . وعلى الرغم من أن الحكومة لم تعترف رسميا باتحاد العمل ، فأن الظاهرة

المشجعة التي يجب تسجيلها بهذا الصدد هي أن التعاون بين اتحاد العمل وأصحاب العمل وفي مقدمتهم بابكو من جهة ، وبين الاتحاد ودائرة العمل والعمال من جهة اخرى - كان يتم بصورة سلسلة . بل أنه على ما يبدو أن معظم الشركات وبابكو بالذات كانت تترتاح للتفاوض مع هيئة عمالية مسئولة تفهم الالتزامات القانونية للجانبين ، كاتحاد العمل ، بدلا من المواجهة الفردية مع كل عامل على حدة .

ومن الجدير بالتسجيل أيضا ، أن الخبر العمالي المستر (مارشال) المكلف بأعداد مسودة قانون العمل والعمال كان متحمسا لانجاز المهمة ، وميالا بجانب حقوق العمال المشروعة .

كما أنه لم يجد حرجا في عقد اجتماعات منتظمة مع هيئة اتحاد العمل لحل المشكلات التي كان يستعصي على لجنة وضع القانون حلها .

(ب) - أما فيما يتعلق بمناقشة مسودة قانون العمل والعمال من قبل اتحاد العمل ، فقد كان بمثابة الشغل الشاغل للاتحاد منذ تأسيسه ، وحتى أنجاز القانون بالصورة التي اتفق عليها في لجنة وضع القانون الرسمية ، والتي تم تشكيلها على النحو التالي :

١- ثلاثة أعضاء ممثلين عن أصحاب العمل (الشركات والافراد) أحدهم من بابكو (السيد مكالوك) والثاني عن الشركات الاخرى - والثالث عن القطاع الخاص (رشحت الغرفة التجارية السيد محمد قاسم الشيراوي) .

٢- ثلاثة أعضاء عن العمال تم انتخابهم من قبل عمال البحرين وتحت اشراف لجنة محايدة أذكر من أعضائها السيدين صادق البحارنة وقاسم بن أحمد فخرو . وكان الفائز بأكثر أصوات العمال هو السيد علي السيد حسين المسعود . .

٣- ثلاثة أعضاء من طرف الحكومة (المستر سميث - السيد محمود العلوي . . .)

وتولى رئيس دائرة العمل والعمال الشيخ علي الخليفة رئاسة اللجنة المكلفة

بوضع القانون ، وذلك بمساعدة خبير عمالي (مستر مارشل) وخبير قانوني .
(ج) وبالنسبة لانشطة اتحاد العمل البحراني الخارجية ، فإنه لم يتبن أي نشاط
مع المنظمات العمالية خارج البحرين . ولكن كانت تصله بالبريد دعوات
من المؤتمرات العمالية ، والنشرات التي كانت تصدر في الاغلب من
المعسكر الغربي (الاتحاد الحر لنقابات العمال) وكذلك من المعسكر
الاشتراكي (اتحاد العمال الاشتراكي الديموقراطي . .)

٤- فيما يتعلق بمناقشة مسودة قانون العمل والعمال ، لا بد من الاشارة
بالدور الذي قام به السيد محمد قاسم الشيراوي المشرف باعتباره
حامل الراية في الدفاع عن حقوق العمال ، وقد ابلى بلاء حسنا في
التوقف عند كل كبيرة وصغيرة من النصوص والفقرات التي تنطوي
على أدنى تحايل على حقوق العمال ، وكان يقترح بدلا منها مستعينا
بما توفر له من القوانين العمالية في البلدان الراقية . بل تعدى ذلك في
الاصرار على منح العمال حقوقا غير واردة اصلا في قانون العمل
البريطاني ولا في قوانين أخرى من مثل أن يحتسب للعامل الوقت
النضائح خلال المواصلات من وألى مقر العمل ، ضمن ساعات
العمل . . . بالاضافة الى فقرات أخرى كان أصراره عليها يثير حفيظة
مثل شركة بابكو على الخصوص . مما دفعها للتهديد بنقل عملياتها من
البحرين الى عدن ، على ما سيأتي ذكره .

ومن الجدير بالذكر أن الخبير العمالي (السيد مارشال) قد حمل معه الى
البحرين نسخة من القانون البريطاني لشئون العمال والنقابات الحرة ، ليكون
الاساس الذي يدور النقاش حوله من قبل أعضاء لجنة القانون . وقد شطب
مندوبوا الشركات فقرات كثيرة من مسودة القانون وطالبوا بألغائها أو أستبدالها
أو تعديلها . أما الجانب العمالي وبأصرار من محمد قاسم الشيراوي فكان
يتمسك بما يراه متماشيا مع مصلحة العمال .

وكان الشيراوي يعرض نتائج المباحثات أولا بأول على هيئة اتحاد العمل ،

حيث ندرس معه التعديلات المقترحة ونتوصل الى الصيغة المطلوبة ، والتحصير للأجتماع القادم وهكذا دواليك .

وقد وصلت الازمة في سن مواد القانون أوجها منذ اواخر عام ١٩٥٥ وتباطأت اللجنة في أعمالها حتى شبه عبد الرحمن الباكر مسيرتها ب «السلحفاة» وتعطل أنجاز القانون عن موعده . وكتب الباكر مستنكرا عدم أنجاز القانون خلال العام ١٩٥٥ متهما الحكومة بانحيازها الى أصحاب العمل وخضوعها لضغوط شركة بابكو . . حسبما تم ايراده انفا من الفقرات التي كتبها بهذا الخصوص .

أما بالنسبة لنقاط الاختلاف فكانت كثيرة جدا تكاد لا تخلو فقرة منها ، ومن بين الأمثلة عليها : مفهوم الخدمة المتواصلة للعامل ، وأن تعتبر فوائدها للعامل سارية حتى مع انتقال العامل الى مستخدم جديد - ومنها عدم اشتناء عمال الفلاحة - ومنها اعتبار حقوق العمال في شركات المقاولات التي تلجأ اليها الشركة الأصلية ، كخدمة مستمرة مع الشركة الاصلية اذا تبين أن اللجوء الى المقاولين يستهدف تضييع حقوق العمال بنقلهم الى مقاولات مؤقتة - ومنها إنهاء خدمة العامل من جانب صاحب العمل ووضع شروط تحول دون استغلال صاحب العمل لهذا الشرط ، وتعطي العامل حق التظلم من الفصل .

- ومنها أن تتولى الشركات تحويل اشتراكات عمالها في النقابة ، الى النقابة مباشرة .-

- ومن أعسر تلك المفاوضات ماكان يتعلق بزيادة الاجور عن طريق التفاوض الجماعي مع النقابات وعقد اتفاق معها لسنتين أو أكثر ثم التفاوض من جديد على زيادة الاجور بما يتناسب مع التضخم وارتفاع مستوى المعيشة . . الخ . . الخ

ألا أن الخلاف الاكبر الذي وصل الى حد التصادم بين ممثلي العمال وشركة بابكو هو المتعلق بالبند (١٣-ب) المادة ٣٧ - وفقراتها المتعلقة بـ«حقوق الإدارة» فقد اصبر محمد قاسم الشيراوي على أن يضاف الى هذه الفقرة ما يفيد بضرورة

حصول الشركة على موافقة المستخدم على ما تقرره الشركة بشأنه ..
وللعلم فإن المادة ٣٧ تنص على حق مجالس إدارة الشركات المطلق في
تقرير ما تشاء بالنسبة للعاملين فيها، في التوظيف والفصل والتأديب والترقية
وتخفيض الرتبة، وتعليق خدمات الموظف، ووضع أو تغيير الجداول، وأساليب
العمل، والاجراءات، وأزالة أو أنشاء الاجهزة والمعدات بدون حصر لتلك
الحقوق .. الخ ..

فلما تأزم الوضع في المفاوضات على هذه المادة، دعت «بابكو» اتحاد العمل
البحراني الى اجتماع عاجل في منزل رئيسها (أو نائب الرئيس) المستر
سكينر .. وهو منزل أنيق في المنامة يمتاز بحدائقه الغناء، وكونه مكيف الهواء ..
(ومكان المنزل اليوم هو المجلس الوطني) ..

فلما بدأ الاجتماع فاجأنا عن الشركة المستر (ماكالكوك) بتلغراف ارسلته الى
بابكو الشركة المالكة (كالتكس) حيث ذكرت فيه أنه إذا أصر ممثلو العمال على
اقتراح محمد قاسم الشيراوي بتقييد حق الادارة بأن يكون مشروطا بموافقة
المستخدم عليه، فإن الشركة سوف تنقل عملياتها من البحرين الى عدن !! ..
ولما رأينا مظاهر الاهتمام الجدي والحساسية الشديدة من جانب بابكو
بخصوص هذه المادة، قمنا بمناقشة الموضوع من جديد مع الخبير العمالي المستر
مارشل، ثم اجتمعنا في الاتحاد، حيث اقتنع الشيراوي بأن هذا الطلب غير
معقول، و استبدلنا العبارة بأخرى تنص بأن يكون قرارات ادارات الشركات فيما
يتعلق بالعمال

ذات أسباب ومبررات معقولة ولا تتعارض مع نصوص القانون . ألا أن
الاتفاق جرى في لجنة وضع القانون بعد ذلك، على حذف فقرة (المبررات)
والاكتفاء بنص يفيد أن الشركات في مزاولتها للحقوق المنصوص عليها في هذه
المادة (٣٧) يجب أن لا تخالف ما هو منصوص عليه في هذا القانون أو أي قانون
اخر .

وفيما يتعلق بمسودة القانون المعروض للمناقشة فقد كان يضم حوالي ٤٠

صفحة تقريبا . وأكثر من ٩٢ مادة بفصولها وفروعها ، وذلك بالاضافة الى ثلاثة فصول ملحقة به (جداول) . وتضمن الفصل الثالث منه إنشاء النقابات العمالية من المادة ٣٩ الى المادة ٩٢ .

تضمنت فقراتها عناوين فرعية تضمنت أحكاما مثل : العضوية - وعدم اعتبار نشاط النقابة غير قانوني - وأضفاء حصانة قانونية عليها - وحق انشاء اتحاد للنقابات ، واتحاد عام - وحق التفاوض الجماعي مع أصحاب الاعمال على الاجور وشروط وظروف الخدمة . - وأنشاء هيئة فض المنازعات ولجان التحقيق - ولجان التحكيم - وحق الاضراب عن العمل - وحماية النقابة من اتهامها في حالات الاضراب بتهمة التحريض - وحق المقاطعة السلمية - هذا بالطبع بالاضافة الى المواد المنظمة لمسئولية النقابات في مخالفة القانون . . . الخ . كما نصت المادة الاخيرة على أن تكون الصيغة العربية للقانون ، هي الصيغة المعتمدة .

خاتمة المطاف :

في نهاية هذه الحلقات عن تاريخ وأحوال (اتحاد العمل البحراني) وبسبب غياب النسخة الاصلية لدى السيد محمد قاسم الشيراوي التي وقع عليها بالموافقة أعضاء لجنة وضع قانون العمل والعمال ، لا يمكننا الجزم بأن النسخة التي بين أيدينا هي النسخة الاصلية المعتمدة كما رفعت الى صاحب العظمة بعد شهر أوغسطس من عام ١٩٥٦ . والتي - كما قيل - أن صاحب العظمة وقع عليها بالموافقة خلال شهر سبتمبر ١٩٥٦ . . واستلمها مستشار الحكومة السيد بلكريف ، واحتفظ بها في درجه . . حتى أصدرت الحكومة قانون العمل والعمال لسنة ١٩٥٧ . بعد إجراء تغييرات عليه ربما وجدت أنها أكثر تناسبا مع زمن ما بعد (هيئة الاتحاد الوطني) . . . والله أعلم .

(5th January 1956)

DRAFT/

THE BAHRAIN LABOUR ORDINANCE 195-

An Ordinance to regulate the relations between Employers and Employed Persons and to provide for certain minimum conditions of employment; to regulate Trade Unions; to provide for the establishment of Arbitration Boards and Committees of Enquiry in connection with Trade Disputes; and to regulate Trade Disputes.

PART I - Preliminary

- | | | |
|------------------|---|----------------------------------|
| <u>Section 1</u> | This Ordinance may be cited as the Bahrain Labour Ordinance 195- and shall come into force on the day of 195-. | <u>Title and Commencement</u> |
| <u>Section 2</u> | It shall be an offence under this Ordinance to employ any child under fourteen years of age. | <u>Restriction on Employment</u> |
| <u>Section 3</u> | In this Ordinance, unless the context otherwise requires:- | <u>Interpretation</u> |
| (a) | "basic pay" means the rate of payment made by an employer for work done or services performed during an hourly, a daily, weekly, fortnightly or monthly period and shall exclude all other remuneration; | |
| (b) | "Commissioner of Labour" means the Commissioner of Labour appointed under this Ordinance; | |
| (c) | "continuous service" means uninterrupted service with the same employer from the coming into force of this Ordinance or from the date of commencement of service, whichever is the later; such service shall not be regarded as having been interrupted by periods of absence from work because of weekly rest days, paid holidays, annual vacation, sick leave, bereavement leave, or by other periods of absence authorised by the employer, unless any such period of absence exceeds the appropriate period prescribed in this Ordinance, or in the contract of service under which the employed person is employed, or exceeds the period of absence authorised by the employer; | |
| (d) | "contract of service" means any contract, whether written or oral, expressed or implied, whereunder any person is employed either for any period of time or for the execution of any work, for remuneration in money or money's worth; | |
| (e) | "domestic servants" means persons employed as indoor household servants, or in a similar capacity when employed in and about a private household; it does not include such persons employed at a place of business or in a factory, nor does it include waiters, attendants, doorkeepers, porters, cooks, kitchen workers or other persons employed in similar capacities by hotels, coffee-houses, restaurants or similar businesses or by clubs; | |
| (f) | "employed person" means any person not specifically excluded from the operations of this Ordinance | |

Section 20 (a) If any employer has established any form of monetary scheme for the benefit of his employed persons and the amount contributed by the employer to such fund or funds and which is due to the employed person under the rules of the scheme, is equal to or exceeds the leaving indemnity due to an employed person by virtue of Sections 18 or 19 of this Ordinance, the amount of such contributions shall be paid to the employed person in lieu of the prescribed leaving indemnity; if, however, the amount of such contributions is less than the amount to which the employed person is entitled as a leaving indemnity the employer shall pay to the employed person the amount of any such contributions plus such sum as will bring the total payment to that to which the employed person is entitled under Sections 18 or 19. In the case of a pension scheme, the employed person shall be entitled to choose between the pension and the leaving indemnity. If his employment is terminated before he becomes entitled to the pension, he shall then be entitled to receive his leaving indemnity or the amount payable to him under the pension scheme, whichever is the greater.

Leaving Indemnities in relation to Provident Funds and Pension Schemes

of the total amount, if any, contributed by the employer to the fund or funds and interest, if any, thereon;

(b) Nothing in this ~~Section~~ shall preclude the employer or the trustees of any monetary scheme from deducting from such payments as may be due to the employed person the amounts of outstanding balances of loans and any interest thereon made to the employed person by the employer or the trustees against the funds of such monetary schemes.

Section 21 On termination of contract of service, the employer shall, at the request of the employed person, provide free of charge a certificate in which only the dates of his engagement and ~~the~~ nature of the work he performed shall be given. If required by the employed person, the certificate shall also state the basic pay, allowances, and privileges, if any, to which he was entitled.

Certificate of Discharge Service

(or have attached hereto a statement of)

21 (a) The normal maximum working day and working week, for any employed person, exclusive of any intervals allowed for rest or meals, shall be 8 hours and 48 hours respectively, except during the month of Ramadhan when the normal maximum working day shall not exceed 6 hours and the normal maximum working week 36 hours.

Hours of Work

Hours of Work, Overtime, and Rest Periods

(b) Where an employed person whose basic pay is fixed at an hourly, a daily, weekly or fortnightly rate is required to work more than 8 hours on any day (or during the month of Ramadhan more than 6 hours on any day) the employer shall pay to him the normal rate per hour for such overtime increased by not less than 25 percent; provided that in employment on a ship, steamer, boat or other waterborne craft, an employer and an employed person may agree to a fixed allowance in lieu of overtime. In employment on any other craft, an employer and an employed person may agree to a fixed allowance in lieu of overtime.

(c) Any class of employed persons...

Section 35

In the event of the death of an employed person, the employer shall pay to the Minors' Department of the Government of Bahrain (or, where the employed person was a person to whom the powers conferred by Her Britannic Majesty's Bahrain Orders 1952 and 1953, extended, to Her Britannic Majesty's Political Agent in Bahrain) for distribution to the heirs of such person any wages or other payments to which the deceased was at the time of his death entitled. When the employed person was a Muslim such wages or other payments shall be distributed in accordance with Sharia law.

Payments on
Death of an
Employed
Person

Section 36

- (a) It shall be the duty of employers to take all reasonable and practicable steps to secure the safety and protect the health of persons in their employ during working hours, and particularly of those who are required to work in areas or occupations with the greatest risk.
- (b) Employed persons shall not wilfully interfere with or misuse any means, appliance, convenience or other things provided in pursuance of this Ordinance for securing the health and safety of persons employed, and where any means or appliance for securing health or safety is provided it shall be used by employed persons.
- (c) Every employer shall keep a ~~register~~^{record} of accidents, and if any of his employed persons dies or is incapacitated for more than three days because of an accident arising out of and in the course of his employment, he shall notify the Commissioner of Labour of the accident as soon as practicable after he has learned of it. The notification shall give the name and address of the employed person, the date of the accident, a brief account of the accident, and the nature of the employed person's injury or injuries.

Safety Precautions
and Reporting of
Accidents

Article 37

Nothing in this Ordinance shall be construed to restrict an employer in the exercise of the right to hire persons of his own choosing, to discharge, discipline, promote, demote or suspend employed persons, to establish or revise schedules, methods and procedures, to install remove or change equipment, and to direct completely the operations of his establishment, and the enumeration of the rights above shall not limit such further management rights as are not specifically enumerated, provided however that in the exercise of such rights the employer shall not violate the provisions of this or any other Ordinance.

Management
Rights

Article 38

- (a) No person shall be denied employment solely by reason of his refusal to join or not to join a trade union, and no person shall contract to require that a person shall be or shall become a member of a trade union as a condition of obtaining employment.
- (b) No employer shall discriminate against any employed person by reason of his being or not being a member of a trade union.

Right to
Employment

PART III - Trade UnionsSection 39

The following persons shall not become members of a trade union or take part in the promotion or formation of a trade union :-

Persons who may
not be Members

- (a) members of management. (The term "member of management" means any individual having authority, in the interest of the employer, to hire, transfer, suspend, lay off, recall, promote, discharge, assign, reward or discipline other employed persons, or to adjust their grievances or to effectively recommend such action, if in connection with the foregoing the exercise of such authority is not of a merely routine or clerical nature, but requires the use of independent judgment.)
- (b) ~~persons in the same industry, craft or occupation, or in industries, crafts or occupations which are similar or are joined in production;~~ *(such classes of persons as*
- (c) ~~other classes of persons who, after consultations by the Commissioner of Labour with representatives of such classes of persons, may be precluded from joining a trade union or assisting with the promotion or formation of a trade union.~~ *(by legislation*

Section 40 Each trade union shall :-

Definition of Membership of Trade Unions

- (a) comprise not less than twenty members;
- (b) be formed :-
- (i) by employed persons in the same establishment, that is, company, factory, workshop, Government department, or commercial business, either as a trade union covering all occupations or as a trade union covering an occupational or departmental division within such establishments;
- or
- (ii) by employed persons in the same industry, craft or occupation, or in industries, crafts or occupations which are similar or are joined in production;
- or
- (iii) where it is impossible to form a trade union as indicated in (i) and (ii), by employed persons employed by two or more employers.

Section 41

A trade union registered under this Ordinance shall be a body corporate and may sue and be sued and be prosecuted in the name under which it is registered.

Trade Union to be Legal Entity

Section 42

- (a) The purposes of any trade union shall not, by reason merely that they are in restraint of trade, be deemed unlawful so as
- (i) to render such trade union or any member thereof liable to criminal prosecution for conspiracy or otherwise; or
- (ii) to render void or voidable any agreement entered into or trust created by a trade union.
- (b) Nothing in this Part of this Ordinance shall enable any court to entertain any legal proceedings instituted with the object of enforcing or recovering damages for the breach of any of the following agreements :-

Trade Union not unlawful

- (i) any agreement between members of a trade union as such concerning the conditions on which any member for the time being of such trade union shall or shall not be employed by any employer;
- (ii) any agreement for the payment by any person of any subscription or penalty to a registered trade union;
- (iii) any agreement for the application of the funds of a registered trade union to provide benefits to members or to discharge any fine imposed upon any person by any court;
- (iv) any agreement made between one registered trade union and another;
- (v) any bond to secure the performance of any of the abovementioned agreements;

but nothing in this sub-paragraph shall of itself be deemed to constitute any of the abovementioned agreements or bonds unlawful.

Section 43

- (a) An action against a trade union or against any members or officials thereof on behalf of themselves and all other members of the trade union shall not be entertained in any court if the action is in respect of any tortious act alleged to have been committed by or on behalf of the trade union, that is, where the act is a wrongful act which is alleged to have caused legal damage to the person or persons seeking to bring the action and for which legal remedy in the form of an action for damages would otherwise be possible.
- (b) Nothing in this Section shall affect the liability of a trade union or of any official thereof to be sued in any court touching or concerning the property or rights of a trade union except in respect of any tortious act committed by or on behalf of a trade union in contemplation or furtherance of a trade dispute.

Immunity of Trade Unions from Actions of Tort

Section 44

- (a) Every trade union shall apply for registration in accordance with the provisions of this Part of this Ordinance within two months of the date of its formation or of the date of coming into force of this Ordinance whichever is the later.
- (b) Every trade union which fails to apply for registration within the time limit specified and every officer thereof shall be guilty of an offence under this Ordinance.

Registration of Trade Unions

Section 45

- (a) Application for registration may be made by any five or more members of the trade union subscribing their names to the rules of the trade union and by otherwise complying with the provisions of this Part of this Ordinance with respect to registration.
- (b) Every such application to register a trade union and

Method of Registration

of such union to take such action, and each of whom shall subscribe his name to the rules of the confederation, and who together shall otherwise comply with such provisions of this Part of this Ordinance as relate to registration of trade unions.

- (d) Any such application to register the confederation and its rules shall state the name and address of the confederation and the names of the trade unions or federations of trade unions affiliated to it, and shall be sent to the Registrar with two copies of the said rules and a list of the titles, names, addresses, occupations and places of employment of the members of the committee of management of the confederation, together with the names of the trade unions of which they are members and particulars of any offices they hold in those unions.
- (e) The rules of the confederation shall contain provisions in respect of the several matters specified in Section IV of the First Schedule to this Ordinance.
- (f) The confederation of trade unions shall have the right to act on behalf of any trade union or federation affiliated to it if so authorized by such union or federation.

Section 65

The provisions of this Ordinance which relate to the formation of trade unions and to the registration of trade unions and their rules shall apply to the formation of federations and the confederation of trade unions and to the registration of them and their rules.

Formation of
Federations and
Confederation
of Trade Unions

Section 66

Nothing in this Ordinance shall be construed in such a way as to prohibit the members of any trade union or federation of trade unions or of the confederation of trade unions from electing a Bahraini, even if he is not an employed person, to the committee of management of any such union or federation or to the committee of management of the confederation of trade unions.

Membership of
Committee of
Management

Section 67

Representatives designated or selected for the purposes of collective bargaining by the trade union which represents the majority of any group or groups of employed persons in a unit appropriate for such purposes, shall be the exclusive representatives of all the employed persons in such group or groups for the purposes of collective bargaining in respect of rates of pay, wages, hours of work, or other conditions of employment.

Collective
Bargaining

PART IV - Trade Disputes

Section 68

- (a) Any trade dispute, whether existing or apprehended, may be reported to the Commissioner of Labour by or on behalf of either or both the parties to the dispute, and the Commissioner of Labour may thereupon take such steps as seem to him expedient for promoting a settlement of the dispute including :-
- (i) steps to induce the parties to meet together by themselves or through their representatives, under the chairmanship of a person selected by or nominated by the Commissioner of Labour;

Reporting of
Trade Disputes

الفصل الثالث

ندوات

مداخلة في ندوة: حقوق المرأة

أولاً: المرأة وأوضاعها الاجتماعية

المرأة المتعلمة في البحرين هو موضوع الأمس البعيد ، منذ سمح بتعليم البنات في أول مدرسة للبنات أنشأتها مدرسة الإرسالية الأمريكية أوائل القرن الماضي ، تخرجت منها ممرضات وناشطات اجتماعيات . . تم تلا ذلك إنشاء أول مدرسة ابتدائية نظامية للبنات عام ١٩١٩ . وهو سبق للبحرين على جيرانها من دول الخليج العربي .

والمرأة الممارسة لحق التمثيل الديمقراطي تمكنت من التصويت والترشيح في انتخابات البلديات ، خلال أوائل الخمسينات من القرن الماضي ، تلا ذلك تعيينها في مناصب حكومية ، ثم في الوزارات والسفارات ، انتهاء برئاسة الجمعية العامة للأمم المتحدة .

كما تم تعيين المرأة في مجالس الشورى المتعاقبة ، حيث يضم المجلس الحالي حوالي ١٤ عضوا نسائيا من بين ٤٠ عضوا ، كما أن من بين المرشحات المتعددات للمجلس النيابي الأخير نجحت امرأة واحدة في الحصول على عضوية البرلمان المنتخب ؛ وهي خيبة أمل تسعى المنظمات النسوية لتلافيها في الانتخابات البرلمانية المقبلة .

والمرأة العاملة دخلت اليوم في البحرين في حقل التجارة والأعمال والحمامة ، والوظائف الهندسية والفنية والرياضة وغيرها ، تتبوا اليوم مكانة مرموقة وأعداداً متزايدة في القطاع الخاص كذلك . وقد احتفلت شركة طيران الخليج هذا العام بتخرج أول بحرينية في وظيفة طيار تلتحق بطيران الخليج .

لقد أصبح للمرأة في البحرين اليوم مكان بارز في الدولة والمجتمع ، وفي التجارة والصناعة والخدمات والتدريس العام والجامعي ، وإدارة البنوك وعلى سائر الأصعدة الأخرى .

وأود في هذه الإطلالة السريعة أن أتكلم بإيجاز عن أحوال وظروف المرأة في البحرين ، في ضوء التشريعات المحلية والدولية ، من منظور حقوق الإنسان وحقوق المرأة .

ثانياً: المرأة والتشريعات

إن التشريعات بالنسبة للمرأة العاملة في البحرين مشمولة بقانون العمل ، الذي يتماشى بصورة عامة مع قوانين العمل المعترف بها دولياً ، بالنسبة للانضمام إلى نقابات العمال ، وحقها في العطل بالنسبة للحمل والولادة وساعات الرضاعة ، والتساوي في الأجور والضمان الاجتماعي والراتب التقاعدي ، إلى غير ذلك ، كما ضمن لها الدستور حرية الممارسة السياسية في الترشيح والانتخاب للمجلس النيابي والتعيين في الوظائف الحكومية ، بما في ذلك الوزارات والسفارات وغيرها . كما ضمن لها القانون المدني الحقوق المدنية الأخرى ، أما ما يتعلق بقانون الأحوال الشخصية فهو مازال موضع نظر .

ذلك أنه بناء على معارضة علماء الدين في البحرين ؛ فقد تم استبعاد قانون الأحوال الشخصية من مجموعة التشريعات في القانون المدني ، الذي تم إصداره في أواخر التسعينات من القرن الماضي . وينقلنا هذا الحديث مباشرة إلى موضوع أعم ألا وهو التعارض بين الإعلان الدولي لحقوق الإنسان والمرأة في بعض مواده ، وبين مقتضيات الشرع الإسلامي كما يراها فقهاء الشريعة الإسلامية في البحرين ، وفي معظم الدول الإسلامية الأخرى ، وعلى الأخص منها ما يتعلق بالزواج والطلاق ، والميراث والحضانة والبلوغ ، والنفقة وشئون الأسرة عموماً ، وطرق التقاضي الشرعية في تلك الأمور .

وقد وضعت وزارة العدل مسودة مشروع للأحوال الشخصية منذ سنوات

ناقشته مع علماء الدين ، حتى استقر رأيها أخيراً على مسودة مشروع مرن يأخذ في الاعتبار مراعاة احكام الشرع الإسلامي ، لكل من مذهبي السنة والشيعه ، وغيرت المسمى إلى (قانون أحكام الأسرة) ، بعد الاستجابة إلى حد كبير لملاحظات علماء الدين ؛ وقد حققت الدولة نجاحاً في إقناع العلماء بالتخلي ، إلى حد كبير ، عن التمسك والإصرار على مبدأ عدم تدخل الدولة في تقنين أحكام الشريعة الإسلامية وحرية القضاء الشرعي في إصدار الأحكام ، على أساس اجتهاد القاضي بدلاً من تقنين الشريعة ، في صورة مواد منظمه للأحكام وأصول التقاضي في القضايا الشرعية . وتم رفع مسودة قانون أحكام الأسرة إلى المجلس النيابي للنظر فيه وإقراره . وسوف تستغرق تلك المناقشة الحامية مدة من الزمن على ما يبدو قبل إقرار المشروع أو تعديله ، نظراً لوجود بعض التحفظات عليه من العلماء والقضاة ذوي النفوذ والكلمة المسموعة داخل المجلس النيابي وخارجه .

وفي الختام فإن مستقبل المرأة في البحرين سائر نحو التقدم الجريء ، لا سيما بسبب توفر التمثيل الشعبي من خلال البرلمان ومؤسسات الشفافية ، والرقابة والجمعيات النسائية ، ومنظمات حقوق الإنسان .

حيث يتزايد الوعي السياسي والاجتماعي وتعالى الأصوات الحرة لإنصاف المرأة ، سواء في حياتها الأسرية والمنزلية أو حقوقها المدنية بصورة عامة .

ولا شك في أن تزايد الوعي الاجتماعي والأسري في البحرين ، ولا سيما في المجتمعات التقليدية ، سيكون له أثره في تحسين ظروف المرأة في البيت والمجتمع ، على أساس من الحب والاحترام ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (سورة الروم - الآية ٢١) .

(*) مكتبة الاسكندرية - منتدى الإصلاح العربي - المؤتمر الرابع (حقوق الإنسان المرأة - التنمية) ١ - ٣

مارس ٢٠٠٧ .

حول الإدارة والمدير

بسبب ضيق الوقت ، رأيت في هذه المداخلة أن أتجاوز المقدمات ، تاريخية كانت أو بحثا أكاديميا ؛ لأننتقل إلى موضوع الندوة مباشرة ، من واقع التجارب العملية في هذا الميدان ، وذلك في شكل ملاحظات سريعة :

١- من مواصفات المدير أن يكون وقورا ومحترما، ويتمتع بصفات إنسانية

٢- نبذة موجزة :

اشتداد المنافسة بين الشركات جعلها مضطرة لتحقيق أكبر قدر من الإنتاج والمبيعات بأقل الأسعار . ولتحقيق هذا الهدف ، نشأت مشكلات بالنسبة لأجور العمال ، وخفض سعر التكلفة وترشيد النفقات ، واختيار الأسواق التي يمكنها التمرکز فيها أكثر من غيرها إلى غير ذلك . كما أن زيادة كمية الإنتاج خلقت مشكلات أخرى تتعلق بتطوير آلات الانتاج ، وشراء معدات جديدة ذات تكاليف باهظة الثمن . وتطورت طرق الإنتاج من الأسلوب القديم الذي يقوم فيه العامل بتصنيع السلع بجميع مراحلها ، إلى الأسلوب الجديد الذي يقتضي تدريب العامل ليتخصص في إنتاج مرحلة واحدة فقط من مراحل الإنتاج ، وذلك بعد أن تم تقسيم الإنتاج إلى مراحل متعددة لتحقيق تدفق سريع لإنتاج السلع ، وتحسين جودتها ، وخفض السعر بالإنتاج الكمي .

إن شراء معدات حديثة للمنافسة ، تحتاج إلى رأسمال كبير ؛ لذلك يضطر المنتجون إلى الحصول على قروض وسلف من البنوك ومؤسسات التمويل . وهذا بدوره جعل أصحاب التمويل في مركز قوي لإملاء شروطهم على المؤسسات المقترضة ؛ فلم يعد أصحاب العمل والتجار لديهم الحرية المطلقة في إدارة

مؤسساتهم كما يشاؤون دون تدخل من جهات التمويل .

من هنا يجب أن يكون لكل مؤسسة مجلس إدارة ومدير عام مقتدر على التعامل مع تلك المشكلات المعقدة وكذلك المشكلات المتفرعة عنها ولاسيما الجوانب الفنية والمالية والعنصر البشري ، والمواد الخام ، والأسواق المتغيرة وأنواع المنافسة إلى غير ذلك . . .

ومن هنا أيضا نشأ فن الإدارة كعلم تخصصي ، وكتجارب عملية متراكمة خلال تاريخ إدارة المؤسسات .

ونحن نعلم أن المشاريع الاقتصادية (صناعة-زراعة-تجارة- خدمات الخ . .) وكذلك عمل المؤسسات ، قوامها الأساسي هو المجهود البشري . (عمال - فنيون - إداريون- مروجون . . الخ) بالإضافة إلى الإسناد الفني وأدوات الإنتاج ؛ لهذا فإن من أهم التعريفات لمعنى الإدارة هو : (فن توجيه واستثمار الطاقات البشرية لخدمة مشروع معين) .

ومن أجل تحقيق كل ما ذكر أعلاه ، يجب أن يكون المدير العام قادرا على القيام بأدوار متعددة : كعالم في الاقتصاد ، وفي علم النفس للتعامل مع البشر من العاملين معه أو المستهلكين لبضائعه أو خدماته ، وأن يكون ملما بالشئون المالية لوضع سياسة الإقراض والاقتراض ، وسياسة الشركة المالية ، والمصروفات وتحديد أسعار الكلفة للسلع والخدمات التي يقدمها الخ . . وعليه أن يكون متمرسا بفن إدارة المعلومات ، والإحصاء ، والجداول البيانية ، للاستفادة منها وتضمينهما في تقاريره إلى مجلس الإدارة . كما يجب أن يكون مؤهلا لقياس مستوى الأداء البشري والإنتاجي والخدمي في مؤسسته ، وأن يكون قادرا على رسم سياسة المكافآت والتشجيع ، وإغراء العاملين معه على زيادة الإنتاج . . إلخ وأخيرا وليس آخرا ، على المدير التنفيذي مهمة تشكيل أجهزة وإدارات فرعية يرأسها مدراء فرعيون متخصصون في أعمال الشركة (مدير مالي -مدير إنتاج- مدير شئون التوظيف -مدير علاقات عامة - مدير ترويج وتسويق الخ .) تلك هي أهم واجبات المدير العام ، ولكن في أحوال خاصة تقوم المؤسسات

بالاعتماد على جهات خارجية متخصصة ، لتقديم استشاراتها المالية وبعضها لتوفير خدمات خاصة أخرى وغير ذلك ، إذا دعت الحاجة .

٣- بعض المبادئ والأسس في الإدارة:

١- لقد تطورت الإدارة عن طريق تراكم التجارب والدراسات النظرية والتطبيقية حتى أصبحت فنا قائما بنفسه . وهناك من يطلق عليه (علم) الإدارة ويعده علما مستقلا (ساينس) ، ولكن يبدو أن إطلاق صفة العلم على موضوع الإدارة ليس دقيقا بالمعنى العلمي الخالص ، وسابق لأوانه . والسبب أن فن الإدارة لصيق بمكونات بشرية لا تخضع في حركتها للقوانين العلمية . لهذا يكتفي معظم المتخصصين بإطلاق وصف (فن الإدارة) بدلا من غلم الإدارة . ويمكن أن نقول : إن الإدارة في هذا العصر هي أكبر من كونها «فنا» لكنها أصغر من أن توصف بأنها من العلوم . ومع ذلك فإن الإدارة تتطور سريعا في مجال العلوم ، حيث إنه توجد في الإدارة عناصر قابلة للقياس العلمي ، وصالحة لأن توضع لها أسس يمكن تعلمها في المدارس (مثل قوانين العرض والطلب - العملات - الفوائد- قواعد الإنتاج -التسويق- المواصفات -مناولة المعلومات -الرسوم البيانية والإحصائيات . . إلى غير ذلك . .)

٢- إن من أهم مبادئ الإدارة أنه يجب أن يكون للمؤسسة (هدف) وأن الإدارة تعرف أين تذهب ، وكيف يمكن تحقيق ذلك الهدف . وهذا الهدف الواضح للجميع يجب أن ترسم بموجبه سياسة الشركة ، وأن تنصب جميع طاقات المؤسسة لإيجاد الوسائل العملية لتحقيق الهدف الرئيس . ويقوم مجلس الإدارة في المؤسسة بتوزيع الأدوار الفرعية على الإدارات المعنية لإنجاز الهدف الأساسي ، فيما يتعلق بتوزيع الاختصاصات ومنح الصلاحيات الإدارية للمدراء .

٣- ومن المبادئ الأخرى في الإدارة تنظيم طرق التعاون والتنسيق بين أجهزة

المؤسسة وإداراتها لتحقيق النتائج المطلوبة في الوقت المناسب ، وبالطريقة الصحيحة .

٤- والمبدأ الآخر في الإدارة هو توفير المرونة والقدرة على التطور مع تغير الظروف والأحوال ؛ أي أن لا تكون الإدارة جامدة لا تقبل أي تغيير . لكنها لا يجب أن تكون إدارة رخوة أو سائبة ، وإنما قابلة للتغيير إذا وجدت أسبابا وجيهة وعملية ومقنعة .

٥- من أهم أسباب فشل الإدارة عدم مراعاة أو فهم الهيكل التنظيمي للشركة . هذا الهيكل التنظيمي ضروري لكي يضع إطارا لكل إدارة على حدة تعمل الشركة من خلاله لتحقيق الهدف . والهيكل التنظيمي الجيد هو الذي يستطيع عن طريقه كل فرد في الشركة أن يعرف مسؤولياته بالضبط والصلاحيات التي له .

٦- يجب أن يكون التنسيق قائما بين جميع ادارات الشركة ، وأن لا تكون الصلاحيات بين مختلف الإدارات متداخلة أو متراكبة بعضها مع بعض .

٧- من أهم مهمات المدير والإدارة انتقاء الموظفين المخلصين والأكفاء ، ووضع كل موظف في مكانه الذي يصلح له .

٨- ومن ميزة الإدارة الجيدة قدرة المدير التنفيذي على تقديم تقاريره لمجلس الإدارة بصورة شفافة ، ومشفوعة بالبيانات والإحصاءات الواقعية . . وتحديد ما هو مطلوب بالضبط لتحقيق الهدف المطلوب .

وأخيرا . . إن فنون الإدارة من الناحية النظرية يجب أن يراعى في تطبيقها الشأن المحلي في كل بلد من بلدان العالم ، وأن لا تتعارض مع الأعراف والتقاليد المحلية قدر الإمكان . . والأهم أن تستطيع الإدارة الاستفادة من تحويل الأوضاع المحلية التي تنتقل إليها من خلال العولمة . . إلى عوامل إيجابية لمصلحتها كلما أمكن ذلك .

فضيلة الشيخ عبد الحسين الحلبي كتابات ومخطوطاته

كم هو جميل أن يتجول العالم والأديب أو طالب العلم والأدب ، في أفياء
بستان الشيخ الحلبي العامر بالثمار ؛ ليحني كل منهم ما شاء من علم وفقه وأدب
وشعر وسيرة واجتماع . . . ولو قدر أن يوجد في هذا البلد المتطلع للمعرفة من
يتفرغ من أساتذة الدراسات العليا أو طلابها للبحث الجاد في كتابات الحلبي
والتحقيق في مخطوطاته وفي شعره وأدبه ، وكلها ما تزال بكرا فإن بحثه
سيحظى على ما أتوقع - بدرجة عالية من الامتياز وسيكون كسبا في
الوقت ذاته للبحرين - مثواه الأخير - كما هو للنجف الأشرف . . ملعب صباه
ومدرسته في الفقه والثقافة والشعر والأدب . . . بل هو كسب لنشر المعرفة
وخدمة الفكر في كل مكان .

لا شك في أن عبد الحسين الحلبي كان معروفا لمعاصريه في النجف والعراق
أولاً ثم في البحرين حيث قدم إليها عام ١٣٥٧ هجرية ، بطلب من حكومة
البحرين ليصبح قاضيا للتمييز الشرعي الجعفري في محاكمها الشرعية ،
وبترشيح من المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم .

أما الجيل الذي لم يعاصر الشيخ الحلبي ؛ فلا غرابة إذا قلنا إنه لا يعرف عن
الشيخ الحلبي الشيء الكثير ، غير الشذرات مما كتب عنه هنا أو هناك . وإذا عرف
السبب بطل العجب كما قيل . وقد كان زخم حضور الشيخ الحلبي في حياته
كبيراً ، سواء في العراق أو البحرين أو الوطن العربي ، وكانت شخصيته المؤثرة
وعلمه الغزير وشاعريته الفذة وأدبه الجم موضع التقدير والإعجاب .

وقد توفي الشيخ عبد الحسين في منزله بالمنامة إثر مرض أدى إلى وفاته ،

وتم تشييع جثمانه إلى مثواه الأخير في مقبرة المنامة ، وذلك في يوم ١٥ مارس ١٩٥٦ ميلادية ، وهكذا قدّر لجزيرة البحرين أن تضم رفات عدد كبير من العلماء والعظماء والأدباء والفقهاء والشعراء المبرزين بدءاً ربما بصعصعة بن صوحان العبدى ، صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، ومن جاء بعده مروراً بالشيخ ميثم البحراني (وقبره في قرية الماحوز) ، ثم السادة العلماء والفضلاء من علماء وأدباء القرن التاسع ، والعاشر والحادي عشر ، والثاني عشر الهجري ، ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر السيد ماجد بن هاشم الجدهفصي ، والشيخ يوسف بن أحمد البحراني الدرزي والماحوزي ، والشيخ خلف بن محمد العصفوري ، والشيخ حسين بن محمد العصفوري ، والشيخ حسين عبد الصمد الجبعي العاملي ، وأمثالهم انتهاءً بمشايخ علماء البحرين وأصحاب الفضل خلال القرنين الماضيين .

وبعد أن انتقل الشيخ الحلبي إلى جوار ربه وغابت شخصيته الفذة عن الأبصار . . . استمرت ذكراه الطيبة في النفوس ، ولكن آثاره الفكرية غابت عن أبصار الناس ، بسبب عدم نشر أي شيء منها حتى الآن . . . فلا غرو إذا أصبح الجيل الجديد لا يعرف الشيء الكثير عن الحلبي . . . ومخطوطاته . (وقد كتبت مقالة عامة تدور حول شخصية الحلبي وحياته العادية كإنسان وعالم وأديب وشاعر ، رأيت تحاشياً للتكرار . . . توزيع تلك المقالة لمن يهتم بالمزيد من الاطلاع) .

ولعل من المناسب ، قبل التطرق إلى مؤلفات الشيخ الحلبي ومخطوطاته ، أن نبدأ بنبذة عن سيرته الذاتية . ومن الصدف أننا وجدنا ترجمة حياته بخط يده ، وكما يؤكد أكبر أولاد الشيخ في البحرين (محمد هادي الحلبي) أنه أرسل ديوان والده بخط يد الشيخ مع ما أرسله من مؤلفات في الفقه الشرعي إلى إخوانه في الحلة ، بعد أن نقلها بخط يده ، فإذا ثبت ذلك فعلاً ، فمن المرجح أن الشيخ كتب السيرة على لسان غيره لتكون مقدمة لديوان شعره ، الذي قام الشيخ نفسه بإعداده للنشر ووضع عناوين القصائد ومناسباتها في كثير من

الأحيان . وفيما يلي مختصر لمراحل نشأة الشيخ ودراسته وممارسته للأنشطة
الفقهية والعلمية والأدبية ، سواء في مدينة الحلة ، مسقط رأسه أو في النجف
الأشرف حيث كان يدرس الفقه ويدرسه فيما بعد .

أولا : ولادته في الحلة حوالي سنة ١٣٠٠ هجرية ، واسمه الكامل عبد الحسين
بن قاسم بن صالح بن محمد بن حسن بن هليل (بالتصغير) ، من
أسرة في الحلة بآل هليل ، وينتهي نسبه إلى بني كعب ، وقيل إلى
(شمر) . بدأ دراسته في الثامنة ، حيث أتقن في هذه السن القراءة
والكتابة ، ثم أكمل الدراسة في مدرسة الرشيدية بصفوفها الأربعة في
ثلاث سنين .

وكان يدرس في الوقت ذاته خارج المدرسة ، علم الصرف والنحو
والمنطق ، ولما رأى قصور أستاذه هاجر إلى النجف وكان ذلك سنة ١٣١٤
هجريه ، وما اكتملت سنة ١٣٢٠ هجرية (وعمره عشرون سنة) إلا وهو
من يومى إليه في إتقان فنون العلم والتفوق على ذوي السن من الفضلاء
المشهورين ، ومن يومئذ تأهل لتدريس كتب الفقه والأصول المتداول
تدريسها .

ثانياً : في حياته العلمية المبكرة جمع بين صفة المدرس آنفة الذكر وبين
التصنيف والتأليف وبين حضور دروس مشايخه ، ولم يفارق نادي
تدريس الأستاذ المحقق الأخوند الشيخ ملا كاظم الخراساني ، ثم وبعد
وفاته لازم درس الفقه على الشيخ محمد ذهب ، والسيد محمد بن
السيد محمد تقي آل بحر العلوم الطباطبائي . وقد تقدم عند شيخه
الأول تقدما باهرا ، وكان يكلفه كتابات درسه الذي يلقيه عليهم من
كراسته ، ويعلق عليه شرحا على تبصرة العلامة .

ثم تتلمذ بعد ذلك على يد العلامة الشيخ فتح الله الشيرازي الأصفهاني
النجفي ، المدعو (بشيخ الشريعة) ، حيث لازمه أكثر من سبعة عشر
عاما حتى وفاته عام ١٣٣٧ هجرية ، وقد أجازته الشيخ في الرواية ،

وكتب له الإجازة بخط يده . وقد زعم أنه لم يكتب لأحد مثلها ، وهي مبسطة جدا (أي الإجازة) ، كما تتلمذ الحلبي في علم الكلام والحكمة النظرية على يد العلامة السيد أحمد الكربلائي ، وفي الرياضيات وعلم الهيئة على رجل من آل قطان يدعى الشيخ مهدي .

ثالثا : صفاته العلمية : كان شديد الذكاء سريع الحفظ ؛ وقد يحفظ الخطبة أو المقطوعة من الشعر إذا سمعها لمرة ، ويحفظ كما يستحضر الشطر الكبير من قواميس اللغة وكتب الفقه والأدب والشواهد الشعرية . ومن الطريف في ملكة الحفظ هذه ما قيل من أنه كان يحفظ الكتب التركية والفارسية وهو لا يحسنها ، ويتكلم بها في الجواب عن الأسئلة كما تتكلم الببغاء ، ويذكر من تلامذة الحلبي في النجف الشيخ جعفر آل محبوبة ، والعلامة الخطيب شيخ الدكتور أحمد الوائلي .

رابعا : فيما يتعلق بنظمه للشعر : فيقول (إن رغبته تأكدت في ذلك بسبب اعتقاده الباقي للآن ، واعتقاد أصحابه أن الاجتهاد الكامل يتوقف بنوع خاص على معرفة الفنون الأدبية ، وأن طالب العلم يجب أن لا يكون قاصرا في ذلك ، ليتسنى له يوما نيل درجة الاجتهاد) . وبفضل هذا الاعتقاد ؛ فقد طالع الكثير من كتب اللغة والحديث والتاريخ ، وسائر معاجم الأدباء والعلماء ومعاجم اللغة ومواقع البلدان . وأما كتب الأدب فحدث ولا حرج ، وساعد على ذلك سرعة حفظه واستظهاره لما يقرأ ، وهو يعرف مع ذلك أنه لم يعد نفسه لأن يكون شاعرا ؛ فلم يدون من شعره إلا القليل على وريقات صغيرة مبعثرة هنا وهناك ، ومسودات مشوهة تصعب قراءتها .

خامسا : عن مواقفه الوطنية : له مواقف وطنية كثيرة منها اشتراكه في الثورة العراقية الكبرى والنداء الذي وجه لإعلان الجهاد المقدس ، حيث اشترك فعلا في حمل السلاح مع المقاتلين والذود عن حمى الوطن ، وستظل قصيدته التي تحمل عنوان (الحنين إلى الوطن) شاهدا على

ذلك . وهي القصيدة التي نالت الجائزة الأولى في مسابقة إذاعة لندن الشعرية خلال أوائل الأربعينات .

سادسا : تبقى لنا بعد ذلك سيرة حياة الحلبي منذ قدومه إلي البحرين عام ١٩٣٦ ميلادية ، وحتى يوم رحيله عام ١٩٥٦ ، وهي سيرة عطرة حافلة بجهود ومبادرات هذا الشيخ الجليل ، سواء في مجال وضع الأسس القومية للتمييز الشرعي أو فتح مدرسة لتعليم الفقه ، تخرج منها عدد من علماء البحرين الفضلاء ، أمثال الخطيب السيد محمد صالح السيد عدنان الموسوي ، والعلامة السيد علي بن إبراهيم المعروف بكمال الدين ، استمرت صحبتها معا حينما أصبح الأخير رئيسا لهيئة الاتحاد الوطني (الهيئة التنفيذية العليا سابقا) والشيخ محمد علي بن زين الدين الدرازي .

ومن تلك الجهود مساهماته الأدبية في نادي العروبة ، وحضوره المستمر لمواسم الأدب والثقافة والشعر وخطاباته ، بالإضافة إلى مساهماته بعد ذلك في مجلة صوت البحرين . . . وإذاعة لندن العربية وغير ذلك .

كما أن مجالسه في منزله كانت عامرة بالزوار من علماء وأدباء ورجال الفكر ، كالأستاذ إبراهيم العريض ، ومحمد دويغر ، وحسن الجشي ، وأساتذة المدارس . حيث كان يأنس بمجالسة الشباب المتعلم ، بالإضافة إلى مشايخ العلم وطلابه .

لقد حاولت فيما سبق اختصار سيرة الشيخ الحلبي قدر الإمكان ، وذلك بغية التعرف إلى كتاباته ومخطوطاته موضوع الحديث .

فبالنسبة إلي المطبوع فإن الشيخ لم يحالفه الحظ ، ربما بسبب ضيق ذات اليد - إلا لنشر كتاب واحد من جزئين وعنوانه (النقد النزيه لرسالة التنزيه) ، ولدنا الجزء الأول المطبوع من هذا الكتاب في المكتبة الحيدرية سنة ١٣٤٧ هجرية ، وهو يتضمن تأييد الشعائر الحسينية ودفع الشكوك والشبهات الواردة عليها ، وذلك ردا على الآراء الإصلاحية للزعيم الإسلامي السيد محسن

الأمين ، ويشير إصدار هذا الكتاب تساؤلا حقيقيا لكونه يتصدى لمواجهة آراء إصلاحية في الوقت الذي كان الشيخ الحلبي معروفا عنه مناصرة الديمقراطيين والإصلاحيين من دعاة (المشروطة) وقد وجدت لتأليف هذا الكتاب سببين :

الأول : بعدما تقاذفته أمواج الحياة القاسية فشعر بالوحدة ، حتى وجد الشيخ نفسه في أحضان المناوئين للأهداف الدستورية والمعروفين (بالمستبدة) وأغراه ضجيج الغوغاء بالتصدي لنقد آراء السيد محسن الأمين . (على ما ورد عن الشيخ الخاقاني في كتابه «شعراء الغري»).

الثاني : فإنني لما قمت بتصفح الكتاب المذكور تبين لي أن الشيخ كان يركز جل همه على إبعاد (صفة التحريم القطعي) عن إحياء تلك الشعائر بأساليبها المتداولة عند العامة ، وهي الصفة التي كانت تتردد في آراء السيد الأمين بتغلب العاطفة دون اعتبار للبحث الفقهي الرصين في تلك الملابس ولو اقتصر آراء السيد الأمين على التخطئة أو حتى كونها مكروهة ، لما أظن أن الشيخ الحلبي كان سيتصدى لتفنيدها طالما أنها جاءت خارج منطق التحريم الشرعي والله أعلم .

وهناك بالإضافة إلى كتاب (النقد النزيه) أنف الذكر ، كتاب آخر وهو (حقائق التأويل) من تأليف منتدى النشر في النجف كتب له الحلبي مقدمة طويلة عن مؤلفه وهو الشريف الرضي .

وإن كان لا يخفى على المتتبع ملاحظة جهد الحلبي في ترتيب وجمع مصادر الكتاب وجمعه وهو من مطبوعات منتدى النشر في النجف الأشرف ، والنسخة التي اطلعت عليها قام بإهدائها الشيخ الحلبي لنادي العروبة وكتب بخطه (هدية لنادي العروبة الموقر من المخلص للعروبة عبد الحسين الحلبي بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٨ هجرية) . وقد أصدر منتدى النشر هذا الكتاب سنة ١٣٥٥ هجرية / ١٩٣٦ ميلادية ، وهو عبارة عن شرح للجزء الخامس من حقائق التأويل في متشابه التنزيل - تأليف السيد الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هجرية . شرحه العلامة الأستاذ محمد الرضا آل كاشف الغطاء ، بتدقيق لجنة

علمية من أعضاء منتدى النشر .

وقد كتب الحلبي مقدمة الكتاب وهي عبارة عن سيرة الشريف الرضي استغرقت ما يقارب من ٩٢ صفحة من الكتاب ، وقد اضطر الحلبي لاختصار أجزاء منها مراعاة لظروف حجم الكتاب وتحاشيا للإطالة بعد أن كان ما كتبه عن سيرة الشريف الرضي على حد قوله (كتابا لا يستهان بمقداره ولا يستصغر حجمه) وفي النسخة الأصلية بخط الحلبي إشارات إلى مواضع الحذف .

وقصة إصدار منتدى النشر لهذا الكتاب تتفاعل مع الجهود لإحياء تراث الشريف الرضي ، التي بذلها الدكتور زكي مبارك (أو الدكاترة حسبما شاء الدكتور. تليق بنفسه) حينما كان يدرس في كلية الآداب بجامعة بغداد .

وحينما ألف زكي مبارك كتاب (عبقريّة الشريف الرضي) ، جعل من بين مراجعه «ترجمة الشريف للأستاذ عبد الحسين الحلبي - المنشور تصديرا لكتاب حقائق التأويل» ، حيث قال في صفحة ٢٨٢ الجزء الثاني في الختام ما يلي : «وكان في النية أن أكتب فصلا عن الشريف الرضي مؤلفاً . . . ثم رأيت الوقت أضيق من أن يوجد بدراسة أنفع من الدراسات التي قام بها (منتدى النشر) ، حيث طبع كتاب (حقائق التأويل) كما نقلت النشرة الإذاعية (لهنا البحرين) العدد التاسع الصادر في ٢٩ مارس ١٩٥٧ عن زكي مبارك قوله عن الحلبي : . . . من يقرأ للعلامة الحلبي شعرا أو نثرا يكبر فيه همته ، وإنني لم أكن أعتقد أن يكون هناك رجل أديب كالحلبي ، كما أنه لا يمكن أن يكون أديب مثله . ولتوضيح سر إعجاب الكتب والباحثين بالتصدير الذي كتبه الشيخ الحلبي عن الشريف الرضي ، يكفي القول إن الحلبي اعتمد على شعر الشريف الرضي كمرجع أساسي في شرح سيرة حياته وطموحاته ، والأدوار التي مر بها الشريف الرضي منذ نشأته وحتى مماته .

وذلك التزام كبير يشق على الكثير من الباحثين . وسبب هذا الالتزام أن الحلبي قرر أن يطرح جانبا كل ما كتب أو روي عن الشريف الرضي ، بما قد يخالطه الشك ، أو التعصب أو المبالغة والإطراء . وتوضح بعض العبارات التي

وردت في مستهل التصدير هذا المعنى مثل قوله : (أترجم الشريف أو أفهرس أدوار حياته بجمع مناحيها في صحيفة من صحائف أيامي الأخيرة ، وليس بين يدي من معين سوى ديوان شعره الضخم لأنني لا أريد أن أعتمد في غالب ما أتوخاه فيها على أقاصيص السيرة وأقاويل التاريخ الفارط التي هي روايات فقط ، وخالية من كل فقه تاريخي ، والروايات أجدر أن يطرق إليها الشك ولا يعتمد منها إلا ما يشهد ذلك الديوان بصدقه إذا فهو أوفر المصادر نفعا ، وأشدّها إلى تحقيق الفقه التاريخي قريبا إلخ ، ثم مضى الشيخ الحلبي في بحث نسب الشريف وتأثير ذلك في نفسيته ، ثم مولده ونشأته وأسرته ، ومضى بعد ذلك إلى أدوار حياته في ظل الخلفاء ، والأمراء ، الذي تعاقب في حياته وكتب صلة الشريف بالملوك والخلفاء كما تكلم عن أخلاق الشريف وملكاته ، وطموحه للخلافة وعن عقيدته من شعره ومن مناصبه وعلمه ومؤلفاته ، وعن أدبه وشعره ثم عن وفاته مستندا في الأغلب الأعم إلى شعر الشريف الرضي المعروف) .

وإذا انتقلنا في خطوة ثانية إلى الأبحاث والمقالات التي نشرتها الصحف والمجلات للشيخ الحلبي ، نجد للحلي ظهورا متميزا على صفحات المجلات في العراق خاصة ، وبين أيدينا مما أمكن الاطلاع عليه مجموعة من تلك المقالات والأبحاث نجملها في ما يلي :

أولا : ما نشرته مجلة الاعتدال النجفية الصادرة في تموز عام ١٩٣٥ ، يصحح فيها الحلبي أخطاء تاريخية وردت في محاضرة المسيو ما سنيون المستشرق الفرنسي المشهور عن الكوفة ، التي نشر خلاصتها الدكتور زكي مبارك في مجلة (الحديث) الحلبية ، فيما يتعلق بتمصير الكوفة ، وأنساب العرب .

ثانيا : دراسة قيمة عن الشعوبية في القرن الثاني والثالث الهجريين ، نشرتها مجلة الاعتدال في ستة أعداد واستغرقت حوالي ٣٩ صفحة . ويبدأ الحلبي هذه الدراسة باستعراض تاريخ المفاضلة بين العرب والفرس منذ

بدايتها قبل الإسلام ، ثم يقول : (إن الشرع الأقدس قد قتل فكرة كل شعوبي بتلك الكلمة الزاهية الفذة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ثم يقول : (أمر الغرائز المودعة في الإنسان فهيهات أن تسيطر عليها روحانية فتجتثها من طباع الكافة) .

ثم يحدد بدء الشعوبية في الإسلام ، عندما كثر الفرس وشربوا مزايا العرب وصاهروهم ، واشتركوا معهم في الدعوة ونبغ فيهم شعراء وأدباء . إضافة لما استملوه من أزمة الصناعة والتجارة والأعمال النافعة للعرب . . . وهو يعد ما صدر ضمن هذا الصنف من الشعوبية على أنها أفكار شعوبية بصورة أدبية خالصة ، ثم يمضي في تحليل الشعوبية ومقاصدها لكي يميز بين من لم يذم طوائف العرب إنما نفى أن يلحقه نقص لعدم كونه منهم - وبين من صنفه مؤرخو الشعوبية خطأ كشعوبي ؛ لأنه كان مناوئاً للإسلام ، وبين الشعوبي الذي يحمل فكرة الشعوبية بمعناها المقتصر على كره كل ما هو عربي واستهجانها ، ويرى الحلبي أن فكرة الشعوبية الخبيثة تبتدىء بزمن (إسماعيل بن سيار مولى تيم المتوفى سنة ١١٠ هجرية) ، وكان فارسياً من شعراء الدولة الأموية ، حيث لم تكن الشعوبية قبله لتخرج عن صورتها الأدبية الفارغة ، ولا أن تمس مذهباً ، أو تحدث في السياسة انقلاباً .

وتحفل دراسة الحلبي عن الشعوبية بصورة تحليلية عميقة لأحداث القرن الثاني والثالث الهجريين ، فيما يخص سياسة الخلفاء ، وبالشخصيات الأدبية والبارزين على ساحات العمل السياسي . . . ومدى طائفية أو شعوبية أي منهم . وهو بحث لا يشك في فائدة نشره وتعميمه للدارسين والمختصين .

ثالثاً : تحقيق نسخة مشوهة من ديوان «مهيار الديلمي» ، وإكمال ما نقص منها ، وتصحيح على ما وقع فيها من أغلاط . ورد ما خرج منها عن القواعد إلى حظيرته ، حيث تم طبعها بعد تحقيقها في بغداد . وقد

وصف الكاتب الأديب جعفر الخليلي صبر الحلبي على معاناته في تحقيق هذا الديوان قائلاً : (إن ملكاته في التحقيق والبحث كانت موضوع إعجاب الجميع ، بحيث عرف أكبر العلماء والمؤلفين من معارفه قيامهم بعرض مؤلفاتهم عليه قبل دفعها للطبع ، سواء كان موضوعها في علم الفقه ، أو علم الأصول أو في التاريخ الإسلامي أو علم الرجال ، وقد ورد في الأخبار من هذا القبيل بشهادة من أقرباء المجتهد والمرجع الديني السيد محسن الحكيم . . . أن الشيخ الحلبي كان مكلفاً بإعداد الرسالة العلمية للسيد محسن وكتابتها نيابة عن السيد محسن الحكيم) .

رابعاً : من المرجح أنه توجد للحلبي أبحاث ومقالات أخرى منشورة لا نعلم عنها بما لم يصل ليدنا خارج البحرين أو في البحرين ، حيث كان يكتب في جريدة البحرين لصاحبها الأستاذ عبدالله الزايد ، حيث وجدت مقالة فيها فتوى عن إباحة الغوص في رمضان ، وذلك في عدد ١٩ فبراير ١٩٤٢ - كما ذكر أن للشيخ الحلبي الفضل في إيقاف المساجلات الأدبية على إثر نشر أشعار الشاعر عبدالرحمن المعاودة ، لا سيما تلك التي كان يعارض فيها رباعيات الخيام ، فتخاصم حول ذلك الأدباء بين معجب بها وناقدها .

وكتبوا بأسماء مستعارة مثل ابن الرمي والقالي وابن العميد وابن زيدون ، ومنهم من اكتفى بالحروف مثل . . . (ت) و(م. د.) ، وامتدت الخصومة نحواً من عام وصلت إلى التعرض الشخصي والإسفاف . وقيل إن كلمة حكيمة وجهها الشيخ على صفحات جريدة البحرين أدت إلى توقف المتخاصمين وانتهاء تلك المعارك .

ولا بد قبل الخروج من هذا القسم الخاص بالمطبوع والمنشور من مؤلفات الحلبي وأبحاثه ، وما وجد منها وما لم يتم العثور عليه ، أن نشير إلى مواصلة الحلبي مراسلة مجلة (صوت البحرين) حيث كان معجباً بها قريباً لأعضاء

التحرير فيها وتم نشر بعض القصائد فيها .

والآن يأتي بعد الحديث عن مخطوطات الحلبي ، التي كتبها بيده وربما قرأها شفاها على تلامذته ، إلا أنه لم يبق بطبعها ؛ وهي مخطوطات معظمها في الفقه الشرعي ، إذا استثنينا مخطوطة ديوان الشعر وبعض الأبحاث الاجتماعية والأدبية . وبهذا الصدد تقول ترجمة حياته إن للشيخ الحلبي مؤلفات ومصنفات كثيرة منها ما هو موجود ومنها ما فقد أو تفرق ، وكلها مخطوطة لم تطبع . وسبب عدم نشر كتب الحلبي هو سفره إلى البحرين وتركها لدى من يعرف لها مقدارا ، فتلف منها وتبعثر الشيء الكثير .

وفيما يلي نستعرض ما وصل إلى علمنا من تلك المخطوطات .

الأول : الفلك القديم والحديث : وهو كتاب وجيز في علم الهيئة يتضمن في كل باب ذكر المذهبين مجردا عن البرهان . ونسخته غير موجودة مع الأسف .

الثاني : ينابيع الأحكام في علم أصول الفقه - ونسخة موجودة بلا تصدير وبلا خاتمة - وتتكون من ٥٤ ورقة من القطع الكبير وهي بحاجة إلى تدقيق .
الثالث : رسالة علمية في الأحكام الشرعية الخاصة بالعبادات والطهارة إلى غير ذلك ، وتتكون من حوالي ١٠١ (مائة صفحة وصفحة) ، وقد وردت في بعض المصادر تحت عنوان (اللمحات القدسية) .

الرابع : منظومة في الأخلاق والأدب من ألف بيت ليس بين أيدينا منها شيء ، وربما فقدت أو تركت في العراق .

الخامس : مصارع الكرام . . . في وفيات النبي والأئمة عليهم السلام وهي أيضا مفقودة .

السادس : الشجرة الملعونة - كتاب فلسفي يتضمن مثالب بني أمية ، ويتكفل الرد على النصولي في كتابه (وهو أيضا غير موجود) .

السابع : دين الفطرة - هو مخطوط ديني فلسفي يلائم روح العصر الحاضر ، يقع في جزئين ، الأول في آراء الملل الكبرى في العلم ، والثاني في محاسن

الشريعة الإسلامية ، أصولا وفروعا ، وعندنا منه الجزء الأول بخط الشيخ الحلبي ، وتتصدره مقدمة عن الباعث لتأليف الكتاب ، حيث يقول (.) وبعد فإنني مجيب إلى ما سألت عنه أيها الطالب للحقيقة من تحرير رسالة كاملة ببيان (دين الفطرة) . . . إلى أن يقول (الديانة الحقة التي سأقص عليك مباحثها مدققة ، في رسالتي هذه الديانة الإسلامية ، فإنني لم أرسوئ الدين الإسلامي يقبله العقل ويتسع له الصدر المدنية ، ولم أر كمبادئه وما بعدها حافظا لمرتبة الرب ، صائنا لحقوق المربوب . ولم أر قانونا صدر عن أعظم شارعي العالم ومصالحه كقوانينه المتينة ، من حيث موافقتها للعقل والنواميس الطبيعية .) ثم يضيف الشيخ : (أنا لا أقرع هذا الباب ولا أخوض هذا العباب دون أن أتجرد باديء ذي بدء عما أعتقد من قيام الدين الإسلامي على دعائم الصدق ، وثبوته على مستقر من الحقائق ، بل أكتب ما أكتب باسم الإنسانية لا الإسلامية ، منخلها عن حرية الفكر والنشر تخلية مطلقة غير مصر على رأي ، ولا مائل إلى عناد . . . شأن الطالب للحقيقة من وجهها ، الباحث عن أصولها غير مجادل ولا مناجز متعصب . . .) . ثم يستغرق الحلبي في البحث عن دين الفطرة ومناقشة المادية في قوانين النشوء والارتقاء ، والنظريات الطبيعية في نشأة الكون ، وما يتفرع عن ذلك من مسائل يكتنفها الغموض أو القضايا التي يقوم بتفسيرها العلم الحديث . . . وذلك على مدى سبع وثمانين صفحة كبيرة .

ومن الملاحظ أن البحث لا ينتهي عند الصفحة الأخيرة مما يدل على أن البحث لم يستكمل في هذا الجزء ؛ لعدم وجود الخاتمة المعتادة لكل كتاب . وكما هي العادة في مخطوطات الشيخ الحلبي ، كونها تحفل بالكثير من الشطب لعبارات وجمل وأحيانا لمقاطع كاملة . وذلك يعطي انطبعا عن أسلوب ، الشيخ الحلبي في الكتابة المباشرة دون مسودات

سابقة . أما عن الجزء الثاني من كتاب «دين الفطرة» فلم نجد بين أيدينا أثراً فيما ترك في البحرين ولعله في العراق أو ربما فقد وتبعثرت أوراقه .

الثامن : الأصنام المعبودة في الإسلام : وهو مخطوط يتعرض فيه لأصل الشيعة ويرد على كتاب «فجر الإسلام» لأحمد أمين ولم تصلنا نسخة منه .

التاسع : مخطوط في تفسير آيات من القرآن الكريم . . . وجدنا منه اثنتي عشرة صفحة مما يؤدي بنا إلى الظن . . . إما أنه بحث صغير في أصله أو وجهة نظر خاص بالتفسير ، أو أنه جزء من فصول أخرى مفقودة . ولكن هذا البحث على صغره . . . يناقش أدق التفاصيل في كيفية جمع القرآن الكريم ، والخوض فيما يعم التأويل ولا يخص الأخذ بالظواهر . وكذلك عن ترتيب السور مخالفة لترتيب النزول ، ثم عن القراءات وعن رسم المصحف الشريف . وكتابته . . إلى غير ذلك .

العاشر : مخطوط يتضمن تراجم للعلماء والأدباء والنحاة ، ورواة الحديث والشعر ، ويتكون من ٢٣ صفحة ، ويبدأ بترجمة موجزة لأبي إبراهيم المزني فيقول : (وهو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل الشافعي الفقيه النحوي ، صاحب كتاب المختصر في فروع الشافعية ؛ وهو من أعلام الطبقة الأولى الذين عاصروا الشافعي وأخذوا عنه ، أول من صنف على مذهبه ، ولم يكن في أصحاب الشافعي أفقه منه ، توفي سنة ٢٦٤ هجرية ودفن بالقرافة بمصر قريبا من تربة الشافعي . ثم يواصل الحلبي إيراد التراجم التي اختارها ضمن فترات من السنين أولا بأول ، وأولها منذ عام ١٧٥ - ٢٦٤ هجرية ثم ٢٤١ - ٣١١ هجرية ، هكذا حتى يصل إلى القرن الرابع الهجري ، وآخر من ترجم له أبو الحسن أو الحسين أحمد بن علي الكاتب ، له مع الشريف الرضي وأخيه المرتضى مودة أكيدة وصداقة ، ولهما فيه شعر كثير ومدائح جملة . توفي سنة ٤٠٥

هجرية فرثاه الشريف الرضي بقصيدة مثبتة في ديوانه . .

الحادي عشر : رسالة في ترجمة أستاذه شيخ الشريعة لم نجد لها أثرا بعد .

الثاني عشر : شرح العروة الوثقى : وهو مخطوط من ٣٢٦ صفحة تقريبا ، هذه المخطوطة ذات أهمية خاصة في أعمال الفقه وكذلك حلقات التدريس ؛ وهي موجودة ويستهلها بمقدمة نورد منها ما يلي : (وبعد فإن جماعة من أهل الفطنة والدراية أشكل على كل منهم كثير من مسائل الشك في كتاب «العروة الوثقى» تصنيف سيدنا الإمام العلامة الحبر البحر الفقيه ، الشيخ المدقق السيد محمد الكاظم الطباطبائي وكانت نفسي منذ مدة غير يسيره تتوق مثلهم إلى تأليف كتاب في الفقه تحداني ذلك على أن أعلق على ما استبهم من تلك المسائل شرحا يحل عقدة مشكلاته ويزيل النقاب عن وجوه معضلاته . أقول هذا على علم مني أنني لست من فرسان هذا الموكب بل ولا من رجال ذلك الموقف وما حملني عليه إلا يقيني بأنني إن لم أقم بالعرض فإنني أقف في أخرياتهم عند العرض ومنهم أرجو العفو عن الهفو وكفى أن يكون لمن ينتفع به بعدي تذكرة وتبصرة والله توسلا إليه بأهل بيت العصمة أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يقضي فيه من الزلل ويسدني في القول والعمل ، إنه ولي ذلك والقادر عليه . . .) ويبدأ بعد ذلك في مسائل الفقه .

الثالث عشر : كتاب الإمام جعفر بن محمد : لم يكتمل بسبب وفاته ولم نجد منه شيئا فيما ترك في البحرين .

الرابع عشر : الدراسة عن أبي فراس الحمداني «الشاعر البطل أبو فراس» ، وجدتها مذكورة ضمن ما ألف ، لست متأكدا بعد أنها مما نشر في المجلات أو مما هو ضمن المخطوطات المفقودة .

الخامس عشر : وأخيرا نصل إلى مخطوطة ديوان شعره الموجود منه القليل بخط

يده ، أما سائر الديوان فممنسوخ عن الأصل بخط ابنه (محمد هادي) ، ولهذا فالنسخة بحاجة لمقارنتها بالأصل ، وقد اعتنى الشيخ الحلبي بجمع هذا الديوان وترتيب قصائده ، ووضع عنوان كل قصيدة مقرونا في أغلب الأحيان بشرح وجيز . . . وكل هذا الاعتناء يدل على رغبته في نشر الديوان .

**

وبعد - فإن بساط الشيخ الحلبي حافل بالمفاجآت الممتعة والمفيدة . . فالحلبي عالما وفقهيا وشاعرا وأديبا ومحققا وناقدا والحلبي إنسانا . . كل هذه الأشياء ما تزال في مكانها من تراث الحلبي غير المطبوع في انتظار الأيدي المسعفة لانتشالها من تحت ذلك البساط .

(*) محاضرة ألقيت في جمعية التاريخ بمملكة البحرين بتاريخ ٣٠/٤/٢٠٠٣ .

(من سواد الكوفة إلى البحرين) (مداخلة)

وقائع التاريخ يكتبها البشر على صفحات الزمان المتقلب ، ثم تقرؤها الأجيال ، وعلى فمها هذا السؤال الحائر : . . البقاء للأصلح كما جاء في الكتاب المبين : «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين . . .» وذلك . . مع تجدد آمال البشر بانتصار العدالة والحق : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ الآية . . .

ذلك أم أن البقاء للأقوى المتغلب ، على مقالة معاوية بن أبي سفيان : «الخليفة . . وبعده هذا . . ومن أبي فهذا (أي السيف)» . هل نذهب مع أبي العلاء المعري في نقمته على ولاة عصره ، حيث يقول :

«ملّ المقام فكم أعاشر أمة

أمرت بغير صلاحها أمرؤها
ظلموا الرعية واستباحوا حقها
وعدوا مصالحها وهم أجراءها

أو في تهكمه اللاذع على الطغاة :

«جلوا صارماً وتلوا باطلاً
وقالوا صدقنا فقلنا نعم»

ونحن نرى أن التاريخ يكتب سير العظماء ويذكر أخبار الملوك والرؤساء

والقادة المظفرين ، وقد يأتي على سير الفلاسفة والعلماء ورجال الفكر والثقافة والأدب والفنون ، فنراه يخصهم بذلك القدر من الاهتمام الذي خصهم به ولاية أمرهم ، والنظام السياسي الذي نشأوا في ظله لكي يتخذ من معظمهم حلية تزين مساوئ النظام وظلمه . ومن أبى منهم أن يكون كذلك معتداً بكرامته وعلمه وكبريائه ، كان مصيره أن يعيش مذموماً ، أو يقتل ملعوناً أو يموت مغموماً . . كأبي العلاء المعري .

كما أننا نرى أيضاً أن التاريخ المتداول والإسلامي منه خاصة - قلما أبدى اهتماماً بحياة البشر وأحوال عموم الناس والكادحين منهم خاصة . ونراه يغفل وصف معاناتهم وهمومهم وما يتعرضون له من بلاء ، مع عدم قدرتهم على التعبير الحر عن تلك المعاناة . هذا مع العلم بأن العنصر البشري هو مادة التاريخ والعامل الأساس في حركته .

في تصوري أن المؤلفة «مي الخليفة» لا تقل حيرتها عن حيرة أي مؤلف آخر يتناول تاريخ فترة القرامطة ، ثم يكتشف أنه أمام سيل جارف من المتناقضات ، وأنه يحاول العوم في بحر لجي بين أمواج من الفتن والثورات والاضطهاد ، والصراع الطبقي والعرقى والتصفيات الدموية ، كل ذلك محاط بهالة من الادعاء بنصرة الدين ومحاربة المفسدين في الأرض ، والمارقين عن شريعة الإسلام وطاعة ولاية الأمر من الخلفاء والقادة وعمال الأقاليم . وللمؤلفة هنا . . أن تتساءل بفطرة النفس الإنسانية وعفوية خالية من الأغراض : (هل أن القرامطة وفلسفتهم الاجتماعية والفكرية هم مجرد فئة (كان همها الأكبر الإفساد في الأرض) .

أنا أعرف عن المؤلفة من كتبها السابقة واللاحقة لهذا الكتاب ، أنها مهتمة بإعادة كتابة تاريخ ما أهمله التاريخ ، لا سيما فيما يتعلق بجانب واحد هو الجانب الإنساني ، وبالتحديد البشر الذين ظلمهم التاريخ . هذا واضح فيما كتبتة عن تاريخ البحرين الحديث في عهد الأسرة الخليفية ، ومناورات الاستعمار البريطاني . . وفيما كتبتة حديثاً عن سيرة التعليم في البحرين ،

حيث أنصفت عدداً لا بأس به من رواد التعليم ومؤسسيه ، سقطت أخبارهم فيما كتب عن التعليم من قبل .

كما نلاحظ أن الوسط الجغرافي الذي تعمل فيه المؤلفه هو البحرين والخليج العربي على وجه الإجمال لا الحصر .

ولما كان المجال الفعلي للحكم القرمطي جغرافياً - هو الخليج والجزء الشمالي منه شاملاً جزيرة أوال من البحرين - فإن اهتمام المؤلفه بحركة القرامطة ليس محلاً للاستغراب .

وتوفيراً للوقت وعدم الإطالة في هذه المناقشة العاجلة ، أكتفي بالملاحظات التالية :

أولاً : أنا أرى على وجه العموم أن الكتاب عمل جاد في محاولة تصحيح التاريخ الذي كتب عن القرامطة ونقده ، ومن حق المؤلفه التي بذلت هذا الجهد بدافع إنساني نبيل في سبيل إنصاف المستضعفين وكشف النقاب عن الحقائق المرة في تاريخنا الإسلامي ، فيما يتعلق باستغلال شعار الإسلام في إقامة الدول والممالك لمصلحة الطغيان والتحكم في الشعوب والاستيلاء على ثرواتها .

أقول إن من حقها أن ينال الكتاب اهتمام وبحث المختصين ، باعتباره خطوة جريئة تستحق التقدير

ثانياً : لم تزعم المؤلفه أنها تكتب التاريخ أو أنها تعيد كتابته بشكل موضوعي علمي يخضع للمقومات العلمية التي ذهب إليها الأستاذ علي الديري . فقد قامت بجهد في تجميع المواد والحقائق والروايات التاريخية ، التي تنصب في مجال إنصاف الحكم على دعوة القرامطة وفكرها ومجتمعها ، وتركت للمهتمين إكمال المسيرة ، مستشهدة في ذلك بقول أرنولد ولسون :

(ليس من المفروض أن يواصل الإنسان الكتابة حتى يصل إلى الحقيقة غير المعروفة في السابق . ولكنه إذا قام بتنويع المصادر قد يجعل العقل يكتشف

الرؤية الجديدة لمسلمات سابقة) .

لكنها مع ذلك لم تحجم عن اتخاذ موقف شجاع يلميه الضمير والخلق ، حينما ختمت فصل التمهيد لكتابتها بقولها : (أقول إن الحجة ليست لمن غلب ، وإن تحريف التاريخ والتعتيم على فترات منه ، لن يجعلها مجهولة ، ولن تبقى في خانة المسكوت عنه) .

ثالثاً : من بين من كتب في تحليل كتاب مي ونقده ، الأستاذ كمال الذيب في أخبار الخليج «الثقافي» بتاريخ ٢٠٠٠/١/١٥ ، فأخذ عليها اعتمادها سيناريو منسوجاً على عمود الرؤية الشخصية (أي القراءة الخاصة المشحونة برغبة معلنة وملحة في «إنصاف القرامطة» ، مما جعل الكتاب أقرب إلى المرافعة) ..

هذا القول فيه جانب من الصحة ومن حق المؤلفة أن تدافع عن قضية توصلت بجهد البحث الدؤوب إلى قناعة خاصة حولها . وانتقاء النصوص التاريخية يعيب المؤرخ ولا يعيب الباحث الذي يريد إثبات قناعاته في قضايا إنسانية عادلة . ورغم ما تضمنه مقال الأستاذ كمال الذيب من نقد وملاحظات فقد نختمها بقوله :

«إنها ممارسة جديرة بالاحترام من النواحي الفكرية والبحثية والأخلاقية أيضاً» .

رابعاً : كانت الدولة القرمطية تجربة فريدة جديدة في فكرها ونهجها ونظامها الاجتماعي والاقتصادي ، طمسها الأحداث والحروب ثم ضاعت في تيار الأنظمة التقليدية ، وتلاشت مع الزمن ولم يبق غير اسمها مقروناً بوصمة المروق عن الدين ، حتى من قبل الأنظمة التي قامت على أساس الدعوة الإسماعيلية . والدفاع عن الشرعية الدينية لمثل هذه الدولة مركب صعب ، وهو أمر وارد حتى ولو تمكنت المؤلفة من مجانبته بذكاء . ولكن التجربة القرمطية ، من حيث نظامها الدنيوي أو العلماني في المصطلح الحديث في توزيع العمل ، والثروات وتحري العدالة الاجتماعية ، تستحق الدراسة المسهبة والكشف عن أمور كثيرة تتعلق بالبناء الاجتماعي والاقتصادي والفكري والفلسفي والتربوي

إلخ . . . ذلك حتى ولو وضعها التاريخ الإسلامي خارج الشرعية . فهل يبسر ذلك وضع هذه التجربة الإنسانية الفريدة بالقياس إلى عصرها في زاوية النسيان أو الرفض . لعل المؤلفة وضعت هذا السؤال نصب عينها واجتهدت في أن تأخذ زمام المبادرة خليجياً على الأقل لبحث شأن تاريخي إسلامي وخليجي مهم .

خامساً : أعود أخيراً للورقة القيمة التي كتبها الأستاذ علي الديري ، ونقلنا فيها إلى أبعاد بحثية أكاديمية ، ابتداء من فلسفة النقد الأدبي ، وعملية استيحاء الأفكار من شكل الكتاب ونص الإهداء ، ثم توغل في استجلاء بناء الخطاب لدى المؤلفة ، إلى رأيه في كون المؤلفة قد استسلمت للنصوص المختارة ، ثم رأيه في مراجع الكتاب ، وكونه لا يحمل تصريحات الباحثة التي تبعد عن نفسها الأوصاف الأكاديمية محمل الجد ، بحكم ما فرضته إكراهات التوثيق التاريخي ، لولا أن المؤلفة انصرفت عن معطيات العلوم الإنسانية وعلم اللغويات ، والتي هي ذات أهمية في خدمة المؤرخ . ثم حدد عدداً من الملاحظات في هذا الصدد .

منها غياب النقد المعرفي ، لا سيما في وصفها للنظام القرمطي بأنه أول حركة اشتراكية في الإسلام . ومنها أن الإكراهات السياسية والعقائدية تحولت عندها إلى «تعاطف» بدلاً من النقد المعرفي ، ومنها أن نصوص المؤرخين تحولت إلى وثائق بدلاً من أن تكون ساحة عمل ومساءلة . وبعد أن يورد الأستاذ الديري نصوصاً وضوابط نقدية أخرى ، يخلص إلى تقرير حكم شمولي قد لا نتفق معه عليه حيث يقول : «إن نموذج الزعامة الثورية ما انفك على مر التاريخ من تكرار أدوار الزعامة الملكية» . ولنا أن نسأل هنا : «هل يعني ذلك في رأي القائل أن الملكية على حق ، وأن الثورات على باطل ، طالما أنه يمكن استغلالها لغير ما جاءت من أجله؟

سادساً وأخيراً : إن الأستاذ علي الديري ، بقدر ما وسع مداركنا في مجال النقد الأدبي وأسبابه ومتطلباته ومعاييره الموغلة في الدقة والتعقيد ، وبقدر ما نثر من حقيقته النقدية من سهام وعجم عيدانها (على مذهب الحجاج الثقفي) ، ثم رمى تلك السهام في مواضعها من كتاب مي ، فإنه لم يختم ذلك الجهد الذي

بذله بقول يفيدنا عن مجمل رأيه في الكتاب ، وكونه يسد فراغاً في موضوعه
(على نحو ما فعل الأستاذ كمال قبله) . وتركنا في حيرة تشبه حيرة (عمرو)
بعد أن قال فيه ابن الرومي أو غيره ...

(خاط لي عمرو قبا
ليست عينيه سواء
قلت شعراً ليس يدري
أمـديح أم هجاء)

أما أنا فأختم كلامي بقول الواثق : إن كتاب مي عن القرامطة عمل جريء
له قيمته ، وبحث قيم وإضافة للمكتبة التاريخية ، وهو ممتع جدير حقاً بالقراءة .

(*) مداخلة في ندوة «الأسرة» بنادي العروبة في ٢٩/٥/٢٠٠٠ .

الشيخ أبو البحر جعفر ابن محمد الخطي

أول ذكرياتي مع شاعر القطيف والبحرين ، الشيخ أبو البحر جعفر بن محمد الخطي بدأت وأنا مازلت صبياً ، حينما أصدر أستاذنا إبراهيم العريض أول دواوين شعره الحديث (العرائس) عام ١٩٤٦ .

.... فقد صدر الأديب والشاعر اللبناني المعروف محمد علي الحوماني صاحب مجلة العروبة ، لهذا الديوان بمقدمة عن الشعر البحراني ورد فيها ما يلي :

.... على أنني وقد رجعت بالذاكرة إلى عشرة أعوام أو تزيد ، فاسترجعت «ذكرى الشاعر الخطي البحراني قبل مائتي عام أو تزيد . إذ أقرؤه في (سلافة العصر) فيملاً نفسي إعجاباً بقريضه الفحل ، وهو يصف سببوية البحر التي شجت رأسه على ساحل البحرين .

وعدت بعد هذا غير منكر على شاعر البحرين السيد إبراهيم العريض أن يكون خليفة الخطي ، وغير منكر تلك البقعة أن تكون مصدر اللؤلؤ بكلا معنييه» .

تلك هي الفقرة من مقدمة الحوماني التي أثارت في نفسي الفضول وحب الاستطلاع . وقد ظل هذا السؤال قائماً لدي إلى أن وقعت بيدي نسخة من ديوان الخطي في أواخر الخمسينيات ، فقرأت منها أول ما قرأت قصيدة الشاعر في السببوية ، وعرفت منها قدرة الشاعر الخطي على توليد المعاني والأفكار من حادثة بسيطة ، لو حدثت لغيره لكان أولى بإخفائها أو تجاهلها . لولا أن ملكة الشاعر في نفس الخطي أبت إلا تجعل من حادثة السببوية ميداناً يصل فيه

ويجول ، وكأنها تحولت على لسانه إلى ملحمة شخصية للبطولة . فهو يبدوها
بالأسى على أن دمه لم يرق في نيل المعالي والمكارم فيقول :

برغم العسوالي والمهنة البكر
دماء أراقته سبب طية البحر
دم لم يرق من عهد نوح ولا جرى
على حد ناب للعدو ولا ظفر
تحامته أطراف القنا وتعرضت
له الحوت يا بؤس الحوادث والدهر

بعد هذا يستنجد ببكر وتغلب :

ألا أبلغ الحيين بكرا وتغلبا
فما النصر إلا عند تغلب أو بكر
أيرضيكما أن امرءاً من بنيكما
وأى امرئ للخير يدعى وللشر
يراق على غير الضبا دم وجهه
ويجري على غير المثقفة السمر

وبعد تلك المقدمات المثيرة يبدأ في وصف مأساته وسرد قصته . فيصور لنا
حالة شيخ له بريدٌ اشتهار في سائر البلدان ، ولكونه إنساناً حراً فقد تولع به
صرف الزمان الذي يتقصد الأحرار دائماً . ثم ينحى باللائمة على بحر البلاد
وتوبلي ، حيث توجه من موقع مري في الضحى وكأنه يتوجه إلى العلقم المرّ ،
مشمراً عن ساقيه لخوض الماء ومعه ولده (حسان) ، ممسكا بيده أو محمولاً على
كتفه - لاندري - فيفاجأ وهو على هذا الانشغال من أمره بسبب طية تظفر في
وجهه فتشق وجنته اليمنى بنطحة أوقعته في البحر دامي الحيا ، ثم لا يلبث
حتى تنفجر الدماء من وجهه ، فيصف ذلك قائلاً :

تلجلجت خور القريتين مشمرا
وشبلي معي والماء في أول الجزر
يطوحني نزع الدماء كأنني
نزيف طلي مالت به نشوة الخمر
فمن لامرئ لا يلبس الوشى قد غدا
وراح موشى الجيب بالنقط الخمر

ثم يصف عودته للمنزل بدمائه التي خيل للناس أنه قادم بها من ساحة
الحرب ، وبعد أن يهدأ روعه يخاطب السمكة المعتدية ، قائلا إن من حقها أن
تفخر على سائر الشجعان بهذا الانتصار ، ثم يهتف به هاجس الخيال فيقول :
ما تكون هذه السببية ، فليس خطرها يقاس بخطر الشوارد من أشعاري التي
بإمكانها أن تكون أعدى على المعتدين من العرّ (أي الشرّ والجرب) ، وأضرّ على
الأجفان من العمى ، وأبلى على الأذان من الوقر فيقول :

فلست بمولى الشّعـر إن لم أزجه
بكل شـرود الذكر أعدى من العرّ
أضرّ على الأجفان من حادث العمى
وأبلى على الأذان من عارض الوقر
يخاف على من يركب البحر شرّها
وليس بمأمون على سالك البرّ
تجوس خلال البحر تطفح تارة
وترسورسو الغيص في طلب الدرّ
والقصيدة عدد أبياتها في الديوان ثمانية وثلاثون بيتاً ، يختتمها الخطي
بتعليل نفسه عن عدم إمكانية الأخذ بثأره قائلاً :
لعمـر أبي الخطى إن بات ثأره
لدى غير كفاء وهو نادرة العصر

فشار عليّ بات عند ابن ملجم
وأعقبه ثأر الحسين لدى شمر

يروى أنه لما عرضت هذه القصيدة الفريدة على العلامة الشاعر السيد ماجد البحراني الحسيني الصادقي (وهو من معاصري الخطي ومن خلائه) ، كتب عليها مقرضاً بما يلي : «أجلت النظر في معانيها فوجدتها قرّة في عين الإبداع ، ومسرة في قلب الاختراع» . . . ثم يضيف :
«الحمد لله على تجديد معالم الأدب بعد اندراسها ، وتقويم راية البلاغة بعد انتكاستها»

تلك هي قصة الخطي مع السببية بدأت بها مسلسل الذكريات .
ثم تلت بعد ذلك مناسبة أخرى في أوائل السبعينات ، حين طلب مني الشيخ خالد بن محمد الخليفة رحمه الله ، أن أحصل له على نسخة من ديوان الخطي ، فلم أجدها في الأسواق ، ولم أر بدا من إرسال نسختي إليه . ثم أخبرني بعد ذلك أنه قدم تلك النسخة لشخصية عزيزة بمناسبة عرض بستان القمبيات في الجنبية للبيع ، وأن هذا البستان قد وصفه الخطي في ديوان أشعاره ، وذلك في سنة ١٠٢٣ هجرية ، حيث قال من قصيدة ضمت ستة وعشرين بيتاً :

«يا غاديات السحب لا تتجاوزي
في السقى دولا ب القمبيات
لم أنس أياماً جنيت مبكراً
ثمر المنى فيها ولا لذاتي
يستوقف الأبصار بين شقيقة
حمراء يا قوتية الورقات
والنخل مثل عرائس ذهبية
الأنداد فيروزية الوفرات

وزهت عنا قد كرمه لما غدت
بنوا ضبر الأوراق ملتحفات
تبدو فتسترها كما وارت في
خضر البراقع أوجه الفتيات

ثم يصف جمال الجنبيات :

بانية الأعطاف كثنائية الأرداف
هاروتية النظرات
كم من جليد اضجعت له حينه
شرواك... الحاظ الجنبيات
لا شيء أوجع للحشا وأمض من
عيش مضت لمضيه لذاتي
ذهبت بشاشته وبات شجاه لي
في الحلق بين ترائبي ولهاتي

ننتقل الآن من قصة السببية ودولاب القميعيات إلى حكاية أخرى في
شعر الخطي شغلت الأدباء والعلماء ، وهي قصته مع الشيخ بهاء الدين
العاملي ، يرويها صاحب أنوار البدرين عن الخطي قائلاً :

.... ومنهم العالم الكامل الشاعر الأديب المصقع الماهر الشيخ جعفر بن
محمد بن حسن بن علي بن ناصر بن عبد الأمام ، أحد بني عبد القيس من
تميم الخطي . كان مسكنه قرية (التوبي) ، إحدى قرى القطيف المحروسة ، وله
عقب فيها إلى الآن ، وكان كثير السفر إلى البحرين ، بل قطن فيها كثيرا وكان
مصاحبا فيها العلامة المحقق الأديب الماجد السيد ماجد بن السيد هاشم
الصادقي الجدحفصي ، والسيد عبدالرؤوف قاضي القضاة ، وأبناءه بعده ، وله
فيهم المدائح والمرثي... إلى أن يقول : وله يد في العلوم أيضاً إلا أن الشعر

غلب عليه ، وله الإجازة من شيخنا البهائي لما اجتمع معه في أصفهان سنة ستة عشر وألف هجرية ، وعرض عليه معارضة قصيدته الرائية ، والتي أولها : (سرى البرق من نجد فهيج تذكاري عهود بجوزي والعذيب وذو قار) وقال له أجلتك شهرا ، فقال الشيخ جعفر : يوما ، بل في مجلسي هذا . واعتزل ناحية في المجلس وأنشأها ارتجالا ، فلما أتمها وأنشدها راويته وجامع ديوانه (الغنوي) ، وقعت عند الشيخ البهاء موقع القبول « هذا ومن قوله فيها :

هي الدار تستسقيك مدمعك الجاري
فسقياً . فخير الدمع ما كان للدار
عشوت إلى اللذات فيها على سنا
شموس وجوه ما يغبن وأقمار
نواضع بيض لو أفضن على الدجى
سناهن لاستغنى عن الأنجم الساري
حرائر ينظرن الأصول بأوجه
تغضّ بأمواه النضارة أحرار
أبحنك ممنوع الوصال نوازلا
على حكم ناه ، كيف شاء وأمار
إذا بتّ تستقي الثغور مدامة
أتتك فحيتك الحدود بأزهار
أموسم لذاتي وسوق مآربي
ومجنى لباناتي ومنهب أوطاري
سقتك برغم المحل أخلاف مزنة
تلف إذا جاشت ، سهولاً بأوعار

**

ثم يستمر الخطي في ذكر مناقب الشيخ بهاء الدين إلى أن يقول :
جُهلّت على معروف فضلي فلم يكن
سواه من الأقسام يعرف مقداري
فقال له البهائي - وأشار إلى جماعة من سادات البحرين وأعيانهم ، كانوا
عنده ، وهؤلاء يعرفون مقدارك إنشاء الله .

ثم واصل إنشاء قصيدته إلى أن قال :
فيا ابن الألى أثنى الوصي عليهم
بما ليس تثنى وجهه يد أنكار
بصفيّن إذا لم يلف من أوليائه
وقد عض ناباً للوغى غير فرار

وهو يشير بذلك إلى همدان وهي قبيلة من اليمن ينتهي إليها نسب
المدوح (البهائي) ، وكانوا قد أبلوا يوم صفين بلاء حسنا . فرؤى أنهم في بعض
أيامها حين استحر القتل ورأوا فرار الناس أغمدوا سيوفهم فكسروها ، وعقلوا
أنفسهم بعمائمهم وجثوا على الركب وبركوا للقتل . فقال أمير المؤمنين علي رضي
الله عنه :

لهمدان أخلاقٌ ودين يزينها
وبأسٌ إذا لاقوا وحسنٌ كلام
فلو كنت بوابا على باب جنة
لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ذكره ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد .

ولما أتم انشادها كتب إليه الشيخ بهاء الدين مقرّضا : «أيها الأخ الفاضل
الألمعي بدر سماء أدباء الأعصار ، وغرة سيماء بلغاء الأمصار ، زاد بها ولوعي
وهيامي ، واشتد لها ولهي وأوامي . ولعمري لا تزال إلا آخذنا فيها بأزمة أوابد

اللّسن تقودها حيث أردت وتوردها أنى شئت وأردت ، حتى لكأن الألفاظ تتحاسد على التسابق إلى لسانك ، والمعاني تتغاير في الانهيار على جنانك ، والسلام .

يصف صاحب سلافة العصر الخطي بقوله :

«ناهج طرق البلاغة والفصاحة الزاخر الباحث الرحيب المساحة ، البديع الأثر والعيان ، الحكيم الشعر الساحر البيان ، ثقف بالبراعه قداحه ، وأدار على السامع كؤوسه وأقداحه ، فأتى بكل مبتدع مطرب ومخترع في حسنه مغرب ، ومع قرب عهده فقد بلغ ديوان شعره من الشهرة المدى :

وسار به من لا يسير مشمراً

وغنى به من لا يغني مغرداً

وقد وقفت على فرائده التي لمعت فرأيت ما لا عين رأّت ولا أذن سمعت وكان قد دخل الديار العجمية فقطن منها بفارس ولم يزل بها وهو لرياض الأدب جان وغازس ، حتى اختطفته أيدي المنون فغرس بفناء الفنا وخلد عرايس الفنون . وكانت وفاته سنة ثمان وعشرين وألف رحمه الله تعالى» .

والجدير بالملاحظة في هذا الإطراء على شعر الخطي من تقدم ، ذكر إطرائهم بما فيهم تقريظ السيد ماجد الصادقي على السببوية ، وكذلك كل إطراء وتقريظ قرأته عن الخطي من معاصريه أو ممن جاء بعدهم ، هو أن أساليب التقييم لشعره تتمشى مع المفهوم التقليدي ، المقتصر غالباً على الصناعة اللفظية ومعاني البيان ، وذلك في اعتقادي ظلم من حيث هو ثناء لشاعرية الخطي الذي خرج بشعره الجيد عن مفهوم عصره في مناسبات كثيرة ، إلى آفاق من المشاعر الاجتماعية المعبرة عن خلجات النفس بعمق وأصالة . يقول الدكتور محمد جابر الأنصاري عن الخطي ؛ فيصفه بأنه لجزالة لفظه يذكر في عمود سامي البارودي في مصر في محاولته إحياء أسلوب البلاغة الشعرية .

بعد هذه المقدمة المستوعبة لحوادث وذكريات وأقوال تدور حول شاعرنا

الخطي . . أنتقل إلى التعريف بالخطي وشعره وسيرة حياته .

ديوان الخطي :

النسخة المتداولة من ديوان الخطي مأخوذة عن نسخة (الغنوي) ، راوية شعر الخطي ، ومنُشد أشعاره وجامع ديوانه في حياته .
والأشعار مبنية حسب حروف الهجاء ، ولهذا كان لا بد من قراءة الديوان مرات عديدة لمعرفة الموضوعات ، وتسلسل تواريخ القصائد إلى غير ذلك من لوازم البحث .

ومجموع القصائد في الديوان هو ١٣٣ قطعة شعرية ، وعدد أبيات الديوان يساوي ٢٤٨١ بيتاً تقريباً . والقطع الشعرية أقلها بيت أو بيتان ، وأطولها يربو على المائة .

الوصف :

أما الموضوعات فأولها الوصف : في أكثر من اثنتي عشرة قصيدة ، إذا استثنيا ما ورد في الوصف ضمن القصائد الأخرى .
وقد اشتمل الوصف على الخمريات - وكلاب الصيد والمرأة - طلوع البدر - وصف حلاق الحمام - الحشيشة - فوائدها بعض الأعشاب للجنس - وصف الخل - مجلسه بأم الحصم - مجلسه في المنام - صيد السبيطي - إلى غير ذلك . . . ومن نماذج شعره قوله في وصف اللوز :

ولمّا اكتسى اللّوز الحسين مطارفاً
جدائد . . . من أوراقه السندسية
أشار بأغصان كأن فروعها
أكفّ تصدّت للدّعاء . . . ومُدّت

المدح :

ربما دخل شعر المدح في خطاب العتاب أو الشكوى ، ولكن القصائد المخصصة لذلك لم تتجاوز العشر تقريبا .

وينظر الخطي إلى شعر المدح أنه موجه لأصدقائه والخلصاء ، وليس لاستجداء المعروف . فيقول في إحدى قصائد المدح :

(فإن المدح مدح أخي التصافي

من الإخوان لا مدح المكدي)

وهو يمدح من هو رفيع المنزلة محافظ على الود أو علوي شريف النسب ،

وذلك حسب قوله :

(كلا طرفيه حين تنسبه إلى

علي وخير المرسلين محمد)

ومثل قوله :

(أسدى إليّ يدا يضيق بها الثنا

ذرعاً ، ولم أبسط يد المسترفد)

وكقوله في أحد الأشراف من بني هاشم :

(وأتعبتني في شكر من راحتني به

فديتك مولى... قد أراح وأتعبا)

وهو يمدح صديقه وسميه الشريف جعفر بن عبد الجبار العلوي الموسوي ،

بأبيات جميلة نختار منها ما يلي :

إن أولى الورى بنخالص ودي

جعفر قد غدا بذاك خليقا

علوي يعلو الرجـال إذا طا

ولهم محتداً وعرقاً عريقاً

خلق كالنسيم لطفاً وصدر
 يشتكي عنده الفضاء الضيقا
 وكريما اعتد منه على اللاواء
 كفا طلقاً ووجهاً طليقا
 لست أدري ماذا أقول وإن
 كنت أعدّ المفوه المنطيقا
 ورد الناس قبلنا مورد النظم
 فأضحى مكدرًا مطروقاً
 إن نظمنا بيتا غريباً وخلناه
 جديداً كان الجليد عتيقا
 أو سبقنا فيما نظن لمعنى
 معجب كان سبقنا مسبوقا
 سبقونا والمرء يأنف أن
 يسبق يوماً وإن أطاق اللحوقا

وكثيرا ما تنتهي مدائح الخطي أو مراثيه بمدح على طريقة المرحوم المتنبي ؛ أو
 بالأحرى أنه يمدح ويشيد ويفخر بقدرته على نظم الذي لا يجاربه فيه أهل زمانه
 فيقول :

تشاركني الورى في الشعر ظلماً
 على أني المبرز فيه وحدي
 أو يقول :

مدائح لم يسمع بها فكر شاعر
 ولا افتر عن أشعارها فم منشد
 أنا الكوكب الوقاد والعلم الذي
 به كل من غمت مساريه يهتدي

متى أدع عاصمي القول يأتي مطاوعا
وإن يدع غيري طائع القول يعقد

المراثي :

والغرض الثالث الذي نظم فيه الخطي هو الرثاء . . . وقد أحصيت له في
الديوان ثلاث عشرة قطعة شعرية في الرثاء .

وأقدم قصائد الرثاء في الديوان ما نظمه سنة ٩٩٩ هجرية ، راثياً لشيخ
القطيف الذي هاجر إلى البحرين مع جماعة من أشرف القطيف . . . لأمر هناك
- كما يقول شارح الديوان :

ومن الملفت في هذه المراثية قول الخطي مخاطباً القطيف :

«من الآن بدؤ الشـرّ فيك وإنه

لمتصل باق . . . وآخره الحشر

وقوله مفتخراً في آخر القصيدة :

وعذراء من حر الكلام خريدة

بأمثالها في الشعر يفتخر الشعر

وتتوالى المراثي بعد ذلك في من توفي من أصحابه ومعارفه وخلصائه ،
ومعظمهم من أهل البحرين . ولم أجد من المراثي الحسينية في ديوانه غير واحدة
غير طويلة ، وذلك على خلاف شعراء عصره الذين أكثروا من تلك المراثي .

الأغراض الأخرى :

ومن أهم الأغراض الشعرية التي نظم فيها الخطي ، ما يمكن جمعه تحت
مسمى شعر الوجدانيات والإخوانيات والذي يشتمل على شعر الاعتذار
والعتاب من سوء الحال ، ومراسلة الأحباء والأصدقاء ، والتشويق إلى أهله في

البحرين ، والحنين إلى البحرين ، وقليل من القصائد في التهنئات وشكر الأصدقاء ، وهجو المتشاعرين .

وقد أحصيت له في الاعتذارات والشكر والتهاني نحواً من عشر قصائد ، وفي المعاتبة ثمان ، وفي الاشتياق للأهل والوطن نحواً من ثلاث وعشرين ، وفي الشكوى خمساً ، وعشر قصائد في المساجلات والمراسلات .

وأرى أن هذه الأشعار هي التي تميز الخطي عن غيره من شعراء عصره . فالود الذي يبديه تجاه خلصائه وأصحابه لا تكلف فيه ، وهو يظهر في هذه الأشعار إنساناً يحب أكثر مما يكره ، ويتمسك بالوفاء تجاه أصحابه وخلصائه ، فهو يشاركهم إن كان حاضراً معهم ، ويراسلهم على البعد في غيابه ، ولا ينقطع عنهم وعن أخبارهم وأحوالهم . وحينما ينقطعون عنه فإنه يعاتبهم أو يلومهم على ذلك ؛ فإن حالت بينه وبين مراسلتهم ظروف قاهرة فإنه يقدم لهم اعتذارات شعرية رقيقة يأنسون بها . وأما وفاؤه وحبه لأهل بيته فإن معظم قصائده العاطفية الرقيقة هو ما بعثه إلى أهله بالبحرين .

فمن شعره في الاعتذارات نقرأ له في الهمزة ، اعتذاره للشيخ عبدالله عبد الحسن سنة ١٠١٩ هجرية ، ومنها قوله :

فإني وإن أصبحت والشعر حرفتي
وكنت امرءاً من سائر الشعراء
لأسلك نهجا في الوفاء يريك من
تقدم من أهل الوفاء ورائي
وإن يداً أوليتنيها وإن مضى
بها الدهر . . . باق ذكرها ببقائي
أراك بعيني عاجز عن جزائها
فيصرف وجهي عن لقاء حيائي
فلست امرءاً إن غاب غاب وفاؤه
ولكنني إن أدن - يدن وفائي

ولولا وجوه في القظيف أخافها
لما طال بالبحرين عنك ثوائي

ومن الاعتذارات الطريفة اعتذاره لعامل البحرين وهو (خميس بن ناصر) ،
حيث يذكر فضل ذلك العامل ، حيث تخوف الناس نقص الدراهم على نحو
من أربعة دوانيق ، وكانت زنة الدرهم سبعة دوانيق ، فمشى خميس إلى
الحضرة (الديوانية) في ذلك ، وكان ذلك سنة أربع بعد الألف هجرية ؛ فأمر
الديوان بإبطال ما نقص ، وضرب سكة جديدة وزنها سبعة دوانيق ، فاشتهرت
هذه القصة لخميس وشكر عليها . وما قاله الخطي في ذلك :

ألست الذي قومت سكة دارنا
وقد رميت بمن يقص بحاصب
فبارت فما المرزوق منها بظافر
وهانت فما المحروم منها بخائب
فأكملتها من بعد نقصان وزنها
وسيرتها في شرقها والمغرب
وقد جاءني منك المكرم جمعة
أخوا الفضل والإحسان في زي عاتب
فهذا اعتذار جاء من غير مذنب
ولو كان حقاً جاء من عند تائب

وباعتبار الخطي عالماً فلعله يعني بكلمة تائب ، التوبة إلى الله . . ولكن
عامل الديوان لعله أخذها بالمعنى العادي للتوبة فقبل اعتذاره .
وفي عتبه على الشريف عبدالرؤوف القاروني ، يشير إلى القصد الأصلي
من المعاتبة ، فيقول (وذلك سنة ١٠١٢) : (. . هكذا توقظ الكرام بوخز

القول عن نومهم عن المعروف)

ومن شعره في العتاب مخاطباً السيد ماجد المرتضى العلوي العريضي سنة

١٠١٦ هـ قوله :

(يلوم الأثرياء)

غير أنني أشكو إليه أخصاً
إذا شئت جبره شاء كسري
ظن قـربي منه رجاء غناه
فتنأى عني... مخافة فقر
كنت شاطرته الإساءة يوماً
فمحا شطره وأثبت شطري
غير بدع... فهكذا كل من يعدم
حيناً من دهره ثم يثري
عثرت بالممولين مطايا
حملتهم... ولا لعالٍ لعثر
إن للوفر حادثات فهلا
جعلوني من حادثات الوفر
لا تكلني إلى حيائي فأدوا
كل داء عندي حياء الحرّ

الشوق إلى الأهل في البحرين

اعتاد الخطي أن يرأس أهله في البحرين بقصائد يبعثها إليهم من شيراز وغيرها من البلدان ، التي كان ينتقل إليها ، وذلك لاستيطان الكثير من علماء البحرين وأصدقائه هناك ، حيث كان يعهد إليهم بالقضاء والفتوى والتدريس والتأليف في الفقه . وكان يبعث بخطاباته مرفقه بالقصائد الشعرية - وهي كما

أعتقد أكثر قصائده العاطفية رقة وعضوبة وطراوة .
وتجبيء معظم قصائد الشوق للأهل ممتزجة بالشوق إلى البحرين . ومن ذلك
قوله سنة ١٠١٢ هجرية وهو متوجه إلى خراسان :

فأرقتكم فجرعت زقوم الأسي
زاداً وغساق الدموع شراباً
أكذلك كل مفارق أم لم يكن
قبلي محب فارق الأحبابا
وتأسفي أني غداة فراقكم
لم أقض من توديعكم أراباً
قد جرد التفريق سيفاً بيننا
أفما يتيح له اللقاء قرابا
يا هل ترون لنازح قذفت به
أيدي البعاد ، لجدحفص إيابا
لا تحسب البحرين أني بعدها
مستوطن دارا ولا أصحابا
ما أصبحت شيراز وهي حبيبة .
عندي بأبهج من أوال جنابا
ما كنت بالمبتاع دارة سروها
يوماً . . . بفاران ولا بمقابا
لأسيرن لكم وإن طال المدى
مارق من محض الشناء وطابا

أما أشعار المسامرات والمراسلات عند الخطي فقد تجاوزت أسلوب عصره في
بعض الأحيان ، حيث جاءت معبرة عن الود الخالص الخالي من المجاملات
والتكلفات اللفظية واقتصر منها على مثال مما قاله وقد سمر مع أحبابه : أبي

ماجد هاشم بن هاشم العريضي وأبي عبدالله الحسين الموسوي حيث يقول
ارتجالاً في المناسبة :

يأليت أرواحنا الثلاث
تجمعن جميعاً . وضمها جسد
كمثل أهوائنا الثلاثة قد
ألّفها لاتحادها كبد
أو مثل أجسامنا الثلاثة إذ
ضمّنها لأتلافها بلد

ومن المعروف أن الخطي عاصر السيد أحمد عبد الصمد الحسيني ورثاه ،
والسيد ماجد الصادقي الجدحفصي ؛ وهو عالم وشاعر وصديق له توفى في
السنة التي توفى فيها الخطي وهي ١٠٢٨ هجرية . وعاصر كذلك قاضي القضاء
بأصفهان / محمد بن حسين العاملي الجبعي ، وقد تقدمت أخبار مجاراته
لشعره .

ومن معاصري الخطي داود بن أبي شافين المتوفى سنة ١٠١٢ ، وله فنون
جديدة في الشعر ، منها المسمى بالموشحّ وكان كثير التداول لكنني لم أجد ما
يذكر منه في شعر الخطي . ومن قوله : (داوود بن شافين) :

(قل لأهل العذل لو وجدوا
من رسيس الحب ما نجد
أوقدوا في كل جارحة
زفرة في القلب تتقيد
فأسعد الهام - أيها اللام
فالهوى حاكم إن عصى أحد)

.... الخ

سيرة حياة الخطي :

نقتصر في سيرة حياة الخطي على الجوانب الرئيسة الهامة :
أولاً : أن الخطي ولد في القطيف في قرية (التوبي) ، ولا نعلم تاريخ ولادته
ولكنه هاجر في مقتبل عمره إلى البحرين وأقرب تاريخ إلى هذه الهجرة هو
سنة ٩٩٨ هجرية ربما . . . فيكون قد استقر في البحرين سكنا وموطنا نحواً من
ثلاثين سنة ، ما عدا أسفاره القصيرة إلى القطيف وأسفاره الطويلة إلى إيران .
ثانياً : إنه غادر القطيف واستقر في البحرين لأسباب ذكرها في شعره ، منها
الخوف من والي القطيف ، الذي أورد في أشعاره نماذج من ظلمه وتعسفه وأدّت
إلى هجرة الكثير من علمائه وأعيانه ، مثل شيخ القطيف عبدالله المقلد الذي مر
ذكره ، ومثل ما جرى لمحمد جعفر أبي سنان الذي جرت عليه مصادرات من
حكام القطيف ، ولعله يشير إلى هذا المعنى في قوله من شعر الاعتذار سنة
١٠١٩ هجرية :

فلمست امرءاً إن غاب غاب وفاؤه
ولكنني إن أدنُ . . . يدن وفائي
ولولا وجوه في القطيف أخافها
لما طال بالبحرين عنك ثوائي
وقوله سنة ١٠٧ هجرية :

ولعندي على الوقوف بهاتيك
النواحي وتلكم الأبواب
مثل ما عند ذي الخافة للأمن
وما عند ذي الصدى للشراب
غير أنني سمعت من ألسن الناس
كلاماً فرى عليّ إهابي
ودعاني إلى مفارقة الدار
وهجر الأهلين والأصحاب

ومن أسباب هجر القطيف التي ذكرها في شعره قوله سنة ١٠٠٢ هجرية
(وفيها يتحامل على القطيف بمرارة) :

لأفارقن الخط غير معول
فيها على من ضمن أو من جادا
بلد تهين الأكرمين للؤمها
شروى الزمان... وتكرم الأوغادا

ولا نطيل الوقوف عند ذكر أسباب هجرة الخطي من القطيف... في مقابل
أسباب تعلقه بالبحرين، لولا أنني لاحظت بعضا من يؤرخون للأدب والشعر
حديثاً... قد استبعدوا أبا البحر الخطي من قائمة شعراء البحرين وأحقوه
بالقطيف، على أساس أنه ولد فيها... ولم تشفع لديهم في ذلك حقيقة كونه
عاش في البحرين طيلة حياته، ونظم في حبها قلائد الشعر، وخالط مجتمعها
حتى أصبح واحداً منهم. فدخلوا عليه بالانتساب إلى جزيرة البحرين... حباً
وانتماءً رغم ولادته في القطيف.

ثالثاً: والملاحظة الأخيرة في سيرة حياة الخطي كون شعره قد قاله أثناء
وجوده في البحرين أو في خارجها، موجهاً خطابه لأهله وأصحابه وخلصائه في
البحرين. فالقصائد التي قالها أثناء وجوده في القطيف لا تتعدى الأربع أو
الخمس ربما وهي قطع صغيرة... والقصائد التي وجهها للقطيف من البحرين لا
تتجاوز العدد نفسه تقريباً. أما باقي قصائده من أصل ١٣٣ فكلها نظمت في
البحرين، أو خارج البحرين موجهة إلى من فيها.

القيمة التاريخية لشعر الخطي :

كما ذكرت آنفاً إن لشعر الخطي أيضاً قيمة تاريخية بالنسبة للبحرين
١. فقد وردت في شعره أسماء للقرى والمنازل تزيد على ٢٢ موضعاً، وبعضها
غير متداول كثيراً اليوم، مثل (فاران - اسم جبل) بربغي - وكتكان ومري

/وما ثنا / وأم الشيف / إلخ ...

٢ . ومن أسماء الأشياء الرز شنبه / وسبيطي ولوز والرازقي وحلوى البرشتوه /
وسمك الكسكوس .

٣ . وأوردت بعض القطع الشعرية أنواع الحرف والأعمال والصناعات الموجودة
منها ، مثلاً ما ورد في رده على متشاعر بالقطيف ينصح به بالابتعاد عن
الشعر الذي ليست له فيه قدره ولا موهبة ، ثم يعدد له أصناف المهن التي
يمكن أن يشتغل بها ومنها : الحداد / النجار / الصائغ / والطبال / والزمار /
والصفار / والزرار / والبزاز / والقصار / وصاحب الصبغه الكيماوية /
والبيطار / والجّرار / والحّمّار / والفخّاخ / والبحّار / والمؤذن / والمنشد /
والقارئ .. إلخ .

كما يذكر طائفة من المشهورين بهذه المهن ، مثل علي بن عمران الزرار /
وابن مهنا البزاز ، وخميس بن خضاموه البيطار / إلى آخرهم .

٤ . وفي أشعاره ذكر لعدد من الحوادث العامة والمناسبات الاجتماعية وأحوال
مجتمع البحرين في عصره ... وكل ما ذكرته في هذا المجال ربما يفيد
المهتمين بالنواحي التاريخية والاجتماعية والأدبية والمهنية والعلمية في
عصر الخطي .

وبعد -

لا أدعي أن باستطاعتي إنجاز دراسة وافية عن أبي البحر الخطي ، ولكنني
أسميتها إطلاله على شعره وسيرة حياته ، وأرجو أن أكون قد فعلت ، وإن
تفاءلت أكثر من ذلك قلت : لعل ما ذكرته يستهوي الباحثين والدارسين أو
المعجبين بالخطي عموماً من الاستزادة في مجال البحث .

(*) جمعية تاريخ وأثار البحرين ، مايو ١٩٩٩ ، (نشرت في (الواحة - العدد ١٧ - سنة ٢٠٠٠) .

تاريخ وبدايات الأندية الثقافية في البحرين

في هذا الحديث ، سأتكلم عن تاريخ بدايات الأندية الثقافية الأولى في البحرين ونشأتها ، منذ قيام نادي إقبال أوائل عام ١٩١٣ ، مروراً بالأندية الثلاثة التي أعقبته ، وهي التي أسميتها بالبدايات الأولى ، ثم البدايات الثانية في أواخر الثلاثينات ، التي شهدت تأسيس الأندية الوطنية ، وأهمها الأهلي والعروبة والإصلاح والبحرين والنهضة بالحد ، وهي التي كونت في نهاية الخمسينات اتحاداً عرف باسم (اتحاد الأندية الوطنية في البحرين) واستمر هذا الاتحاد قائماً إلى منتصف السبعينات ، حين اندمجت جميع الأندية ضمن المؤسسة العامة للشباب والرياضة . وأنا أعتذر للأندية المستجدة على ساحة البحرين رياضية كانت أم ثقافية ، عن عدم ورودها في هذا الحديث لا إغضاء لشأنها ، ولكن لكون الموضوع مقتصراً على تاريخ بدايات الأندية الأولى .

وبعد ، فلعل البعض منكم يتساءل قبل الدخول في موضوع الأندية ، عن الحالة الفكرية والثقافية والتعليمية التي كانت سائدة في البحرين خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وذلك قبل تأسيس أول ناد فيها . فأقول : بالنسبة للتعليم كان الأمر يكاد يقتصر على مدارس التعليم الديني المنتشرة في جميع أنحاء البلاد . ففي مناطق القرى والأرياف كان تدريس الفقه وعلوم الدين وعلوم اللغة يحتل الصدارة في حلقات التدريس الملحقة بالمساجد والجوامع أو مجالس العلماء الخاصة . وفي المدن كالمنامة ، كانت هناك مدارس تعليم دينية متعددة ، من أهمها مجلس الشيخ قاسم بن مهزح ، ومدرسة الشيخ أحمد بن مهزح ، الذي درس في الأزهر ، ومدرسة الشيخ خلف العصفور وغيرها

من المدارس وحلقات التدريس الديني .

أما من ينهي دراسته الأولى في هذه المدارس ويرغب في إتمامها ، فكان يتجه إلى الأزهر في مصر ، أو النجف في العراق ، أو إلى جامعة عليكرة في الهند ، أو إلى أية جهة خارج البحرين^(١)

ومن لم يستطع إكمال دراسته الدينية أو العلمية في الخارج ، فكانت لديه فرصة التردد على المجالس الخاصة للعلماء والأدباء ؛ أو قراءة الكتب والمراجع في مكتباتهم العامرة في سائر مدن وقرى البحرين ، حيث كانت تلك المجالس بمثابة البديل السابق للأندية الأدبية - فقد كانت تؤدي دوراً شعبياً في ترويج الحوار في الفكر والأدب ومسائل الدين ، ولكن بالطرق التقليدية الموروثة^(٢).

ويبدو أن الزوبعة التي حركت الفكر الراكد في مجتمع المثقفين والمتعلمين في البحرين هي إنشاء مكتبة الإرسالية التبشيرية الأمريكية الملحقة بالإرسالية الأمريكية ومدارسها التعليمية ، ابتداء من عام ١٨٩٥ . وقد كثر تردد الشباب على هذه المكتبة ومطالعة ما يرد إليها من كتب ومجلات ، لا سيما (الهلال) و(المقتطف) ، ودخول معظمهم في مناقشات دينية حامية الوطيس مع رئيس بعثة التبشير آنذاك (صموئيل زويمر) وبدأت فكرة إنشاء مكتبة أو نادٍ لاستقطاب عناصر الشباب وإبعادهم عن مكتبة التبشير هذه ، تراود عقول الشباب وتجد قبولاً عند معظمهم .

هؤلاء المتعلمون الشبان كانوا ينتمون إلى أسر معروفة ، ومعظمهم كان يتردد على مكتبة المبشرين ويقرأ الصحف العصرية ، مثل الهلال والمقتطف ، وبعضهم يجاهر بأفكار إصلاحية جديدة لا يقبلها الجمهور الذي أطلق عليهم اسم (العصريين) .

يقول مبارك الخاطر ، تعليقاً على كلمة «عصري» (ص ٤٤-ناصر خيرى) :
«بقيت كلمة عصري تطلق في البحرين بمدلولها الذي ذكرته (أي على كل من يحاول تغيير النمط السلفي للحياة إلى الأفضل) ، وذلك حتى أوائل الخمسينات» .

وأقول إن كلمة (عصري) كانت أيضاً تطلق على مؤسسي نادي العروبة ، رغم أنه جاء بعد ما يقارب ستة وعشرين عاماً على تأسيس نادي إقبال أوال وقد عانى من جرائها نادي العروبة الكثير حتى وصل الأمر إلى التشهير بالنادي والاعتداء على المبنى برشقه بالحجارة ، وعلى بعض الأعضاء بالضرب ، وذلك من قبل بعض الأفراد المتعصبين من الجمهور .

ولا نستغرب لهذا السبب أن نجد حسن الجشي مثلاً يحاول جهده تقريب مفهوم النادي إلى الجمهور ، في حفل الافتتاح الأول لنادي العروبة ، فيذكر أن من أهداف النادي إنارة الأفكار ونشر الثقافة والتعليم .

ثم يحاول الجشي ترويح قيام الأندية بسبب ما سيجنيه الأعضاء من فوائد ؛ كالاتتماع والتعرف بالنخبة الصالحة والتسليّة البريئة والقراءة المفيدة ، والاستماع إلى المحاضرات أو مشاهدة روايات تمثيلية . ويذهب في ترويح فكرة قيام الأندية وأهميتها للمجتمع إلى أبعد من ذلك ، حين يردّها إلى مصدرها الغربي ، ويسرد نماذج طريفة من سيرة الأندية في الغرب والشرق ، مؤكداً أن معظم الأفراد في المجتمعات المتقدمة يكونون منتمين عادة إلى ناد أو أكثر من تلك النوادي ، التي هي متعددة المقاصد ، منها العلمية والرياضية ، ومنها أندية الصيد والممتنعين عن التدخين ، ونوادي الأمّهات والسّجناء والفلاحين ، حتى يأتي إلى ذكر غرائب بعض الأندية في العالم ، مثل (نادي السكوت) ، ونادي (اللوبياء السوداء) للعزاب إلى غير ذلك .

ولولا أن نادي العروبة استطاع أن يجتذب إليه ، بحكم علاقة المؤسسين الجيدة وسمعتهم الطيبة ، عدداً لا بأس به من الآباء والوجهاء المميزين لما استطاع - على الأرجح - أن يواصل المسير ، فتكون عندئذ قد تحققت المخاوف التي أشار إليها في كلمته بمناسبة افتتاح النادي السيد/ محمود يوسف خنجي الذي قال :

«لا أكتف عاطفة حزن وجزع تمر بي كما تمر الغيمة في السحاب ، فتحجب صفحة هذا الأفق الجميل عن باصرتي» . ولكن سرعان ما تعود إليه روح التفاؤل

فيقول مخاطباً نادي العروبة «لن يموت هذا الطفل الجميل لأنه من أولاد الحياة . لن تيبس هذه النبتة التي سقتها يد الكرم بل ستنمو وتكبر وتترعرع حتى تصير شجرة باسقة راسخة الأصول ممتدة الأغصان» .

إن الأستاذ محمود يوسف كان من مؤسسي نادي العروبة ، وعضو أول مجلس إدارة فيه ، وهو أيضاً أخو الشيخ محمد صالح يوسف ، خريج الأزهر الذي شارك في مجلس التعليم سنة ١٩١٩ ، وكان أحمد مؤسسي نادي إقبال أوائل عام ١٩١٣ ، الذي تعثرت مسيرته وأغلق خلال عامه الأول . فهل كان الأستاذ محمود يوسف متأثراً شعورياً أو لا شعورياً بمصير نادي إقبال أوائل فيما أبداه من مخاوف . الجواب . . ربما!

فتعالوا بنا إذن نستعرض أحداث وملابس نادي إقبال أوائل . . أول نادٍ في البحرين .

إن مفهوم الأندية على أنه لجنّي ثمار المعرفة والثقافة والدراسة والعلوم والمطالعة ؛ هو المفهوم الأساسي الذي تركزت عليه أهداف الأندية الثقافية الأولى في البحرين . إن مؤسسي نادي إقبال أوائل ، وهم الذين تجرأوا على الخروج من دائرة المدارس الدينية المغلقة إلى مشروع النادي ، كانوا يعلمون جيداً إن إنشاء الأندية هو من هموم الشباب . ومع ذلك فمن المستبعد أن يكون قد دار في خلد أحدهم أن تسمح أهداف النادي أو يتسع مجال أنشطته ليشمل الأنشطة الشبابية ، التي عرفتها الأندية فيما بعد كالرياضة ، والألعاب المسلية ، أو تعليم التنس والشطرنج والسباحة ، إلى أن تصل إلى حمامات السونا والبخار واللياقة البدنية ، كما هو موجود اليوم في نادي العروبة مثلاً .

ولو افترضنا أنه وجد من بين أولئك الرواد من راودته فكرة الأنشطة الشبابية ، فإن الوضع الاجتماعي وتحكم العاطفة الدينية ، المقترنة بنظم أخلاقية مترسخة ذات مفاهيم ضيقة ، كان يقتضي منه ومن يفكرون على شاكلته أن يقبر تلك الأفكار في مهدها . . وإلا تعرض وإياهم لجدع الأنوف! كما تشهد بذلك قصة هذا النادي :-

ففي عام ١٩١٣ اجتمع نفر من شباب المنامة المثقف ومنهم : الشيخ محمد صالح يوسف ، وناصر الخيري ، ومحمد حجي حسين العريض ، وخلييل المؤيد ، ومحمد على التاجر ، وعلي بن خليفة الفاضل ، ومحمد إبراهيم الباكر ، وعلي إبراهيم كانو ، وسعد الشمالان ، وسلمان التاجر ، وقرروا تكوين مكتبة عامة يديرونها هم لتضم شتاتهم ، بدلاً من مكتبة الإرسالية التبشيرية في المنامة التي كانوا من روادها ، وتركوها بسبب ما تثيره من شعور سيئ في عامة الناس في البحرين لكونها مكتبة تبشيرية .

لذلك فقد استأجر هؤلاء النفر دكاناً كبيراً في الشارع المسمى الآن بشارع عبدالله من المنامة . . لم يأخذ المؤسسون لهذه المكتبة موافقة من الحاكم ، كما لم يستشيروا قاضي البحرين الشيخ قاسم بن مهزح كعادة الناس يومذاك ، مع أن لهم دالة كبيرة عليه ، ففيهم من كان من تلامذة أخيه الشيخ أحمد ولهم به معرفة جيدة ، وكان يعدهم من تلامذته الذين ظل يوجههم بإرشاداته لمقاومة المبشرين . وكان كل ذلك من أسوأ أخطائهم الكبيرة ، كالتي أدت إلى إغلاق هذه المكتبة التي حولوها إلى نادٍ مسائي فيما بعد .

ولكون هذا العمل هو الأول من نوعه ؛ فقد أثار لدى الجمهور الشك والاستغراب ، لا سيما بعد أن استبدل اسم المكتبة باسم النادي ، وأصبحوا يترددون عليه صباحاً ومساءً .

إننا نعدّ اليوم مؤسسي نادي إقبال أوال بمثابة الرواد الأوائل في تاريخ الأندية في البحرين . أما معاصروهم من الجمهور فكانوا يطلقون عليهم «تسعة رهط يفسدون في الأرض» وكانوا يغرون بهم الشيخ قاسم بن مهزح ، قائلين : إنهم يا شيخ يأتون في ناديهم المنكر من قراءة صحف النصراري من مثل الهلال والمقتطف .^(٣)

كل ذلك والشيخ يسمع ويرى ولا يبدي اعتراضاً . . لكن ظل بالنسبة لهذا النادي الصغير ، وحسب تعبير مبارك الخاطر ، كمن يأكل أفراده التمر وهو يعد لهم النوى حتى وقع المحذور وأمر الشيخ بإغلاق النادي إلى الأبد .

وسبب إغلاق النادي أن مجموعة من مؤسسيه عزموا على أداء فريضة الحج ، وبدلاً من أن يؤدوها كسائر الناس دار بينهم النقاش بخصوص الحج ومناسكه ؛ فكلفوا أحدهم وهو ناصر خيرى بإرسال خطاب إلى الشيخ رشيد رضا صاحب المنار القاهرية ، يسأل لا عن تفاصيل وشروط تلك المناسك والشعائر ولكن عن الحكمة منها؟ ومن بين تلك الأسئلة : الحكمة من تقبيل الحجر الأسود ، وما في ذلك من مظاهر الوثنية ، ورمي الجمار والهولة بين المروتين ، والقصد من ذبح الذبائح ودفن لحومها ، ووقوف عرفة ، وعن عدم قيام جميع علماء الأمة ومرشديها بفريضة الحج ، وكذلك جميع ملوك وأمراء وأغنياء الإسلام . ولا يرى من الحجاج سواهم إلا فقراء الهند والصين والروس وجاوى وبلاد العرب . (وذلك النوع من الأسئلة كان يدور في المكتبة التبشيرية)

وواضح أن الاستفسار عن المناسك والشعائر شيعى ، والاستفهام عن الحكمة منها شيعى آخر . وإذا رافق ذلك الاستفهام التشكيك في حكمتها واستهجان الأسلوب المتبع فيها فإنه أحرى بالشيخ قاسم بعد أن قرأ السؤال والرد أن يقوم ولا يقعد حسب تعبير الخاطر ، إلا وقد أمر بإغلاق نادي إقبال أوام . . وقد فعل .

أما ناصر الخيري وهو من أشطهم - فقد هدده بجذع أنفه . . لولا أن تشفع له مخدمه الحاج عبدالله بن محمد جمعة الإبراهيم . . وصديقه في العمل المستر روبرت ونكاس - الوكيل التجاري الألماني في البحرين آنذاك .

وهكذا فإن هذا النادي الذي ولد في جو مشحون من الحماسة والمغامرة وعدم التبصر من قبل منشئيه الشبان عام ١٩١٣ وكان رائداً في تجربته سرعان ما وصل إلى نهايته المأساوية في ظرف سنة من عمره . ولكن ماذا كان برنامج هذا النادي وأنواع الأنشطة التي قدمها للمجتمع؟

من المعروف أن مؤسسي النادي قاوموا التبشير المسيحي سواء بصفتهم الفردية أو كأعضاء في النادي ، وأنهم وضعوا عدداً من كتبهم الخاصة في النادي ، وأنهم كانوا يجتمعون في هذه المكتبة للبحث وتبادل الرأي ، ويفترض أيضاً أنهم زدوا المكتبة بالصحف والمجلات العربية ، التي لم تكن في متناول

الجمهور في البحرين ما عدا القلة منهم . مثل مجلة العروة الوثقى لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة ، وأول ورودها إلى البحرين كان في عام ١٨٨٧ . ومجلة المقتطف التي كان أول ورودها إلى البحرين ابتداء من عام ١٨٩٩ ، والهلال ابتداء من عام ١٨٩٥ - والمنار (لرشيد رضا) وأول ورودها عام ١٨٨٧ ، وكلها تقريبا صحف كانت تصدر في مصر ، يضاف إلى ذلك صحف أخرى كاللواء والمؤيد . ولم نجد فيما كتب عن هذا النادي أسماء لأعضاء مشتركين ، بل قيل إن نادي إقبال أوام لم يكن له اسم مكتوب على مقره ولا عناوين مطبوعة باسمه ، ولا نعرف إن كان مؤسسوه قد وضعوا له نظاما أساسيا أو لائحة داخلية . ولكننا نعرف مما كتبه مبارك الخاطر أن تحويله من مكتبة إلى ناد تم بموجب اقتراح من الشاب الأزهرى محمد صالح يوسف ؛ فانتخبوه مديراً للنادي ، واختاروا الأديب ناصر الخيري أمين سر له .

ثم يضيف مبارك الخاطر موضحاً : (وفي هذه الأثناء استطاع محمد صالح وناصر خيري إعداد بعض المحاضرات ، ولكن لا يعرف بالضبط إن كان باستطاعة ناصر بالذات أن يلقي شيئاً منها أم لا ، وكما كان عدد تلك المحاضرات ، وفي أية تواريخ ألقيت . كل ما نعرفه أنها ألقيت في النادي على صغر مساحته ، وأن منتخبات منها وليست كلها وضعت بملف خاص ، وأن باكورتها وهي المحاضرة الأولى التي نحن بصدددها ، كانت تبحث في الدين . لقد قيل يوماً إن كثيراً من الحاضرين لسماع هذه المحاضرة ، لم يفهموا الكثير مما جاءت به ، لكنها هي والمحاضرات الأخرى التي نظمها نادي إقبال أوام كانت الخطوة الأولى لمثقفي البحرين المجيدين ، في سبيل إيصال فكرهم إلى عامة الناس .

وبعد هذه المحاضرات لم يتمكن النادي من الدعوة إلى محاضرات أخرى . ثم يورد الخاطر نص المحاضرة الأولى في الدين ؛ وهي بقلم محمد صالح وإنشائه^(٤) ، ومن خلال مطالعة نصوص هذه المحاضرة يتضح أن لمحمد صالح رؤية يتفرد بها لمعنى الدين ، واجتهاداً خاصاً في إعطاء مدلولات لمعنى الإسلام والإيمان والشريعة الخاصة بكل نبي ، وعلاقة كل منهم بالآخر .

وهو اجتهاد كان الأحرى بأن يثير زوبعة في وجه المحاضر لولا أنه مر على جمهور المستمعين دون أن يفتنوا إليه ، ودون أن يتعمق مشايخ الدين في مدلولاته . فالقول بأن تعريف المسلم بأنه من يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً ، يعني جواز أن يكون الفرد مسلماً دون أن يكون مؤمناً بنبوة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وهو أمر لم يجوزه علماء المسلمين على الأرجح ، لا في الماضي ولا في الحاضر . ومن هنا تأتي في اعتقادي خطورة الآراء والاجتهادات التي تضمنتها محاضرة محمد صالح ، رغم أنها جاءت في غلاف من الألفاظ والتعابير التقليدية ، ومن قوله في هذا الصدد :

(إن القسم الديني هو واحد في السنة جميع الأنبياء والمرسلين ، وإنه الإسلام الذي لا يقبل الله غيره ، والحق الذي لا يرتضي الرب سواه ، وإن القسم الاجتماعي المسمى بالشريعة يختلف ويتغير حتى في شريعة النبي الواحد . وعلمت أن المقصد والغاية من القسمين هو ثلاث : الإيمان بالله ، والأعمال الصالحة ، والإيمان باليوم الآخر ، فاعلم إنها هي التي يتعلق بها نجاة البشر وسعادتهم وصلاتهم في معاشهم ومعادهم ، فحيثما وجدت في أي زمان من الأزمنة وأي مكان من الأمكنة مجموعة في أي ملة من الملل ، وأي طائفة من الطوائف فهنالك السعادة . . إلى أن يقول في موضوع آخر : فإذا اتصف المرء بهذه الخصال الثلاث وقام بمقتضاها كما ينبغي ويجب ، فهو السعيد الناجي وهو المسلم الحقيقي ولو من أي ملة كان وفي أي زمان وجد ومكان) .^(٥)

ومن الصدف أنني قرأت في العام الماضي كتاباً للدكتور محمد شحرور من سوريا بعنوان (الإسلام والإيمان) ، يدعو فيه إلى قراءة معاصرة لتفسير القرآن الكريم ، ويتناول إثبات هذه النظرية أو هذا الاجتهاد الخاص ، عن طريق الاستشهاد بآيات القرآن الكريم ، التي وردت فيها كلمة (الإسلام والمسلم والمسلمين ومشتقاتها . . .) فهل يمكننا القول إن محمد صالح قد سبق غيره وعصره في هذا الاجتهاد بخمسة وثمانين عاماً أو نحوها؟

وقفت بكم ملياً عند نادي إقبال أوال ، ليس بسبب أهميته التاريخية ولكن لكونه عملاً رائداً وتجربة أولى مهدت لقيام الأندية في البحرين ، مستفيدة من تلك التجارب لتأسيس بناء أكثر عمقاً ورسوخاً وحذراً في التعامل مع الجمهور الغافل والزعامات المتزمتة .

ولكن قبل كل ذلك فقد استوقفني وأنا أتصفح كتاب (رجال في جزائر اللؤلؤ) للأستاذ خالد البسام الفصل الأول الخاص بالحاج مقبل الذكير الذي ترك قريته النجدية العريقة (عنيزة) وجاء إلى البحرين ليزاول تجارة اللؤلؤ في جانب من حياته . . ويشارك في الجانب الآخر منها في المنتديات الثقافية في البحرين ، وفي هموم المثقفين ، واستيراد الصحف الرائدة ، مثل المقتطف والمؤيد والمنار ، كما يشارك أيضاً في استصدار الفتاوى منها ، ثم سرعان ما يتسلم زمام قيادة الصراع مع المبشرين .

في هذا الفصل ، وعلى الصفحة الثانية عشرة ، يذكر البسام أن الحاج مقبل الذي أطلق عليه اسم (فخر التجار) قام بالاشتراك مع الوجيه يوسف كانوا بفتح نادٍ مقابل مكتبة الإرسالية الأمريكية باسم (النادي الأدبي الإسلامي) ، وذلك عام ١٩١٣ ، أي العام الذي تأسس فيه نادي إقبال أوال . ويقول البسام إن هذه المؤسسة الثقافية كانت تشمل المنتدى الثقافي والمدرسة كأسلوب مقاومة حضاري للتبشير . ثم يصبح النادي ملتقى لرواد العلم ومثقفي مدينة المنامة ، وأنه أمام هذا النجاح قام الشيخ مقبل باستحضار مدير للنادي أكثر كفاءة من الشيخ البحريني ، الذي كان يديره فيحضر إلى البحرين الشيخ محمد عبدالعزيز المانع ؛ وهو أحد تلامذة الشيخ محمد عبده ، وبجانب مقاومة التبشير يتواصل الذكير في زعامته لكثير من الأنشطة الوطنية ، ثم يضيف البسام مزيداً من الوصف عن نجاحات «النادي الأدبي الإسلامي» ، حتى عام ١٩١٧ ، التي اضطرت فيها الشيخ مقبل الذكير إلى إغلاق النادي بسبب الخسائر التي ألت به ونفاد مصادر التمويل .

إن ما كتبه البسام عن هذا النادي يجعلنا نتساءل عن حقيقته : هل كان

نادياً أدبياً بمعنى الكلمة أم مدرسة دينية تضم طلاب دين ومكتبة ورواد مطالعة . ولعل صفة كون هذه المؤسسة مدرسة دينية هو الأصح أو الأرجح ، فهي مدرسة دينية في الأساس ، ومنتدى ومكتبة للرواد ، وهذا ما يتفق أيضاً مع ما أورده مبارك الخاطر عن هذا النادي .

النادي الأدبي بالحرق ١٩٢٠-١٩٣٦م

نتقل الآن للحديث عن النادي الأدبي بالحرق ، الذي تأسس عام ١٩٢٠ ، وذاع صيته في البحرين وخارجها ، مع كل نسخة من كتاب ملوك العرب / لأمين الريحاني ، الذي زار هذا النادي عام ١٩٢٢ وكتب عنه وعن الحفلة التي أقامها النادي ترحيباً به . ثم توالى الزيارات والمناسبات التي أكسبت هذا النادي شهرته في الخارج ، من مثل احتفالاته بزيارة «محمد الشنقيطي» في العام نفسه ، ثم الزعيم التونسي عبدالعزيز الثعالبي (١٩٢٤) حيث تذكر السيدة مي محمد الخليفة أن طابع الاحتفالات والقصائد الملقاة كان وطنياً بحثاً عربي التوجه واضح الانتماء .(٦)

ولعل من الأحداث الخارجية المشهورة لهذا النادي مشاركته في الاحتفال بتكريم أمير الشعراء أحمد شوقي في مصر ، بقصيدة وهدية هي عبارة عن نخلة من الذهب وثمارها (الرطب) من اللؤلؤ ، حيث ذكر الهدية أحمد شوقي في شعره سنة ١٩٢٧ قائلاً :

«قلدتني الملوك من لؤلؤ البحرين
آلاءها ومن مرججانه
نخلة لا تزال في الشرق معني
من بداوته ومن عمرانه»

كما تكلمت عن النادي في الخارج مجلات وجرائد ، منها صحيفة (الفتح) لحمي الدين الخطيب عام ١٩٢٨ . أما في البحرين فيكفي في شهرته ومكانته أنه

جاء في أعقاب إنشاء «مجلس المعارف» عام ١٩١٩ ، وحركة الخاض التي ألفت به إلى الوجود ، واشتراك عدد من شخصيات المجلس في تأسيس النادي الأدبي ، مثل إبراهيم محمد الخليفة ، ومحمد بن عيسى الخليفة ، وقاسم محمد الشيراوي ، وأنه كان امتداداً متطوراً لمجلس الشيخ إبراهيم بن محمد الخليفة ، بعد أن انتقل من مجلسه إلى مصيفه الدائم بالجابور . بل إن السيدة مي الخليفة تميل إلى الاعتقاد بأن تأسيس النادي الأدبي هو بإيحاء من الشيخ إبراهيم ؛ لكي يصبح ستاراً يحمي صاحب المجلس من بطش الإنجليز ، خاصة مع اقتراب سنه من السبعين . وتكمل فيما روته عن مبارك الخاطر أن الشيخ كان يرعى الحركة الوطنية من وراء الكواليس . وكان أفرادها (أي الحركة الوطنية) يعتمدون على مشورته ويأخذون برأيه ، باعتباره راعي الاتجاه الوطني أكثر منه ممارسة ، وهذا لا يقلل أهمية دوره ولا من أهمية المفكرين الآخرين ، أمثال عبد الوهاب الزباني - وعبدالله الزايد - وقاسم الشيراوي . وكان لأعضاء الحركة الوطنية السيطرة على المؤسستين الثقافيتين في البلاد ، مدرسة الهداية الخليفية بأساتذتها وطلابها ، والنادي الأدبي بشبابه المثقف . فقد كان رئيس النادي عند تأسيسه الشيخ محمد بن عبدالله الخليفة وأمين سره نائباً للرئيس عبدالله الزايد ، وهكذا فإن هذا النادي الذي يحمل صفته الأدبية والثقافية ، وجد نفسه متورطاً في الأحداث الوطنية والسياسية التي شهدتها البلاد إبان طغيان المد الاستعماري ، وسياسته المتشددة على يد منفذها الحازم الميجر ديلي بالذات . لم يكن هذا التورط بشكل مباشر أو رسمي من قبل النادي نفسه ، ولكن جاء عن طريق نشاط أعضائه وطموحاتهم السياسية والوطنية ، أو من العناصر الوطنية المحسوبة على هذا النادي . وكلها كان يتخذ من النادي ستاراً ، ويستفيد من إمكانيات النادي الأدبي المتوفرة .

... كتبت السيدة مي عن هذه الظاهرة في إحدى ملاحظاتها عن النادي

ما يلي :

«كان من الأسباب الرئيسية لنهاية هذا النادي عداة الإنجليز له ولأعضائه ،

فقد أمر المقيم البريطاني (ديلي) بمصادرة آلة الطباعة الموجودة فيه إثر تواجد بعض المنشورات المعادية للإنجليز ، وفي عام ١٩٣٨ أغلق نهائياً بعد سنوات من الاحتضار كان ضوؤه فيها يخبو ويتقد .

ولعل الأرجح أن إغلاق النادي كان عام ١٩٣٦ . ويذكر مبارك الخاطر أن بعض المشاحنات في النادي الأدبي أدت إلى انفصال بعض مؤسسي النادي وتكوين ناد آخر بالمحرق اسمه (نادي الإخاء) وأناطوا رئاسته بالمرحوم أحمد بن يوسف فخرو . وهكذا أسدل الستار على هذا النادي الذي كانت تجاوزت مسيرته خمسة عشر عاماً مليئة بالأحداث الجسام .

استعرضت معكم فيما مر من حديث تاريخ نشوء نادي إقبال أوال ، ثم النادي الأدبي ، مروراً بالنادي الأدبي الإسلامي ومجلس المعارف ، وما تبعت ذلك من أحداث على الساحة الثقافية والوطنية . ويجدر بنا في هذا الموضوع أن نتساءل عن العبرة من تلك التجارب والاستنتاجات المفيدة منها ، لا سيما فيما يتعلق بالصراع السياسي والاجتماعي والوطني . وبينما أن نادي إقبال أوال أثار وجوده صراعاً اجتماعياً مكتسباً برداء الدين ، بين العقلية المحافظة المتزمتة وبين الشباب المتشوق للتجديد والتحديث ومواكبة سنة التطور ، ثم انتهى هذا الصراع بانتصار الجانب المحافظ انتصاراً شكلياً متمثلاً في إغلاق النادي وتجريم أعضائه ، فإن المواجهة بالنسبة للنادي الأدبي كانت أساسها المطالب الوطنية بمفهوم النخبة ومواجهة تعنت الميجر ديلي . . وتضاءلت حصة الدور الاجتماعي والوضع المعيشي والتعايش الطبقي من ذلك النشاط . ومن الطبيعي أن مجال التحليل واسع ومتعدد لمن يتفرغ لدراسة هذه الفترة وتحليل الدوافع الاجتماعية والنفسية والمعيشية التي رافقتها . ولكنني أميل إلى موافقة الأديب الناقد عبدالله الخليفة فيما نشره على صفحات أخبار الخليج منذ سنوات ، وتضمن تعليقاً حول مظاهر هذا الصراع يقول فيه :

(ليس صراع قاسم المهزق وناصر الخيري صراعاً مجرداً ، بل هو جزء من

صراع معقد ، مثل فيه الأول الدفاع عن النظام الوطني والعتيق بكل أثقاله ،
ومثل في الثاني جماعات المظلومين والمتعبين من علاقته غير العصرية والبالية ،
ولكن دون أن يكون لديهم العمق الفكري لاكتشاف طبيعة الظاهرة وتناقضاتها ،
وتوظيفها سياسياً لدى الإنجليز . ولم يكن ذلك موقف قاسم المهزع فحسب بل
كان موقف جمهور من المثقفين ، وأبرزهم عبدالله الزايد ، الذي أسس مع زملائه
(النادي الأدبي) ، أكثر الأندية خطورة ، وعلاقته مباشرة بالصراع السياسي
والاجتماعي . . . ثم يضيف : وهكذا فإن خطي الحياة الفكرين واصلا البقاء
والنمو ، وفي حين تفوق التيار التقليدي ، فإن التيار «العصري» واصل الانتشار
عبر المدارس والصناعة ، والتجارة ، وسائر أشكال الحداثة) .

المنتدى الإسلامي ١٩٢٨-١٩٣٦ ..

والآن نتكلم عن المنتدى الإسلامي ، ثالث الأندية في البحرين ، وآخرها
بالنسبة للبدايات الأولى للأندية .

تأسس هذه النادي ، كما هو مذكور في قانونه الأساسي ، ثاني رمضان
١٣٤٦ هجرية ، الموافق ٢٣ فبراير عام ١٩٢٨ ، أي منذ سبعين عاماً! وتسعة أيام
ميلادية . (٧)

وكان أول رئيس له هو الشيخ مبارك بن حمد الخليفة ، ومن سعوا في
تأسيسه أحمد حسن إبراهيم ، وسلمان كمال ، وعلي كانو ، ومحمد عبدالله
جمعة ، ومحمد صالح التميمي ، في اجتماع عقد في منزل (محمد الوزان) ،
واستمد المؤسسون صياغة نظامه الأساس من القانون الأساسي لجمعية الشبان
المسلمين المصرية ، التي تأسست قبل المنتدى بثلاثة شهور ، أي بتاريخ ٢٥
نوفمبر ١٩٢٧ . ثم رفعوه إلى السير تشارلس بالجريف مستشار حكومة البحرين
فوافق عليه ، بشرط أن لا يتدخل النادي في السياسة . لكن مصادره المالية
بدأت بالنضوب بعد بقاءه حوالي أربع سنوات في المقر الثاني ، حتى تبرع علي
بن محمد كانو بقسم من عمارته البحرية لينتقل إليها المنتدى ، وقد قضى

المنتدى بقية حياته في هذا المقر وقل نشاط أعضائه وزاد انشغالهم في أعمالهم الخاصة ، ونتيجة لذلك قرر المؤسسون الموجودون عام ١٩٣٦ إغلاق المنتدى والتحفظ على محتوياته من أثاث وكتب . وبعد أن تم افتتاح النادي الأهلي بالمنامة انتقلت محتوياته إلى النادي الأهلي .^(٨)

.. تنص أهداف المنتدى الإسلامي في قانونه الأساسي (المادة ٣) على

الأهداف الآتية :

- ١ . بث الآداب الإسلامية والأخلاقية الفاضلة .
- ٢ . السعي لإنارة الأفكار بالمعارف على طريقة تناسب روح العصر .
- ٢ . الأخذ من حضارتي الشرق والغرب محاسنهما جميعاً وترك ما فيهما من مساوئ .

٤ . يتوسل المنتدى إلى هذه الأغراض بالطرق الأدبية :-

* إنشاء مكتبة .

* إلقاء محاضرات وخطب دينية أدبية اجتماعية أخلاقية في كل شهر

على الأقل .

* نشر ما تدعو المصلحة إلى نشره بأي لغة تمس الحاجة إلى استعمالها .

وفي مجال الممارسات والأنشطة العملية ، فقد قام المنتدى بتغطية المناسبات الإسلامية ، وعين الشيخ عبدالعزيز الرشيد مدرساً ومحاضراً في الفقه والثقافة الإسلامية لأعضاء المنتدى ، ومن يحضر ذلك من غير الأعضاء ، وإقامة ندوات ثقافية عديدة تحدث فيها كثير من العلماء وزوار البحرين من الأدباء والعلماء ، أمثال الشيخ عبداللطيف آل سعد ، والشيخ عبدالواحد محمد فرامرزي ، والشيخ الشنقيطي ، ومن الأساتذة : الأستاذان عمري يحي مدير مدرسة الهداية ، وعبدالرحمن الفارسي من سوريا . كما كان الأستاذ إبراهيم العريض يشارك بتقديم محاضرات في الفلسفة المثالية ذات المعاناة الإنسانية ، وهي ذات طابع جديد في المناخ الثقافي للمنتدى ، ولكن من أهم تلك المناسبات والأنشطة التي أبرزت اسم المنتدى الإسلامي ، على الصعيدين المحلي

والعربي ، هي حفلة التأبين للشيخ عيسى بن علي ، التي أثارَت ضجة كبيرة للحكومة على إثر مشاركة الشاعر العراقي الثائر محمد صالح بحر العلوم فيها بقصيدة ألهمت المشاعر الوطنية .

ومطلعها المشهور :

الأرض ترجف والسـماء تـمور
والريح تنسف والخليج يـفـور

وقد لفت نظري فيها بيتان من الشعر وكأنهما يقولان : ما أشبه الليلة بالبارحة .. وهما :-

حتى أثار الجوزوبعة بها
خصن الخليج فعمه التغيير
نسفت سعادته ومنعة شعبه
وحقوق أمتـه . . . وهن نذور

يقول مبارك الخاطر بشأن هذه الحفلة التأبينية والحادثة المصاحبة لها :
«يبقى بعد ذلك ما خلفته المرثية من ذيول . . منها أنها قد جنت على صاحبها ، فبسببها أخرج من البلاد مخفوراً ولسانه يهتف بقصيدة يقول فيها :

كفى هواناً بقوم أن ناصحهم
يساق بالجند مطروداً من البلد

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن ذيوله انسحبت على كل الهيئات الثقافية في البلاد ، التي كانت تزعم إقامة أربعينية تأبين للحاكم الراحل ، كالتي كان النادي الأدبي في المحرق ينوي القيام بها ، فأوعز إلى تلك الهيئات جميعاً بمنع إقامة أربعينية تأبين أخرى للشيخ الراحل .
كان ذلك عام ١٩٣٢ ، وبعد الحفلة اشتد التضيق على نشاط الأندية ،

وبدأ أعضاء المنتدى في التفرق حتى وصل إلى النهاية التي أشرنا إليها فيما تقدم .

وقبل أن نطوي صفحة الحديث عن المنتدى الإسلامي ؛ أود أن أقف معكم عند ظاهرتين تفرد بهما هذا المنتدى عن غيره من الأندية التي سبقته .

الأولى . . . ما تضمنته أوراق النادي في مجال الندوات والمحاضرات ، وأخص بالذكر محاضرة الشيخ عبدالعزيز الرشيد التي أورد نصوصها وعلق عليها مؤلف كتاب (المنتدى الإسلامي) مبارك الخاطر . ففي هذه المحاضرة وعنوانها (في الإصلاح ووسائله) ، يتطرق المحاضر - ربما دون أن يشعر - إلى مفهوم إصلاحي بديل أو مواز للمفهوم الإصلاحي السياسي ، الذي كانت قوى الشباب الوطنية غارقة فيه ، دون أن تشعر أيضاً ، واستنزف منها كل الطاقات والحماسة . هذا المفهوم يتوجه للجانب المهمل آنذاك ، وهو إصلاح روح المجتمع والبنية الأساسية والاقتصادية ، وتوفير الخدمات التعليمية والصحية ، والمشاريع النافعة لتحسين مستوى الناس ومعايشهم . فقد تكلم المحاضر عن تلك المشاريع النافعة ، مدلاً على أهميتها بما ورد بشأنها من نصوص الكتاب والسنة واجتهاد العلماء ، منتقداً في الوقت نفسه موقف الجاهلين بها أو المعارضين لها واصفاً إياهم بالجهل . وهكذا بدأ تلك المحاضرة بالحديث عن قيمة العمل في نظر الإسلام ، ومجد مخالطة جمهور الناس في مجالسهم وأسواقهم ، والاشتغال بالأمر الدنيوية والحرف والصنائع ، ودلل على حب الإسلام للعمل ومقتته للبطالة ، حتى ولو كان سببها الانشغال بالعبادة .

ثم تكلم عن المشاريع العامة قائلاً : إن أعظم نفع يسديه المرء إلى بني جنسه هي هذه الحياة إيجاده لمشروع من شأنه تقليل المصائب التي تحل بالبشر ، أو معاضدته للقاتمين به ، وتعدد المشاريع في أمة برهان على سمو مدارك أبنائها وشعورهم بالواجب المقدس . وتكلم بعد ذلك عن أهمية إقامة المستشفيات وحمل أناس على التداوي فيها بدلاً من الامتناع عنها ، أو اللجوء إلى الطب

الشعبي والشعوذة . وقال (إن علماء المسلمين اعتدوا علم الطب من فروض الكفاية التي تأثم الأمة جمعاء بتركها . .) ودعا إلى تعلم الطب . ثم دعا إلى بناء القناطر والجسور ، وهو أشد ما يحتاج إليه في المدن ، مشيراً بذلك إلى مشروع الجسر الذي سعت حكومة البحرين إليه بين المنامة والمحرق .

وتكلم عن حفر الآبار وسقى الماء ، وترغيب الشريعة الإسلامية في ذلك . ثم أنهى محاضراته بالقول : إن العلم وحدة بالشيء لا يفيد إذا لم يقترن به عمل وتنفيذ ، نحن اليوم في حاجة إلى العمل أكثر من القول .

... هذا التوجه للإصلاح عن طريق الدعوة لتنفيذ المشاريع النافعة وتوفير الخدمات التعليمية والصحية والبنية الأساسية للمجتمع ، هو في حد ذاته توجه صحيح كان مجتمع أمس بأمس الحاجة إليه . وهو توجه صحيح في مضمونه الكلي ، رغم أن المنتدى الإسلامي وقادة المجتمع آنذاك لم تبدر منهم بادرة لتبني مشروع من هذا القبيل ، وهو توجه صحيح رغم الملاحظات التي أبداها مبارك الخاطر من عدم توسع المحاضر في تناول الموضوع من زاوية الاحتياجات الفعلية للمجتمع البحريني ، بدلاً من الاقتصار على المبررات الشرعية .

والخلاصة فإنه يمكننا القول إن ما ورد في محاضرة عبدالعزیز الرشيد كان إشارة قوية لم تلتقطها كما يجب أذان المستمعين ، ولا غيرهم تلك الإشارة التي قال عنها المحاضر نفسه :

العبد يقرع بالعصا
والحر تكفيه الإشارة

لكن هذه الإشارة ذهبت مع الأسف أدراج الرياح ، لم نسمع من المصلحين عندنا آنذاك وقد شغلتهم السياسة والعراك مع (المستر ديلي) ، عن تبني مشاريع الإعمار أو الرعاية الاجتماعية والبنية التحتية ، أو تطوير الزراعة والصناعة والصحة والخدمات العامة والحرف اليدوية ، وما شابه من مشاريع اجتماعية مفيدة . . والطلب من المعتمدين البريطانيين مساندة حكومتهم لتلك

المشاريع . . . مما رسخ في أذهان الناس أن تلك الأمور هي من اختصاص الحكومة وحدها . بل ربما رسخ أيضاً في أذهان الإنجليز قلة مستوى الوعي الاجتماعي الإصلاحي لدى القادة الوطنيين .

أما ملاحظتنا الثانية بخصوص المنتدى الإسلامي فهي كونه أول ناد منظم يستند إلى قانون أساسي ولوائح داخلية تنظم طرق الترشيح والانتخاب الحر ، وصلاحيات المسؤولين في المنتدى وواجباتهم ، وضبط الميزانية والنفقات . وسنرى أن جميع الأندية التي تأسست بعد ذلك قد سارت في تنظيمها على هذا المنوال . ولا يضير ذلك أن المنتدى استرشد في نظامه الأساسي بنظام جمعية أخرى كالشبان المسلمين . طالما أنه اعتمد هذا النظام أساساً يسير عليه ووافق على الإجراءات المصاحبة له .

ولعل الذين كتبوا عن نشوء الأندية في البحرين قد فاتتهم الإشارة إلى الوجه الحضاري والديمقراطي ، الذي يتكشّف عنه الالتزام بتلك الإجراءات الدستورية التي كانت أمراً جديداً آنذاك .

فتلك الأشكال التنظيمية التي قامت على أساسها الأندية الأولى ، بما يتفرع في هذا الشأن من نظام أساسي ولوائح تنظيمية ، وقرارات تنفيذية واجتماعات للجمعيات العمومية ، وانتخاب مجلس الإدارة بالتصويت ، وكتابة المحاضر والتقارير السنوية المالية والإدارية ، مع توفر حرية الاعتراض والنقد والمناقشة والحسم بأصوات الأغلبية إلى غير ذلك . . . قد مهدت لإحداث تغييرات في العمل التطوعي وكيفية تنظيمه ، وكذلك في مجال أسلوب العمل الإداري عموماً . إنه أسلوب الديمقراطية الإدارية ، الذي انعكس إيجابياً على الشكل الجديد للإدارة وتوزيع المسؤوليات ، والتعبير عن الرأي المعارض في تلك المؤسسات ، مما لم يكن مألوفاً وربما غير مستساغ في العرف السائد في ذلك الزمن ، حيث ينفرد الأكبر سناً أو مركزاً بالقرار ، أو ينفرد عقد الاجتماع دون أن توجد وسيلة أخرى متفقاً عليها للوصول إلى القرار الملزم .

بانتهاء المنتدى الإسلامي تنتهي فترة البدايات الأولى للأندية الثقافية في البحرين ، وتبدأ مرحلة البدايات الثانية ، وسأستعرض تاريخ تأسيسها فيما يلي :

أول حبة انتظمت في سلك أندية البدايات الثانية هي نادي البحرين بالحرق ، حوالي سنة ١٩٣٨ ، والذي آلت إليه مكتبة النادي الأدبي . وقد انشغل بالأنشطة الثقافية والأدبية ، شأن الأندية الأخرى ، من إقامة المناسبات الإسلامية ، كما انشغل بالتمثيل ، مثل مسرحية مجنون ليلى عام ١٩٤٠ ، ثم استأثر بنشاطه فريق كرة القدم الذي اشتهر به . . بل إن فكرة النادي تولدت من فكرة إنشاء فريق لكرة القدم على ما يذكر خالد البسام . وقد تأسس نادي البحرين بجهود عدد من الأدباء والشخصيات ، من بينهم عيسى الحادي ، وأحمد الشيراوي ، وعبدالرحمن المعاودة ، وعبدالعزيز الشمالان (الذي أصبح رئيساً له) ، وراشد الزباني (أميناً للسر) ، ومحمد الحسن أميناً للصندوق . . وتابع هذا النادي مسيرته بين الرياضة والأنشطة الثقافية والتمثيل ، وإقامة الندوات والمناظرات ، واستأثرت حفلاته بالعدد الكبير من الحضور . ودخلت في عضويته ومجالس إدارته شخصيات متعددة ، من بينها إبراهيم حسن كمال سكرتيراً ثم رئيساً . . .

وفي العام ١٩٣٩ تأسس النادي الأهلي في شهر يناير ، وتأسس نادي العروبة بعده بأقل من شهر . وقد نشأت فكرة تأسيس ناد في المنامة وترعرعت في كنف المرحوم محمد دويغر ، حيث كانت داره منتجعاً للمتعلمين ورواد الثقافة ومحبي الأدب والفكر . وقد بادر مؤسسو النادي الأهلي بتنفيذ فكرتهم ، وكان أول رئيس للنادي الأهلي هو عبدالرحمن المؤيد ، وأمين سره عبدالرحمن فخري - ثم توالى في عضويته ومجالس إدارته الشخصيات الاجتماعية المعروفة ، مثل علي عبد الرحمن الوزان - رئيساً - ومحمود المردى أميناً للسر ، ومحمد عبدالله جمعة أميناً للصندوق ، وعلي تقي أميناً للمكتبة ، وأعضاء إداريين منهم : أحمد الجابر وأحمد قاسم محمود وعبدالله نجم وعبدالله الشروقي وأحمد يتيم وجاسم زباري وغيرهم .

وقد آلت مكتبة المنتدى الإسلامي إلى النادي الأهلي ، وبدوره ورث النادي الأهلي نادي المختلط الرياضي ، وتبنى أنشطته الكروية وأنشأ فريقاً لكرة القدم . وسار في النشاط الأدبي والثقافي سيرة الأندية الأخرى بالنسبة للاحتفال بالمناسبات الإسلامية ، ودعوة الشخصيات وإقامة حفلات الخطابة ثم أضاف إليها التمثيل ، مثل رواية (لولا المحامي) في أوئل الأربعينيات . . وتجدر الإشارة إلى أن النادي الأهلي تبنى مواسم للمحاضرات ، وقد اشتركت في واحدة منها كان موضوعها (المجتمع الإسلامي المنشود بين العروبة والإسلام) ، وذلك عام ١٩٥٨ . أما انتقال نادي الأهلي إلى بناية خاصة به ملحقة بها قاعات عصرية للأنشطة وملعب استاد رياضي ، فهي نقلة نوعية إلى الأمام تحققت في عهد رئسه عبدالرحمن كانو .

أما ثالث تلك الأندية فهو نادي العروبة ، الذي تأسس في أواخر فبراير من عام ١٩٣٩ ولم تكن له بداية كروية - كما لم يحظ بمكتبة تؤول إليه ، لهذا فقد لجأ ذوو الفطنة والذكاء فيه إلى إثارة أريحية الأعضاء ؛ لتزويد مكتبة النادي بما لديهم من مكتباتهم خاصة سواء بالتبرع أو بالإعارة . .

وقد اشترك في تأسيس نادي العروبة ٤٦ شخصاً من ذوي المكانة الأدبية والاجتماعية في المنامة . وكان أول مجلس إدارة منتخب مكوناً من :

محمد دويغر- رئيساً - حسن الجشي- أميناً للسر- محمود يوسف خنجي- نائباً لأمين السر ثم أميناً للمكتبة فيما بعد - جعفر الناصر- أميناً للصندوق .
ثم أعضاء إداريون هم : جعفر صالح ، عبدالرسول التاجر ، إبراهيم الخياط ، ورضي الموسوي ، ميرزا العريض ويوسف زليخ .

ويتجدد الانتخابات تغيرت أسماء أعضاء مجالس الإدارة ، فيما عدا محمد دويغر وحسن الجشي ، وذلك لغاية عام ١٩٥٤ (٩).

وانشغل نادي العروبة منذ تأسيسه بالهم الثقافي والأدبي والتعليمي ، مبتعداً عن الإغراءات المتنوعة ، التي بذلت وعارضها النادي بحزم - من تكوين فرقة رياضية لكرة القدم إلى إحياء الفرقة الوطنية السابقة لكرة القدم ، وجرب

مثل غيره من الأندية الوطنية النشاط المسرحي ؛ فكان أشهر ما قدمه للجمهور في الأربعينات رواية (الحجاج بن يوسف الثقفي) ، كما أقام المناظرات الأدبية ، ومدرسة لمحو الأمية ، ومدرسة مفتوحة لمحاضرات أدبية وتاريخية وفكرية ذات مستوى متقدم ، ترأس حلقاتها الأستاذ إبراهيم العريض .

**

ونشأت بعد نادي العروبة أندية أخرى ، أولها نادي الطلبة الخليلي ، شارك في تأسيسه خالد بن محمد الخليفة ، ودعيج بن علي ويوسف الشيراوي وعلي سيار وعبدالرحمن الجودر وحسن أبل ، وذلك عام ١٩٤١ تقريباً ، وكان من أنشطته الاحتفال بالمناسبات الإسلامية والتمثيل والأنشطة الأدبية . وبعد أن سافر معظم مؤسسيه للدراسة في مصر استلمه جيل آخر وتحول اسمه إلى نادي الإصلاح الخليلي عام ١٩٤٥ ، ثم إلى نادي الإصلاح ثم تحول نهائياً إلى جمعية الإصلاح المشهورة اليوم ، بمؤسساتها الخيرية وأقسامها المميزة ذات الأنشطة الخيرية والاجتماعية والثقافية . ولم يخرج نادي الإصلاح عن مجال أنشطة الأندية الأخرى المألوفة خلال الأربعينات من الاحتفال بالمناسبات الإسلامية والأدبية وما شابه ذلك . وتأسس سنة ١٩٤١ نادي الثقافة الرياضي الذي اتخذ بناية المنتدى الإسلامي السابق مقرّاً له .

.. كان اسمه من قبل نادي المختلط الرياضي ، وزاول أنشطته الثقافية والأدبية والاحتفال بالمناسبات الإسلامية حتى دب الشقاق بين أعضاء مجلس الإدارة بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين الأندية الأخرى ، مثل نادي العروبة والأهلي ونادي الشباب (الذي انضم إلى النادي الأهلي) ، وتم إغلاقه حوالي عام ١٩٤٨ وكان من بين أعضاء مجلس إدارته محمد حسن الحسن وأحمد الجابر وعلي الوزان وصادق البحارنة ويوسف زليخ .

وبرز إلى الوجود حوالي سنة ١٩٤٥ نادي النهضة بالحد . ومن بين مؤسسيه إبراهيم الصباح وسالم العبسي ومحمود آل محمود . وقد اشترك نادي الإصلاح في اتحاد الأندية الوطنية ، وساهم ضمن أنشطة الاتحاد في مشاريع أدبية

واجتماعية ووطنية مما سيأتي ذكره عند الحديث عن تأسيس اتحاد الأندية الوطنية في البحرين ، ثم نشأت المكتبة الخليفة أوائل الخمسينات ، ومن روادها الأوائل خالد محمد الخليفة والشيخ عبدالله بن خالد الخليفة ودعيج بن علي الخليفة ، ثم انتهت بعد بضع سنوات . ومن الأندية التي نشأت في أواخر الأربعينات واختفت جمعية الصادق ، وجمعية جدحفص الدينية ، ثم توالى تأسيس الأندية والجمعيات في أوائل الخمسينات ، وأغلبها ذات طابع رياضي أو ديني ، ما عدا الحلقة البحرينية التي نشأت عام ١٩٤٧ تقريباً ، وانتهت في الخمسينات ، وتبنت مشروع مكافحة الأمية . ومن أعضائها : مبارك كانو ، ومحمد راشد الخليفة وعبد الرحمن كانو وقاسم أحمد فخرو ويوسف الشيراوي ، وحمد محمد الخليفة وإبراهيم بو حجي وعبد الحميد الشتر ، ولهذا فسوف نقتصر على ذكر الأندية الوطنية الكبرى الخمسة التي ساهمت في إنشاء اتحاد الأندية الوطنية .

**

إن تاريخ وسيرة كل ناد على حدة تحتاج إلى تدوين ، وقد قام بعضها بذلك فعلاً ، مثل نادي العروبة الذي كتبت عن تاريخ وسيرة حياته في كتابي (نادي العروبة وخمسون عاماً) .

لهذا فإنني سأتناول بالقدر الممكن من الإيجاز سيرة تلك الأندية مجتمعة ، ضمن أنشطة اتحاد الأندية الوطنية ، الذي برز إلى الوجود رسمياً عام ١٩٥٨ . ولكن قبل ذلك أود أن أبدي ملاحظتين في شأن تلك الأندية :

الملاحظة الأولى : تخصص ظاهرة عامة كانت الأندية الوطنية تشكو منها خلال الأربعينات والخمسينات والستينات ، ألا وهي قلة الموارد المالية ، وامتناع الأعضاء عن تسديد الاشتراكات رغم ضالتها : وقيمة الاشتراك روبيتان أو ثلاث ثم خمس روبيات عن كل شهر . . وقد عاجلت إدارات تلك الأندية الواعية لرسالتها مشكلة حاجتها للمال ، بتبني إقامة التمثيليات ، فكان هذا النوع من النشاط منسجماً مع رسالة الأندية . . حيث مكن تلك الأندية من

التمرس بالنشاط المسرحي والتدريب على التمثيل ، وتشجيع المواهب الفنية في مجال الرسم والديكور ، وبرزت مواهب شبابية في هذا المجال ، سواء في فن الديكور والرسم أو في صناعة الملابس أو توفير العمائم واللحى الصناعية ، إلى جانب الكسب المادي الذي خصص منه ريع لإعانة الأيتام والفقراء .

ولكن الجيل اللاحق من الإدارات سرعان ما لجأ إلى تبني أنواع من الأنشطة لا تتماشى مع أهداف الأندية ورسالتها ، وذلك بقصد توفير المال . وقد خاض نادي البحرين هذه التجربة باستقدام محترفي حمل الأثقال والألعاب البهلوانية ، وسرعان ما حذت حذوه الأندية الأخرى في سباق محموم . وفي الستينات تفتقت عقليات الشباب عن نشاط آخر هو لعبة (الهوزي هوزي) أو ما يسمى الـ(Bingo) ، وتحولت ساحات الأندية إلى سوق يغشاه كل من هب ودب وتسمع فيه كل الرطانات لجميع الأجناس من البشر ، واستمرت الحال في تلك الأندية على هذا المنوال ردهاً من الزمان حتى تخيل الناس أن الأندية تحولت إلى صالات للعب أو للمقامرة . . ومن الطبيعي أن الأندية جنت من ذلك مالا كثيراً بقدر ما خسرت من سمعتها في الجانب المعنوي .

والملاحظة الثانية : تختص بظاهرة أخرى فيما يتعلق بحفلات الأندية في المناسبات الدينية مثل السنة الهجرية ، والإسراء والمعراج والمولد النبوي ، ولأن تلك المناسبات لها تاريخ محدد فقد وجدت الأندية نفسها وهي تفقد جمهورها ، الذي أصبح موزعاً بين حضور تلك المناسبات في خمسة أندية على الأقل وفي الليلة نفسها تقريباً .

وقد حاولت الأندية التنسيق فيما بينها في هذا الصدد ، لكنها عجزت عن ذلك حتى لمعت في الأذهان فكرة اتحاد الأندية . . فكيف جاءت هذه الفكرة؟ أول إشارة وردت عن اتحاد الأندية الوطنية كانت عام ١٩٤٢ ، حينما قام نادي العروبة بمبادرة لإقامة حفلة أربيعينية لتأبين المغفور له الشيخ حمد بن عيسى الخليفة ، وذلك بالاشتراك مع الأندية الأخرى ، فوافق المستشار بلجريف على ذلك برسالة سلمها إلى محمد دويغر رئيس نادي العروبة ، وموجهة باسم

رئيس اتحاد الأندية ، فوافق نادي البحرين واعترض على ذلك نادي المختلط الرياضي (أي نادي الثقافة) ، ودخل في مناقشة مع نادي العروبة انتهت بإلغاء المشروع . ولكن التعاون في هذا المجال استمر بشكل ثنائي بين الأهلي والعروبة في بعض المناسبات .

وبداية وفي عام ١٩٤٧ تبلورت لدى النادي الأهلي فكرة اتحاد بين أندية المنامة ، واحتضنها رئيس نادي العروبة محمد دويغر في منزله ؛ فقام النادي الأهلي بتوجيه الدعوة إلى أندية المنامة وهي : العروبة والأهلي والثقافة ونادي الشباب الوطني ؛ للحضور في منزل محمد دويغر فحضرها كلهم ما عدا نادي الثقافة ، فقررت الأندية مقاطعته والتنديد به (مقاطعة إيجابية شاملة) ووجهوا رسائل لبقية الأندية بذلك وهي تحمل اسم : (منظمة اتحاد الأندية الوطنية) . واستمرت الجهود في هذا المجال حتى تحققت صورة الاتحاد الأولى عام ١٩٥١ بين الأندية الخمسة ، وهي الإصلاح-الأهلي-العروبة-البحرين-والنهضة بالحد . واختير لأمانة سره الأستاذ حسين محمد حسين ، ووضعت مسودة لقانون اتحاد الأندية للمناقشة تقول المادة الأولى منها ما يلي : أنشئ في البحرين سنة ١٩٥١ اتحاد عام للأندية الوطنية يسمى (اتحاد الأندية الوطنية في البحرين) . ثم مر الاتحاد بفترة من الركود تخللتها بعض الأنشطة المشتركة ، ومن أهمها الحفلة المشتركة الكبرى بمناسبة زيارة جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود إلى البحرين ، في شهر أبريل من عام ١٩٥٤ بعد توليه العرش .

وكأنما كان الاتحاد ينتظر زوال معارضة نادي الثقافة ، الذي أدى انحلال كيانه في بداية الخمسينات لكي يعلن قيامة رسمياً ابتداء من عام ١٩٥٨ على أسس دستورية كمؤسسة منظمة ، حينما كنت رئيساً آنذاك لنادي العروبة وساهمت في وضع نظام اتحاد الأندية الوطنية .

وكان على رأس قائمة الساعين للاتحاد والمخلصين له السيد إبراهيم حسن كمال ، الذي انتخب أميناً عاماً له ، وذلك بمساعدة نفر من أمناء السر ، منهم الأستاذان حسين محمد حسين ، وحسن السيد علي وسواهما ، وقد أسند

رؤساء الأندية وممثلون معهم من مجالس إدارة الأندية الأعضاء ، الأمانة العامة للاتحاد ، ووضعت إمكانيات كل ناد تحت تصرف اتحاد الأندية ، وبالنسبة لنادي العروبة فقد كان لرؤسائه وأمناء سره ، وعلى الأخص المرحوم حسن المدني دور بارز في هذا الإسناد .

وفيما يتعلق بأهم أدوار هذا الاتحاد ، وأنشطته ومدى انتشارها بين الجمهور ، أستعرض لكم موجزاً عنها فيما يلي :-
أولاً في المجال الداخلي :-

١ . أول ما يرد إلى الذهن موضوع الاحتفالات بالمناسبات الدينية . وهذه كانت تقام دورياً في قاعات أحد الأندية الأعضاء ، وحسب إمكانيات كل ناد ، بدعوات من الاتحاد وبهذا انحلت تلك المشكلة المزمنة .
أما اجتماعات مجلس الاتحاد ولجانه فكانت أيضاً تتم بشكل دوري وتنتقل من ناد إلى آخر .

٢ . قام الاتحاد بمساع عديدة لحل الخلافات بين الأندية ومن خارج الاتحاد ، وبعض تلك الخلافات كانت تحيلها المحكمة إلى الاتحاد لحلها ودياً ، ومثال ذلك قضية الخلاف في نادي أوال بالحد .

٣ . نظم الاتحاد حفلات خاصة على شرف سمو ولي العهد في ٢٩ يوليو ١٩٦٠ ، واستضاف محاضرات الضيوف من خارج البحرين ، مثل محاضرة محمد فؤاد جلال بقاعة نادي العروبة . ومن أهم تلك الحفلات هي تلك التي أقامها في قاعة نادي العروبة بمناسبة تولي صاحب السمو أمير البلاد مقاليد الحكم ، وذلك عام ١٩٦٢ .

٤ . نشاط الاتحاد الثقافي والتعليمي ، حيث رتب لابتعاث عدد كبير من الطلاب والطالبات لاستكمال دراساتهم الجامعية في العراق وسوريا ومصر كبعثات عربية في تلك الدول - نظراً لعدم توفر الموارد المالية الكافية آنذاك لدى الوزارة- وذلك خلال الخمسينات والستينات . ولتنظيم الأنشطة الثقافية كون الاتحاد للجنة الثقافية الاستشارية ، شارك في عضويتها

السادة : أحمد العمران ، أحمد حسن عبداللطيف ، محمد جمعة الشايب ،
حسن محمد حسين ، إبراهيم حسن كمال ، عبدالرحمن فخري وتقي
البحارنة .

وتقدمت اللجنة ببرنامج ثقافي غزير لإثراء المواسم الثقافية ، تضمن دعوة
شخصيات من الخارج ، مثل برهان الدجاني وعبدالمجيد مصطفى وغيرهم ،
هذا بالإضافة إلى حفلات التعارف والسمر .

٥ . المشاركة في أسبوع الصحة ونشاطاته ، والتوعية الصحية وبيع التذاكر .

ثانياً: فيما يتعلق بالأنشطة في المجال العربي والقومي:-

١ . أسبوع الجزائر ، وتم ذلك بالتنسيق مع غرفة التجارة لجمع التبرعات ابتداء
من ٣ مايو ١٩٥٨ وتوالى عمل تلك اللجان الشعبية حتى تاريخ إعلان
جمهورية الجزائر الحرة في المنفى ، حيث تم تسليم التبرعات لمكتبها في
القاهرة . ثم استأنف الاتحاد أسبوع الجزائر عام ١٩٦٠ ، وتم حشد جميع
الجهود الشعبية لجمع التبرعات النقدية والعينية ، وشاركت في هذه الحملة
معظم الأندية والجمعيات النسائية في البحرين والمدارس رجالاً ونساءً ،
يضاف إلى ذلك ما رافق الحملات من توعية قومية للجمهور .

٢ . نصره فلسطين ، وكان الاتحاد أطلق عليها نصره العمل الفدائي في
فلسطين ، ثم تغير إلى اسم «لجنة نصره فلسطين» ، وذلك في عام ١٩٦٩ ،
شاركت في أنشطتها معظم القطاعات الأهلية والشعبية بإسناد من سمو
الأمير ، وسلمت المبالغ المجموعة إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ثم
استؤنفت الحملة من أجل نصره فلسطين ، وكان رئيس اتحاد الأندية آنذاك
هو رئيس نادي العروبة يوسف زباري سنة ١٩٧٩ .

٣ . ضحايا العدوان على مصر : أقام الاتحاد حفلاً خيرياً أحيته الفرقة
المصرية (١٠) وكان هذا الحفل بالتنسيق مع الجهات الحكومية . وقام الاتحاد
بتشكيل لجان بيع التذاكر من الأندية والجمعيات النسائية ، وإدارات

المدارس والشركات والمؤسسات وغيرها .

٤ . وفاة الزعيم جمال عبدالناصر .

وقد نظم الاجتماع في قاعة نادي العروبة ، وتضمن البرنامج : تنكيس الإعلام ووقف نشاط الأندية لمدة أسبوع -إرسال برقيات التعازي -القيام بمسيرة صامته يوم الخميس ١ أكتوبر ١٩٧٠ - إقامة صلاة الغائب -والقاء كلمة من الاتحاد وكلمة من أبناء جمهورية مصر من قبل الأستاذ عبده صالح .

٥ . عروبة البحرين/ حيث تم تنظيم الاستفتاء الشعبي من قبل أمين عام الأمم المتحدة بالتنسيق بين اتحاد الأندية من جهة ونادي الخريجين من جهة أخرى .

تلك هي أهم معالم الأنشطة التي رافقت قيام اتحاد الأندية الوطنية ، ابتداء منذ عام ١٩٥٨ وحتى بداية السبعينات . ثم بدأ الخمول والتواكل يدب إلى جسم الاتحاد ، شأنه شأن المؤسسات التي تحتاج إلى برامج جديدة متطورة ودماء جديدة أيضاً .

وفي الختام توجد بين يدي فقرة أخيرة من تقرير عن وضع اتحاد الأندية رفعه المرحوم حسن المدني إلى مجلس إدارة نادي العروبة بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٧٤ ، أنهى بها هذا الحديث .
تقول هذه الفقرة ما يلي :

(وفي وقت سابق من العام الماضي ، تدارس مجلس إدارة النادي حال الاتحاد وما وصل إليه من الجمود والتحجر . وفي ضوء ذلك فكرنا في تبني مؤتمر عام للأندية الوطنية في البحرين ، نضع أمامه مسؤولية مستقبل الاتحاد ، الذي هو مستقبل الأندية عموماً ، على غرار ما قمنا به في هذا الصدد قبل سنوات . وإذا كنا لم نستطع أن نحقق ذلك نتيجة لانتهاه الدورة ، فإننا نعتقد - ليس إدعاء أو ضرباً من الغرور- أنه إذا لم يتصد نادي العروبة بفعل ثقله الأدبي بين

الأندية في البحرين لهذه المهمة ، التي ليست باليسيرة أو الهينة ، فإن مآل الاتحاد إلى التفكك والانهيار ، وهي نتيجة وإن بدت منطقية إلا أنها ليست حتمية ، إذا ما تضافرت الجهود وأعيد التفكير في بنية الاتحاد خروجاً من الحلقة المفرغة التي يعيش فيها الآن

ولكن الأيام لم تمهل اتحاد الأندية الوطنية لتحقيق تطلعات المرحوم حسن المدني لضخ دماء جديدة وبرامج متطورة لانتشاله من الخمول . . فقد تكونت في منتصف السبعينيات المؤسسة العامة للشباب والرياضة ، وانتهت كيانات الأندية مستقلة أو متحدة لتصبح عضواً في مؤسسة رسمية قادرة على الصمود والاستمرار ، ولكن ضمن نطاق أقل من الحرية والاستقلال الذاتي

الهوامش

(*) أُلقيت في جمعية تاريخ وآثار البحرين ، الأربعاء : ٤ مارس ١٩٩٨ .

(١) وعن تابع تعليمه في الأزهر الشيخ أحمد بن مهزح والشيخ محمد صالح يوسف ، وعن درس في جامعة عليكرة في الهند علي بن حسين يتيم وناصر مبارك الخيري ، وأحمد حسن إبراهيم وتحليل إبراهيم كانوا وغيرهم - وذلك استناداً إلى ما أورده الأستاذ مبارك الخاطر فيما كتب عن هذه الفترة . وقد تسنى لمن واصلوا تعليمهم في الأزهر التفاعل مع التيارات الدينية والسياسية والأدبية السائدة هناك ، لا سيما آراء السيد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي مباشرة أو عبر ما يقرؤونه من صحف هؤلاء المصلحين المجددين ، أمثال العروة الوثقى للأفغاني ومحمد عبدة والمؤيد لعلي يوسف والمنار لرشيد رضا واللواء لمصطفى كامل . وأما الذين أكملوا دراستهم في الهند فيفترض أنهم تأثروا أيضاً بالجو السائد هناك مثلما تأثر إخوانهم في البلاد التي ذهبوا إليها .

(٢) ومن تلك المجالس المشهورة مجلس الشيخ إبراهيم بن محمد الخليفة ومجالس الأمراء عموماً ، ومجلس الشيخ قاسم المهزح والشيخ خلف العصفور وأحمد حسن إبراهيم وسلمان التاجر ومحمد علي التاجر وعدد آخر موزع بين المحرق والحد والمنامة وقرى البحرين .

(٣) راجع ما كتبه تفصيلاً مبارك الخاطر في كتابيه عن القاضي قاسم بن مهزح وعن ناصر الخيري .

(٤) (٥) ص - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ . . من «الكتابات الأولى» / مبارك الخاطر .

(٦) راجع ص - ١٠٥ «شيخ الأدباء» - لمي الخليفة .

(٧) : تلقى المنتدى مساعدات وتبرعات مجزية من الكويت من بينها ثلاثين ليرة ذهبية من أمير الكويت وثلاثة آلاف روبية من الحسن هلال المطيري .

(٨) وكان أعضاء مجلس الإدارة الأول المنتخبين في جلسة الجمعية العمومية بتاريخ ٢١ يونيو ١٩٢٨ يتكون من اثني عشر عضواً هم :

١- الشيخ مبارك بن حمد الخليفة - رئيساً ٢- الحاج سلمان بن أحمد كمال - نائباً للرئيس

٣- الحاج محمد عقيل خنجي أميناً للسر

٤- الأديب أمين الحاج عبدالعزيز خنجي : أميناً للصندوق ٥ - الأديب محمد بن عبدالله الجمعة

معاوناً لأمين السر .

بالإضافة إلى سبعة أعضاء في مجلس الإدارة وهم : ٦- على بن حسين الخلفان ٧- أحمد بن حسن إبراهيم ٨- محمد بن راشد المحري ٩- يوسف عبدالله محمود ١٠ - محمد أشرف شمس الدين محمدي ١١- على إبراهيم كانو .

(٩) وومن دخل مجلس إدارة نادي العروية أيضاً الأستاذ القدير عبدالقدير قمبر ، وحمد الفاضل ، وناصر يوحيميد ، ونوح قاسم ، وعبدالرحمن الباكر ، وذلك بالإضافة إلى الأسماء المعروفة في تاريخ بداية النادي ولغاية عام ١٩٥٤ الذي انتقل بعدها إلى مقره في شارع الزبارة واستقر أخيراً في مقره الجديد الحالي في الجفير عام ١٩٨٩

(١٠) : كانت الفرقة الفنية المصرية مكونة من عشرة فنانيين وفنانات ، وهم :فايدة كمال ، محمد رشدي ، أحلام وهبي ، عادل مأمون ، محمد طه ، لبلبة ، شكوكو ، ناهد جبيري ، هالة الصافي ، وفرقة صلاح عزام .

تعريف بالأستاذ محمود رياض

... محاضرنا الفاضل غنيّ عن التعريف ، فهو علم بارز في أحداث السياسة العربية وقضايا العالم العربي ، التي تشغل بال كل مواطن على ظهر الأرض العربية في كل مكان .

وذلك أولاً بحكم ما تقلده من مناصب ، وما قام به من جهد ، وما اضطلع به من مهمات خاصة للتوسط في حل كثير من القضايا الملحة .

وثانياً بسبب اهتماماته الشخصية ومعايشته الدائمة لتلك القضايا خارج حدود المناصب والمهمات التي قام بأدائها خير قيام .

فهو إذن رجل سياسة وصاحب مبدأ مشهود له فيهما معاً بالتفاني والإخلاص .

شارك في الأحداث العربية منذ عام ٤٨ ، وترأس الوفد المصري في لجنة الهدنة ، ثم أصبح مديراً لإدارة فلسطين في عهد الثورة المصرية ، قبل أن ينتقل إلى وزارة الخارجية المصرية ليصبح عام ١٩٥٥ سفيراً لمصر في سوريا ، ثم اشترك في مباحثات وتوقيع الوحدة المصرية السورية . وسنة ١٩٥٩ أصبح مستشاراً للشئون السياسية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

ثم تقلد منصب المندوب الدائم لمصر في الأمم المتحدة ، فوزيراً للخارجية المصرية ، فمستشاراً للرئيس أنور السادات . وفي ١٩٧٢ أصبح أميناً عاماً للجامعة العربية حتى عام ١٩٧٩ .

وقد صدر للأستاذ محمود رياض - حتى اليوم - ثلاثة كتب وهي :

أولاً- البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط

ثانياً - الأمن القومي العربي بين الإنجاز والفشل
ثالثاً - أمريكا والعرب

ولنستمع إلى محمود رياض وهو يتحدثنا عن نفسه في كتابه «البحث عن السلام» نقتطف منه بعض الفقرات حيث يقول :

لقد عشت الصراع الذي خاضته الدول العربية للتخلص من الاستعمار والسيطرة الأجنبية ، وعاصرت الخلافات العربية ، وظلت مأساة فلسطين التي عشتها منذ عام ١٩٤٨ شاغلي الأساس ومحور تفكيري بصورة مستمرة .
وفي الجزء الثاني يقول : لقد أفزعتني حقيقة مؤلة . . . أننا في العالم العربي ، ونحن في منتصف الثمانينات ، مازلنا نعيش الحالة ذاتها التي كنا نعيشها منذ الأربعينات ، ما زالت مشاكلنا الكبرى هي ذاتها المشاكل التي كنا نبحث لها عن حلول في ذلك الوقت .

وبعد كل هذه السنوات من محاولات تحقيق الأمن العربي . . ما زال أمننا العربي مهدداً أكثر من ذي قبل . . . ومازلنا عاجزين عن صيانتة .
والواقع أن الكتب الثلاثة هي بمثابة سجل صادق وأمين لتطورات قضية العرب الكبرى . . . فلسطين ، لا يستغني عن دراستها كل من يهمله أن يطلع على سير الأحداث العربية ووقائعها ؛ لكي يستنتج لنفسه دوافعها وخفاياها القابعة وراء الظلال .

لقد كانت معرفتي الأولى الشخصية بالأستاذ محمود رياض في مطلع عام ١٩٧٢ ، من خلال اللقاءات الرسمية ، حينما كان وزيراً للخارجية المصرية ، ثم ازدادت به معرفة بعد أن أسند إليه منصب الأمين العام للجامعة العربية .
وجلست معه في اجتماعات اللجنة السياسية للجامعة العربية ، واستمعت إليه وأعجبت بطريقة تفكيره وأسلوبه في معالجة المواضيع المطروحة . وفي خضم المناقشات الحامية فقد كان بإمكانه دائماً أن يفرق ما بين الخلاف الهامشي حول الصيغ والتسميات والشكليات عموماً ، وبين الهدف الرئيسي ، ويحاول جهده أن يوجه النقاش لما هو أساسي ومهم .

أذكر مثلاً أنه في الاجتماعات الأولى ، التي كانت تعقدها اللجنة السياسية لبحث وسائل تطوير أجهزة الجامعة العربية ، وكانت أجهزة الجامعة المتعددة تكاد تغرق المندوبين في بحر من الأوراق والدراسات ومجلدات الإحصائيات ، كيف أنه توجه للمندوبين مقترحاً تنحية ذلك الركام من الأوراق جانباً لكي يستطيع كل منهم أن ينظر إلى وجوه زملائه الآخرين ، ويفكر بحرية في مناقشه ورقة تركز على الأهداف الأساسية ، تاركا للمختصين في دولته أو سفارته مهمة العناية بالتفاصيل .

ثم وجدت هذه النظرة العملية والواقعية تتكرر في حدث لم يمض عليه العام ، وقد توطدت بيننا العلاقة حين تحدث عن الوضع العربي ، قائلاً ما معناه بأن الدول العربية إذا حققت ٥٠٪ فقط من مقررات الجامعة العربية فسيستغير الوضع العربي برمته ، وإنه إذا أمكن لرئيس دولة عربية أن يجمع عشرة أو أكثر أو أقل من رؤساء الدول العربية ويتفق معهم على خطة موحدة وقرار مقرون بالتنفيذ فسيستغير الوضع العربي أيضا .

واستفدت من أقواله أيضا : أنه لا جديد اليوم تحت الشمس العربية عما كان قبلاً .

فالتعاون في المجال الاقتصادي تكفلت به مقررات إنشاء السوق العربية المشتركة ، ومقررات الوحدة الاقتصادية ، وقد مضى عليها أكثر من ربع قرن ، وقل مثل ذلك عن مجلس الدفاع العربي ، وعن المشروع العربي للصناعات الحربية ، ومشاريع أخرى كثيرة تم الاتفاق عليها وما زالت تنتظر التطبيق .

(*) نادي العروبة - ١٩٩٠ .

ندوة في الاقتصاد

إن الندوة التي نحن بصددھا یدور موضوعھا حول غرفة تجارة وصناعة البحرين ، بین الحاضر والمستقبل - مراجعة وتقييماً . وقد دعت إلى هذه الندوة لجنة الدراسات المالية والاقتصادية في الغرفة ، وهي لجنة تضم حالياً واحداً من أعضاء مجلس إدارة الغرفة ، وثمانية أعضاء من قطاعات أكاديمية جامعية ، ومالية واقتصادية وغيرها . وهي تجيء ضمن احتفالات الغرفة بالعيد الذهبي بمناسبة مرور خمسين عاماً على تأسيسها ؛ وهي الاحتفالات التي تتزامن بدورها مع الاحتفالات بالعيد الوطني المجيد . وشعورنا اليوم إزاء كل ذلك هو مزيج من الاعتزاز ، والغبطة ، والتطلع نحو مستقبل أفضل بإنشاء الله .

وأرى أنه ما من وقت أنسب من هذا الوقت للمراجعة والتقييم بالنسبة لهذه الغرفة ذات التاريخ العريق ، فهو يأتي على رأس العام الخمسين والغرفة تجدد شبابها لتبدأ انطلاقاً جديدة - ولعلكم وزملائي أعضاء الغرفة توافقونني على أن مجرد تغيير شعار الغرفة وحده ، لا يمكن أن يعبر عن هذا التغيير المطلوب ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن المستجدات التي طرأت على الساحة في المجال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، منذ قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربي ، قد أحدثت تغييرات جوهرية في المفاهيم وفي الأهداف ، وفي أساليب العمل التي تتطلب التحول من الأسلوب الذاتي المستقل إلى صيغة المشاركة والعمل الجماعي . وقد أصبح موقف الغرفة نتيجة هذه التطورات مشتتاً بين تمثيل مصلحة الأفراد كمجموعات تجارية ومهنية وصناعية ، وبين الاستجابة لمتطلبات المصلحة العامة والأهداف المشتركة والقرار السياسي ، الذي يتجاوز

الواقع القائم نحو المستقبل البعيد . ومثل هذا الوضع يجب أن يعالج بحكمة حتى لا يؤدي إلى تعثر الغرفة في حركتها ؛ وهي تحاول أن تمسك العصا من وسطها . ولو رفعا أبصارنا قليلاً نحو الساحة العربية لوجدنا مثل هذا التطور في العمل الجماعي يبرز إلى الساحة كهدف لا مفر منه . أما حينما نحاول أن نمد أبصارنا إلى أبعد من ذلك ونستقرئ الأحداث الدولية ، التي أصبحت تهز الكيانات الاقتصادية والمالية والسياسية من أساسها ، وتعيد خلط الأوراق من جديد ، فسنرى كيف أن الأسواق القائمة بدأت تنهار ، والأبواب الموصدة أخذت في الانفتاح . . ودخل العالم في عصر التكتلات الاقتصادية الكبيرة والأسواق المشتركة ، والمساومات الجماعية على التعريفات والمصالح ، والتصرف بمصادر الثروات وتوزيع الإنتاج الصناعي ، ونقل التقنية الحديثة ووسائلها .

وفي مثل هذا التطور السريع ؛ أصبح مقبولاً فيه أن ترفع أوروبا وأمريكا إصبع الاتهام تجاه اليابان ، طالبة فتح أسواقها للمحافظة على التوازن في انتقال السلع والأموال ورساميل الاستثمار ، بل طلبت أكثر من ذلك بأن تساعد الدولة ومؤسساتها على تكيف العادات الاستهلاكية لدى اليابانيين لكي يتقبلوا السلع المستوردة ، وأن تتحمل أسواق المال اليابانية والألمانية عموماً نصيبها من المحافظة على سعر الدولار مثلاً - ونحن نشهد في هذه الأيام تحلل دول المعسكر الاشتراكي من النظام الاقتصادي المغلق أو الموجه بتشجيع من دول أوروبا الغربية ؛ لكي يصبح من اليسير مستقبلاً إنشاء شكل من أشكال التكتل والاندماج بما يسميه البعض بعلاقة الدفاء بين الشرق والغرب ، وهي علامة يخشى منها أن توجه دول أوروبا أنشطتها واستثماراتها وتقنياتها نحو الشرق بدلاً من العالم الثالث!

ثم إن العلاقة بين دول المجموعة الأوروبية نفسها ذات الدخول الكبيرة والصغيرة منها ، فيها الكثير من الدلائل على أسلوب العمل فيما بينها ، القائم على العدل أو مبدأ لا ضرر ولا ضرار ، وبموجب هذا المفهوم تستفيد دول الجنوب كإسبانيا مثلاً من مساعدات مادية وعينية في سبيل رفع مستوى الدخل لدى

أفرادها ، بما يقرب من المستوى المقبول الذي تتمتع به دول الشمال . وأمثلة أخرى كثيرة لا مجال لذكرها هنا .

في ظل التطورات المستجدة عالمياً ، لا يمكن للاقتصاد العربي عموماً ، والخليجي خاصة ، أن يظل عنها بمعزل ، والتجاوب مع التيارات العالمية إذا تأخر عن وقته ضاعت فرصة الاستفادة منها أو تفادي أضرارها الحتمية - وإذا كانت السياسات العربية على حسب العادة لا تنتبه للتغيير إلا ضحى الغد كما قال الشاعر ، فإن رجال المال والاقتصاد مطالبين بتبني المواقف المرنة المتجاوبة مع الأحداث - وتلك هي من أبرز المسؤوليات الملقاة على عاتق الغرف التجارية . وفي رأبي فإن غرفة تجارة وصناعة البحرين أمامها اليوم فرصة لإحداث التغيير في ضوء المراجعة والتقييم . وليست لدينا حلول جاهزة ، ولكن ذلك لا يعفينا من السعي لإيجاد الحلول . وإنه لمّا يساعد هذه الغرفة كثيراً إعادة بناء الجسور بينها وبين الأعضاء ، بفسح المجال للمزيد من المشاركة والتشاور وجسّ النبض للشارع التجاري - أما العلاقة بين الغرفة وبين الجهات الرسمية المعنية فيجب أن تؤسس على المصارحة ، وأن تكون أداة الحوار المعلومات القطعية لا الظنية ، والتوقعات المدروسة بدلاً من التخوفات المجردة - وإذا كانت هناك أضرار فعلية أو متوقعة على القطاع الخاص ، من أجل تحقيق الأهداف الأكبر ذات الأمد البعيد والمصيري ؛ فيجب التوصل إلى الحلول البديلة لتجنّب تلك الأضرار أو تعويضها بشكل من الأشكال ؛ للمحافظة على الاستقرار المطلوب والتوازن بين المصالح المتعدّدة .

(*) تقيي البحارة : رئيس لجنة الدراسات المالية والاقتصادية في غرفة تجارة وصناعة البحرين ، في الندوة التي عقدت يوم الثلاثاء ٢٨ نوفمبر ١٩٨٩ ، تحت عنوان «غرفة تجارة وصناعة البحرين .. بين الحاضر والمستقبل - مراجعة وتقييم» .

الفصل الرابع

سير وشخصيات

أحمد محمد الخليفة: الشاعر الذي فقدناه

.. كان شابا ، وكنت مثله في ريعان شبابي . كان همه الشعر خاصة ، وهمي الأدب عامة . وكان يمر من أمام مكتبي في سوق التجار جيئة وذهابا ... شابا ممشوق القوام ناحل الجسم ، وفي نفسي أن أسأله عن غايته ، حتى فاجأني ذات يوم بزيارة وهو عائد لتوّه ، واليأس باد عليه ، فصارحني بهمه قائلا : أنت تعلم يا أخي أنني أتردد منذ زمن على الأستاذ إبراهيم العريض ، في مكتبه بشركة امتيازات النفط ، للتزود من علمه وذوقه في الشعر ... وقد مزق هذا الصباح قصيدة نظمتمتها ولم تعجبه ورمأها في وجهي . فأجبتة : هون عليك يا أخي فأنت تعرف طبع الأستاذ العريض ... إنه معروف بدماثة الخلق ويتحلى بأسلوب المجاملة إلا فيما يتعلق بالشعر والذوق الأدبي ، فهو يخرج من طوره ولا يعي ما يفعل . ولعل فيما فعله خير لك ، فثابر ولا تيأس . ثم إن الأستاذ العريض مر علي على عادته حين يرجع من عمله ، فلما سألته أجاب منفعلاً : كم قلت للشيخ أحمد أن لا ينظم الشعر إلا عن رغبة خالصة ، وأن يقرأ الأشعار كثيرا ، وأن يتعلم أصول النظم والأوزان ، وقواعد اللغة العربية ، وأنا أساعده إن أراد حتى لا يأتيني بشعر ، كما فعل اليوم ، لا يستقيم على الإصلاح مهما حاولت ذلك .

تلك قصة قد خلت ، يستفيد من عبرتها المبتدئون ، أما الشيخ أحمد فلم يكذب يمضي به الزمن منذ أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات ، حتى ازداد رسوخا في الشعر ، وإذا به يظل علينا في أوائل الستينات باعتباره شاعر المناسبات المجلّي في البحرين . وسرعان ما أصبحت قصائده ودواوين أشعاره

مرتعا خصبا لمحببي الشعر ، وسجلا لأيام البحرين وأحداثها ، وانعكاسا لما يجري في الساحة العربية والدولية ..

وفوق هذا وذاك ، منتجعا مؤنسا للمحبين ممن تستهويهم الطبيعة ، وبأسرهم الجمال حيثما وجد وأينما كان .

وقد كان رحمه الله ، سريع البديهة في الشعر ، متفتح القريحة في مساجلة الشعراء من الأصدقاء ، مجيبا دعوة الداعي في الحفلات والمناسبات .

ألقى العديد من قصائده بنفسه في المناسبات العامة بنادي العروبة ، وفي أندية البحرين عامة . وكان الشاعر المرموق في احتفالات اتحاد الأندية الوطنية .. ثم واصل مسيرته الشعرية حتى الأخير ، في مجالات الشعر المتعددة . لم يقعد عن الشعر يوما ، ولم يقعد به الشعر حتى وافاه الأجل المحتوم . ومنذ أواخر السبعينات كان يختار في أكثر الأحيان ، من يلقي عنه الشعر في حضوره أو في غيابه . وقد ترك لنا ثروة شعرية من دواوين أشعاره المعروفة ، وعددها يربو على سبعة دواوين ، من ضمنها (أوبريت الفاتح) التي اختصني بنسخة منها ، وما كتب لي في إهدائها ... «إلى أخي الشاعر .. صديق العمر .. وهذه النسخة خاصة لكنني أهديك نسخة منها لاهتمامك بتاريخ البحرين ..» ، وقد شكرته على ثقته التي لا تقدر بثمن .

ولقد خلف المرحوم بغيابه عن ساحة الشعر ، فراغا في دنيا قصيدة الشعر الموزون ، وفي نفس أحبائه والمعجبين ، مشاعر الحزن والألم .

وبعد _ فلقد كانت بيني وبين المرحوم علاقة تقدير ومودة ، وجرت بيننا مساجلات شعرية ، كان من أوائلها حين جاء مهنثا بزواج ولدي أسامة ، وسلمني وهو بهم بالخروج ، أبيات شعر كتبها في الحفل ارتجالا ، ثم عمد إلى صقلها ونشرها تحت عنوان «تهنئة ومداعبة» ومطلعها :

(زفٌ في فندق الخليج «أسامة» لعروس بها الصبا والوسامة)

واستحشنتني قصيدته وروح المداعبة عنده ، فأجبتة بأبيات مطلعها :

(أيها الفاضل الذي زانه الشعر وأعلا بين الأنام مقامه)

وجرت مساجلة أخرى حين أهديته كتابي (أوراق ملونة) ، حيث استثارت شجونه ذكريات عطرة في منتجج «الجابور» ، منذ بواكير الصبا ، جمعتني وإياه بالصديقين المرحومين الشيخ خالد بن محمد الخليفة ، والشيخ دعيح بن علي الخليفة ، فنظم قصيدة مؤثرة ، أودعها همومه ، واستودعها ما تحرك في نفسه من شجون ، ومطلعها : (أتاني كتاب من تقي نفيس تهيم قلوب حوله ونفوس) ولم تكن تلك الشجون لديه بأقل مما كانت عندي ، فرددت عليها بأبيات مطلعها :

(أبشرى ، وفي وجه الزمان عبوس
وذكرى لها بين الضلوع رسيس)

ثم إن المرحوم لما أصدر ديوانه الأخير «عبير الوادي» وأهداه إلي ، نشرت قصيدة عنوانها (تهنئة) ومطلعها :

(غنى الحداة ، فهل عرفت الحادي
فسل الشذى .. أو سل عبير الوادي)

ولقد حمدت المسعى الكريم للسيدة الفاضلة «مي الخليفة» راعية التراث ، لإصدار كتاب يتضمن ما يتصل بهذا الحفل التأييني للشاعر الفقيه ، ويتضمن نشر تلك القصائد التي مر ذكرها لتستقر في سجل هذا الحفل ، وفي ذاكرة البحرين .

ولا يتسع المقام هنا للاستطراد في حديث موسع يفني شاعرنا الفقيه حقه ، فهناك ولا شك من سيقوم بذلك غيري . ولكنني أود أن أختتم كلمتي بأبيات من الشعر قلتها في رثاء المرحوم .

مهداة لروح الفقيه
الشاعر أحمد محمد الخليفة

أحمد الخير، يا سليل الكرام
لك مني تحييتي وسلامي
وحبائك الأله عفواً وغفراناً
وأولائك منة الأنعام
كلّ نفس رهينة بافتراق
وهي مرهونة بحسن الختام
عشت للشعر، وانتزعت القوافي
من لهاة اليقين، والأحلام
وملكت الحضور في محفل الشعر
بقول ماض، كحدّ الحسام
خلّدت ذكرك الخطوب التّوالي
بقواف من أمّهات الكلام
كلّما جدّ في «أوال» مجال القول ..
أمسكت عطفه بزمام
ليت شعري .. من للمحافل من
بعذك، والليل، والسّرى، والغرام
من لنسحر البيان في الشعر يستلّ
غموضاً، من معجم الأبهام
من يضيء السّراج والليل داج
من يروّي الأفكار وهي ظوامي
يا خليلاً مضى وفي القلب من ذك
راه أوصاف شاعر مقدام

أن فنّ القصيد فيه معان
ساة، وسهد، وبحره مترامي
وهو صعب ركبته، لك أهدي
من معاناته .. وسهد منامي

الأستاذ حسن كمال.... كما عرفته

عهدت الأستاذ الأديب حسن كمال ، قبل معرفتي به ، مديعا ذا صوت عذب رخيم تأنس إليه القلوب والأذان . تستهويه الكلمة الطيبة البليغة ، ويجري على لسانه الشعر والنثر عذبا طليقا . ثم التقيت به في محافل الأدب والشعر وندوات الفكر التي كنت دائم الحضور فيها . يرحب بالقادمين ويودع المغادرين بوجه مشرق بالسرور ، مؤتلق بالبسمات . واقتربت منه أكثر من ذلك فناجاني بالشعر والأدب وساجلني وساجلته ، فاكتشفت فيه الإنسان الذي يأنس بقربه كل إنسان ، ودلني أسلوبه وتفكيره وتعلقه بهذا الوطن وتراثه وملاعب صباه على حبه للبحرين . فهو المواطن الصالح الشريف ، الذي يعتز به الوطن ويستحق منه التكريم في سائر المناسبات التكريمية لجليل الرواد في البحرين العزيزة ، ولمن ساروا على آثارهم مقتدين .

كلنا نعلم أن المحتفى به موضوع التكريم الأستاذ حسن كمال له تاريخ حافل بالعطاء والإبداع خلال ٤٩ عاما من العمل الإعلامي والإذاعي والثقافي ، وأن له علاقات وأنشطة أدبية وفكرية في مجتمع البحرين ، وأنه شاعر وأديب كتب عليه تواضعه الجم أن يتوارى إنتاجه في الظلّ ، ولعل من أجمل خيرات حفل التكريم هذا أن يتيح للجمهور الكريم الاطلاع على إنتاج الأستاذ حسن كمال في مجالات الفكر والأدب والشعر والحياة ، وذلك بنشر كتبه ومؤلفاته .

نشأت بيني وبين الأستاذ حسن كمال معرفة شخصية ، حين دعاني لعدد من المقابلات التلفزيونية بمناسبة ما كتبته من أشعار وما سردته في السيرة الشخصية من تصوير لمراتع الصبا في حارات المنامة ، وأساليب العيش والأجواء

الأسرية ، ومزاولة الأعمال خلال الثلاثينيات والأربعينيات . وقد أجبته على ذلك متوقفاً أن تكون هذه المقابلة حسب المعتاد ظاهرية لا تنفذ إلى الأعماق . غير أنني فوجئت بأن الأستاذ حسن كمال قارئ جيد متعمق لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وشدني إلى أسئلته واستطلاعاته ، كونه شغوفاً بتراث الماضي ، حريصاً على الملمة الذكريات وتوثيق الأحداث ، مغرماً بحب هذا الوطن وشعب هذا الوطن وتقاليده وعاداته ، وقيمه الدينية والاجتماعية والأخلاقية ، كالأمانة والصدق وحب الجار ، والتواصل الاجتماعي والنخوة وغيرها . حتى إنني كتبت إليه . . . قائلاً (إني فخور بأن يتوفر من الأدباء والشعراء قارئ مثلك يقلب صفحات الديوان بأناة وتبصر ، متوغلاً في ألفاظه ومعانيه ليعيش مع الشاعر تجربته ومعاناته . . وذلك على خلاف ما نعهد في قراء هذا الزمن) ، وأنا على يقين بأن غيري من الأدباء ممن أجرى معهم تلك المقابلات التلفزيونية يشاركونني في هذا الشعور .

ثم إنه بعد ذلك ، نشأت بيننا ، مراسلات أدبية ومساجلات شعرية
أذكر منها : أنه لما سمع مني هذا البيت :

أسرَّ إلى الأوتار حباً مكمّماً
ولكنهّا الأوتار ليس لها سرّ

سرعان ما اهتزت في عواطفه أوتار الشعر فأجابني مكملاً :
تبوح بسري في ارتعاشات شدوها
وأهاتها للعود ليس لها حصرُ
يحرّكها في صدره وقع ريشة
مشدّبة الأطراف جاد بها الدهر
ألا إنه الحبّ المخلّق عالياً
إلى عالم الأسرار طار به النسّر

وفي مناسبة أخرى أعجبتة إحدى قصائدي في الديوان ومطلعها :
(شعري والصمت وجلجلة
تحفر في الصمت أخاديدا)

فكتب لي هذه الأبيات معلقاً :

شعر بالشـوق أرددهُ
أتلوهُ وأرجوك مـزيدا
إبداع فيه ويُعجبُنني
اللقاءُ مقفَى ونضيدا
كلالىء زين بها جيدُ
يعرفُ للزهو حـدودا
فجمالُ المعنى يُبهرنني
لأفند فيه وأزيدا
موسيقى الروح تسرُّلني
ألحانا تنسابُ نشيدا
أنسام من قلم تسـري
تتضوُّع في الكون ورودا
هو نبضةٌ وحي في قلب
إن رعشت أحيتهُ وريدا
الشعرُ، وأنت برفقته
يعطيك من الحب وعودا
يُعطيك الرفعة في الدنيا
يُعطيك على الخلد عهودا
هو خيط يجمعُ بين الناس
الشعرُ، منهم تحديدا

أما وأناي سأختتم كلمتي بقراءه جوابي على تلك الأبيات فإني أقول :
إن خير التكريم ما كرم الفكر
مشيداً بالمنجزات العظام

وقد عرضت في هذا المقام بعضاً من فكرك وشيئا من ترانيم أشعارك ، هذا مع العلم بأنك عنوان بارز في برامج الثقافة والفكر ، محبب إلى كل مستمع ومشاهد . . . ومحبتك في قلوبنا هي الجائزة الكبرى فلا تبغي عنها بديلا
وختاماً فإني أهديك هذه الأبيات على وزن أبياتك تحية لك ومشاركة في تكرمك :-

شعري بالشوق ترده
شعرا . . منتظما وقصيـدا
«حسنا» ما زلت بوادي الشعر
قوي الأوتاد مجيـدا
أتحفنا من شعرك ما جاد
ولا تمشي فيه وثيـدا
جمعتنا في الشعر سماء
لا تعرف «للوحي» حدودا
وجمال «الفصحى» يسحرنا
بالشعر يردّد ترديدا
نسقي بالشعر ظمما الأرواح
ونسقي منه مزيدا
«حسنا» بوركت بحب الشعر
قديما . . . أو جاء جديدا
وأرى في شخصك «ديوانا»
يتجول بالشعر فريدا

هذا التكرم يضيء إلى
إنجازك .. زخما وورصيذا
مدت للقاءك أيدينا
لتحيي شهماً صنديدا
وتنذر الورد وعمود السند
يعطّر ثوباً وخبودا
ونفوساً بهواك تغنى
وفؤاداً يرقص عربيدا
إن شئت .. تسميه حفلاً
أو شئت .. تسميه عيدا
وأبو التاريخ يدونه
للنادي .. يوماً مشهودا
فبمثلك تفخر أوطان
وتصعر للعالم جيذا
فتقبل باقة أزهار
من روض يهديك ورودا

المستشار: شارلس بلجريف
إداري حازم ونزيه
لكن بعقلية تسلطية استعمارية محافظة

لم أكن أعرف السيد شارلس بلجريف مستشار حكومة البحرين (١٩٢٦-١٩٥٧) معرفة شخصية ، ولا أظنه كان يعرفني كذلك . لكنه كان يعرف والدي لاسيما عند مروره في الصباح الباكر ، تمتطيا صهوة جواده - على منزلنا في طريقه إلى (القلعة) ، حيث يقف قليلا ليستمع إلى والدي وهو يقرأ القرآن . . . ثم يحدث أخني الأكبر صادق قائلاً : إن الوالد يقرأ القرآن بصوت جميل . ولعل أول معرفة له بوالدي منذ أن كان أميناً لصندوق المدرسة الجعفرية بالمنامة (١٩٢٧-١٩٣٢) ، وقرار المستشار إدماج المدرسة ضمن إدارة التعليم الرسمي . وقد بادر الوالد حينئذ بتسليم أموال المدرسة إلى الحكومة ، بعد خصم رواتب المعلمين ودفق المستحقات . ومن واقع تقدير الذمة المالية ، وهي الهاجس الأكبر لدى المستشار تجاه إدارات المؤسسات الأهلية ، التي كان يشك فيها دائماً - عبر المستشار للوالد عن تقديره وأثنى عليه . .

وكان المستشار يعرف أيضاً أخني الدكتور حسين ، منذ أن سافر إلى بريطانيا بمساندة المعهد البريطاني لإكمال دراسته الجامعية . . ثم قطع عنه المعونة المالية بعد سنة من الدراسة ونصحته بالعودة إلى البحرين ، وصرف النظر عن إكمال دراسته لنيل الدكتوراه قائلاً : إن البحرين سوف لن تحتاج إلى خريج دكتوراه في القانون خلال المائة سنة القادمة !!

فإذا أضفنا هذه الحادثة عن تصرفات بلجريف ، باسترجاع البعثات الطلابية التعليمية بعد سنة أو سنتين من الدراسة في الخارج كما حصل في بعثة

الجامعة الأمريكية أوائل الثلاثينات . ثم بعثت الدراسة إلى مصر في منتصف الأربعينات . . أدركنا نظرة المستشار الضيقة ، التي تحصر التعليم المناسب للبحريين في المرحلتين الابتدائية والثانوية فقط ، وتنظر بعين الريبة والشك إلى التعليم الجامعي ، الذي يهيء الطلاب لممارسة السياسة وإثارة المتاعب للحكومة حسب اعتقاده . . ونتبين ذلك من بعض كتاباته وتقاريره السنوية .

وفيما عدا نظرتة للتعليم ولمساندة المتعلمين والطلاب لمطالب أهالي البحرين التي يعدها من قبيل الشغب وتعكير الأمن - فقد كان بلجريف في غير ذلك رجل إدارة حازماً وضبط مالي وإداري نزيهاً . ولعله لم يحدث في تاريخ عمله في البحرين ذلك النوع من التسبب المالي والإداري الذي شهدته السنوات اللاحقة لعهد .

وتدل تقاريره السنوية لوزارة الخارجية البريطانية أو إلى الحاكم العام البريطاني في الهند ، بعد أن تم الإفراج عن نشر تلك التقارير ، على تدمره ومعارضته للتبذير في أموال الحكومة ومصادر دخلها ، لدرجة جعلته غير محبوب حتى لدى أفراد العائلة الحاكمة ، بسبب التقدير والاقتصاد ؛ وهو الذي أقنع شيخ البحرين بتغيير حصة الحاكم من نصف الدخل - كجاري العادة في عهد الميجر ديلى وفي السنوات الأولى من قدومه إلى البحرين - إلى الثلث ، واستثمار الثلث الآخر في صندوق المستقبل للمشاريع والأجيال (وكان هذا المبلغ يودع في بنك للويدز في بمبي قبل نقله إلى موقع آخر . . .) . بينما باقى الثلث خصص للموازنة العامة . وذلك ابتداء من العام ١٩٣٤ . وقد استنجد المستشار لإقرار هذه السياسة ، بالحكومة البريطانية وبالحاكم العام في الهند . وقد أبدى أسفه في كتاب مذكراته بعد تقاعده بأن هذا الصندوق المخصص للمستقبل . . لم يعد له وجود .

وقد تجلّى اقتصاد بلجريف في النفقات خلال سنوات الحرب الثانية (١٩٣٨-١٩٤٤) ، في ترشيد الإنفاق الحكومي ، وكان من عاداته إرسال أجوبته عن الرسائل المرفوعة إليه على الورقة نفسها ، كما فرض على جميع الدوائر

استعمال أغلفة الرسائل لعدة مرات ، توفيراً للمغلفات والورق الذي شح في الأسواق أيام الحرب .

ويعرف عن بلجريف أنه كان بسيطاً في مسكنه وملبسه وحياته العادية . . وكان باب مكتبه مفتوحاً دائماً للمراجعين . ويتجول في كل مكان راجلاً أو على الحصان ، بدون حراسة ما عدا مرافقه سائس الحصان . وحين قفز به حصانه عند إحدى الحفر وحدث له كسر في رجله . . انتظر طويلاً وهو يتألم ويلوِّح للسيارات لنقله حتى جاء إليه سائق شاحنة نقله وأخذته إلى المستشفى . وكان ينام على سطح منزله في أيام الصيف رغم وجود أجهزة التكييف في البحرين .

وعلى الجانب الآخر ، فإن نظرتة إلى شعب البحرين تتصف بعدم الثقة والشك والحذر في تعامله مع الأفراد أو المؤسسات ، مثل الأندية والتجمعات العمالية والطلابية . . ويرى في قادتها مجرد أشخاص يسعون إلى الزعامة والمركز أو الكسب المادي ، ولا يتورع عن وصف أفراد الشعب بالرعاع وعدم الوفاء ، مثل قوله في كتاب مذكراته المترجم للعربية وذلك بمناسبة عدم حضور جمهور كبير لوداع الميجر «ديلي» عند مغادرته البحرين : (إن الشعور بالعرفان صفة نادرة بينهم . . فهم بطبيعتهم لا عاطفة لهم وهم ماديون وكثيرو السخرية وإعابة الآخرين) وكان عليه أن يسأل عن السبب في عدم حضور أهالي البحرين لوداع الميجر ديلى ليعرف أنهم لا يحبونه . .

ويبدو لي أن بلجريف ألف التهرب من المطالب المخرجة ، بالتركيز على الأشخاص والتشكيك في نواياهم ؛ أو اتهامهم مصللون أو على صلة بالحركات الحزبية والسياسية في الوطن العربي ، لاسيما العراق وسوريا ومصر ، وبعد ما يكتب في صحف تلك الدول عن الأوضاع الاستعمارية في البحرين مجرد أذليل لتشجيع الإخلال بالأمن .

وكان المستشار لا يخفي اعتقاده بأن أفراد الشعب العاديين لا يفهمون في السياسة شيئاً ، ولا يعلمون ماذا يريد قادتهم . . وحتى القادة المتزعمون فإنهم لا

يدرون ماذا يريدون . . . وأن افراد الشعب همهم الوحيد كسب العيش وتأمين أقاتهم ، وممارسة عاداتهم وتقاليدهم الدينية المألوفة . أما القادة والزعماء الذين سافروا للخارج فهم وحدهم الذين يثيرون الشغب ، ويحرضون الناس العاديين على الحكومة ، وأنهم وحدهم سبب تلك المشاكل الأمنية . . ومعاقبة هؤلاء القادة بالسجن أو التسفير للخارج هو الحل الأمثل .

ومن الجدير بالملاحظة أن معظم المطالب الوطنية التي كانت ترفع للحكومة ، كان موقف المستشار منها الاهتمام بالشكل المتمثل بالأشخاص والظروف ، وتجاهل الموضوع وهي المطالب ذاتها . وقد ورد في كتاب مذكراته الشخصية ما يفيد أنه ، في قرارة نفسه ، كان يتعاطف مع مطالب الهيئة التنفيذية العليا (هيئة الاتحاد الوطني لاحقا) ، لكنه كما ورد في ترجمتها العربية صفحة (٣٤٤) ، يقول عن الهيئة : « . . لم أثق في الرجال الذين يقودونها لأنني أعرف أنهم لم يتحركوا بدوافع المصلحة العامة وحب الغير . . »

ومن المعروف كذلك عن بلجريف عدم ميله للجلوس مع أصحاب المطالب الوطنية والإصلاحات السياسية ، والتوصل إلى حلول مرضية . . فهو يفضل أن يتخذ قراره منفردا ، وقد يختار من تلك المطالب أهونها وأقلها شأنا ، ويصدر إعلانا حكوميا لا يرضى عنه الجمهور ويثير حفيظتهم ، وذلك كما فعل في رده على مطالب الهيئة التي وقع عليها ، كما يعتقد ، ما يقارب التسعين ألفا من المواطنين . . حين نشر إعلانا حكوميا يقول فيه : (تقدم إلى الحكومة «بعض أناس» بمطالب . . وإن الحكومة ماضية في القيام ببعض الإصلاحات . . الخ) .

وفي فقرات من كتاب مذكراته يتهم بلجريف على مستوى وعي الجمهور بمطالب (الهيئة) ، حين يسأل بعض الفلاحين والعمال عنها ويصفهم بالغباء . وقد سبق أن قرأت لبلجريف في مذكراته (إن لم تخن الذاكرة) ، أنه أورد مثلا (في غير محله) للاستشهاد بسذاجة شعب البحرين حيث ذكر أنه لما تم إنشاء القاعدة البحرية في الجفير ، طلبت منه وزارة الخارجية البريطانية معرفة رأي الجمهور في موضوع القاعدة البحرية . . ويقول إنه استدعى من عمداء

القرى نفرين أو ثلاثة ، وسألهم عن رأيهم في إنشاء القاعدة البحرية في الجفير ، فأجابوا لا مانع لديهم ، لكن أكثر ما يخافونه في هذا الأمر هو «أن ترتفع أسعار بيض الدجاج على الناس .»

ومن المعروف عن المستشار بلجريف أيضا تدخله المباشر في جميع شؤون الإدارة والمؤسسات في البلاد ، بما فيها المحاكم العدلية والبلديات ، ومجالس الأوقاف والقاصرين وغيرها حيث كانت رئاسته لها أو حضوره فيها لازما في جميع الأوقات ما لم يعتذر بنفسه عن حضورها . وحتى المدارس والمستشفيات ومدراء الأمن والجمارك وغيرها تقع تحت إشرافه رغم وجود مدراء لها .

وكان المستشار (وهذه تضاف إلى حسناته) يتدخل في معالجة المشاكل الأسرية ، وحفظ حقوق القاصرين في منازعات الموارث . كما يقوم شخصيا بمداومة المنازل وتفتيشها عند اللزوم للتحقيق في الجرائم والممنوعات وما شابه ذلك .

وفي ذلك فقد لصقت صفة الدكتاتور والمتسلط بالمستشار طيلة عمله في البحرين .

كما يؤخذ على المستشار بلجريف أيضا محاباته للشركات الإنجليزية دون غيرها ، وعدم إحكام الرقابة على أعمالها .

ومع كل ما سبق ذكره عن سيرة بلجريف فإن من الإنصاف الاعتراف بالخطوات الإصلاحية التدريجية ، التي قام بها وفرض فيها شخصيته القوية ضد معارضة عنيدة من قبل أصحاب المصالح تقتصر فيها على ما يلي :

١- مشاكل الغوص والسخرة وأصحاب سفن الغوص وقروض الغواصين (التسقام) وما يتفرع عنها .

٢- التطوير التدريجي في التعليم الابتدائي ثم الثانوي للبنين والبنات . رغم أن ما كان يخصصه لموازنة التعليم أقل من الشرطة والأمن ، وأحيانا أقل من مخصص الصحة العامة .

٣- النزاهة والشفافية في الشؤون المالية للحكومة ، حيث دأب على نشر موازنة

الحكومة ومصروفاتها ومواردها المالية على لوحة الإعلانات في الأسواق ، ثم في جريدة البحرين عند صدورها كذلك .

٤- إنشاء دائرة الأوقاف الجعفرية في وجه معارضة من رجال الدين ؛ بل إنه أضاف إلى ذلك مبدأ انتخاب الجمهور لأعضاء مجالس الأوقاف ، عن طريق الانتخاب السري الحر والمباشر ، بالبطاقات ابتداء من عام ١٩٣٣ ثم تلا ذلك فيما بعد إنشاء دائرة الأوقاف السنية .

٥- إنشاء دائرة أموال القاصرين في وجه معارضة مشتركة .

٦- الاهتمام التدريجي بالصحة العامة وبناء المستشفى والمستوصفات والمراكز الصحية ، ومكافحة أمراض الملاريا والجذري والتراخوما والأمراض التناسلية .

٧- استلام المستشار زمام الأمور بنفسه لفرض نظام التموين بالبطاقات خلال أزمة نقص الأغذية ومواد التموين ، أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٨ - ١٩٤٤) . . . وحين امتنع التجار عن استيراد المواد الغذائية ، وجه الحكومة لاستيراد تلك المواد ، لا سيما الرز والسكر والشاي والقمح ، وبيعها بسعر التموين ، تفاديا لحدوث مجاعة في البلاد ، كما سمح للسفن الإيرانية بالمجيء إلى البحرين وشراء الشاي والسكر مقابل جلب الأغنام والخضر والبصل والبطاطة للبحرين . . . وحين امتنع القصابون عن ذبح المواشي وبيعها ، وأغلقوا دكاكينهم ، تولت البلدية والشرطة بيع اللحوم للجمهور بأسعار التموين . ومع كل ذلك يعترف المستشار في تقاريره أسفا ، أن عددا من الأشخاص الفقراء في بعض القرى ماتوا بسبب الجوع في أيام الحرب .

٨- المصالح الحكومية الأخرى ، كالشرطة والجمارك والهجرة والكهرباء والتلفون والماء ، حظيت باهتمام كبير من المستشار وله فضل المبادرة بإنشائها منذ البداية . . . حيث عمد إلى تخصيص مبالغ احتياطية لإنشائها قبل سنوات عديدة من تنفيذها . (كانت موازنة البحرين أوائل الثلاثينات قبل النفط تقارب المليون روبية هندية أي حوالى مائة ألف ديناراً) .

٩- تصدى المستشار للفساد المالي ونقص الذمة المالية ، والتلاعب بنصيب اليتامى في التركات ، والاستيلاء على أملاك الأوقاف ، والتسلط على أملاك الغير ، ونهب الأراضي من أصحابها . . . كما تشير إلى ذلك تقاريره السنوية .

لقد ورث بلجريف تركة الميجر ديلى من قبله ، والذي تضاربت حوله الآراء ، كما عاصر المستشار بلجريف ثلاثة من حكام البحرين ، وهم الشيخ عيسى بن علي الخليفة ، والشيخ حمد بن عيسى الخليفة والشيخ سلمان بن حمد الخليفة ، وقد حصل من الأخيرين على المساندة اللازمة لتكوين الجهاز الإداري الحكومي ، وإنشاء الخدمات العامة ، واستفاد من مباركة حكام البحرين لخطواته في التغلب على معارضييه أو من يعدّهم خصومه . ويرى بلجريف كذلك أن رئاسة الشيخ عبدالله بن عيسى الخليفة للتعليم ، كانت عوناً له في تنظيم دائرة المعارف بالشكل الذي رآه مناسباً ، بما في ذلك تعيين حرم بلكريف مديرة عامة لتعليم البنات .

وبعد فإن أول لقاء شخصي بيني وبين السيد شارلس بلجريف حدث صدفة ، وذلك خلال زيارتي لمدينة لندن بعد منتصف الستينات ، قبل وفاته عام ١٩٧٠ . وقد كنت على صلة بولده جيمس بلجريف والمعروف بـ(حمد) فزارني في فندق ريجنت ودعوته للحديث وتناول الغداء ، وبعد يومين اتصل بي تلفونيا وأخبرني أن والده يود رؤيتي ، ووصف لي منزل والده ، فذهبت لزيارته في بيته حيث استقبلني بالترحاب وأجلسني بقربه في حجرة صغيرة ، وقدم لي من الكعك الأسود (فروت كيك) ، وقد ذهب منه الكثير وبقي القليل . .

وبادرني بالقول معتذراً إن المدام ليدي بلجريف ذهبت لشراء بعض الحليب ، وأرجو انتظار عودتها لتصب لك الشاي بالحليب ، لكن على طريقة الإنجليز وليس العرب . . ولما وجد علامة الاستغراب على وجهي أكمل كلامه قائلاً :

نحن الإنجليز نقول : (هل يمكن أن آخذ قليلاً من الحليب في كوب

الشاي؟) أما أهل البحرين فيقولون : (هل يمكن أن آخذ قليلا من الشاي في كوب الحليب) ، ثم أضاف ضاحكا : لقد جاءنا زوار من البحرين هذا الأسبوع ، وقضوا على ما في البيت من حليب . . . وفي هذه الأثناء وصلت الليدي بلجريف ، ومعها شيء من الحليب فبادرتها قائلا : هل يمكن أن آخذ قليلا من الحليب في هذا الكوب الكبير من الشاي . . ثم ضحكنا معا . . .

سألني بلجريف عن البحرين وأهلها ، وعن إخواني ، وخص بالسؤال عن معارفه من تجار البحرين واحدا واحدا ، ولم يتطرق إلى شأني الخاص أو الشأن العام بشيء . ثم قال ما معناه إنه يعيش حياة هادئة ، ويقضي وقته في النهار يصلح في حديقة كنيسة التي ينتمي إليها ثم في القراءة الخ . . . وعند استئذاني بالانصراف تجول معي في منزله المتواضع ، وأراني ما جلب معه من البحرين من تحف ، مثل الصندوق (المبوت) ، والأبواب التقليدية والفخار والسجاد والصور ، التي رسمها أو التي أهديت إليه ، وغيرها من المقتنيات المتواضعة .

ثم ودعته وأنا أقول لنفسي لو أن غيره على ما كان عليه من سلطان ونفوذ خلال ٣١ عاما في البحرين ؛ لاستطاع أن يجمع ثروة هائلة ، ولما طلب مساعدة الحاكم لشراء هذا المنزل المتواضع بعد تقاعده . .

الأستاذ إبراهيم العريض أديبا وشاعرا وإنسانا

(العريض . . . أستاذ رائد لجليل من الرواد في الثقافة والفكر والأدب . . .
وموسوعة ، للمعارف والفنون تمشي على قدمين . . . وهو قبل ذلك وبعده ، شاعر
مبدع ، يتغنّى بشوق الطفل لاصطياد الفراشات الهائمة . إنه أستاذ وشاعر بمعنى
الكلمة) .

**

الأستاذ إبراهيم العريض ، سوف يبقى اسمه خالدا في ذاكرة البحرين ،
وفي قلوب أهل البحرين ومحبيه والمعجبين به . . . وهم كثر . في أرجاء الوطن
العربي سواء ممن تعرفوا عليه في مناهج التدريس في الجامعات أو ممن اطلعوا
على شعره وأدبه وثقافته في لغته العربية الأصلية أو ما كتبه باللغات الأردية
والإنجليزية والفارسية . . .

وأذكر قوله بهذا الصدد : (إنني أفكر دائما في قضايا الوطن وأغراض
الشعر ، وموضوعات الفكر والأدب والفن ، من منطلق عالمي ومنظور
إنساني . . .) وفي أبيات له بعنوان (اعتزاز) لم تنشر - يشير إلى ذلك ، بقوله :
(لقد قمت في البحرين خارج أرضها

وصرت لدى التعريف - همزة لأمها)

**

كتب العريض الشعر منذ صغره ، وأنتج فنا شعريا قصصيا جميلا ، وعالج

قضايا الوطن العربي وهموم الإنسان من خلال مؤلفاته (*) . واشتمل شعره على تصوير الحياة الاجتماعية للمرأة والقيم الاجتماعية ، وقضايا الفقر والغنى ، والحب والزواج ، والغيرة والانتقام ، والريف والمدينة وغيرها ، لكنه تجافى عن ذكر الأماكن والأشخاص ، وأعاد ترتيب المواضيع من وجهة نظر المصلح الاجتماعي تجاه قضايا (الإنسان) ، وعواطفه وغرائزه وتقاليده الموروثة . . . حيثما كان .

لم يرض العريض عن ديوان شعره الأول (الذكرى) ، لأنه جاء على النسق التقليدي المتوارث في الشعر العمودي ، الذي لم يستوعب طموحه للتجديد في الشعر بالنسبة لعصره ، فأزاله من ذاكرته ، واتجه في ثلاثينيات القرن العشرين إلى الشعر الرومنسي المتحرر ، متأثراً بأدب المهجر والأدب الإنجليزي والهندي والفارسي ، ومال بثقله إلى الشعر القصصي ، وأنتج فيه آثاراً أدبية رائعة ابتداء من أربعينيات القرن

ألقاها في أمسيات نادي العروبة ، الذي احتضن أدبه وشعره . . وفي جريدة (البحرين) لصاحبها الأستاذ عبدالله الزائد .

لكن العريض الذي وصف نفسه بقوله :

(أنا والله مغرم بجميل الذكر

حتى كأنه بعض ديني)

لم يلمس من المجتمع ذلك التجاوب والإعجاب الذي كان يصبو إليه ، إذ سرعان ما اصطدم بالذوق الأدبي السائد في مجتمع البحرين وقيمة التقليدية المألوفة آنئذ . . فركبته موجة من اليأس والإحباط ونفض كفيه من الشعر قائلاً :

(نفضت كفي من ورد ومن أس

وعدت بالشوك إكليلاً على رأسي

(*) (كتبت بمناسبة احتفالية إبراهيم العريض ، في نادي العروبة وفي أسرة الأدباء والكتاب البحرينية) .

لا شأن للفن في دنيا أعيش بها
 فليس ينشد أهلوها سوى الباس
 كم رحت أبعث في أرجائها نغما
 يرقّ كالماء .. لكن قلبها قاسي
 لا يطمح الطير والأشراك ترصده
 أن يستقل بوكسر ، فوق مياس
 تبقى الخمييلة بالأغصان مائسة
 ما دام يغفل عنها .. حامل الفاس
 قد كنت في مجلسي أولى بنشوته
 لولا الذي أنا ساقيه لجلسي
 يا ناهلين كؤوس الراح في دعة
 رفقا .. فذاك دمي ، في سورة الكاس)

ثم هجر الشعر ردحا من الزمن ، فاستحّته الأصدقاء ، وفي مقدمتهم فضيلة
 الشيخ عبد الحسين الحلّي على مواصلة العطاء .. لدرجة الإلحاح . وبما قاله
 الشيخ الحلبي معاتبا العريض :

(بحياتي عد إلى الفن الذي
 هو روح ، وهو روح لحياتك
 أنت إن طلقته أم على
 كثرة الخطاب .. من غير لداتك
 كنت تمليه فترويه لنا
 صحف كانت زمانا من رواتك
 ولقد أوحشتها حين خلت
 لا خلت - أوراقها من ثمراتك

لا سقى الغيث نوادي أدب
أعوزت أربعها من بركاتك
لا عدمناك مليكا ينضوي
كسل باغي أدب . . تحت لوائك)

**

ولما رجع العريض من مهمته في إذاعة نيودلهي العربية ، عاد إلى هوايته
وفنه وأصدر أبحاثه ودواين شعره ، ومنها «العرائس» و«شموع» و«الشعر والفنون
الجميلة» ، و«من الشعر الحديث» ، وكتاب الأساليب الشعرية وغيرها . . .
وتولت نشر سلسلة مقالاته الأدبية مجلة (صوت البحرين) ، بالإضافة إلى
المجلات العربية كالأديب والآداب والعلوم من لبنان ، و«الرسالة» لحسن الزيات
من مصر وغيرها . .

الأبحاث والدراسات الأدبية:

أغنى الأستاذ العريض الأدب العربي بدراساته وأبحاثه ، التي كان يتوغل
فيها بعمق ليكشف سرا خافيا أو يخترع نظرية غابت عن من سبقوه . فهو
باحث يتوخى الإبداع والتجديد . وفيما يلي بعض الأمثلة :

١- الشعر عند العريض هو احتفال بكل أنواع الجمال في هذا الكون . . وجمال
المرأة يمثل ذلك الاحتفال بالحياة النابضة بالحب والجمال . والطبيعة وجمال
المخلوقات والأشياء هي مصدر الإلهام في الفن والفنون الجميلة . والعريض
يعدّ نفسه فنانا وليس شاعرا فقط . وهو القائل :

دنت بالفن صغيرا منذ شبّ الطفل فيه
دمية ترعى مجالها العيون التّرجسية

يقول في ذلك الأستاذ حسن الجشي (المرأة والعريض) :
(. . . وهو يكتب عنها أمّا وابنة وعاشقة وصديقة ومناضلة ومتهتكة

أيضا . . يحللّ مشاعرها في حنو وعمق وفي نشوة العاكف المتبتّل . . هذه القداسة تتحول بها المرأة عنده إلى رمز . . ومن هنا يمكن القول إن المرأة في شعره مهما أزهرت في عروقها الحياة ، ليست امرأة واقعية ، أي ليست امرأة بعينها بمقدار ما هي نموذج مرثي للوجود الإنساني كما يراه هو .

٢- يتمثل الذوق الأدبي الرفيع لدى العريض في مختاراته الشعرية (من الشعر الحديث) منذ بداية القرن العشرين وحتى منتصفه . وهي خلاصة قراءاته الشعرية لألوف القصائد والأشعار في الفترة المذكورة ، التي سهر على قراءتها طويلا واختار منها ما يرضي ذوقه وحاسته الفنية ، حتى قيل عن مختاراته بحق إنها «حماسة القرن العشرين» ، وذلك نسبة إلى ديوان الحماسة لأبي تمام .

وقد ذكر العريض في مقدمة الكتاب أن الأساس في اختيار تلك الأشعار ، الذي جرى عليه ، هو «الوحدة الفنيّة» ، وهي التي تتساقق فيها الصور الشعرية على غرار ينسجم مع عاطفتها الصادقة . . . ثم يقول : إن اعتماد هذه الوحدة الفنيّة قبضت يده عن أن يفسح للشاعر المشهور «أحمد شوقي» محلاً مرموقاً في تلك المختارات . . (كما أنّها كانت عندي في ضربي صفحا عن كثير غيره من الشعراء ، الذين مدار نظمهم على المناسبات) ، وأضيف إن العريض لا يعجب بشعر المناسبات ، ولم ينظم فيه إلا نادرا . وعلى سياق نظرية العريض في اختيار الأشعار ، صدر له كتاب (جولة في الشعر العربي المعاصر) .

٣- للعريض إلمام واسع بعلم الفلك ، الذي استخرج منه تقويما هجريا/ميلاديا لأكثر من مائة عام . . واخترع له آلة بسيطة لتصبح دليلا صالحا للتداول اليومي . كما أن له إلمام واسع بعلوم الهندسة والرياضيات . فمن الأول استنبط نظرية الأبعاد الثلاثة في الشعر . فهناك شعر عادي ذو بعد واحد ، وشعر أحسن منه ذو بعدين ، وشعر آخر ذو أبعاد ثلاثة يجسم المعنى والصورة ، وكأنك تراهما أو تلمسهما بيديك . وقد ضرب أمثالا من الشعر

لكل نوع من تلك الأنواع . أما الرياضيات فقد اكتشف منها نظريته في الفرق بين النثر والشعر ، كما سيأتي .

٤- ابتدع العريض نظرية تقول إن المقابل للشعر ليس هو النثر ، كما تعارف عليه الناس . . وإنما المقابل هو لغة الرياضيات . . وقد كتب بحثا مستفيضا عن ذلك قدمه في أحد المؤتمرات الأدبية في طهران . وكذلك في مؤتمر الأدباء والكتاب الأفريقي الآسيوي الذي انعقد في بيروت أوائل سنة ١٩٧٠ .

٥- دراساته حول منزلة الشعر بين الفنون ، استخرج منها نظرية مؤداها أن الشعر له المنزلة الأولى بين الفنون الجميلة . فمن الشعر ما هو موسيقى خالصة ، وفي الشعر أبيات راقصة تحس بحركاتها عند قراءته ، وفي الشعر غناء جميل إذا استمعت إليه ، وفي الشعر ما يشبه فن النحت ، وفيه ما يشبه الرسم والتصوير . . وكأنك تقول مع الباحثي حين تسمعه أو تقرأه :

(. . يغتلي فيهم ارتيابي حتى

تقراهما يداي بلمس)

أو حين يقول :

(أتاك الربيع يخلع ضاحكا

من الحسن . . حتى كاد أن يتكلما)

ويرى العريض أن ميزة الشعر على تلك الفنون أنه يكاد ينطق بها ويضفي عليها حياة وحيرة نابضة بالعواطف التي لا يتيسر الإحساس بها على هذا النحو في تلك الفنون منفردة . وقد أشبع العريض دراسته تلك بالأمثلة الشعرية لإثبات ما يرمي إليه . خذ مثلا هذه الأبيات للشاعر الباحثي في الانسجام والنغم المرقص . . . (وحاذر أن يتمايل بك) كما يقول العريض :

(بات نديما لي حتى الصَّبَّاح

أغيد مجدول مكان الوشاح

بتْ أفديهِ ولا أرعووي

لنهي ناه عنه أو لحي لاح

أمزج كأسى بجنى ريقه
 وإمّا أمزج راحا براح
 يسّاقط الورد علينا وقد
 تبلّج الصبح نسيم الرياح
 أغضيت عن بعض الذي يتّقي
 من حرج في حبّه أو جناح
 سحر العيون النجل مستهلك
 ليّ . . . وتوريد الخدود الملاح

٦- كتابه المعروف (الأساليب الشعرية-١٩٤٨) وهو بحث تحليلي ، ورأيه الذي أوضحه في مقدمة الكتاب . . . أن الأساليب الشعرية إنّما تختلف باختلاف طبائع الشعراء ، حسب موقف كلّ شاعر من الحياة ونظرته إليها . فهي ليست إذن تعود إلى قياس ما نسب إلى المتبّي في قوله : (أنا وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحتري) . . ففي رأي العريض ليس الموضوع هو الحكمة أو أساليب استعمال البلاغة والبيان - بل هو الخلاف في الشخصية وليس الأسلوب .

لذلك يستعرض العريض اختلاف الأساليب باختلاف الشخصيات ، واختلاف المواقف ، وملاءمة الأسلوب الشعري لكل ذلك . ثمّ هو يستعرض بإسهاب لشرح نظريته في أساليب الشعراء ، حسب شخصياتهم ومواقفهم : فهناك الشاعر كنبّي - أسلوب فلسفي * الشاعر كمؤرخ - أسلوب واقعي * الشاعر ككاهن - أسلوب مثالي . . ثمّ يمضي في شرح تلك المواقف مستشهدا بالشعر المعبر عن تلك الحالات . . .

٧- دراساته وأبحاثه عن الشاعر أبي الطيّب المتنبي في كتابه : (المتنبي بعد ألف عام) ، جاءت بأسلوب مبتكر ، حيث رافق فيها العريض الشاعر المتنبي منذ نعومة أظفاره ثم في صباه ثم في عنفوان شبابه ، ثم في كبره

وشيخوخته . وناقش فيها ما قيل عن نسبه ومسألة تعليمه في مكاتب الأشراف العلويين بالكوفة ، وعلاقته بسيف الدولة ، وطموح المتنبي لتوحيد الجزيرة العربية تحت الحكم العربي . كما تطرق إلى نظرية جديدة في نسبة المتنبي إلى أهل البيت النبوي ، لم يضعها ضمن الكتاب ولكنه نشرها في مجلة (العلوم) اللبنانية لمناقشتها .

٨ - ترجمته ودراساته حول رباعيات عمر الخيام ، التي بدأ بترجمتها منذ الثلاثينات وامتازت ترجمتها بالشمولية ، حيث استمد مادتها من لغة الأصل الفارسية ، ثم من لغة الترجمة الأولى «لفتز جيرالد» بالإنجليزية ، ثم من مجموع مقارنتها بالترجمات العربية ، حيث استنتج رأيه بأن الترجمات العربية لم تكن دقيقة لأن معظمها كانت تستند إلى الترجمة الإنجليزية . مما دفعه إلى المزيد من التروّي في إصدار ترجمة رباعيات الخيام لتصبح أقرب النصوص التي تعبر عن المعاني التي قصدها عمر الخيام . . ثم توغل العريض خلال تلك السنوات الطويلة في شعر الخيام وفي ظروف حياته وعصره . . وأصدرها متواءمة بعضها مع بعض في العام ١٩٩٧ . واستنتج من دراسته أن عمر الخيام كان رائدا للوجودية قبل وجودها الأدبي اليوم .

وقد عبرت عن ذلك في القصيدة التي رثيته بها قائلا :

... (وأبحرت في «الخيام» تسبر غوره

فما كان «مفتونا» ولا خمرة خمرا)

(تأمل أسرار الوجود بنزعة

«وجودية» من قبله لم تكن تدرى)

**

٩- ثم اختتم العريض مؤلفاته بمذكرات شاعر (١٩٢٨) - وديوان (كلباري) باللغة الأردية ، ودراسات في الأدب والنقد (١٩٩٦) ، وأخيرا ديوان شعر بعنوان (يا أنت) تناول فيه فلسفته في حقيقة المجتمع الإسلامي الحاضر . . وكان من آخر إنتاجه قصيدة باللغة الإنجليزية لم يطلع عليها الكثير . . عن

فلسفة الوجود والحياة . وأحتفظ للأستاذ ببعض القصائد خصني بها ولم أجدها منشورة .

تلك هي نبذة عن شعر العريض ونثره وفكره وزمانه وفلسفته في الفن والحياة . . . ويشدني الجانب الشخصي من سيرته إلى قول المزيد- ولو باختصار : لقد عرفت المنتديات العربية والدولية العريض شاعرا فذا وكاتبا قديرا ومشاركا بارزا فيها . .

كما عرفت البحرين العريض أستاذا رائدا ومدرسا رائعا لعدد غفير من رواد الأدب والثقافة وكبار الشخصيات في مجتمع البحرين . وكان يكفي في البحرين أن يقول أحدهم (الأستاذ) ليعرف الجميع أن المقصود هو إبراهيم العريض .

وفي نادي العروبة كان الأستاذ قطبا للثقافة . . ولم يقتصر نشاطه في النادي على الأمسيات الأدبية العامة ، التي كان فيها يصول ويجول ، بل تعداه إلى تنظيم حلقات للدراسات والمناقشات في مختلف فنون المعرفة أشبه ما تكون بالجامعة المفتوحة لتشجيع البحث الحر المستقل . . استفاد منها الكثيرون .

وفي مجال عمله مستشارا ومترجما لشركة امتيازات النفط ، أو مديرا للعلاقات العامة أثناء سني الحرب ، أو منتدبا للتدريس في الثانوية ، أو مساعدا في إذاعة (دلهي) العربية ، كان العريض مثابرا مخلصا في عمله ، حظي بإعجاب وتقدير من الجمهور ، ومن رؤساء المؤسسات التي عمل فيها ، واكتسب صداقات وتقدير أمراء دول الخليج العربي وشيوخه . ولم يمنعه كل ذلك من الاستمرار في مزاولة هواياته في الشعر والأدب والندوات الفكرية .

ثم عرفته البحرين ، حكومة وشعبا ، رئيسا مميذا للمجلس التأسيسي المنتخب أوائل السبعينيات ، ثم سفيرا فوق العادة مفوضا ومستشارا للشئون الثقافية في وزارة الخارجية لدولة البحرين .

أما أنا ، فقد كان العريض جزءاً من حياتي اليومية . . وكان أستاذا لي في الثانوية استفدت من أسلوبه في التدريس القائم على الفهم مقابل الحفظ

الأعمى .. ومشجعاً لي في ممارسة الأدب والشعر والخطابة والكتابة . كما فعل مع العديد من الأدباء والشعراء الناشئين ، وقد لازمته ولازمني بعد ذلك بشكل يومي تقريبا .. حيث كان يزورني كل صباح في مكتبي متأبطاً ببعض الكتب التي كان يشتريها أو يستعيرها باستمرار من المكتبات .. ثم ألزمه في المساء سيرا على الأقدام لضواحي المنامة ، مع عدد من أصدقائه ، تتبادل الحديث والرأي والأفكار المستجدة . كما كان يحضر إلى مكتبي أيام الجمعة صباحاً مع من يحضر من الأدباء والمثقفين وعلى الأخص الأساتذة : علي التاجر ، وحسن الجشي ، ورضي الموسوي ، والدكتور علي فخرو ، ويوسف الشيراوي ، ومحمد قاسم الشيراوي ، وعبد الرحمن الباكر ، وغيرهم بالإضافة إلى عدد من الموجودين من أدباء القطيف والإحساء مثل محمد سعيد المسلم وأحمد المصطفى وأحمد الراشد المبارك .. وسواهم .

ولما لزم العريض منزله في المنامة ، استمر التواصل بيننا ، حيث كان يهاتفني باستمرار عند نشر مقال أو كتابة قصيدة يستشيرني فيها ، حيث كنت ألق عليه باستمرار أن لا يكف عن الإنتاج ، وهكذا فعل عند نظم أخباريات أشعاره بعنوان (يا أنت) ..

كما كنت أزوره في منزله وكان يستدعيني أيضاً كلما جاءت مناسبة لتكريمه أو زيارته أو حانت فرصة للتواصل الأدبي والثقافي ، فأكتشف أن ذاكرته الأدبية وقدرته الفكرية لم تزل حية نابضة حتى وافاه الأجل المحتوم ... فحزنت عليه حزن المحبين ، وتلهفت عليه تلهف المشتاقين .

ولا شك في أن فقد العريض خلف فراغاً كبيراً في منتديات الأدب ، وأصبح المعول لإحياء ذكره تعميم ما خلفه من آثار وذكريات ، وتجديد ذكره في المناسبات لفائدة الجيل الجديد ... وتدریس آثاره الأدبية للنشء .

رحمة الله عليك يا إبراهيم العريض .. فأنت في قلوبنا وقد نأى بك المزار .

(*) للمزيد عن العريض يمكن مراجعة كتابي (أوراق ملونة) .

ذكريات الزمن الصامت : «مع الأستاذ حسن الجشي»

لست من جيل الأستاذ حسن الجشي ، ولم أكن يوما خدين طفولته ، أو رفيق صباه ، أو جليس مقعده في الدراسة . ولكنني عرفته - أول ما عرفته - في نادي العروبة ، أستاذا مثقفا في نظر الناس ، وخطيبا مبرزاً يومى إليه بالبنان ، وذلك منذ عام ١٩٤١ - وأنا تلميذ . . .

وبما لفت نظري ، وأنا ما زلت صبيا ، غير ناضج في الحكم على الأدباء ، أن شخصية حسن الجشي كان لها حضور طاغ في أروقة النادي ومنابره وقاعاته وساحاته ومجالس إدارته . ولو كان لي أن أسأله عن سر تلك الظاهرة المميزة ، لما توقعت منه غير أن يقول لي مبتسما - وهو يمر أصابعه على أطراف فمه ، على عادته عند الجواب - . . (أنا من أهوى . . ومن أهوى أنا) .

ودعونا ننسى ولو برهة من الوقت ، مقالة يردددها أكثر الناس عن الشخصية الدكتاتورية ، وعن الاستبداد بالرأي . . فظاهرة «امتلاك المحبوب» أو شخصية حسن الجشي في المقابل ، كان لها الفضل الأكبر في تأسيس نادي العروبة ونجاح مسيرته . . من حيث كونه مؤسسة تطوعية ، إن لم ترتكز على نواة صلبة من التفاني والإخلاص ، ذهب ريحها وانفض سامرها من لا قدرة لهم ولا صبر على التفاني والعطاء بلا حدود في عمل تطوعي محض ، كما فعل الجشي بمساندة رائد الفكرة الأستاذ محمد دويغر ، ورفاقه من المؤسسين .

وقد أدرك حسن الجشي كنه ذلك ، في وافر من سني العمر وزهو من شباب الروح ، حين كتب مقدمة كتاب (نادي العروبة وخمسون عاما) ، وكان اسم الكتاب من اقتراحه ، حيث قال فيها :

.. (أحقا كنت ذلك الفتى الذي ، وكما يصوره الأخ تقي ، يكاد من فرط حيويته ، ودفق شبابه أن يطاول السماء ويمتطي العواصف ، ويتحدى المستحيل في سبيل تحقيق أهدافه ، بل ويقارع المجتمع هو وفئة من أصحابه ، لا يلوون على شيء ولا يأخذون عواقب تمردهم في الحسبان !! أكاد لا أصدق ولكنه الواقع الموثق !) .. ثم يقول في موضع آخر :

.. (لقد كان النادي حلما حاصرنا ونحن ما نزال على مقاعد الدرس ، فلما تحقق ، كان رد الفعل هو أن نحاصر هذا الحلم المتجسد حتى لا يتلاشى من بين أيدينا .) وحين يتكلم عن نفسه يقول :

.. (أما بالنسبة إلي ، فقد كان النادي هو الغذاء والكساء ، وهو البيت والعمل . وكنت أبالغ في هذا التقمص أو يخيل الي الآن كذلك ، فأحسب النادي أنا وأنا النادي ، وأتخذ من القرارات ما كان يوصف أحيانا بالمزاج الفردي إن لم يكن بالدكتاتورية في أقسى الحالات ، تماما كما يبالغ الأب في الاهتمام بابنه الوحيد ، لينوب عنه في اتخاذ أخطر قرارات حياته ، من منطلق الحرص عليه وصونا لوجوده .. ثم يضيف : هذا الالتحام الصوفي بكيان النادي عند البعض انعكس في ديناميكية متوثبة خصبة تعطي فتجزل في العطاء أو تستقبل فتحسن الاستقبال .)

وكان الجشي أيضا - على ما يحمله من أعباء إدارية ، وإشهارية ، وتنظيمية - الخطيب الأول في النادي ، الملتزم في خطاباته بأهداف النادي ومشروعه الثقافي والفكري .. ولن يريد أن يعرف نموذجا للحفلات الأدبية ودور خطاباتها البارزين ، أسوق هذا الوصف لتلك الأمسيات من مذكراتي في أوائل الأربعينات :

.. (ويفتتح رئيس النادي المرحوم محمد دويغر هذه الحفلات - عادة - بإسداء النصائح بأسلوب إذاعي رصين ، والتشديد على أهمية الأخلاق في نهضة الأمم وواجبات الشباب المتعلم تجاه المجتمع ، فيقبلها الحاضرون بالرضا وبهز الرؤوس بين حين وآخر .. وسرعان ما يعقبه أمين السر الأستاذ حسن

الجشبي ، فيساهم أسلوبه المتقن وأفكاره المعارضة للجمود ، الداعية للتطور والانفتاح على مفهوم العروبة الأوسع - في رفع درجة الحماسة عند البعض ، وتوتر الأعصاب لدى الآخرين . فإذا صادف وأن تلاه في الخطاب الأستاذ علي التاجر ، خيل إلى الحاضرين عندئذ أنهم يواجهون بركانا يقذف بالحمم ، من جراء صراحة الألفاظ والنقد اللاذع ، ودفقات الحماسة كالموج العاصف يغشاه موج من فوقه موج أكبر منه اتساعا . . . وبقدر ما تتوالى الصدمات ، تتسع الأفواه المشدوهة حتى إذا أكمل حديثه لم يجد منظمو الحفل بدأ من تلطيف الجو باستراحة للمرطبات ، أو قصيدة «رومانسية» من شعر المرحوم الأستاذ السيد رضي الموسوي من مثل :

.. (وانثروا فوق صفحة الدهر أزهارا

يفح ريحها مع الإشراق)

والآن . . . هل أطوي صفحة من سيرة الجشبي مع نادي العروبة ، وأندية البحرين ، ومحافل الخطابة عموما ، لأفتح صفحة أخرى . . . وما استوفى الحديث حقه ، استجابة لدواعي الاختصار ، فليكن ذلك إذن . . . وها نحن نقبّ صفحة جديدة موضوعها الأستاذ حسن وخدمته في التدريس . . .

إني والحق يقال ، سمعت في إطرائه الكثير كمدير حازم ، ومرب أخلص الحب لطلابه . . . لكنني لست من ذوي الاطلاع في شئون التربية والتعليم ، وأرى أن من حق الأستاذ حسن على الجيل الذي تربى على يده ، أن ينصفه في القول ، وأن من بين زملائه في التدريس أيضا من هو قادر على ذلك ، وإنما الأمر في هذا الشأن منوط بالأيام والمناسبات ، إن شاء الله .

ولكنني مع ذلك ، أتذكر كيف خيم الوجوم على جمهور البحرين حين تمت مدهامة الأستاذ حسن في مكتب إدارة المدرسة ، والاستيلاء على ما بحوزته من أوراق (كان من بينها ما يخص نادي العروبة) ، ثم استجوابه ومغادرته البحرين بعد ذلك . . . كما أتذكر - مقابل ذلك - فرحة الجمهور عندما سمح له

بالعودة خلال السبعينات ، بتوجيه سديد من أمير البلاد ومبادرة كريمة منه ، حيث أصبح موضع تقدير وتكريم ، وما زال أهلا لذلك ..
ثم إنني أرى الآن صفحة جديدة من سيرة حسن الجشي ، تطل برأسها لتأخذ موضعها من هذا المقال ، وذلك فيما يتعلق بالدور الريادي للجشي في مجلة (صوت البحرين) ، خلال أعوامها الأربعة بين سنة ١٣٦٩ و١٣٧٣ هـ .
(١٩٤٩ - ١٩٥٤) .

وقبل ذلك وبعده - أرى لزاما علي التنويه بأسلوب الأستاذ حسن المميز في الكتابة الرصينة ، وطول باعه في الأدب والنقد ، وظاهرة إدمانه على القراءة والاطلاع ، تشهد بذلك كتاباته في البحرين وخارجها ، والمقدمات التي كتبها لمؤلفات الأستاذ الكبير إبراهيم العريض .

أما إذا تحدثنا عن مجلة (صوت البحرين) ذائعة الصيت ، فإن موقع حسن الجشي منها ، لم يختلف كثيرا عما كان عليه في نادي العروبة .. حيث نلاحظ هنا ما هو شبيه بما سبق أن ذكرته عن ظاهرة (امتلاك المحبوب) .. فلولا مثابرة حسن وصبره لما ازدهرت صوت البحرين ، وأتت أكلها في بث الوعي الوطني والقومي ، والتربوي في مجتمع البحرين .

وأذكر بهذه المناسبة ، أن الأستاذ حسن كان يزورني بين الحين والآخر وهو راجع من عمله ، حين كان يدير شركة (السندباد) ، وفي إحدى المرات صدر منه ما يشبه العتاب لكوني مررت على ذكر صوت البحرين في مذكراتي ، مر الكرام ولم أتطرق إلى دوره فيها ، حيث قال إنه كان يعيش صوت البحرين في كل لحظة من أوقاته .. فلم أجد بدا من أن أعتذر له عما وقر في نفسه بهذا الخصوص ... نعم ، لقد حمل حسن عبء صوت البحرين بامتياز وصمت ، وبعيدا عن أعباء الإدارة والتحرير ومشاكل الإصدار التي كان يحملها ، فقد كتب المقالات في صوت البحرين وعالج فيها مشاكل الشباب ، ومحاربة الطائفية ، وبث روح العمل والإخلاص .. أما في الإطار العام ، فقد كانت مقالاته تعالج قضايا الوطن العربي من البعد القومي حيناً ، ومن البعد العربي

الإسلامي أحيانا أخرى ، حيث كان في بعض ما كتب متأثرا بالروح التي كانت تبثها أوائل الأربعينات ، مجلة الأنصار المصرية . . إذ كان الأستاذ حسن من يدأبون على قراءتها ومناقشة أفكارها . . وكان شعار الأنصار أنها : «مجلة الفكرة العربية والثقافة الإسلامية» .

وهكذا كان بإمكان القارئ أن يقرأ في صوت البحرين مقالات الأستاذ حسن من مثل : نهضة الأم - فضلات الزمن - همسات في آذان الشباب - وفي جواب من كان يسأل إلى أين ؟ كتب الجشي مجيبا : «إلى الإسلام» (وللموضوع قصة يدركها من يقرأ المقال) . كما كتب أيضاً عن المجتمع الإسلامي المنشود ، ومواضيع أخرى عديدة بتواقيع متعددة . . وقد كتب الجشي مقالاته الأولى باسمه الصريح ، كما كتب تحت اسم «ابن ثابت» ، وأحيانا كان يستعمل الحرفين ح . ج ، وحينما باسم «التحرير» أو باسم «المحررون» أو غير ذلك ، مما يحمل روح قلمه حسبما تضرطه الظروف لكونه مدير مدرسة حكومية . . ولكون إدارة المعارف آنذاك والحكومة عموما ، لم تأل جهدا في محاولات تقييد حرية الكتابة بالنسبة للموظفين ، بل وغيرهم كذلك . .

ثم إن مجال الاستطرداد في حديث صوت البحرين واسع ومحجب ، ولكن قبل أن أختتم هذا الفصل ، أرى من حق الأستاذ حسن عليّ ، أن أسجل شهادة في حقه من أبرز مؤسسي صوت البحرين ، وهو الذي أخرج فكرتها إلى حيز التنفيذ ، ألا وهو السيد عبد الرحمن الباكر ، الذي كتب في مذكراته . . «من البحرين إلى المنفى» عن صوت البحرين باعتبارها من بنات أفكاره ، وأنه المؤسس لها . وهو مصيب على الأرجح فيما ذكره عن التأسيس ، أما فكرة إصدار مجلة عربية ثقافية فكانت فكرة تراود أعضاء نادي العروبة ، والأستاذ حسن بالذات ، تتألق ثم تخبو على مدى سنوات من عمر النادي ، قبل صوت البحرين . .

يقول السيد عبد الرحمن الباكر ، تحت عنوان «مجهود . . وفضل» ما نصه :
(ولأجل الحق والإنصاف ، فيأني أسجل هنا أن المجهود الجبار الذي بذل

طوال الأعوام الأربعة في إبراز «صوت البحرين» ، في ذلك الثوب القشيب المليء بالحيوية والإعجاب ، يرجع الفضل فيه إلى ذلك الشخص ، الذي كان يسهر الليالي الطوال ، ويكافح ويجالد وهو صامت بالرغم من مسؤولياته الجسيمة كمدير لمدرسة ابتدائية . . . ذلك هو الأستاذ حسن الجشي ، ثم إلى اليد المساعدة لحسن وهو الأستاذ إبراهيم حسن كمال ، ثم الأستاذ علي التاجر . . . أما مساهمتي فيها فلم تكن تتعدى الحملات المحلية . . . الخ . . .) .

ويطل علينا الأستاذ حسن بعد ذلك ، في صفحة أخرى مشرقة من سيرة حياته في ساحات العمل الوطني المشرف . . . قابلته في إحدى الأمسيات من عام ١٩٥٤ ، وأنا ذاهب إلى نادي العروبة ، وكان خارجا لتوه من النادي فسألته ونحن في منتصف الطريق ، إلى أين يحث خطاه مسرعا ، فقال : لحضور اجتماع هام مع علية القوم . وكنت سمعت عن هذا الاجتماع (في منزل بيت التاجر) وأجواء المرارة والهياج التي تحيط به إثر أحداث مؤسفة ، فقلت له : أنت أعرف مني بمصلحة الوطن ، ولكنني أتمنى أن يتحول هذا الاجتماع من هدف (الطائفة) المحدود إلى هدف الوطن الذي يخص الجميع . فقال وهو واثق ما معناه إنني أفهم ما تريد ، ولهذا حرصت على الحضور ، فانتظر النتيجة قبل أن تحكم . وفعلا جاءت النتيجة أن تبنى المجتمعون مطالب لم تكن في الحسبان ، وفي مقدمتها المطالبة بمجالس منتخبة ، وإصلاح القضاء ، وإنشاء تنظيم عمالي ، والتمسك بالوحدة الوطنية . .

ثم لم يتردد الأستاذ حسن بعد ذلك ، حينما تبلورت المطالب الشعبية في صورة اجماع شعبي عام ، على امتداد ساحة الوطن والمواطنين ، في العمل على إسنادها بعقيدة راسخة ، فكان لها صوتا جهيرا ورافدا مهما من روافد المشورة والرأي . كما لم يتردد بعد ذلك في قبول عضوية مجلس إدارة (اتحاد العمل البحراني) حالما تم تكوينه عام ١٩٥٥ ، ومارس عمله بحكم الواقع ، حيث انخرط مع زملائه في معالجة مشاكل العمل والعمال ، ومناقشة مسودة قانون العمل والعمال ، وقانون إنشاء نقابات العمل الحرة في البحرين .

وكانت لجنة مناقشة قانون العمل والعمال الرسمية ، ومستشارها البريطاني العمالي السيد (مارشال) ، تتيح لمثلي العمل والعمال فيها وفي مقدمتهم الأستاذ محمد قاسم الشيراوي ، مجال عرض المناقشات على مجلس (الاتحاد) لأخذ ملاحظاته حولها عن طريق أولئك المندوبين . . بل إن مستشار اللجنة السيد مارشال ، كان كلما تأزم الوضع ، واشتد الخلاف حول تلك المواد ، يدعو مجلس إدارة (اتحاد العمل البحراني) لعقد اجتماع مشترك بينه وبينهم لفض الخلاف ، حيث كان يحضر الاجتماع مدير شؤون العمال في شركة (بابكو) ، يرافقه في بعض الأحيان المدير العام للشركة .

ثم توجه الأستاذ حسن إلى البلد الشقيق (الكويت) ، بعد أن غادر البحرين أواخر الخمسينات ، ولقي ما هو معروف من حفاوة الأوساط الشعبية في الكويت وتقدير الشخصيات الوطنية فيها . وعمل في ربوع الكويت الشقيق سنوات لم تشغله فيها وظيفته عن الشأن العام والواجب القومي .

وإذا كان صمت التاريخ ما زال يغلف هذه الفترة من حياته قبل ذهابه إلى دمشق مضطرا ، فإن الأستاذ حسن لم يكن صامتا عن الواجب الوطني ، شأنه شأن أصحاب الضمائر الحرة والمواطنين الشرفاء ، حيثما ذهبوا . لولا أن توقف الأستاذ حسن عن مواصلة الكتابة ، يعد خسارة كبيرة للبحرين . . حتى ولو كان ذلك بسبب ظروف صحية قاهرة .

ولقد كرم شعب البحرين طموح هذا الرجل المخلص ، حينما زفه إلى المجلس الوطني المنتخب عام ١٩٧٣ ، بل كان التكريم مزدوجا حين أصبح رئيسا للمجلس وناطقا باسمه ، وموضعا للتقدير الشخصي من الحكومة ومن الشعب معا . وبهذه الخاتمة التاريخية الفذة ، يكون حسن قد عاصر مرحلتين تاريخيتين مهمتين عاشهما بكل طموحاته وآماله . . من مطالب بإنشاء مجلس تشريعي منتخب عام ١٩٥٤ . . إلى رئيس للمجلس الوطني المنتخب عام ١٩٧٣ . . .

إنها حتمية التاريخ ، على ما يبدو ، ولا عجب . . . فقد كتبت (صوت البحرين) عن هذه الحتمية منذ عام ١٩٥٤ في المقال الافتتاحي (لنعط الشعوب

فرصة) ، ما يصدق في التعبير عن آراء حسن ، ومنها هذه الفقرة ، في آخر
المقال :

(فيا أيها المسئولون .. لئن وصفنا المراحل التي مرت بها
الأحداث وبيننا طبيعتها الأصلية لا الزائفة ، فلأننا نرغب
في توعية كلا الجهتين المسئولتين : الشعب والحكومة . أما
الشعب فإننا على يقين من أنه سيحصل على حقوقه ، أما
الحكومة فما عليها إلا أن تلبّي حاجات عصرنا ، فإن أجيالا
ضخمة من العبودية تنتفض ...)

وبعد - فإن الشارع الذي يحمل اسم حسن الجشي ، أصبح يذكرنا بأن
حسن من رواد النهضة الفكرية في البحرين . أما هذا الاحتفال التكريمي برعاية
إدارة الثقافة والتراث الوطني ، والذي يحتضنه «نادي العروبة» الذي أحبه
حسن ، وهو أحبه ... فإن هذا الاحتفال بمثابة لسان ناطق ومعبر باسمنا جميعا
وباسم البحرين ، يخاطب حسن الجشي قائلا : يا حسن ، لا بأس عليك اليوم ،
فنحن معك وأنت معنا دائما ، وفي قلوبنا حيثما كنت ...

رثائي للمرحوم حسن جواد الجشي
في حفل الأربعين المقامة بنادي العروبة في ٨ مايو ٢٠٠٨

خفت الصوت الذي كان ينادي
وصداه داوياً في كل ناد
خمد البركان من فورته
سقط الفارس عن ظهر الجواد

**

حسنا .. يامنشئ الجيل ومن
هولاً جبال أستاذ وهادي
قد وهبت العمر في تعليمه
يا عدو الجهل ، يا سحر المداد
فصحا المنبر من غفوته
بنخطاباتك ، واكتظت نواد
ومقالات ضياء نشرت
«صوتها» البحرين في أقصى البلاد
شعلة كنت حماساً ، كلما
داهمتها الريح ، زادت في اتقاد
وفتى أنت .. ولا كل فتى
يعشق السَّير على شوك القتاد

**

كنت للبحرين صوتا هاديا
عربي الفكر، قومي الفؤاد
عشت للشعب نصيرا وعلى
نزعة التفريق... غيظا للأعداي
هكذا الرواد في أوطاننا
همم راسخة ذات عماد

**

زفك الشعب إلى مجلسه
بيد جاد بها شيخ البلاد
وحبك الشعب تكريما بما
خضته من غمرات... وجهاد
فجمعت الرأي من أطرافه
وأدرت الكأس، تروي كل صاد
أسفا.. مثلك أن يخذله
جسد ناء بهمات شداد
لذت بالمنزل مكلوما وما
حظيت عيناك إلا بالسهاد

**

هتف الناعي فأدمى كبدا
لمحبيك... فيا بئس المنادي
نحن في فقدك... لا تسعفنا
عبرة حرى... ولا ثوب حداد
أنت أنموذج حب في هوى
وطن حر... وعنوان جهاد

درّة أنت ، وقد عادت السي
ظلمة الأصداف ... في ليل رقّاد
فسلامنا من محبّ لم يزل
ساكب العبّرة مكلوم الفؤاد
إنّما العزّة أوطان نمت
ونفوس حرّة ... ذات رشّاد

**

في ذكرى الأستاذ علي محمد التاجر

- ١- علي التاجر.. كما عرفته
- ٢- علي التاجر.. بشهادة زميل
- ٣- علي التاجر.. كتابات ومراسلات
- ٤- علي التاجر.. مع نادي العروبة
- ٥- قصيدة رثاء

الأستاذ علي التاجر كما عرفته

- ١ -

في أواخر الثلاثينات ، وأنا ما زلت صغير السن ، كنت منجذبا إلى الأعلام الملونة واللافتات التي كانت تحمل في مواكب العزاء الحسينية في البحرين . وكانت لافتة مآثم مدن الخشبية الكبيرة والثقيلة على الحمل تجذبني إليها بشكل خاص ؛ لأنها تحمل على صفحتها بيتين جميلين من الشعر ، قيل إنهما بنحط يد الشاعر وتحتهما اسم كنت أجهل صاحبه . . وهو علي التاجر . والبيتان هما :

ريحانة المصطفى المختار إن سفكت

دماك فوق الثرى ظلما وعدوانا

ففي سبيل العلاما نلت من محن

فقد أقيمت لدين الله أركاننا

وفي مواكب العزاء هذا العام ؛ وجدت اللوحة بعد تجديدها من دون اسم علي التاجر ، وقد مضى عليها ما يقارب من ستة وستين عاما تقريبا ، فدنوت من أحد الأشخاص الذين يحملون اللوحة وسألته هل يعرف من هو قائل هذا الشعر ، فقال : لا أدري ، فأخبرته أن صاحب الشعر هو علي التاجر ، فقال : إنها قديمة جداً وأنا لا أعرفه ، الله يرحمه ويحسن إليه . فتداركت وقلت إن صاحبها مازال حياً فاستدرك بدوره وقال جزاه الله خير الجزاء .

وشاء القدر أن يعرفني على الأستاذ علي التاجر بعد خمس أو ست سنوات من تلكم الذكرى ، وإذا به يصبح جزءاً من حياتي وانشغالي وهمي . . بجانب الأستاذ إبراهيم العريض وحسن الجشي . . . ثلوث يتحرك بعزيمة واطمئنان في

فلك الثقافة والتعليم والشعر والأدب ، وشؤون الفكر من جيل الرواد المتنورين في البحرين ، ومن بينهم المصلح الاجتماعي محمد دويغر ، الذي لم يتسن لي مخالطته كثيراً .

كان حضور علي التاجر في نادي العروبة يكاد يكون يومياً ، باستثناء فترة غيابه في العمل خارج البحرين ، حيث كان يقوم بأعمال الترجمة والمرافقة لمستولي شركة امتيازات النفط ، والتي كانت تعرف بحروف : P.C.L حيث كان على اتصال ومعرفة شخصية بالشخصيات القطرية والعمانية والإماراتية . . . خلال الثلاثينات والأربعينات وأوائل الخمسينات من القرن الماضي .

ثم يحدثنا حينما يرجع من تلك الأسفار ، ليس عن السياسة أو الاقتصاد أو الحالة الاجتماعية ، ولكن عن حبه للشعب العماني ، الذي يحفظ حتى البداية وأفراد القبائل فيه . . أشعار المتنبي ويحتفظون بديوان شعره .

لقد زاول علي التاجر مهمة التدريس في مدرسة الأستاذ إبراهيم العريض رداً من الزمن ، ثم زاول المهمة نفسها بجانب العريض في الأقسام الدراسية والمحاضرات في نادي العروبة وكان مكباً على القراءة ملماً بتاريخ الماضي وثقافة الحاضر . . . لا يذكر أمامه كاتب مشهور ولا كتاب قديم أو حديث إلا وله فيه رأي . . . ولديه معه موقف ، وكان شأنه كذلك أيضاً فيما يصل إلى البحرين من جرائد ومجلات . . كالمقتطف والهلال والرسالة والثقافة ومجلة الأنصار القاهرية والمستمع العربي وغيرها ، وقد شارك في الكتابة في جريدة البحرين الوحيدة ، التي كان يصدرها الأستاذ عبدالله الزايد خلال سنوات الحرب .

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٤ ، عهد إليه بإدارة مكتب الاستعلامات ، الذي كان من مهامه تفتيش البريد الوارد من رسائل ومطبوعات . ثم يأتي إلى النادي ونسأله فيجيب . . . أضحكني كثيراً أحد الخبثاء حين فتحت رسالته فوجدت فيها هذا البيت :

(عندي رسائل شوق لست أذكرها

«لولا الرقيب» لقد بلغتها فاك)

وكان المسئولون يأخذون عليه تساهله في الرقابة على الصحف والمجلات ... ولا عجب في ذلك فهو من يحكم ضميره في واجبات عمله وكذلك كان من ضمن نشاط مكتب الاستعلامات تنظيم مسابقات ثقافية للطلاب . . . وقد اشتركت في إحداها وحصلت على جائزة . .

وامتاز علي التاجر بالصراحة وحدة الانفعال في مناقشاته ، حيث كان يعرض على شفته السفلى بصورة لا إرادية حتى يكاد يدميها في بعض الأحيان . أما كتاباته فكان فيها بطيئاً متردداً يختار الكلمة المناسبة بعد عناء طويل ، ويتحرى الدقة والتوثيق فيما يكتب .

سألته مراراً عن سبب الغضب والانفعال عند النقاش ؛ فأجاب ما معناه إن العقلية الجامدة كالماء الراكد لا بد من إلقاء حجر كبير فيه أو «قنبلة أعماق» لتحركه ؛ ولهذا فهو يفتعل الانفعال ولا يؤثر ذلك في أعصابه لأن نفسه مطمئنة ، هادئة ، رغم أنه طوال حياته كان يشكو من الاضطراب في معدته وجهازه الهضمي ، وكانت هذه الشكوى مألوفة منه ، وجوابها المألوف الذي كان ينزعج منه . . . (يا أخي تمالك أعصابك . . واذهب إلى الطبيب!) .

لم يكن النادي هو المكان الوحيد الذي كنت فيه ألتقي مع علي التاجر ، فقد كان يتردد على محلنا في السوق معظم أيام الأسبوع ، ولا سيما صباح الجمعة . وكذلك كان دأب الأستاذ إبراهيم العريض والأستاذ حسن الجشي ولفيف من المثقفين . وكان من عادتنا بعد إقفال المحل عند الغروب ، أن نتمشى معاً إلى خارج المنامة تجاه شارع الجفير ، ثم نعود للاستراحة في بعض المقاهي الشعبية قبل أن يتفرق كل منا إلى منزله .

وحين نبدأ في التمشي ننشغل بالأحاديث والأخبار الأدبية والمناقشات لدرجة أننا لا نشعر بما يدور حولنا في الشوارع التي نجتازها بلا حذر لقلعة عدد المركبات آنذاك .

ومنذ أوائل الأربعينات قبل حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وما بعدها . . كان الأستاذ علي منشغلاً بهموم وأطماع الصهيونية ، ليس في فلسطين وحدها

ولكن على مستوى العالم كله . . . كان يعتقد بأن النشاط اليهودي الصهيوني هو مصدر الشرور في العالم ، وأن المحافل الصهيونية تتآمر للاستيلاء على ثروات الشعوب ومراكز النفوذ وتدير العصابات المستترة تحت أسماء مزيفة ، وأن استقرارها في فلسطين سيؤدي إلى كوارث بالنسبة للعرب وللعالم .

ومن المعروف عن علي التاجر التزامه بمقاطعة البضائع الصهيونية طيلة حياته . كان يقص علينا مرارا وتكرارا كيف أن ولده أحمد وهو صغير ، أصابه المرض والهزال لنقص الفيتامينات والتغذية ، حيث نصحه الطبيب بالإكثار من الفواكه لاسيما البرتقال والتفاح . . . وحينما علم من البائع أن مصدرهما من مزارع اليهود في يافا وفلسطين ، امتنع عن الشراء قائلا . . (أنا لا أدفع لليهود قيمة رصاصة تقتل عربياً حتى ولو مات ولدي . . .)

ولكي يثبت لنا أن موقفه تجاه المدّ الصهيوني اليهودي ليس مجرد عاطفة ، فإنه كان يحمل تحت إبطه دائماً في كل مرة يخرج معنا كتاباً ضخماً باللغة الإنجليزية هو كتاب «كفاحي» لزعيم النازية «أدولف هتلر» ، على اعتبار أنه يقوم بدراسته في مجال أبحاثه عن «الصهيونية» - ويعدّ بترجمته للعربية ، حتى كادت نسخة الكتاب أن تبلى وتتمزق ، حيث كان يقرأ علينا مقاطع مما قاله (هتلر) عن اليهود تؤيد مواقفه وآراءه . . .

وفي أواخر الأربعينات انشغل علي التاجر بشؤون تحرير «صوت البحرين» ، وتراكم العبء عليه بعد انسحاب عدد من أفراد هيئة التحرير ، حتى بقي لوحده مع الأستاذ حسن الجشي ، والسيد إبراهيم حسن كمال . وواصل العمل في صوت البحرين ، حيث كان له الدور البارز في ترجمة كتاب الأستاذ (مجيد خدوري) من الإنجليزية وإصداره من قبل صوت البحرين ، وكان هذا الكتاب (البحرين وإيران) يفند دعاوى إيران في البحرين ، ويسند جهود صوت البحرين في الدفاع عن عروبة البحرين تجاه أطماع شاه إيران فيها .

ويبدو أن ممارسات علي التاجر في مراجعة تاريخ المنطقة وتصحيح الأغلط التي وصلت إلى مستوى المسلمات المقبولة ، جمدت نشاطه بالنسبة لموضوع

الصهيونية اليهودية ، حيث اتجه إلى التحقيق التاريخي في مزاعم تدين منطقة الخليج بممارسة (القرصنة) ، التي تدرعت بها دولة بريطانيا للتوغل في الخليج ، وإلزام حكامه بقبول الهيمنة البريطانية ، وتوقيع معاهدة «الساحل المتصالح» المذلة بعد أن كانت تسميه (ساحل القرصنة) .

وتتميز طريقة علي التاجر في معالجة قضايا التاريخ عادة بالإحاطة والشمولية والبحث عن الجذور الأصلية . وهو يهتم بالتوثيق عن طريق النص أو الشهادة المكتوبة ، بعد بذل الجهد في تنفيذها والتأكد من صحتها - وكان يتوقف عن البحث إذا صعب عليه التحقيق . . . وكل تلك الظواهر في طريقة كتابته ذات أثر سلبي في إنجاز مهمة البحث في وقت معقول .

وأذكر أنه في أوائل الخمسينيات قرأ علي فصولاً من هذا الكتاب ، وكان قد كتب ما يربو على خمسين صفحة منه ؛ ليأخذ رأيي فيه ، فقلت له ما معناه إن طريقته في البحث والاستطراد غير مألوفة ومتعبة ، وصعبة الإنجاز .

فقد أخذ موضوع القرصنة في الخليج إلى دراسة أول مظاهر نشوء القرصنة في العالم . ثم إلى ممارسة القرصنة من قبل اليونان والرومان في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وأخذ ذلك إلى تاريخ الفينيقيين ونشأتهم في الخليج وأن كلمة (فينيق) تشير إلى طائر ذي لون أرجواني ، وهو اللون المفضل للثياب عند البرتقاليين في لبنان وفي عمان على السواء . . . وأن مصدر اللون الأرجواني شجرة في عمان . . . إلخ .

فقلت له هذا بحث يطول بلا داع ، هلا اختصرت الطريق وكتبت عن القرصنة في الخليج في القرن كذا وكذا ، وحددت الموضوع والفترة الزمنية كما يفعل المؤرخون الآخرون ، فقال لا . . هذا هو أسلوبه وسوف أكمل الكتاب إنشاء الله ، فأجبتة كان الله في عونك .

وكما شغلت صوت البحرين علي التاجر عن تكملة دراسته حول الصهيونية ، فقد انشغل عن إعداد كتابه عن القرصنة ، بالنشاط السياسي الوطني مع الهيئة التنفيذية العليا ١٩٥٤-١٩٥٦ ثم مع هيئة الاتحاد الوطني ،

بعد الاعتراف بها . وكان علي من ضمن لجنة الثمانية الاستشارية للهيئة ، حيث كان يعمل بجهد ونشاط ، واستمر بقاءه في البحرين حتى أوائل الستينيات حيث تعرض للتوقيف بعد مدهامة منزله والاستيلاء على مكتبته العامرة ومصادرتها . وغادر البحرين حتى استقر نهائياً في دبي ، وحلق بعيداً عن السُّرب في عزلة عن أحداث البحرين وأصدقائه فيها وكأن لسان حاله يقول :

وإن رحيلاً واحداً حال بيننا
وفي الموت من بعد الرحيل .. رحيل

علي التاجر.. في الغربية :

التقيت بعلي التاجر حينما كنت سفيراً في مصر عام ١٩٧١ - ١٩٧٤ ... وقد مكث في القاهرة ما يناهز ستة أشهر ؛ فقد تم تعيينه مسئولاً في دائرة الوثائق والمخطوطات في أبو ظبي ، وسافر إلى بعض الدول العربية ثم إلى القاهرة في مهمة جمع الوثائق والمعلومات عن الخليج ، من إدارة المخطوطات والوثائق في جمهورية مصر العربية ، وكان آنذاك معنياً بالحملة المصرية على الحجاز والجزيرة العربية والخليج العربي بقيادة إبراهيم باشا . وزرته بعد ذلك في مكتبه بدار الوثائق والمخطوطات في أبو ظبي ، في مجال متابعة اهتمامي بتاريخ البرتغاليين في البحرين ، وكانت الزيارة مناسبة للاستفسار عن كتابه (الموسوعة) حول القرصنة ، وأطلعني على استكمال فصول جديدة من الكتاب الذي لم يكمل تأليفه بعد .

ولعلّ من حسنات اشتغاله في دار الوثائق والمخطوطات أنه وجد ضالته من المراجع التاريخية والوثائق ؛ فعكف عليها ليكتب هذه المرة مقالات يدفع بها الاتهامات عن البحار العربي العماني (ابن ماجد) ، وتبرئته من التهمة القائلة بأنه قاد الحملة البرتغالية بقيادة (البوكرك) إلى أبواب الهند والخليج . وكان من حصاد هذا الاهتمام ما يلي :

١- ألقى محاضرة عنوانها (مناقشات حول ابن ماجد) في مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية في أبو ظبي - نوفمبر ١٩٧٩ .

٢- ألف كتابا حول الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي ، في مطلع القرن السادس عشر ، ثم نشره من قبل الأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية (الكتاب السنوي الثانوي) ، وتم طبعة على نفقة الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني - أمير دولة قطر .

٣- كتب سلسلة مقالات مطولة حول الريان أحمد بن ماجد نشرتها مجلة «العرب» الشهرية - دار اليمامة - الرياض .

ثم استقال علي التاجر من عمله في دار المخطوطات والوثائق في أبو ظبي ، ربما بسبب خلاف في الرأي مع الإدارة العليا ، بما هو معروف عنه من تمسكه برأيه وبموقفه المبدئي .

وهكذا عاد إلى منزله في دبي في الثمانينات واستقر عاكفاً على ما بين يديه من مشاريع أبحاث ودراسات ، تتخلل أوقاته اليومية سويقات ينزل فيها إلى السوق في مكتب صديق ودود هو عبدالنبي الحاج محمد آل رحمة ، حيث يمارس أحب هواياته في النقاش والاحتجاج ، رغم شعوره بافتقاد المثقفين الأنداد الذين كان يحاورهم في البحرين .

وكنت في تردي غير المنتظم على دبي ، أحرص دائماً على زيارته والجلوس معه والسؤال عن أخباره وآخر مستجداته في البحث . وفي إحدى المرات سألته عن كتابه حول (القرصنة) فأجاب : علمه عند الله ، وأنه يتقدم فيه ببطء بسبب عدم توفر المراجع التوثيقية اللازمة . . . ثم رجاني أن أساعده في التحقيق في أمر غريب لا علاقة له بأبحاثه . . لكنه أصر على أهميته ، ألا وهو الحصول على شاهد كبير السن يعترف بأنه رأى بأم عينيه جبلاً صغيراً جنوبي المستشفى الأمريكي في منطقة يسميها ساكنوها في المنامة بفريق «السنكي» (وهي كلمة فارسية تعني الحجارة أو الجبل) .

وعلى مدى ثلاث أو أربع سنوات كنت أفتش له عن شخص يشهد بوجود

ذلك الجبل الصغير ، حيث كان على يتصل بي تلفونيا ليذكرني بالموضوع . وقد قدمت له عدداً من الشهود المعمرين ، وكان يرفضهم الواحد تلو الآخر . . . حتى تطوع الأستاذ إبراهيم العريض بشهادته بهذا الخصوص . . . فرفض علي شهادة العريض ، مدعياً أن موضوع جبلة (السنكي) هو قبل مجيء العريض للبحرين ، ((فكيف أستطيع قبول شهادته)) . . . وهكذا أوقفت تحرياتني بين (زعل) العريض لعدم قبول شهادته ، وبين إحباط علي التاجر من عدم إنجاز مهمتي . . . وبين الغموض الذي يحيط بهذه الشهادة ومدى أهميتها .

وسألته في زيارة أخرى عن موعد انتهائه من تحقيق كتاب والده المرحوم محمد علي التاجر عن تاريخ البحرين ؛ وهو كتاب كثرت الإشارة إليه في الصحف والمراجع ، والإشادة بقيمته باعتبار أنه يسد فراغاً كبيراً في المسكوت عنه من تاريخ البحرين وكان جواب علي أن كتاب والده ، على شهرته ، يعتربه النقص في التوثيق ، وأن والده ترك فراغات كثيرة حول معلومات وتواريخ كان يريد التوثق منها ولم يفعل ذلك . والمصادر التي اعتمد عليها والده غير متوفرة لديه . . . لهذا فهو يرفض أن يصدر الكتاب على صورته الحالية دون إكمال التحقيق . . . ولكن كتاب والده اختطف ونشر على علاته ، وربما اعتبر علي ذلك نوعاً من «القرصنة» الأدبية ، وإن كانت في نظري قرصنة مفيدة للباحثين على علاتها ، ولا نعرف اليوم عن مصير النسخة الأصلية من كتاب الشيخ محمد علي التاجر ، وفيما إذا كان علي التاجر قد أضفى عليها شيئاً من جهده . وأخيراً . . . تلك هي سيرة الأستاذ علي التاجر كما عرفته ، اقتبستها من الذاكرة والأوراق ، قبل أن تضمحلّ الذكريات وتجف الأوراق ، وأنا أدعو هنا غيري من معاصريه ومعارفه للمساهمة بالمزيد للكشف عن هذه الشخصية الفذة من بين رواد الثقافة والفكر في البحرين ؛ ليكون موضع التكرم اللائق به رسمياً وشعبياً . وفي نهاية المطاف بودي أن أبعث رسالة إلى الرجل الصالح ، الذي كان يحمل لوحة مآتم مدن وترحم علي (علي التاجر) قبل موته . . . أجل يا أخي رحم الله عليا فقد مات ، وعفا عنه وأحسن إليه وجزاه عنا وعن البحرين خير الجزاء .

علي التاجر... بشهادة زميل

- ٢ -

من بين المعاصرين للأستاذ علي التاجر؛ شخصية أدبية عصامية ألا وهو السيد عبد العزيز الشيخ علي، الذي بدأ تعليمه الابتدائي ثم انصرف إلى شحذ شخصيته الأدبية بمخالطة الأدباء والمتعلمين؛ أمثال الأستاذ رضى الموسوي وحسن الجشي وأحمد العمران وعبدالله الزائد وإبراهيم الخلفان ومحمد دويغر والأستاذ العريض وغيرهم. وكانت رحاب نادي العروبة هي التي أتاحت له هذه المخالطة لتنمية قدراته الأدبية والتعليمية.

وكان له التصاق ومواقف مع الأستاذ علي التاجر، لاسيما في تعلم الكتابة وإنشاء المقالات... ولعله واحد من أشار إليه علي التاجر في كلمته بنادي العروبة المنشورة في مواضعها من مقال «علي التاجر ونادي العروبة». وخلال أواخر الثمانينات قام عبدالعزيز الشيخ علي بكتابة سلسلة مقالات في مجلة «بانوراما الخليج»، تتضمن ذكريات طفولته في البحرين. وأورد فيها بعضاً من تلكم الذكريات، فيما يخص علاقته بالأستاذ علي التاجر، الذي قال عنه إنه «الأستاذ الذي قتل في نفسه موهبة الشعر وجذوته وذلك بسبب إصراره على كونه «غير شاعر»... وأعني به طيب الذكر زميلنا الأستاذ علي التاجر - والذي يعيش بالإمارات حالياً...»

وفي موضوع آخر من مذكرات عبدالعزيز، يذكر أن أستاذه الذي يعتز به في مدرسة الخميس الابتدائية، السيد رضى الموسوي، فاجأه بالاستقالة من المدرسة بسبب رفض إدارة المعارف مساواة راتبه في مدرسة الخميس بما يتقاضاه

مُدِّرسو مدارس المنامة والمحرق . وأنه سيفتتح مدرسة «صيفية» بالتعاون مع الأستاذ علي التاجر . حيث يقول في ذلك ما نصه :-

«كما أخبرني عن عزمه على افتتاح «مدرسة صيفية» بالتعاون مع أستاذ آخر يدعى علي التاجر ، وذلك في بناية يملكها المرحوم الحاج منصور العريض ، والملاصقة (للباقجة) ، وقررت أن أكون أول طالب بتلك المدرسة .

كانت الدراسة في مدرستنا الجديدة دراسة منتظمة في حدود إمكانياتها ، وكان أستاذنا الجديد ، علي التاجر شاباً نشيطاً متوقد الذكاء ، لا تفارق الابتسامة شفتيه . كان يحنو علينا بشكل غريب ، وكان ينظر من خلالنا إلى يوم تتغير فيه ملامح البحرين بشكل كلي . يوم كان يتطلع له ويأمله هو وعدد من رفاقه ، طلائع النهضة في هذا البلد .

وذات يوم جاءنا شاب نحيل تبدو عليه علامات التردد والخجل وقال لنا بدون مقدمات (هذا ابن عمي وسيحل محلي محلي ابتداء من نهار الغد ، أما أنا فسأغادر إلى الظهران ، فلقد التحقت بشركة أرامكو هناك) . ولم أتردد ساعتها أن أهمس في أذنه برفضنا جميعاً ، بل وكرهنا جميعاً لذلك (ابن العم) ، والذي بدا وكأن الابتسامة لم تعرف طريقها قط إلى شفتيه . . ولكنني سرعان ما غيرت رأبي عندما اكتشفت أن ذلك (ابن العم) . . هو عبدالرسول التاجر» .

ثم يورد عبدالعزيز الشيخ علي في مقالات تالية كيف أن أخاه الأكبر طالبه بإرجاع مدخراته لديه ، وهي سبعمائة روبية لأنه يريد أن يتزوج بها ، وكان عبدالعزيز قد أنفق مدخرات أخيه بلا حساب للعاقبة . . . فلجأ إلى علي التاجر متوسلاً بتخليصه من هذه الورطة . وفيما يلي نص ما كتبه عبدالعزيز الشيخ علي حول هذه القضية :

(. . . ومن أين لي أن آتي بمثل هذا المبلغ أو حتى بربعه أو ثمنه ، وفكرت في الذهاب إلى إحدى المقابر وأدفن نفسي في أحد القبور «الدارزة» ، ولكنني لم أجرؤ على الولوج في إحداها في مثل ذلك الوقت من الليل . . وأخيراً وجدت نفسي أمام نادي العروبة ، والذي كنت أعمل به يومذاك «مديراً ونائباً

لكاتم السر» ، وخطرت لي فكرة «قد تكون صائبة» ، ووجدتني أسأل فراش النادي عن (الأستاذ علي التاجر) ، ثم أتناول وريقة وأكتب عليها «أخي علي» أنا في حاجة ماسة لسبعمائة روبية ، فرجائي إن كنت تملك مثل هذا المبلغ ألا تتأخر عن إقراضي إياه ، ولك شكري وامتناني . . . عزيز) ، ثم أرسلها بيد الفراش ليأخذها له . . في حجرة الألعاب . . بالدور الأول . وما هي إلا لحظات قليلة حتى وجدته أمامي وهو يبدي «جليل أسفه» لعدم «توفر المبلغ» لديه في تلك اللحظة ، ويعد بإعطائي في صباح الغد إذا أمكن التأجيل .

وفي صباح اليوم التالي ، حضر إلى إدارتنا بالقرب من البنك الشرقي - فراش شركة ال «P.C.L» التي يعمل بها الأستاذ علي التاجر ، ومعه مظروف به «شيك موقع على بياض» ، وملاحظة تقول «لدي بالبنك أربعة آلاف وثمانمائة روبية يمكنك سحبها والتصرف بها . . (علي)» ، وشعرت لحظتها برعشة باردة اهتز لها كياني ، فكل شيء تصورت إمكانية حدوثه في حياتي إلا أن أبلغ من «الاعتدال» مرحلة تسمح لي بولوج أحد «البنوك» ويبدي «شيك» به مثل ذلك المبلغ «الخرافي» ، لأسخبه لحسابي ولأصرف به كيفما أشاء . وذهبت لمقابلة الأستاذ التاجر ، وأنا بين مصدق ومكذب ، ورجوته أن يكتب لي شيكاً بالمبلغ الذي طلبته ، ولكنه أصر على أن أقوم بسحب «ثروته وثروة أبنائه» ، وكانت حجته في ذلك ، «هي عدم حاجته هو شخصياً ، وأن مرتبه في الوقت ذاته يلبي حاجاته وحاجات أسرته و«يزيد» ، وأن الشيء الذي لا يحتاجه الإنسان يجب إعطائه لمن يحتاجه من الناس ، ليستفيد منه» . . وعبثاً حاولت إقناعه بأن «فلسفته» تلك قد يصلح تطبيقها على بعض الأشياء وفي قليل من الظروف ، ولكنها وبألف تأكيد لا تندرج على المال . . «على الفلوس» ، ولكنه أجابني وبكثير من الإصرار والعناد ، وبطريقته الخاصة التي اشتهر بها «طز في الفلوس . . إنها ليست كل شيء في الحياة» ، وأصر على رأيه ، وأصررت أنا على رأبي ، وقلت له إنني «أحتاج إلى نصف عمري لأتمكن من إيفاء السبعمائة روبية ، وقد أحتاج إلى عمر نبينا نوح عليه السلام لأتمكن من تسديد ضعف

ذلك المبلغ» ، ولكنه أرسل ضحكته المجلجلة والتي عرف بها يومذاك ، وقال وهو يكاد يخنق ضحكا «ومن قال لك إنني سأطالبك بتسديدها» ، أو أن أحدا من أبنائي سيفعل مثل ذلك .. إن شاء الله مارديتها .. !

وخرجت من مكتب الأستاذ علي التاجر ويدي شيك بسبعمائة روية ، وصك آخر بذلك «الدرس المدمر» .. والذي لخصته وعشت معه فترة مديدة من عمري ، «الفلوس ليست كل شيء» ، والذي لولاه لكنت اليوم واحدا من أغنى أغنياء الخليج ، فالفرص النادرة التي صادفتني في حياتي ، وخاصة في المملكة العربية السعودية ، لم تصادف سوى قلة قليلة سواي ، ولقد أدركت وبعد فوات الأوان أن «الفلوس» لا تدرج بالتأكيد تحت غطاء تلك «الفلسفة» الخيالية وغير الواقعية ، ويكفي أنها تحقق للإنسان أكثر من تسعين في المئة من رغباته وأمانيه ، بينما لا يحقق .. عدم وجودها .. في حوزة الإنسان سوى شيء واحد فقط ، هو أن يعيش جائعا ، مريضا ، منسيا من قبل أقرب الناس إليه ، ويموت كالكلب دون أن يشفق عليه أحد ، ويطلب له الرحمة والمغفرة .

... ثم إننا نكتفي من مذكرات عبدالعزيز الشيخ علي بما ورد أعلاه من شهادة في حق المرحوم علي التاجر ، صاحب الأريحية والشخصية الفذه التي لا تخضع لسلطان المال .

علي التاجر... مراسلات أدبية ومقالات ومحاضرات

- ٣ -

تدل مراسلات التاجر ومقالاته الأدبية المبكرة ، منذ عام ١٩٣٧ ، على نضوج فكري وثقافة أدبية ، وأسلوب مميز .
وقد تناول د . منصور محمد سرحان في كتابه بعنوان (النقد الأدبي في البحرين . . .) جوانب من مراسلات التاجر فيما بينه وبين الأستاذ العريض ، ونبذة عن مقالاته في «جريدة البحرين» ؛ لصاحبها الأستاذ عبدالله الزايد (١٩٤١-١٩٤٢) ، نستعرض منها ما يقتضيه الإيجاز فيما يلي :

مراسلات إبراهيم العريض وعلي التاجر في الفترة من ١٩٣٨م إلى ١٩٣٩م
تعد المراسلات التي تمت بين الأديبين إبراهيم العريض وعلي التاجر ، في ثلاثينيات القرن المنصوم ، وبالتحديد في الفترة من عام ١٩٣٨م إلى عام ١٩٣٩م أثناء وجود علي التاجر ، متنقلا بين أبوظبي ودبي ، البدايات المبكرة للنقد الأدبي في البحرين . وتتمحور تلك المراسلات حول ثلاث قصائد من نظم الشاعر إبراهيم العريض ، وهي : (التمثال الحي) ، و(قلب راقصة) ، و(الشاعر المجهول) . وتم تخصيص الجزء الأكبر من تلك المراسلات حول قصيدة (الشاعر المجهول) ، حيث بدأت حرارة النقد الأدبي في الارتفاع .

ويلحظ القارئ التدرج في عملية توجيه النقد في تلك المراسلات . فقد بدأ سهلا بسيطا ، ثم أخذ يزداد قوة ووضوحا في المراسلات الأخيرة ، وتحول إلى بحوث ودراسات . كما يستطيع القارئ أن يلحظ مدى الصراحة التامة في نقد

الأعمال الأدبية والالتزام بالنقد البناء . وعلى الرغم من تلك الصراحة في النقد ، فقد تميزا بروح رياضية ، مما ساهم في إثراء تلك المراسلات والحوارات النقدية التي سنعرض لها بالتفصيل .

قصيدة التمثال الحي :

يبدأ علي التاجر حواراه الأدبي بقصيدة (التمثال الحي) ، في أول رسالة رفعها إلى الأستاذ إبراهيم العريض ، بتاريخ ١١ ذي الحجة ١٣٥٦ هـ الموافق ١١ فبراير ١٩٣٨ م من أبوظبي فيقول : (أما القصيدة فكل ما أقوله عنها الآن هو (إنها تمثال حي) . وسيأتىكم رأيي مفصلاً بعد حين . فالوقت ضيق في هذه الأونة . وقد قرأتها حتى الآن رغم احتدام العمل أكثر من عشرين مرة حتى كدت أحفظها عن ظهر قلب) .

وفي رسالته الثانية بتاريخ ٢٢ ذي الحجة ١٣٥٦ هـ الموافق ٢٢ فبراير ١٩٣٨ م من دبي يطرح رأيه في القصيدة : (وعدتكم في كتاب سابق أن أذكر لكم رأيي في (التمثال الحي) مفصلاً . وماذا أقول غير أنها قطعة من الفن صورت فوق صحيفة من الورق . لقد قرأتها مرارا وتكرارا لأرى منفذا أستطيع أن أدلي فيه برأي غير الاستحسان والتحبيد فلم أجد . وعليه فإنني أرى أن اليوم الذي كنا ننتظره من بعيد قد آن أجله . اليوم الذي عيناه لتبدأ بكتابة الملحمة يا أستاذ ، فأدبنا في حاجة ماسة إليها) .

ورغم استحسانه القصيدة نراه يطرح سؤالاً من نوع آخر : ((يخيل لي إنني قرأت موضوع القصيدة قبل هذا ، ولست أدري أوأهم أنا . .))

يجيب العريض عن سؤال التاجر في رسالته المحررة في ٥ محرم ١٣٥٧ هـ ، الموافق ٦ مارس ١٩٣٨ م ، مبدئياً ارتياحه بما علق عليه التاجر إزاء القصيدة ، وطالبا في الوقت نفسه المزيد من التحليل والنقد ما أمكنه ذلك : (إن رأيك في (التمثال الحي) قد غمرني في فيض شعور لا أستطيع أن أصفه لك ، ولعل الأمر لا يعدو الجمالة . فإن كان كذلك فقد ظلمت أخاك أشد الظلم ، بعد أن

كان يرجو منك كلمة تحليلية عن موقع القصيدة من نفسك .
أما أن حوادث القصيدة من بنات أفكارى فما في ذلك شك . إلا أن هناك
رواية غرامية لـ (هاينز اندرسن) ، مدارها على فنان عشق بنت أمير فنحت لها
تمثالا كان آية في الفن ، وهو يرجو بذلك أن تبادلها عاطفة الحب . ولكن الأميرة ،
لما علمت بغرامه ، أعرضت عنه كل الإعراض ، على حسب من هن في
طبقتها . فما كان من صاحبها بعد أن بلغ منه اليأس مبلغا ، إلا أن أخذ التمثال
وألقاه في الحب . وذهب لا يلوي على شيء . . . ثم نقب عن التمثال بعد
أحقاب طويلة فنال ما يستحق من التقدير الفني .

هذه هي القصة التي كانت تلعب في ذهني عندما كنت أنظم القصيدة ،
ولا أخفي عليك أن الدافع الذي دفعني لنظمها هو أن أنحت تمثالا في الشعر
كما فعل اليونان في الممر . ثم دفعني شيطاني أن أحيلها في هذه القصة
الشعرية وليس ثمة شبه إلا في الحكم بالخلود إلى الأثار الفنية ، ولا أدري
فلعلك قرأت رواية في هذا الموضوع لم أطلع عليها وذلك جائز .

ويكتب التاجر رسالته المؤرخة في ١٩ محرم ١٣٥٧هـ الموافق ٢٠ مارس
١٩٣٨م من دبي ، والتي هي عبارة عن قطعة أدبية رائعة خطها قلم رصين ،
شكى فيها لوعة الغربية ، وتأثره وانبهاره بقصيدة (التمثال الحي) . فبالنسبة
للسق الأول من الرسالة نقتبس التالي : (تلقيت كتابكم الأخير وقد جاء في
أوانه ؛ كالأرض يباكرها هائل الغيث . لقد كنت في حيرة معتمة من سكوت
الصبح ، وكنت أظن أن لي في أوقاتهم نصيبا يحدثونني فيه كما أحدثهم ،
ويبثون لي أفراحهم كما أبثهم أحزاني ! ولكن . . . ولكن ، والأسى يحز فؤادي
أرى الأيام تكاد تكذب ظني فيمن كنت أظنه أخلص الصبح وأوفى الخلان ،
ولولا شأبيب من بعض الإخوان تراوحني في الفنية بعد الفنية ، مع إلحاحي في
استهطال ديمها ، لجفت في فؤادي أضغاث زهوره وقد كادت أن تصحو . ولكن
رحمة ربي أبت أن أكون منبوذا من الجميع على السواء) .

بعد أن اشتكى لوعة الغربية ونسيان البعض ، تطرق إلى قصيدة (التمثال

الحي) ، التي كان يتربح نشرها في مجلة الرسالة . وكنا قد عرضنا في رسالتيه الأولى والثانية مدى استحسانه لهذه القصيدة ، ونراه يعاود الشعور نفسه : (التمثال الحي) ، وكم أسفت أن لم أرها فيه . وعسى أن تزين جيد عدد آخر عن قريب ! أنا لا زلت مأخوذاً بروعتها . ولعل ذلك هو السبب في تخيلي أنني قرأت ملخص القصة قبل هذا ، ولعلكم لاحظتم أن الإنسان تقع أمام عينيه حوادث هي بنت ساعتها ، فيحس عندها أنه كان لها في وعيه الباطن منزلة تحدو به إلى تخيل حدوثها من قبل ، وأمل أن هذا نوع من الكهرباء اللاسلكية بين الأفكار . . . بين فكر الموجد وفكر المستلم - ولا أكتممكم أنني لا زلت على عزمي الأول في كتابة كلمة تحليلية عنها . ولكنني لا زلت تحت تأثيرها ، وفي هذه الحالة أخشى أن لا أحقق ما تستحق من تقدير في البحث) .

ثم يواصل الأستاذ منصور سرحان استعراض المراسلات بين العريض والتاجر ، حول نقد عدد من قصائد العريض ، منها (قلب راقصة) و(التمثال الحي) و(الشاعر المجهول) ، حيث يرد عليها الأستاذ العريض موافقاً حيناً ، ومتذرعاً بالأسباب حيناً آخر ، حتى يؤدي به المطاف إلى كتابة ثلاثة أبحاث قيمة عن موضوع القصائد ، من واقع نظرته للشعر والقصة والفن الأدبي ، يرسلها إلى علي التاجر : ثم يعلق المؤلف منصور عليها قائلاً :

بعد قراءة التاجر بحث وتعليق العريض على ما جاء في مقالته أو كلمته ، نراه يرفع ثلاث رسائل قصيرة إلى العريض ، يبين فيها الأسباب التي دعت به إلى كتابة كلمته حول القصيدة ، موضحاً أنه وضع نصب عينيه أثناء كتابتها الفكرة الفلسفية للقصة بين الروح والمادة . كما أكد على أن الموازين والمعايير اللتين استخدمهما العريض في كتابة بحوثه هي نفسها التي عمل بها . وبعد هذه الرسائل الثلاث أسدل الستار على ذلك الحوار النقدي المبكر ، الذي يعد مفخرة لنا ، وعطاء جديداً في سماء الأدب البحريني .

وإليكم نص الرسائل الثلاث .

(نص الرسالة التي كتبها التاجر في ٦ يونيو ١٩٣٩م)

حول الشاعر المجهول

أستاذ (ي) الجليل إبراهيم العريض

حنيني وأشواقني

استلمت هذه الساعة كتابكم ، وأظنها أحسن ساعة أستطيع فيها الكتابة إليكم ، فأنا في شبه فترة من العمل أرى أن لا أجازف بإضاعتها . على أنني سأوجز فإنها رغم سnochها جد قصيرة .

تساءلون إذا كانت القصيدة تتطلب كل هذا التشذيب والتهذيب . حقا لست أدري بالضبط إذا كانت تتطلب (حقا) كل هذا ، على أنني في كلمتي (كما يخيل لي) لم أغفل عن معاملة أبطالها معاملة الأحياء ، بما يمتلأون به من شعور مكبوت أو ظاهر . بيد أنني وضعت نصب عيني أثناء كتابتها الفكرة الفلسفية للقصة (بين الروح والمادة) وهي التي أدت بي إلى ما رأيت . وعلى كل فأنا لا أتعصب لرأي من آرائي تلك لانقطاعي مدة من الزمن عن مجارة الحركة الأدبية . غير أنني للآن لا أرى ما يدعوني إلى الرجوع عنها . وعسى أن أرى في ملاحظاتكم وتعليقاتكم حولها ما يهديني إلى سواء السبيل .

وقبل أن أختتم كلمتي هذه ، أريد أن أشير إلى نقطة هامة ، فقد أشرت في موضعين من كتابكم إلى الدافع الذي يدفعكم للكتابة أو للإحسان في الكتابة . وما كان بودي أن أتصور أن هذه من تعلات النفس ، إذا ما أرادت الانصراف عن شيء ما اختلقت له العلل . غير أن ما أعهد فيكم من قبل قادني إلى هذا التصور . فما عهدتكم وضعتم نصب أعينكم عملا وحال بينكم وبينه حائل . وكانت هذه جبلة أخيك .

أما (البحرين) فقد استلمت عدة من أعدادها على دفعتين . ولو أن هذا ما أتطلبه لكان بوسعي أن أشارك فيها رأسا فتصليني عن طريق الباخرة ، بيد أنني أحببت أن أحصل عليها مباشرة غب صدورها فكلفتكم . فحبذا لو واليتم

إرسالها منتظمة كالرسالة .

أبو ظبي في ٦ يونيو ١٩٣٩
تلميذكم المخلص
علي

(نص الرسالة التي كتبها التاجر في ٣ جمادى الأولى ١٣٥٨ هـ الموافق ٢١
يونيو ١٩٣٩ م)

أستاذي الجليل إبراهيم العريض
قبلا تي . لعلك أرسلت كلمتك الثالثة . فقد استلمت الأولى وكنت أشد
الرحال ، واستلمت الثانية وكنت أشد الرحال أيضا . ولست أدري متى سأستلم
الثالثة إن كنت أرسلتها .

بودي ألا أعرض (للشاعر المجهول) حتى تستوفي بحثك حول كلمتي .
ولعلي استلم شطره الأخير في البحرين . لا أدري فتلك أمنية . بيد أنني أود أن
أذكر أن الموازين التي اتخذتموها لكتابة بحثكم هي نفس الموازين التي وضعتها
نصب عيني أثناء كتابة كلمتي . ولعلني لا أغالي إن قلت إننا نكاد نتفق في
الذوق الخاص .

وإن كان ثم فارق بيننا هذه (المرّة) فما ذاك إلا لأن الباعث الذي نظمت
تحت تأثيره القصيدة لم يسيطر علي بينما سرى مفعوله إلى بقية الرفاق . (هذا
ما يخيل لي ولعلي واهم) .

مسقط في ١٣٥٨/٢/٣
علي

(نص الرسالة التي كتبها التاجر في ٢٨ يونيو ١٩٣٩ م)

أستاذي الجليل إبراهيم العريض
قبلا تي . لقد عدت توا من رحلة فوجدت كلمتيك الأخيرتين . كتبت لك

من مسكت بيد أنه لم يتسن لي إرسال كلمتي . وعلى كل تجدها طيه . لقد تدبرت كلمتيك حول الشاعر المجهول . ولم يزدني ما فيها إلا إيماناً بما بسطت في كلمتي التي أشرت إليها أعلاه . الوقت ضيق والشواغل جمّة . فرجائي عذرك على (ال) كتابة التلغرافية .

دبي ٢٨ يونيو ١٩٣٩

تلميذك المخلص

علي

ثانياً؛ علي التاجر وجريدة البحرين :

أصدر عبدالله الزائد ، أول صحيفة في البحرين عرفت باسم (جريدة البحرين) ، وذلك عام ١٩٣٩ ، وكانت تصدر أسبوعياً حتى عام ١٩٤٤ وهي الفترة التي قامت فيها الحرب العالمية الثانية - وانتهت .

وقد ساهم في الجريدة كتاب من البحرين وخارجها ، ومن أهم أحداثها الأدبية السجل الأدبي الفريد الذي استغرق أكثر من ٣٥ مقالاً في الجريدة ، والذي دار حول تجربة الشاعر عبد الرحمن المعاودة ، الخاصة برباعيته الشعرية ، وشارك في هذا السجل مجموعة من أدباء البحرين والخليج العربي ، ومعظمهم تحت أسماء مستعارة - وذلك في الفترة ما بين ١٩٤٠ و ١٩٤٢ . مضى ذلك السجل الأدبي وتشعب حتى وضع نهاية له فضيلة الشيخ عبد الحسين الحلبي في العدد ٢٦ من فبراير ١٩٤٢ .

وقد اشترك علي التاجر في تلك المقالات النقدية ، بما لا يقل عن ثلاث مقالات ، وفيما يلي نقتبس بعضها بما أورده د . منصور سرحان في كتابه (النقد الأدبي) ابتداء من الصفحة (١٠٧) :

(من بين الذين دخلوا معترك السجل النقدي ، الأديب علي التاجر ، مستخدماً الحرف (ت) كإمضاء له . وشارك في ثلاث مقالات نقدية تحت عنوان (ثلاث كلمات فقط) ، نشرت الأولى في العدد (١٤٣) من السنة الثالثة .

الصادر في ١٧ نوفمبر ١٩٤١م رد فيه على مقالة القارئ (أنقد أم تهجم) ،
منتقدا تجربة المعاودة . بدأ مقالته النقدية بمدخل بسيط ذكر فيه : (. . قبل أن
نمضي معه في الحديث ، نريد أن نظمئنه على أن نقد ابن الرومي لأشعار المعاودة
نقد صميم لا تهجم . وآية ذلك أنه أكد صادقا أن ليس بينه وبين الأستاذ
المعاودة خصومة ولا صداقة . فليس له غاية شخصية تحيد به عن جادة النقد
الموضوعي إلى النقد الذاتي الذي قلما تسلم خطواته من العثرات . وقد رأينا
كيف كان نقده موجهها مباشرة لأشعار المعاودة ، لا لأشياء أخرى كثيرة يستطيع
أن يستغلها الناقد الذاتي ، كما فعلت أنت يا سيدي في نقدك لمقال ابن
الرومي ، فاطمئن من هذه الناحية) .

بعد هذه الافتتاحية راح يفند النقاط التي ذكرت في مقاله (أنقد أم
تهجم) مبتدئا ببيت المعاودة :

هامت الروح بواد من خيال
فتراءى لي من الحق ضلال

((فقد نقد ابن الرومي هذه الدعوى الزائفة - دعوى تراءى الضلال من
الحق - بما لا يدع قولاً لمكابر . فجئت سيدي تحاول نقض هذه الحقيقة الثابتة
الناصرية بقولك (أجل يترأى مقلدا رب العزة سبحانه الذي إنما أمره إذا أراد
شيئا أن يقول له كن فيكون) .

إن هيام روح الأستاذ المعاودة واكتواء قلبه بلوعة الحب - على حد قولك -
لا يبرر هذه الدعوى الزائفة التي يسري مفعولها للفلسفة والعلم . فيصح ترائي
الضلال من الحق . فالحق هو خلاصة العناصر الطيبة التي تقوم على أساسها
دعائم هذا الكون . فالفضيلة والخير والإيمان والحب والشرف والنبيل عناصر
تتمازج وتتحد في كلمة الحق ؛ ولهذا وصف الخالق نفسه بأنه الحق ، والحق هو ،
أما الضلال - والعياذ بالله - فكلمة أخرى لها معناها المغاير) .

وتناول في بحثه هذه الأبيات من رباعية المعاودة :

غض طرفاً وامش هونا إننا
لم نزل في غمرة من جهلنا
صاح إن الكون رمز عندنا
كفراش نحن حول النار حام

(فجئت يا سيدي - والكبرياء تنفخ برديك - تتساءل ، بأنه من المعلوم بأن المعري قبل الخيام ، وإيليا أبي ماضي ، وجبران ، ومينخائيل نعيمة ، كلهم شعراء معاصرون . فمن من هؤلاء أخذ هذا المعنى عن الخيام ، حتى يصح أن نقول إن الخيام أخذه عن المعري . ثم يبلغ الإعجاب عندك بنفسك حده . فتقرر بعجرفة ما بعدها عجرفة ، أن هذا السؤال خرج سيصم أذنه عنه .

هذه النقطة كنت أفضل أن أكتب عنها صفحات . ولكن سؤالك موجهها مباشرة لابن الرومي ، ولولا تلك العجرفة المعيبة التي استولت عليك فجعلتك تتنبأ مبدئياً أن ابن الرومي سيصم أذنه عن سؤالك لحراجه ! وليس في سؤالك أية حراجة بل ليست له أية مناسبة . فابن الرومي لم يقل - بل لا مبرر لأن تفهم عنه - أن الخيام اقتبس هذه الفكرة المبتذلة المنقولة عن المعري ، وإن كان المعري قبل الخيام . أو أن أحداً من شعرائنا هؤلاء اقتبسها عن الخيام وعن المعري أو عن أي أحد كان .

ولكن ابن الرومي عني أن كلا من هؤلاء الشعراء نظر لهذه الفكرة بمنظاره الخاص ، الذي يرقب به الحياة حسب سجيته ، فأصبح في شعره كائناً حياً تنبض بنفسه وتحقق بفؤاده . فالمعاني أو الأفكار - إن شئت - شائعة بين الناس ، وإنما تتفاوت مراتبها في السمو بما يسبغه الفنان عليها من روحه . وبعبارة أبسط ، تتميز قيم هذه المعاني بالنسبة للزاوية التي يتطلع منها الفنان . . .)

ثم . . . ينشر علي التاجر أو (ت) كلمته الثانية ، تحت العنوان الذي اختاره (ثلاث كلمات فقط) في العدد (١٤٤) من السنة الثالثة ، الصادر في ٤ ديسمبر ١٩٤١م ، حيث يبدأ بالتعاطف مع مقالة ابن زيدون من أن الخصام بين ابن

الرومي والمعاودة ليس خصاماً شخصياً ، ولكن حرب قائمة بين مذهب ومذهب وجيل وجيل ، وكل منهما له مقاييسه ومعداته الأدبية ونوع ثقافته» .

بعد هذه المقدمة يوجه نقده اللاذع إلى أنصار المعاودة وبخاصة ابن العميد : (وكنا نمنى النفس أن نرى أبحاثاً شائقة في الدفاع عن أدب المعاودة ، بعد أن استيقظت أقلام أنصاره اندفاعاً في الذب عنه . فقد دأب هؤلاء الفوارس العظام - بالتأكيد - ينزل واحد منهم للمعمعة كل أسبوع . ينشر ما في جعبته من شتائم ، ثم يتوارى حياءً من الناس ، بعد أن يكون قد تكشف لهم بما لا يرغب عليه ، وآخرهم هذا البطل العظيم (ابن العميد) ولكنه - خلافاً لسنة أسلافه العظام - يندرننا في (خطبة العرش) العظيمة التي قدمها بين يدي دفاعه العظيم المنتظر ، بالويل والثبور وعظائم الأمور . وأنه لن يكتفي بما كالم من سباب وشتائم فإنما هي تمهيد لما سيأتيها من الدواهي العظام .

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً
أبشر بطول سلامة يا مربع

ثم يتجه (ت) بعد ذلك ليواصل تكملة مقالته الأولى في الرد على المقالة (أنقد أم تهجم) : (وبعد . . . فقد ودعنا سيدنا (قارئ) عند نهاية الحديث عن النقطة الرابعة . فأما النقطة الخامسة فقد تلاشت شخصية ابن الرومي من التواضع في بحثها ، كأنما عز عليه أن يحارب في غير ميدان . فعلق على بيتي المعاودة :

أين هارون وأين الناصر
وزمان بذويهم ناصر
أين قيس قبلهم بل عامر
قد أحيلوا للشجيرات رماد

بقوله (وليس لهذا التساؤل من معنى سوى أن الخيام نفسه تساءل عن

جمشير ورستم وسهراب . ولا بد للمعاودة من التساؤل أيضا . وإلا فكيف تتم له المعارضة) فقد شاء له تواضعه - غفر الله له - أن يقرن اسم المعاودة إلى اسم الخيام في هذا الصدد ، والحق أن المعاودة (بريء) من هذه التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب ؛ فهو لم يستأنس بروح الخيام ، في بيتيه هذين ، وإنما استأنس بروح أخرى تغاير في طبيعتها روح الخيام ، روح تطالعا من أفواه الوعاظ في مثل قولهم في مقام التذكير (أين هاما وفرعون ؟ وأين عاد وشداد ؟ أين إرم ذات العماد) .

ونكتفي بهذا القدر مما كتبه علي التاجر في «جريدة البحرين» ، لنستعرض بعضاً من مقالاته في مجلة «صوت البحرين» ١٩٥٠م - ١٩٥٤م .

ثالثاً : علي التاجر ومجلة «صوت البحرين» :

ساهم علي التاجر مع مجموعة من الأسماء المرموقة في البحرين في هيئة تحرير مجلة صوت البحرين ، التي استمرت إلى ما يقرب من أربع سنوات منذ أواخر عام ١٩٤٩ إلى بداية عام ١٩٥٤ ، وبالإضافة إلى شئون التحرير والإدارة ، كتب مقالات عديدة في صوت البحرين منذ سنتها الأولى وحتى السنة الرابعة والأخيرة ، وكان يستعمل اسمه الصريح حيناً ، أو يكتفي بالتوقيع بحرف (ت) وحروف (ع . ت) أحياناً أخرى ، ولا نستبعد أنه كان مشاركاً في المقالات التصديرية تحت اسم (التحرير) أو عنوان «وخزات عاقل» ، أو تحت اسم «جهينة» وغيرها .

وقد ابتداءً أول كتاباته بمقالة افتتاحية ، بعنوان «استهتار» في العدد الرابع من السنة الأولى للمجلة ، فيها هجمة قوية شرسة شنها على مجلة الاثنين المصرية ، وعلى «دار الهلال» أو دار أبناء جورجي زيدان كما سماها ، وذلك لنشرها مقالاً يسيء إلى البحرين والخليج بعنوان : (اشتريت صديقي بمائة جنيه) ، يزعم كاتبه أنه جاء مع صاحبه إلى الخليج واختطف البدو صديقه ثم

باعوه له بمائة جنيه . . إلخ . . وكان لهذا الرد الجريء من علي التاجر صداه في البحرين والخليج .

كما كتب التاجر في صوت البحرين سلسلة مقالات مترجمة عن حضارة اليمن بعنوان (حضارة عربية تكشف عنها الرمال) ، وكتب في العدد الثالث من السنة الثالثة مقالا حول (رسالة الإسلام) ، وكتب مقالة عن «الحيتان» في العدد الخامس من السنة الأولى ، وذلك بمناسبة جنوح أحد الحيتان على ساحل المحرق . . . حيث دفعت الحكومة مائة روبية تعويضاً للصيادين في مقابل ترك الحوت على الشاطئ ليتفرج عليه الجمهور ، كما كتب سلسلة مقالات مترجمة عن عرب الطوارق (الرجال المثلثون والنساء السافرات) في صحراء الجزائر .

والذي يعني هنا مقال كتبه في العدد الخامس من السنة الرابعة بعنوان (شدّ . . يشدّ . . في المدرسة الثانوية . .) ، وقد تعرض فيه إلى محاضرة أقامتها المدرسة الثانوية بالبحرين ، وحاضر فيها أحد المدرسين الوافدين ، وكان بما قاله في المحاضرة . . . (إن العرب هم شذاذ الأفاق) ، مما أدى إلى استنكار أهل البحرين لهذا الوصف . . . وجاء رد علي التاجر في هذه المقالة التي نوردها هنا لمصلحة المهتمين بالتعرف على أسلوب التاجر في ذلك الوقت :

شدّ . . يُشدّ في المدرسة الثانوية :

أقامت المدرسة الثانوية بالبحرين ، حفلة أدبية في قاعة المحاضرات فيها ليلة الاثنين السادس من جمادى الأولى ، قرأ فيها مدرس الأدب العربي في المدرسة ، محاضرة بعنوان مشاكل الشباب ، اتسمت بالارتجال ، والسطحية ، وعدم الفهم ، والخروج عن الموضوع ، أو على الأصح عدم الدخول فيه إطلاقاً . فبدل أن يتحدث المحاضر عن مشاكل الشباب الرئيسية في العالم العربي ، وهي الإقطاعية ، والرأسمالية ، والاستعمار الأجنبي ، والاستبداد الحكومي ، والزعامة المضللة ، والفساد الإداري ، والانحلال الاقتصادي ، وما أشبه ذلك من الأدواء والمصائب ، التي تعاورت على كيان هذه الأمة ، تفتك به ، وتهد من بنيانه ، نقول بدل أن يتحدث المحاضر عن مشاكل الشباب الرئيسية ، عمد إلى الحديث

عن بعض المسائل الفرعية ، التي تنشأ عادة عن وجود المشاكل الرئيسية ،
مجتمعة أو منفردة ، وتزول بزوالها ، كأنما يرمي بذلك إلى صرف أنظار الشباب
عن الاهتمام بمشاكله الرئيسية ، والانصراف إلى التفكير في أمور ثانوية تافهة
قليلة القيمة .

لقد قصر الأستاذ محاضراته على دعوى الآباء الإحاطة بكل شيء ، أو
عداء الأجيال كما أسماه ، ودكتاتورية الآباء ، والتزمت الديني والسفور
والحجاب والطائفية . فتحدث عنها حديثاً مغسولاً ، متناقضاً ، يضرب بعضه
بعضاً ، ويكذب آخرة أوله . فمثلاً لقد أنكر فرض الإسلام للحجاب ، وقال في
معرض التدليل على هذا الرأي إن الإسلام أجاز للخاطب أن يرى وجه من يريد
الزواج بها قبل خطبتها . ومع أن هذا ليس مجال الأخذ والرد في هذه المسألة ،
ومع احتفاظنا برأينا فيها ، نود أن نسأل عن معنى الجواز إذا لم يكن ثمة من
خطر ؟ ولكنها الألمعية والإدراك النافذ . ثم أقحم في الموضوع تعليق «صوت
البحرين» في العدد الماضي على «حفلة المدرسة الثانوية بذكرى الرسول
الأعظم» ، إقحاماً لا مبرر له ، فوصم العرب بكل نقيصة ، وألصق بهم كل سبة ،
وأغدق عليهم ما جاد به معينه من الشتائم . ثم انتفتحت أوداجه ، وانتفش
ريشه ، وتوترت أعصابه ، وجحظت مقلته ، وصرخ في حركة مسرحية يحسده
عليها يوسف وهبي ، بصوت مبوح أخذ يتزايد علواً كلما تهادى به القول ، حتى
انتهى إلى ما يشبه الزعاق ، فقال - وكأنما اكتشف حقيقة من حقائق الكون
الخالدة : قال لا فض فوه ، ولا شمت به عدوه :

(أقول ، وأنا عارف بما أقول ، مدرك لما أقول ، عالم بتبعة ما أقول ، مصر على
ما أقول ، ولأذهب أنا وعقبتي إلى النار إن تراجعت عما أقول ، أقول هنا ،
وأتحدى ، لا متوارياً خلف صحيفة أو مجلة ، أقول : إن العرب شذاذ آفاق .)

وعند هذا الحدّ دوت القاعة بالتصفيق من الصفوف الخلفية ، صفوف
التلاميذ ، أبناء أولئك العرب الذين كرمهم المحاضر بهذا الوصف النبيل . أما
الصفوف الأمامية ، وفيها من غير العرب ، فقد أصيبت بما يشبه الوجوم . اللهم

إلا أستاذاً واحداً وطنياً من أساتذة المدارس الابتدائية !

وعندما أنهى الأستاذ محاضرتة ، دوت القاعة بالتصفيق ثم اعتلى عريف الحفلة المنبر ، فشكر المحاضر على محاضرتة القيمة ، وفتح باب التعليق ، فأسرع الشيخ دعيج الخليفة إلى المنبر فشكر المحاضر على محاضرتة القيمة ثم قال :
(ما وقفت لأعلق على محاضرة الأستاذ بشيء فهي قيمة ولها أهميتها ، إنما وقفت لأدفع تهمة وأصحح قولاً ؛ وهو أن المحاضر قد أتهم العرب أو بالأصح بل سب العرب إذ وصفهم بأنهم شذاذ آفاق ولم يكتف بالوصف بل أكد ذلك وتحدى من يعارض هذا القول ، وإنه ليعز علينا نحن حفدة أولئك الغر الميامين ، أن نترك مثل هذه التهمة تمر على أسماعنا دون أن نعرب عن اشمئزازنا واستنكارنا لها ، وبالتالي أن نصحح هذا الخطأ الذي ارتكبه المحاضر ، سيما في هذا الوسط المدرسي ، وبين طلاب يعز علينا أن تعلق بأذهانهم مثل هذه التهم ، التي هي ولا شك من أشد العوامل فتكاً في بناء الأمة إذ تزعزع الثقة ، وتبعث الشك في القدرة القومية على الخلق والإبداع ، وذلك خلاف ما تقصده التربية الصحيحة من توجيه الشباب نحو التطلع إلى مستقبل رائع وحياة سعيدة عزيزة ، تستمد متانتها وقوتها من ماضي العرب وتاريخهم القومي . هذه هي الأسس التي يجب أن نعمل على غرسها في نفوس إخواننا وأبنائنا الطلبة ، لا أن نسمح لأنفسنا بأن تتعامى عن إظهار الحقيقة ، فنجعل من أسلافنا (شذاذ آفاق) لا قيمة لهم ولا قدر . فالعرب كانوا قبل الإسلام من أشد الأمم حبا للخير وأكثرهم تعلقاً به ، وكانت لهم التقاليد السامية ، والصفات الإنسانية الرفيعة ، حتى جاء الإسلام فأتم ما كان ناقصاً ، ووجد ما كان متفرقاً ، وجعل منهم الأمة المختارة . أما هذا الوصف فلم نعرفه إلا منذ مدة وجيزة ، حين أخذ الشذاذ الحقيقيون يتهافتون من كل صوب وأفق على فلسطين ومحاولين اغتصابها واتخاذها وطناً لهم ، هؤلاء هم شذاذ الآفاق لا العرب الأمجاد ، فما عرفت الجزيرة العربية غيرهم ، وما عرف الأفق العربي قوماً سواهم ، وما اختار الله محمداً من بينهم إلا لأنهم أرقى الأمم وأعلاها وأرفعها عند الله شأننا ، وقد اختارهم الله ليختار

منهم نبيه . ويا حبذا لو عقدت المدرسة مناظرة بعنوان هل ساق الإسلام العرب إلى غير ما يحبون ؟ ليتسنى لنا إفهام المحاضر الحقيقة العربية) .

وقد وعد مدير المدرسة أن ينظم مثل هذه المناظرة .

وما كاد ينتهي حتى أسرع المحاضر إلى المنبر ، في حركة تجلي فيها الذوق السليم ، ولكن مدير المعارف الأستاذ أحمد العمران ، كان أسرع منه إلى اعتلاء المنبر ، فحاول المحاضر أن يزاومه عليه فصدده مدير المعارف عنه صدأً .

افتتح الأستاذ أحمد العمران كلمته بشكر المحاضر ، وأثنى على محاضراته ثناءً جزيلاً ، كما أثنى على كلمة الشيخ دعيج الخليفة ، ولكنه أسف للنتيجة التي انتهى إليها المحاضر ، وعقب على قوله بما يشبه الاعتذار ، بأن العرب في الواقع ما كانوا شذاذ آفاق .

وهنا دوت القاعة بالتصفيق ، ما عدا الصفوف الخلفية حيث يجلس التلاميذ . ثم أشار إلى إقفال باب المحاضرات في الثانوية ، واستبدالها بحفلات سمر أو ما أشبهه ، وأعلن انتهاء الحلقة . وما كاد ينزل عن المنبر حتى أسرع المحاضر إليه فاضطر مدير المعارف إلى مغادرة القاعة ، فاضطرب نظام الحلقة ، وتعالحت الاحتجاجات من كل جانب ، وساد الهرج والمرج ، وبدأ الحاضرون يغادرون القاعة في حالة أشبه ما تكون بالفوضى .

وقبل أن أخرج من القاعة كان أحد الإخوان يتحدث إليّ محتجاً على عدم السماح لمن يرغب في التعليق بالتعليق ، فقلت له لا زال في الوقت متسع ، فهناك وسائل أخرى . وكأنما كان المحاضر ، فقال : (لا ! هنا !) وأشار إلى المنبر . فاضطرت إلى أن أقول له : (ولكنهم لم يسمحوا بذلك) فسكت .

كنت قد سبق لي ، بعد أن فرغ المحاضر من قراءة محاضراته ، أن قدمت له بطاقة أسأله فيها عن معنى (شذاذ الآفاق) . ولكنه لم يستطع الإجابة عن سؤالي نظراً للحالة التي آلت إليها الحلقة ، فانتهزت الفرصة وأعدت عليه السؤال شفهاياً ، فقال :

نفعنا الله بعلمه :

(لورا جعت المنجد صفحة كذا !! ...)

أجل والله (لورا جعت المنجد !!) مدرس للأدب العربي ، يحمل شهادة جامعية في الأدب يستشهد في اللغة بالمنجد .

ولكن ما علينا : (لورا جعت المنجد صفحة كذا لوجدت أن معناها رعاة

الإبل المتنقلون . .)

وأقسم بالله إن جوابه كان صدمة قاسية لي ، لا لاختلافي معه في الرأي ولكن لهذه . . ماذا ؟ أأقول السطحية في التفكير ؟؟ هبه صادقاً في تفسيره (شذاذ الآفاق) بأنهم رعاة الإبل المتنقلون ، أفهل ذاك سبة وعار ينبزون بها ؟ هل الكفاح في طلب الرزق للمحافظة على الحياة منقصة ورذيلة ؟؟ ما حال هؤلاء التلاميذ إذا كان مدرس الأدب يمتاز بمثل هذه العقلية الفذة ؟؟

ومع ذلك فلم يكن لنا بد من قبول تحديه ، بكل تواضع ، على كره منا ، وعلى هذا فقد اضطررت إلى مراجعة المنجد !! على غير حاجة مني لذلك - كيلا أظلم الرجل ، بل راجعت ما استطاعت الوصول إليه يدي من القواميس العربية ، كأساس البلاغة للزمخشري ، والأفعال لابن القطاع الصقلي ، وتاج العروس ، والمحيط ، ومختار الصحاح ، والمصباح المنير ، والبستان ، وغيرها . فلم أجد في أي منها ما زعمه الأستاذ من تفسير (شذاذ الآفاق) بل لم أجد أي وصف من الأوصاف ، في مادة شذ يمكن انطباقه على العرب ، في أي قاموس من هذه القواميس . وها أنا أورد هنا ما جاء تحت هذه المادة في ثلاثة معتمدة منها بالإضافة إلى المنجد :

١- المحيط للفيروز أبادي :

شذَّ يشذُّ شذاً وشذوذاً : ندر عن الجمهور . وشذّه هو كمدّه لا غير : وشذذه ، وأشذّه . والشذاذة القلال ، والذين لم يكونوا في حيهيم ومنازلهم . والشذان بالكسر : السدر ، وبالفتح والضم ما تفرق من الحصى وغيره . وشاذ بن فياض . محدث ، واسمه هلال . وأشذ ، جاء بقول شاذ ، والشيء نحاه وأقصاه .

٢- أساس البلاغة للزمخشري :

شذ - شذ عن الجماعة شذوذاً : انفرد عنهم . وهو من شذاذ القوم : من الذين هم فيهم وليسوا منهم . وجاءني شذآن الناس : متفرقوهم .

٣- الأفعال لابن القساع الصقلي :

وشذّ الدابة شذوذاً : نفر ، والرجل عن القوم : خرج عنهم ، والشيء عن الشيء : مثله . وأشذذت الشيء : فرقته . وقيل شذذته ، وأشذذته ، بمعنى . المنجد : شذّ شذاً وشذوذاً : عن الجمهور أو الجماعة : ندر عنهم وانفرد . القول : خالف القياس . - عن الأصول : خالفها فهو شاذ ، شواذ ، والشذاذ من الناس : القلال . ومنه (جاؤوا شذاذاً) أي قلالاً . الذين يكونون في القوم وليسوا من قبائلهم . شذاذ الآفاق : الغرباء . (شذّه - شذاً وشذذه) صيره شاذاً . فأى هذه المعاني ينطبق على العرب في جاهليتهم ، يا مدرس الأدب العربي في ثانوية البحرين ؟

ومع ذلك فالعبرة في مثل هذه الحال ليست بألفاظ القاموس . وإنما بالمدلول السائد للكلمة زمن الاستعمال . وذلك لأن الكلمات تتسم بسمة من سمات الإحياء هي التطور مع الزمن . من ذلك إن كلمة : علق : تعني النفيس من كل شيء . ولكن مدلولها اتسع مع الزمن حتى أصبحت كصفة لرجل من الرجال تعني شيئاً بعيداً كل البعد عن النفاسة بل والرجولة . والغانية : هي المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة . ولكن أية امرأة طاهرة الذيل يرضيها أن يقال عنها غانية!

يلاحظ القارئ أن (شذاذ الآفاق) لم يأت ذكرها إلا في المنجد من بين القواميس الأربعة التي اقتبسنا ما أوردته من معاني (شذ) . والمنجد قاموس معاصر فمن أين جاء بها ؟

في الواقع أن جميع القواميس التي رجعنا إليها ، والتي ذكرنا قسماً منها آنفاً ، لم تذكر هذه (الاستعارة) Idiom إطلاقاً ، ما عدا المنجد . ونحسب ، والله

أعلم ، أن أول من وضعها هو الحريري في المقامة ((الواسطية)). وقبل أن أفسر المعنى الذي قصد إليه الحريري بها ، أورد القطعة التي جاءت فيها . قال رحمه الله :

((حكى الحارث بن همام : قال : الجاني حكم دهر قاسط ، إلى أن انتجع أرض واسط ، فقصدتها وأنا لا أعرف بها سكناً ، ولا أملك فيها مسكناً . ولما حللتها حلول الحوت في البيداء ، والشعرة البيضاء في اللمة السوداء . قادمي الحظ الناقص ، والجد الناقص ، إلى خان ينزله شذاذ الآفاق ، وأخلط الرفاق ، وهو لنظافة مكانه ، وظرافة سكانه ، يرغب الغريب في إيطانه ، وينسيه هوى أوطانه . . .))

وأحسبني في غير حاجة إلى القول إن الحريري عنى بها الغرباء في البلاد لا تصلهم بها صلة سابقة ، دون أن يقصد بذلك إلى شيء من الدّم . وهل ثمة أكثر غربة في البيداء من الحوت ، ذلك الحيوان الذي لا يعيش إلا في الماء ؟ ثم أطلقها العرب مؤخرأ على اليهود لما أخذوا يتساقطون على فلسطين تساقط البلاء من كل بقعة ، وينسلون إليها انسلال الأفاعي من كل أفق ، خليطاً من الأمم والشعوب ، فاكتسبت بذلك في أذهان العرب معنى أسوأ من معنى البلاء وأبشع من معنى الوباء . وعلى هذا فإن (شذاذ الآفاق) بمعناها الأول ، قد يصدق إطلاقها على أي شعب من الشعوب ، أو على الشعوب جميعها ما عدا العرب وحدهم ، وخاصة إن صدقت النظرية التاريخية القائلة بأن جزيرة العرب كانت مهد الجنس البشري ومنها هاجرت جميع الشعوب ، في موجات متتالية على مدى الأزمان ، لتتأثر بالبيئات الجديدة التي اتخذت لها أوطاناً فيها ، وتنسى وطنها الأول مع الأيام ، أما إذا لم تصدق هذه النظرية فيبقى مع ذلك وصف العرب بشذاذ الآفاق أمر لا يمكن أن يصدر إلا عن عقل مريض ونفس مثقلة بمركب النقص . إن هذا الوصف لا يمكن أن ينطبق على العرب بأي حال من الأحوال والسبب بسيط جداً . هو أن التاريخ - أي تاريخ - لم يسجل هجرة واحدة أجنبية من الخارج إلى جزيرة العرب ، ولكنه سجل

عكس ذلك عدداً من الهجرات العربية انداحت في صورة أمواج عارمة من الجزيرة إلى الأقطار المجاورة ومنها مصر .

وبعد فلعل القراء قد أدركوا الهزل الذي قصدنا إليه من هذا الحديث اللغوي ، فإن من لا يفهم أقواله ذاتها ، لا يستطيع استيعاب مثل هذا الحديث . إنني لا أتجنى في هذا القول ولا أبالغ ولكنني أقدم الدليل ، لقد جاء في قصيدة للأستاذ البيت التالي :

نجيب والله للإسلام أرسله
من عالم النور جبريلاً وقرآناً

فما معنى هذا الكلام ؟ ما معنى هذا الإسفاف الممقوت الذي يأباه الخلق الكريم وينكره الذوق الأدبي المعاصر ؟
أصحیح أن الله أرسل نجيباً للإسلام جبريلاً وقرآناً ؟ أكان الإسلام بدون قرآن حتى يرسل الله نجيباً له قرآناً ؟ أم ناقصاً حتى يتمه بقرآن آخر ، هو نجيب ؟ وما معنى قوله تعالى إذاً : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ ؟

وما حكم القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ للمسلمين هدى ونوراً ، بعد أن أرسل لهم نجيباً قرآناً ؟ هل نسخ أم ألغى ؟ ومن هو رسول الله الجديد الذي أنزل عليه القرآن الجديد الذي هو نجيب ؟ أم هي الفاظ يهرف بها مدرس الأدب العربي في ثانوية البحرين ، دون أن يفقه لها معنى ؟
نحن نعتقد أنها ألفاظ لا يعني بها الأستاذ شيئاً وإلا فليلق علينا محاضرة أخرى ، يفسر لنا فيها هذا الدين الجديد !

وعلى كل فهذه فرصة تتيح لنا أن نتحدث في أعداد قادمة عن أوضاع العرب في الجاهلية ، وأوضاع الأمم التي عاصرتهم ، لنرى أن الله لم يختر محمداً من بين العرب اعتباطاً أو ارتجالاً أو عن طريق الصدفة ، وإنما اجتباهم لهذا الشرف اجتباءً ؛ لحكمة بالغة لا تخفى على من له إلمام يسير بالتاريخ العالمي

الصحيح لذلك العصر .

ونريد أن نقول منذ الآن إن حديثنا لن يتسم بالعصبية العنصرية أو بالعاطفة القومية ، ولن نهدف فيه إلى الغض من شأن أي أمة من الأمم ، على حساب العرب ظلماً وعدواناً ، ولن ننسب للعرب فضيلة واحدة إلا إذا قام الدليل القاطع عليها ، وسنتحدث أول ما نتحدث عن مساوئهم ، ونشبع الحديث عنها تفصيلاً ، ولكننا لن نظلمهم كما لن نظلم غيرهم ، وسيكون رائدنا القرآن وسنة الرسول الكريم الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، وسنشير إلى كل مصدر حين الاستشهاد به .

فإذا كابر بعد ذلك مكابر في النتيجة التي نصل إليها فعليه إثمه ، فحسبنا أننا أنصفنا الحق .

وبعد فقد بقي أن ندلي بملاحظتين . الأولى هي أننا قد درجنا وكنا نفضل الاستمرار - على التوقيع بأسماء مستعارة ، لا خوفاً من النقد ، ولا فرقا من المسؤولية ، فمن البديهي أن أسرة تحرير أية مجلة تتحمل ، مادياً وأديبياً ، مسؤولية ما ينشر في تلك المجلة بتواقيع مستعارة ، ولكن صدوفا عن الشهرة ، وإنكاراً للذات . أما وقد ألبأنا الأستاذ إلى التحدي ، فسنخرج كارهين ، هذه المرة على تلك السنة التي لم نخرج عليها من قبل سوى مرات معدودات .

أما الملاحظة الثانية فهي أن تكالب بعض الناس على الشهرة من أهون السبيل ، يدفع بهم إلى اتخاذ ظهور قوميتهم ، ودينهم ، وتاريخهم ، مطايا لها ، ولهذا فقد أغفلنا في هذه الكلمة ذكر بعض الأسماء لنفوت عليهم الفرص .
هدانا الله والأستاذ إلى الخير ، وأنجاه وعقبه من النار .

علي التاجر

علي التاجر... إطلالة تاريخية من دولة الإمارات:

أوقع اضطرار علي التاجر مغادرة البحرين في نفسه حرجا بالغاً ، وهماً على مصادرة مكتبته الخاصة في البحرين ، أوائل الستينات من القرن الماضي ...

حتى استقر في دبي الشقيقة ، واستفادت دولة الإمارات من ولعه بالتاريخ ، وألحقته بدار الوثائق والمخطوطات في أبوظبي ، مسئولاً وباحثاً خلال السبعينيات ؛ وقد سافر لأداء مهمته إلى عدد من البلدان ، منها جمهورية مصر العربية للبحث عن الوثائق التاريخية ، لاسيما ما سيتعلق منها بالحملة المصرية على الحجاز والجزيرة العربية والخليج العربي .

ولا مجال هنا لاستعراض ما قام به التاجر من نشاط خلال عمله في دار الوثائق والمخطوطات ، التي استقال منها بداية الثمانينات على الأرجح ، ومن خلال ما استطعنا الحصول عليه من معلومات فإنها تشير إلى ما يلي :

١- تقدم علي التاجر في نوفمبر ١٩٧٩ ببحث إلى الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية . . وموضوع بحثه هو : (مناقشات حول ابن ماجد) .

٢- أصدر الكتاب السنوي الثاني للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية ، والذي يحتوي على مائه صفحة . وذلك تحت عنوان (الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي في القرن السادس عشر) .

٣- كتب سلسلة مقالات تاريخية مطوّلة في التحقيق حول الربان أحمد بن ماجد ، وذلك في مجلة العرب الشهرية الصادرة عن دار اليمامة بالرياض ابتداء من عدد ديسمبر ١٩٧٠ - وبين يدينا ستة من تلك البحوث القيمة ، ولا يستبعد أن تكون نشرت له أبحاث تاريخية أخرى في مجلات عربية في دمشق أيضاً .

وختاماً . . . نكتفي بهذا الاستعراض حول كتابات علي التاجر في البحرين وخارجها ، على أمل أن يواصل المهتمون بأثاره إزالة الغبار عن باقي تراثه الفكري والأدبي والتاريخي .

... علي التاجر.... مع نادي العروبة....

- ٤ -

لم يكن الأستاذ علي التاجر حاضراً عند تأسيس النادي عام ١٩٣٩ ، بسبب أسفاره ربما ، ولكنه كان من أهم الفاعلين في أنشطة النادي الثقافية والتوجيهية ؛ وقد كان بطبعه عازفاً عن المناصب ، لكنه قبل الاشتراك في مجالس إدارة النادي تولى علي مفضل النيابة عن أمين السر ، الأستاذ حسن الجشي في بعض الأحيان . وقد عرف عنه موقف مبدئي كان يتمسك به بالنسبة للمكتبة والكتب ولم يحد عنه . كان يطالب بأن يفتح النادي الأقفال عن خزنة الكتب ، ويبرر ذلك بالقول إذا لم يرجع أحد الأعضاء للنادي كتابا استعاره واحتفظ به يكون النادي قد أفاد عضوا واحداً على الأقل من قراءة كتاب ، أما إذا بقيت الكتب خلف الأقفال فإنها تصبح كالمومياء الميتة ، لا يستفيد منها النادي ولا من خارجه كمثل الحمار يحمل أسفارا

وفي كتابي عن النادي : «نادي العروبة وخمسون عاماً» ، تحدثت عن خصوصيات الأستاذ علي التاجر في النادي ، وذلك فيما يلي من مقتطفات عن فترة الأربعينات من القرن العشرين :

١- حفلات النادي...

... ويفتح رئيس النادي المرحوم محمد دويغر هذه الحفلات - عادة - بإسداء النصائح بأسلوب إذاعي رصين ، والتشديد على أهمية الأخلاق في نهضة الأم ، وواجبات الشباب المتعلم تجاه المجتمع ، فيتقبلها الحاضرون بالرضا

وبهز الرؤوس بين حين وآخر ، وسرعان ما يعقبه أمين السر الأستاذ حسن الجشي ؛ فيساهم أسلوبه المتقن وأفكاره المعارضة للجمود ، الداعية للتطوير والانفتاح على مفهوم العروبة الأوسع ، في رفع درجة الحماسة عند البعض وتوتر الأعصاب لدى الآخرين . . . فإذا صادف وأن تلاه في الخطاب الأستاذ علي التاجر خيل إلى الحاضرين عندئذ أنهم يواجهون بركاناً يقذف بالحمم ، من جراء صراحة الألفاظ والنقد اللاذع ، ودفقات الحماسة كال موج العاصف ، يغشاه موج من فوقه موج أكبر منه اتساعاً . . . ويقدر ما تتوالى الصدمات تتسع الأفواه المشدوهة حتى إذا أكمل حديثه لم يجد منظمو الحفل بدا من تلطيف الجو ، باستراحة للمرطبات أو قصيدة (رومانسية) من شعر المرحوم الأستاذ السيد رضى الموسوي من مثل :

(انثروا فوق صفحة الدهر أزهاراً

يفح ريحها مع الإشراق)

والأستاذان حسن الجشي والموسوي غنيان عن التعريف . . . أما الأستاذ علي التاجر فلم يعرف عنه أنه كان يقول الشعر أيضاً . . . لولا ما سجلته حفلات نادي العروبة - على حد علمي - وعسى أن يعذرني إن أشبعت فضول القارئ بإيراد شيء مما وجدته في مناسبة من هذه المناسبات ، منذ سنة ١٣٦٠ هجرية (١٩٤١) ميلادية .

نحن في مهمه تهاجمنا
الأحداث فيه بكل باغ غدور
عزل لا نطبق أن ندفع الضميم
فنلوي بشره المستطير
خنع لا طموح للمجد يحدونا
فنطوي برد الخنوع المرير
خمدت في صدورنا جذوة الدين
فتاهت عقولنا في القشور

وتلاشى الإباء فيها تلاشي النور
في لجة من الديجور
آه لو تبعت الحياة ضيائها
ثانياً في نفوسنا والصدور
لجعلنا هذي الحياة نعيمًا
وفضحنا أسرارها بالنور

٢- هواية علي في النادي :

«وإذا كنت غافلاً تقرأ في صحيفة دون أن ترفع رأسك ، وسمعت صوتاً عصبياً عالياً موسيقي النبرة ، فذلك صوت الأستاذ حسن الجشي ، أما إذا سمعت جملاً قصيراً ضخمة ينتهي معظمها بكلمة (هامبغ) الإنجليزية ، فذلك هو الأستاذ علي التاجر ، أما صوت الأستاذ إبراهيم العريض ونبراته فهما مميزان لدى معظم الأعضاء ، من أسلوبه الهادئ الحاني الرقيق ، تتخلله عبارة (يا إبنى) والأستاذ نادراً ما يغضب .. فإذا فعل فإنه يزار زئير الأسد فيصمت المتجادلون ! ومعظم أعضاء مجلس الإدارة كان دأبهم النقاش دائماً والحضام أحياناً ، ولا يجمعهم رأي واحد ، اللهم إلا في مواجهة الخطر المشترك ؛ وهو في الأغلب أحد الأشخاص من المتعصبين للرأي القديم أو أحد (المعممين) أي رجال الدين ، الذين يأتون لزيارة النادي أو يضعهم حظهم في طريق أحد الأعضاء وهو داخل إلى النادي فيعزم عليه بالدخول معه» .

«ويترامى إلى سمعك وأنت تصعد بشيء من المشقة درجات السلم العالية الصراخ متعالياً من غرفة السطح المخصصة لمزاولة الألعاب الداخلية ، وأول من يواجهك عادة في هذه الغرفة الأستاذ علي التاجر ، والسيد عباس العلوي في صراعهما الأبدي على لعبة (نرد الطاولة) ، وهما يلعبانها بمهارة وسرعة نادرتين ، ولا يمنع ذلك أحدهما أو كليهما من مشاركة الآخرين في تناقل الأخبار أو تشجيع اللاعبين أو تحدي من يلاعبه .

والأستاذ علي التاجر كان يحتفظ بمناقشاته التي لم تكتمل على ما يبدو في قاعة الجلوس إلى هذه الفرصة ؛ إذ يقوم بمجادلة جمهرة من الأعضاء وهو بمفرده ؛ فيستدير لكل منهم على حدة حتى يسكته بكلمة (طق) ، ثم يعود للآخر وهكذا دواليك . ومواضيع الساعة التي غالباً ما تكون مثاراً للجدل هي من مثل الملك فاروق وأحزاب مصر ، والعرش الهاشمي وأحداث فلسطين ، ونوري السعيد والهلال الخصيب ، فإذا استنفدت الأحداث السياسية فهناك النقاش حول المفهوم الحقيقي للدين ، وتأييد آراء مجلة الأنصار المصرية حول العروبة والإسلام إلى غير ذلك .

وكان الأستاذ علي يلعب الشطرنج في بعض الأحيان ، وقد تعلمت هذه اللعبة بسببه ، أما الآخرون في غرفة الألعاب فتجدهم منشغلين بلعبة (الدائمة) أو (الدمينو) ولكن اللعبة المفضلة لدى جمهور رواد النادي وكان بطلها أحد أبناء التاجر دوئماً منازع ، هي طاولة (الكيرم) ، وهي لعبة لا يميل إليها المفكرون عادة كالأستاذ علي التاجر ، لما تثيره من شغب وعبارات صبيانية ، وكانت تسبب لإدارة النادي صداعاً مزمناً ، وقد استقال بسببها الأستاذ علي من النادي حتى تم إقناعه بالعدول عن الاستقالة .

٣- علي التاجر وأنشطة النادي :

لقد ساهم علي التاجر بدوره في إحياء حفلات النادي الداخلية والعامية . ورغم أنه كان متقاعداً - باعتزافه هو - في المشاركة الدائمة ، إلا أن كلماته تمتاز معظمها بالصراحة والعمق والنقد الحاد ، وفي الفترات الأولى كانت مساهمته تتجاوز النشر إلى الشعر أيضاً ثم ما لبث أن توقف عن الشعر . . . ولكن بما أن المذكور تسلم أمانة السر وتحدث عن سيرة النادي وأحداثه ، فقد رأينا من المفيد إلقاء الضوء على تلك المعلومات والآراء التي لا تنقصها الصراحة ، لنكمل لدى القارئ صورة النادي خلال تلك الفترة القريبة من عام ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤) ، وهي من بين التقارير التي كان يلقبها تحت عنوان (من شهر إلى شهر) .

«إخواني :

منذ أن أسندت إلي نيابة أمانة السر ، ألزمت نفسي أن أتحدث إليكم عن سير النادي مرة واحدة في كل شهر مستعرضا الخطوات التي نخطوها لنرى أين نحن من أهدافنا ، وأول ما أبدأ به هو أخي وصديقي الأستاذ حسن الجشي أمين سر النادي وسفره إلى مصر للدراسة .

تولى حسن أمانة النادي منذ تأسيس النادي ؛ فخطا به خطوات موفقة ، لا أقول إنها حققت الكثير من أهدافنا الجسام ، ولكني أقول إننا بفضل هذه الخطوات استطعنا أن نحدد أهدافنا ونوضح غاياتنا ، بعد أن كانت أحلامنا مبهمة وأمالا غامضة ، وهذا هم كبير أهنئ أخي حسن وأهنئ أولئك الذين عاضدوه على تحقيقه ، فأعمالنا منذ ذلك اليوم على ضالكتها لا تذهب سدى ، في سبيل الأوهام وإنما هي وسائل وسبل إلى غايات نفهمها ونعرف قيمتها» .

ويمضي الأستاذ علي التاجر في حديثه بعد ذلك ، فيتطرق إلى أخبار حسن الجشي ، ويقارن بين نشاط حسن وحركته الدائبة وبين خموله - بين الشعلة المتوهجة وبين البرودة التي تهيمن على أوصاله . ويعزو قبوله بالحلول مكان حسن إلى إصرار أعضاء النادي وحسن ظنهم ، ثم يندرهم بأنه لن يكون مسئولا عن الفتور الذي يصيب النادي بسببه ، إلا إذا أيدوه جميعاً بمساعداتهم وحبوه بأرائهم ، ثم يقول بعد ذلك : (وإني ألتمس منكم جميعاً أن ترجموا أعضاء الإدارة - وأنا معهم - بالحجارة إذا رأيتمونا توانينا يوماً في أداء واجبنا) .

ومع التحذيرات التشاؤمية التي أسهب في عرضها على الأعضاء الأستاذ علي التاجر في كلمته المشار إليها ، فإن ما حملته تلك الكلمة / التقرير لا يوحي بهذا التشاؤم بل يدل على العكس : ففيها يذكر أن مجلس الإدارة قرر في هذا الشهر تأليف لجنة للتمثيل والخطابة وشرح مهمتها كالآتي :

(مهمتها ترشيح الخطباء والإشراف على تهيئة المواضيع والكلمات ، وتدريب الأعضاء على الإلقاء والإشراف على إخراج الروايات التمثيلية ، وتدريب الممثلين ، وقد قررت هذه اللجنة تمثيل رواية قصيرة للأعضاء فقط وهي

قيد الإخراج وستشاهدونها قريباً) .

كما ذكر أيضاً أن الإدارة وضعت صندوقاً للاقتراحات ، وسيتولى أمين السر عرض تلك الاقتراحات التي يدلي بها الأعضاء على المجلس ، واستعراضها بعد ذلك مرة في الشهر في الاجتماعات الداخلية لمناقشتها بمنتهى الحرية وفي اليوم نفسه الذي وضع فيه صندوق الاقتراحات ألقى فيه العضو عبدالعزیز محمد القاضي اقتراحات صريحة ، ثم قام علي التاجر بالرد عليها مثنياً على تلك الصراحة ، باعتبارها من النقد البناء الهادف ، وموجز الرد كالآتي :

- ١- إن هيئة النادي لم تكن تقصد من وضع الصندوق أن يتملقهم الأعضاء بالثناء على جهودهم ، وإنما لكونهم يرحبون بالنقد في سبيل تطوير النادي .
- ٢- إن عدم انتظام ورود الصحف والجرائد سببه عدم انتظام البريد ، وإن اقتراحه بهذا الصدد وافقت عليه الهيئة وتقوم بتنفيذ ما وسعها منه .
- ٣- إن الهيئة الإدارية طلبت من الشاعر الكبير الأستاذ إبراهيم العريض في عدة مناسبات أن يتحدث في دروس الثقافة العامة عن بعض المشاهير من شعرائنا المعاصرين ؛ فتحدث حتى الآن عن أربعة منهم هم في القمة من شعرائنا المعاصرين .

٤- لقد قام القاضي بنقد حديث علي التاجر عن (مذكرات دجاجة) للدكتور إسحق الحسيني ، باعتباره قد أضاع الوقت في مثل تلك الثثرة ، ولكن علي التاجر لا يوافق على هذا الرأي ؛ لأنه أدرك قيمة الكتاب الاجتماعية - قبل أن تظهر نتيجة الاستفتاء الذي أجرته مطبعة المعارف - ناشرة الكتاب - والذي كانت نتيجته اختيار الكتاب ذاته على أنه أحسن كتاب في سلسلة (إقرأ) للسنة الأولى . . .)

ثم يختم التقرير بقوله : (من القرارات التي اتخذها مجلس الإدارة أخيراً جعل حبل الحفلات الداخلية متصلًا مرتين في الشهر بدل مرة واحدة ، وهذه الخطوات ستضاعف جهودنا في سبيل الرقي بالضعاف من أعضائنا) .

ولا يسعنا بعد عرض كلام الأستاذ علي التاجر إلا أن نختلف معه فيما

ذكره عن نفسه ، وأن نشيد بجهده الذي بذله أثناء تغيب الأستاذ حسن عن ساحة النادي في سفرته الدراسية إلى مصر .

وما دمنا ما نزال مع الأستاذ علي التاجر ودوره في التوجيه والخطابة وتوعية الأذهان ، فسواصل الاستشهاد بإيراد بعض النصوص من إحدى كلماته (خلال الفترة المذكورة أعلاه) ، لما نعتقده بأنها تلقي أضواء على نوعية ما كان يوجه في الحفلات الخطابية لأعضاء النادي من توجيه وتوعية .

وفيما يلي نص تلك الكلمة :

إخواني :

(نحن جميعا متساوون في صلة النادي بنا ، لا فرق في هذا بين كبير فينا سنا ومنزلة (بابا دويغر) وبين أصغر صغير فينا سنا ومنزلة ، أحيكم الصغير (علي التاجر) ، فلكل منا ذات الحقوق التي يتمتع بها الآخرون . وعلى كل منا أن يؤدي نفس الواجبات التي يجب أن يؤديها الآخرون ، هذا بديهي لا يحتاج إلى إقامة دليل أو برهان ، ولست أقصد إلى إقامة هذا الدليل أو البرهان ، ولكنني أقصد إلى شيء آخر ، أقصد إلى أننا في صلتنا بالنادي غير متساوين . نحن نتباين في هذه الصلة تبايناً شديداً . أريد أن أقول إننا غير متساوين في أداء واجباتنا نحو النادي .

فبعضنا يقوم بواجبه في أداء هذه الواجبات . وبعضنا - وهم الأكثر - يخل بواجبه فلا يؤدي هذه الواجبات . وواجبات النادي - أيها الإخوان - كثيرة . بعضها مادي ، وبعضها معنوي . وسأعرض لجانب من الواجبات المعنوية هو الجانب الفكري أو إن شئتم فقولوا الجانب الثقافي . فواجب على كل منا أن يفيد ويستفيد : أي أن يثقف فكره ويسمو بمداركه . ثم يسعى في تثقيف أفكار إخوانه أعضاء النادي . في هذا نحن طوائف شتى أستطيع أن أصنفها - إذا تساهلت وتساهلتم معي - في ثلاث طوائف ، الأولى تستفيد وتفيد ، أي تؤدي واجبها في هذه الناحية كاملاً ، وفي مقدمتها حسن الجشي وجعفر الناصر

وسيد رضى ، وليس لي إلا أن أشكرها على إدراكها لواجبها وسعيها المتواصل في القيام به .

وطائفة لا تستفيد ولا تفيد ، وهي الطائفة الثانية ، فهي لا تقرأ ولا تبحث ولا تفكر ، هي كالأرض السبخة إن بذرتها إذابت أملاحها البذور وإن أصابها مطر بخرته أشعة الشمس ، وبقيت أملاحها حيث هي وليس لدي ما أقوله عنها سوى أن أدعو الله لها أن يأخذ بيدها إلى سبيل الرشاد . أما الطائفة الثالثة وهي التي أخصها بهذه الكلمة فتنقسم في نفسها إلى ثلاثة أقسام ، قسم يستفيد وفي استطاعته أن يفيد ولكنه لا يفعل إذ غلبته الأناية والكسل على أمره ، فاستسلم للراحة واستنام للخمود . لهذا القسم أقول : حرام عليك أن تتغذى دون أن تقوم بعمل ما في سبيل هذا الغذاء ! حرام عليك أن يتولى النادي تثقيفك دون أن تقوم أنت بتثقيف من هم أصغر منك .

هذا قسم ، وقسم يستفيد ولكن استفادة محدودة فلا يستطيع أن يفيد . هو يقرأ ولكن للتسلية ، فلا تفكير ولا بحث ولا كتابة ، وخير له لو حاول أن يقرأ بجدية وحاول أن يفكر فيفيد غيره . ما قيمة من يعيش على هامش الحياة؟؟
والقسم الأخير يستفيد ويريد أن يفيد ، ولكنه لا يهتدي إلى كيف يفيد ، يريد أن ينتج ولكنه لا يعرف كيف وماذا ينتج ، لهذا القسم أقول إننا كلنا مررنا بهذا الدور ، حاولنا أن ننتج فأعيتنا السبل ، حتى هيا الله لنا من أحسن توجيهنا . والطائفة الأولى مستعدة إلى إسداء هذا القسم النصيحة وتوجيهه الوجهة الصحيحة .

أعرف أفرادا من هذا القسم يثلج صدري أن أذيع أن نفوسهم أخذت تتفتح كما تتفتح أكمام الزهور فتذيع عبيرها .

فرغبتهم في الإنتاج قوية ، ورغبتهم في البحث عمن يحسن توجيههم لا تقل عنها قوة ، جاءني أحدهم يوما قائلاً :

أنت تعرف أنه طلب مني أن أعد كلمة للاجتماع الآتي فقلت أعرف هذا فقال : لا أريد أن أخبرك هذا فإني أعرف أنك تعرفه ، ولكنني أريد أن أقول

إنني لا أدري ماذا أكتب ، فقلت له : إفتح عينيك جيداً وتطلع للحياة حولك فستجد مئات ومئات المواضيع التي تستحق أن تكتب فيها . إفتح أي كتاب واقراه أو اقرأ فصلاً واحداً منه بل صفحة واحدة ، ووازن بين نظرتك للحياة قبل قراءتك وبينها ، بعد أن قرأت أتعجب فيها فرقا لماذا ؟ صف شعورك النفسي من النتيجة . وغدا يظلك رمضان ويتغير منهج في الحياة اليومية ، فيمكنك أن تقارن بين حياتك وحياة من هم حولك في الأيام العادية ، بحياتك وحياة من هم حولك في رمضان . الجوع ، الإفطار ، مجالس القرآن ، المقاهي الصاخبة إلى ساعة متأخرة في الليل ، الطبال وأغانيه ، السحور والعيد المنتظر وتأثيره فيك وفي من حولك . الفقراء في رمضان وفي العيد . كل هذه مواضيع يستطيع الكاتب أن يسبغ عليها جلايبب من الفن ترفع بها إلى مجال الأدب الرفيع ، وجئته بعد يومين فقال : لقد حاولت أن أكتب فكتبت صفحة واحدة ، فقلت له أكمل ، وجئت في الغد فقال : لقد مزقت صفحة الأمس وأعدت كتابتها من جديد وهي خير منها بالأمس .

فقلت : حسنا فعلت فأكمل ، وأدركت أن شيطان النقد بدأ يرقص في دماغ صاحبي وفي اليوم التالي قال لي : لقد مزقت كذلك صفحة الأمس وأعدت كتابتها مرة ثالثة ، وهي أحسن مما كانت عليه أخيراً . فقلت له خيراً فعلت فأكمل . ولكنه لم يكمل . فقد ارتأى أن يقتبس موضوعاً هذه المرة يلقيه في الاجتماع ، نظراً لتصرم الأيام . ثم يتفرغ لموضوعه مرتاح الفكر . واقترح علي أن أقتبس له الموضوع وزارني ليكتبه . فلم يرض به . ومضى يتصفح أعداد مجلة أدبية كانت لدي حتى اختار منها بنفسه موضوعاً . وكتب له مقدمة قصيرة . ثم ناولني إياه ليستطلع رأيي فوجدته خيراً مما اخترته أنا . وأكبرت في صاحبي اثنتين : الأولى حسن الاختيار . والثانية : عدم أخذه أخذ أعمى دون ما تمحيص ما اخترته له كما يفعل كثيرون غيره ، لا شيء سوى مجرد كوني أقدر منهم . فإني أبشر هذا الفتى بمستقبل زاهر في دنيا الفكر إن استمر على استخدام فكره واستعمال قلمه .

وزرت أحدهم يوماً في دائرته ، وكان عهدي أن أجده يكتب قوائم كتابية لا تشبه في طبيعتها كتابة القوائم ، فتطلعت متطفلاً إلى ما كتب ، ورأني أختلس النظر إلى ورقته فناولني إياها باسم . الموضوع أثر الصيام في نفوس الشيوخ والشبان . قرأته فوجدت فيه عناصر الأدب جلية . الشعور متدفق والرغبة قوية والمحكمة متزنة ، فقلت له : أكمل فهل أكمل ؟

وزارني ثالث منذ يومين وهو من طبقة قد اجتازت هذا الدور ، فقد ألقى عدة كلمات في هذه القاعة ، وكنت قد أوعزت إليه أن يقرأ كتاباً سميته له فجاء يشكرني على اهتمامي به فقلت له : إن واجب النادي هو رفع مستوى الثقافة في البلاد ، وإحدى وسائله إلى ذلك هو رفع المستوى الثقافي لدى أعضاء النادي ، فنحن نراقب الأعضاء مراقبة شديدة ، حتى إذا رأينا في أحدهم استعداداً تعهدناه بالرعاية والاهتمام ، وقد وجدت فيك البذور الناجحة كما وجدها غيري ، فأصبح واجبي أن أقدم لك ما في استطاعتي من معونة لتقوم أنت أيضاً بقسطك في العمل . قص علي هذا الفتى قصة تكوينه الأدبي فلمحت فيها وفيما قرأت له من قبل أديب الغد الموهوب ، فهل يستمر في جهاده النبيل ؟ إن قصته تلك زاخرة بعناصر القصة الفنية ، التي يميل إليها هذا الفتى ، فهل يتولى كتابتها ، فما كتاب (الأيام) الخالد للدكتور طه حسين سوى قصة تكوينه الأدبي .

تلك بوادر تبشر بالخير ولعل خلفها جيشاً عرمرماً من أدباء المستقبل المستترين .

أجل تلك بوادر تبشر بالخير ، وتدعوني أن أهتف بهؤلاء الأدباء والمستترين أن ألقوا عنكم هذه الحجب وواجهوا أشعة الشمس . اتصلوا بإخوانكم قادة الطليعة ، تحدثوا إليهم فيما تفكرون فيه وجادلوهم فيما تتحدثون إليهم فيه ، حتى تتبلور أفكاركم ثم سجلوها كتابة وخذوا رأيهم بعد ذلك فيما سجلتم ، فكلنا سلكنا هذا السبيل ، وكلنا احتجنا إلى من يتولى توجيهنا ، أما ماذا تكتبون فليس بذي بال ، كل ناحية من نواحي الحياة تصلح للكتابة بل تصلح

أن تكون هيكلاً لعمل فني . أجل ليس مهماً ما تكتبون ولكن المهم كيف تكتبون . أعظم فكرة لا تكون ذات قيمة إلا إذا تناولها الكاتب بإحساس صادق ، وأفرغ عليها من نفسه ما ينفخ فيها روحاً جديدة . فأعظم الآثار الأدبية تدين بفطنتها للطريقة التي عالجها بها الفنان ، أما الأفكار فأشياء ثانوية ، فاتصلوا بالحياة وتذوقوا ما تقدمه لكم منبعاً للإلهام لا ينضب ، اتصلوا بالحياة فأنتم رجاء المستقبل وأنتم أمل الوطن .

علي التاجر

وأخيراً وفيما تقدم ، نأمل أن نكون قد أوفينا على قدر المستطاع الكتابة عن علاقة الأستاذ علي التاجر بنادي العروبة ، الذي أصبح جزءاً من حياته اليومية . وبذل من خلاله طاقاته الفكرية والثقافية في خدمة المجتمع في البحرين .

في رثاء الصديق علي التاجر

- ٥ -

عالم أنت ، يا علي جميل
وكثير الثناء فيك قليل
أنت بحر ، وساحل ، ورمال
وجنان خضر ، وظلّ ظليل
شعلة أنت من ذكاء وفكر
وحماس يقلّ فيه المثل
جمعت نفسك الطموحة أمالا
كبارا ... يشقى بها المستحيل
ونفوس الأحرار من همّها تصلى
بنار ... لا يصطليها الذليل
فاحتملت الأذى ، وفي النفس منه
حرج بالغ ، وهمّ ثقيل
وتنكبّت دارة وملاذا
ورحابا قد كنت فيها تجول
من صفات الكرام نلت نصيبا
وافرا .. والزمان فيك بخيل
ومنحت البحرين من حبّك الصبا
في نيميرا ، وماؤه سلسبيل

أكثرير بأن نعرزي «أوالا»
والمعرزي قرائح... وعقول!
هجرت سربها، وأجذب مرعاها
- على خصبه - وضاق السبيل

قد عهدنا فيك الشجاعة في
الرأي وفصل الخطاب فيما تقول
ورأيناك فارسا تلجم النخصم
إذا لجّ في الخصاص عدول
وقرأناك كاتباً مفعم الفكر
عليه من النبوغ دليل
ولك الشعر سائغا من قديم
قد عشقناه.. وهو كمّ ضئيل
كنت «صوت البحرين» حين
تنادي وزئير الأحرار... حين تصول
فلك الله... لذت بالصمت
لمّا لعلت ألسن، ودقت طبول
واقنحمت «التاريخ» تصلح منه
ما به ضللت رؤى وعقول
لهف نفسي على شبابك يذوي
ومشيب، قد اعتراه الذبول
وجرى فيك ما جرى من قضاء
الله... حتى طواك عنا الرحيل
لك منا الذكرى الحميدة، والغفران
يسنخو به العفو الجليل

ولنا منك سيرة الحمد نورا
في طريق ، واللّيل فيه طويل

**

غاية الحرّ أن ينال حياة
يسعد الناس ، خيرها الموصول
ليس تبقى للمرء غير سجايه
وأفعاله ، عليه دليل

الفهرس

5	الإهداء
7	لمحات من السيرة لتقي البحارنة
9	تقديم
11	الفصل الأول: واحة للاستراحة
13	صحافتنا . . . بين مد البحر وجزره
21	البحرين . . . وعشرة أعوام في مسيرة الإصلاح
25	البحرين بين غدوة طرفة ودنانير ابن المقرب وسيبوية الخطي
35	الهيم الطائفي
39	الجاهلية . . والنزعة القبيلة
44	حديث عن التراث
48	زمان لعبنا به
51	رمضان . . أيام الحرب
56	حديث النخلة
60	حكم وأمثال الشيخ عبد الحسين الحلبي
71	الشعر : فن وإبداع
80	البلاغة في نهج البلاغة
88	هذه «القلعة» . . ليست للبيع
97	من أدبيات الثورة العراقية
103	حكم وأقوال
106	أمثال الشريف الرضي
114	اليتمتان

- 121 القصيدة اليتمية لدوقلة المنبجي
 126 سيرة الخليفة عمر بن عبد العزيز
 130 عمر بن عبد العزيز دستور في الحكم والحياة
 135 عمر بن عبد العزيز الإنجازات ومكاسب الأمة
 141 أهل السنة . . . أهل الشيعة أين الوطن؟!
 143 العجلة والشيطان
 146 الأمن يتحقق بالمشاركة الشعبية

الفصل الثاني: ألوان

- 149 ذكريات عن الجامعات
 151 سؤال وجواب
 175 احتفالية منتدى الفكر العربي
 183 تحقيق ديوان أبي البحر الخطي المتوفى سنة ١٠٢٨ هجرية
 186 عاصفة الصحراء
 196 فن الترجمة - عمل صعب
 199 وفقة للتأمل ماذا يخبىء لنا عصر المعلومات
 201 وفقة للتأمل رؤية في الإدارة
 209 نادي العروبة الوجه الآخر
 218 ميثاق للعمل السياسي البحرين أنموذجاً
 227 دعوة لإنشاء مؤسسات وفقية مدنية
 233 ذكرى مرور أربعين عاماً على الثورة المصرية
 238 اتحاد العمل البحراني (للعمال والموظفين وأصحاب المهن الحرة)
 243 من ذكريات تقي محمد البحارنة

265	الفصل الثالث: ندوات
267	مداخلة في ندوة : حقوق المرأة
270	حول الإدارة والمدير
274	فضيلة الشيخ عبد الحسين الحلبي كتاباته ومنحوظاته
289	(من سواد الكوفة إلى البحرين) (مداخلة)
295	الشيخ أبو البحر جعفر ابن محمد الخطي
315	تاريخ وبدايات الأندية الثقافية في البحرين
345	تعريف بالأستاذ محمود رياض
348	ندوة في الاقتصاد

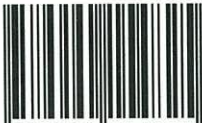
351	الفصل الرابع: سير وشخصيات
353	أحمد محمد الخليفة : الشاعر الذي فقدناه
358	الأستاذ حسن كمال كما عرفته
363	المستشار : شارلس بلجريف إداري حازم ونزيه لكن بعقلية تسلطية استعمارية محافظة
371	الأستاذ إبراهيم العريض أديبا وشاعرا وإنسانا
381	ذكريات الزمن الصامت : «مع الأستاذ حسن الجشي»
389	رثائي للمرحوم حسن جواد الجشي

393	في ذكرى الأستاذ علي محمد التاجر
395	الأستاذ علي التاجر كما عرفته
403	علي التاجر . . . بشهادة زميل
407	علي التاجر . . . مراسلات أدبية ومقالات ومحاضرات
428	. . . علي التاجر . . . مع نادي العروبة
439	في رثاء الصديق علي التاجر

أَحَادِيثُ وَسِيرٍ

في هذا الكتاب مقالات شتّى في شؤون الفكر والأدب والحياة ، وفي أحوال المجتمع في البحرين ، كتبها المؤلف بأسلوب أدبي ممتع لتكون بمثابة ااحة للاستراحة من تعب الفكر والفؤاد ، وفي سائر فصول الكتاب ندوات أدبية وثقافية وسير لشخصيات رائدة في مسيرة البحرين الثقافية وفي مجال العمل الوطني .
والمؤلف يزيح الستار بأسلوبه المميز عن وقائع أدبية وثقافية وشخصيات كان لها دور ريادي بارز في مجتمع البحرين ومنطقة الخليج العربي .
ويسر المؤسسة العربية للدراسات والنشر تقديم هذا الكتاب (أحاديث وسير) للقارئ العربي مساهمة منها في نشر الثقافة والتعريف بالجوانب الفكرية والثقافية في منطقة الخليج العربي ، ليكون في موضوعاته زادًا لكل مستزيد .

ISBN 978-99901-548-2-1



9 789990 154825

